

مَوْسُ وَعَاةٌ

الدكتور
حُضَيْنُ بْنُ حُمَيْرٍ
رئيس وزراء ماليزيا

المجلد الأول

اهـءاء 2004

ء.مءضفر بن مءمء

مالمزفا

مَوْسُوعَةٌ

الدكتور

مَحْمُودُ بْنُ مُحَمَّدٍ

رئيس وزراء ماليزيا

المجلد الأول

الإسلام
والأمة الإسلامية

الناشرون

دار الكتاب اللبناني

بيروت

دار الفكر - كوالالمبور

دار الكتاب المصري

القاهرة

دار الكتاب - ماليزيا

مَوْسُوعَةٌ

الدكتور

مَحْمُودُ بْنُ مُحَمَّدٍ

رئيس وزراء ماليزيا

● التَّرْجُمَةُ وَالْمُرَاجَعَةُ
لحبة من كبار المترجمين والأساتذة
المتخصصين من جامعات القاهرة والأزهر
والأسكندرية وعين شمس وحلوان.
د. عبدالرحمن الشيخ
د. ياسر شعبان
أ. فاروق لقمان
أ. طلعت الشارب
د. توفيق علي منصور
أ. أحمد محمود
أ. عبدالحميد دابو
د. رمضان بسطاويسي
أ. أحمد عبدالحميد
أ. محمد رشدي

1	الإِسْلَامُ وَالْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ	1
2	الْمَحَادِثُ	2
3	أَسْبَابُهَا	3
4	الْعَوَلَةُ وَالشَّرَاكَةُ الذِّكِيَّةُ وَالْحَكْمُ	4
5	مَالِدِيَّاتُهَا	5
6	الْعَوَلَةُ وَالْوَأَقِعُ الْجَدِيدُ	6
7	الْعِلْمُ وَالتَّكْوِينُ وَحَقُوقُ الْإِنْسَانِ	7
8	السِّيَاسَةُ وَالذِّمْرَاطِيَّةُ وَأَسْبَابُ الْجَدِيدَةِ	8
9	التَّنْمِيَّةُ وَالْمَعَاوُنُ الْإِقْلِيمِيَّةُ	9
10	قَضَايَا مَعَاصِرَ	10

دار الكتاب المصرك

٢٣ شارع قصر النيل تليفون : ٣٩٢٢٢١٦٨ / ٣٩٢٤٣٠١ / ٣٩٢٤٦١٤
القاهرة ص.ب: ١٥٦ عتبة الرمز البريدي ١١٥١١ - برقايا: كتا مصر - القاهرة
فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)
Fax: (202) 3924657 Att: Mr. Hassan El-Zein

دار الكتاب اللبناني

شارع مدام كوري - تجاه فندق بريستول - بيروت
تليفون: ٧٣٥٧٢٢ / ٧٣٥٧٢١ ص.ب. ٨٣٣٠ - ١١
بيروت - لبنان . برقايا: داكلبان - فاكسميلي ٣٥١٤٢٣ (٩٦١١)
Fax: (9611) 351433 Att: Mr. Hassan El-Zein

● جميع حقوق الطبع
والنشر والتوزيع
محافظة للناسرين
● يمنع الاقتباس والنقل
والترجمة والتصوير
والتخزين الميكانيكي
والإلكتروني في إطار
استعادة المعلومات دون
إذن خطي مسبق من
الناشر

DARULFIKIR - Kuala-Lumpur

العنوان:- 329B Jalan Abd Rahman Idris, off Jalan Raja Muda, 50300 Kuala-Lumpur
Tel:- 603-26981636 / 603 - 26913892 Fax:- 603 - 26928757

دار الفكر - كوالالمبور

First Edition 2004 A.D - 1424 H
I.S.B.N 977-238-738-7

الطبعة الأولى: ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م
رقم الإيداع ٩٧١٢/٢٠٠٣

المحتويات

- ١ - كرامة الأمة الإسلامية في خطر ٧
- ٢ - الإسلام والعودة ١٧
- ٣ - القوانين الإسلامية في العالم المعاصر ٢٩
- ٤ - مستقبل المسلمين في القرن الحادى والعشرين ٤١
- ٥ - أهمية الحج ومغزاه الحقيقي ٥٧
- ٦ - التجربة الماليزية .. دروس وعبر للأمة الإسلامية ٦٥
- ٧ - الارتقاء بمفهوم الإسلام وتعزيزه لدى وسائل الإعلام ٨١
- ٨ - دور الدين فى مجتمع متعدد الأديان ٩٥
- ٩ - دور الإسلام فى تشجيع وتعزيز التسامح والتحاوريين الأديان ١٠٧
- ١٠ - التعاون لإحداث التنمية بين الأمم الإسلامية ١٢٧
- ١١ - التسامح والإعتدال فى الإسلام ١٣٥
- ١٢ - مستقبل الأمم الإسلامية ١٤٩
- ١٣ - دروس وعبر من الماضى ١٥٩
- ١٤ - التعاون لأحداث النمو الاقتصادى ١٧٣
- ١٥ - استعادة أمجاد الأمة الإسلامية ١٨١
- ١٦ - الإسلام والأمة الإسلامية ٢٠١
- ١٧ - الإسلام لا يعوق التطور ٢٠٧
- ١٨ - العدالة الإسلامية ٢١٥

٢٣٩	١٩- الإسلام: الدين الذي أسىء فهمه
٢٥٩	٢٠- الإسلام وحركة الدعوة العالمية
٢٦٥	٢١- محنة الأمة الإسلامية
٢٧١	٢٢- بعث أمجاد الأمة الإسلامية
٢٨٣	٢٣- العودة إلى القرآن
٢٩٣	٢٤- دور الأديان وتأثيرها فى المجتمع
٣٠٥	٢٥- دور الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا
٣١٥	٢٦- الإسلام والعدالة
٣٢٧	٢٧- الفكر الإسلامى والحضارة
٣٣٥	٢٨- الإسلام والتصنيع
٣٤٢	- مفردات ومصطلحات

الفصل الأول

كرامة الأمة الإسلامية في خطر*

انعقدت الدورة التاسعة لمؤتمر القمة الإسلامي الذي يشكل منبرا يلتقى فيه قادة ٥٦ دولة وحكومة ، بالعاصمة القطرية ؛ الدوحة ، على خلفية الصمود الأسطوري للشعب الفلسطيني ، الذي يتصدى ببسالة نادرة لعمليات التقتيل البشعة التي تمارسها عصابات الصهاينة يوميا في فلسطين المحتلة ، مستخدمة القذائف والقنابل والمدافع والزخيرة الحية في مواجهة محتجين عزّل لا يحملون إلا الحجارة .

هذا الشعب يقدم تضحيات جسيمة تطول شبابه وأطفاله ونساءه ومسنيه ، وعلى نحو يومي في مقاومة شرسة من أجل انتزاع حريته وكرامته ، ودفاعاً عن الإسلام بطبيعة الحال .

لكننا للأسف ، نلاحظ أن الدول الإسلامية التي تشكل أكثر من ثلث أعضاء الأمم المتحدة ، تقف موقف المتفرج وعاجزة تماما عن فعل أى شيء لوقف هذه المجازر اليومية ، بينما إسرائيل مستمرة في تصعيد عمليات القمع والتقتيل ضد الفلسطينيين الأبرياء دون رادع أو عقاب . هذه الحملة الصهيونية الشرسة لا تستهدف بالطبع الشعب الفلسطيني وحده ، بل إنها تمثل تحديا لوحدة المسلمين واستهانة بكرامتهم أيضا .

ومما لا شك فيه أن مصير الشعب الفلسطيني مرتبط بالأمة الإسلامية كلها على نحو لا فكاك منه . ويعيش الفلسطينيون تحت احتلال يرفض تماما الاعتراف بحقوقهم المشروعة في الحرية وإقامة دولتهم المستقلة على ترابهم الوطني .

إن الحملة القمعية الواسعة التي يشنها الإسرائيليون على الفلسطينيين ما هي إلا حملة على المسلمين في كل مكان وبالقدر نفسه . وعليه فإن الدول الإسلامية لا يمكن أن تقف

* كلمة بمناسبة القمة الإسلامية التاسعة التي انعقدت بالدوحة في ١٢ نوفمبر ٢٠٠٠ م .

مكتوفة الأيدي تتفرج على عمليات القتل الإسرائيلية ضد الفلسطينيين والتي تجدد الدعم والحماية من بعض الأطراف . إن بإمكاننا نحن ، بوصفنا مسلمين ، التحرك باتجاه فعل شيء للجم الصلف والعنف الإسرائيليين وحماية إخواننا العزل في فلسطين .

وفي تقديري ، إن التطورات الجارية حالياً في منطقة الشرق الأوسط ، تستدعي تعزيز التضامن والتآزر بين أبناء الأمة الإسلامية نظراً لأن ما يحدث للفلسطينيين اليوم يمكن أن يحدث في أى وقت لأى شعب من شعوبنا الإسلامية . إن ما يجرى للمسلمين في يوغوسلافيا وفي الشيشان وفي مناطق أخرى من العالم ، لهو أبلغ دليل على ما ذهبنا إليه . فهل من الحكمة أن نقف مكتوفى الأيدي نتفرج على يجرى لإخواننا فى العقيدة فى تلك البقاع دون أن نحرك ساكناً إلى أن يلتهمنا الأعداء الواحد تلو الآخر؟

وبهذا الصدد ، فإن منظمة المؤتمر الإسلامى والقمة الحالية بصفة خاصة ، يمكن أن تلعب دوراً مهماً وبناءً على صعيد استقطاب الدعم للقضية الفلسطينية ، من الأوساط الإسلامية فى كل مكان والانتصار لها .

لابد من أن نرفع صوتنا عالياً وجليتاً لمناصرة الشعب الفلسطينى ، وهناك إجراءات عديدة يمكن أن نقوم بها لكى تصل رسالتنا هذه إلى كل مكان .

ومن بين تلك الإجراءات ؛ الالتزام الصارم بموقفنا الثابت بعدم تقديم أى تنازل فى وضع مدينة القدس الشريف ، باعتبارها مدينة فلسطينية على المستويين السياسى والتاريخى . ولا بد لنا أيضاً من أن نتمسك بموقفنا الثابت من قضية استعادة بقية الأراضى الفلسطينية والأراضى العربية الأخرى بما فيها الجولان السورية التى مازالت تحت الاحتلال الإسرائيلى .

إلى جانب ذلك ، ينبغى علينا أن نوفر كل أنواع الدعم للجهود المبذولة على أكثر من صعيد بما فيها مبادرات الأمم المتحدة ، الهادفة إلى إيجاد تسوية سلمية للنزاع العربى - الإسرائيلى وفى مقدمته القضية الفلسطينية وإنقاذ العملية السلمية لصالح السلم والأمن فى

منطقة الشرق الأوسط .

كما ينبغي علينا أن ندعم القيادة الفلسطينية أيضا بتقديم كل أنواع المساعدة الممكنة لها .

إننى على قناعة بأن انعقاد هذه القمة فى هذا الوقت بالذات ، موات تماما لاتخاذ موقف جماعى لمعالجة هذه المشكلة ودعونا نعمل بتناغم كمنظمة يجمع بين قاداتها حد أدنى من التوافق فى الرأى والمواقف وكقيادات ملتزمة دينيا ، لإيجاد حل للمسألة الفلسطينية . ودعونا أيضا أن نحمل تلك الجهات التى تتبارى لإدانة ممارسات قمعية مزعومة ، فى وقت تصمت فيه تماما عن التنديد بانتهاكات فاضحة لحقوق الإنسان تحدث على الملأ ، دعونا نحملها على الاعتراف بازواجية خطابها والإحساس بالحنج من هذا الموقف غير النزيه .

لقد قاتل الفلسطينيون بما فيه الكفاية وتحملوا من المأسى والنكبات والعذاب أكثر من طاقتهم ، وأن الأوان ليحصلوا على حقوقهم المشروعة بدعمننا نحن .

إننى على وعى تام بالتعقيدات التى يستبطنها دفاعنا وتجديد دعمننا وتأييدنا للقضية الفلسطينية . فبقدر ما نسعى لتقديم أنواع الدعم بكافة صورته لهم ، فإن العقبات المختلفة التى تخرج عن نطاق قدرتنا وسيطرتنا ستظل قائمة . وتقتضى الواقعية ألا نتجاهل القوة الإسرائيلية من الناحية السياسية والاقتصادية والعسكرية كما ينبغي ألا نقلل من خطورتها .

كما إننا بالقدر نفسه ، لا يمكن أن نتجاهل الانحياز الأمريكى المعلن لصالح إسرائيل ، والذى ساهم بتشكيل الأحداث والتطورات فى المنطقة ، والتى تفاقمت من عذابات الفلسطينيين ومآسهم .

لكل ذلك ، ينبغي أن تتسم تصوراتنا وحماستنا لهذه القضية بالواقعية التى تجعل من تطبيقها وتنفيذها أمرا ممكنا . وانطلاقا من موقفنا القوى الثابت من القضية الفلسطينية ووحدة هدفنا ، فإننى على ثقة بأننا سنمضى فى الاتجاه الصحيح ونحقق الأهداف المرجوة .

عندما دخل العالم الألفية الثانية ، كانت الحضارة الإسلامية في أوجها ونحن نعيش حاليا في الألفية الثالثة الميلادية . إلأننا ، ونحن في مطلع الألفية الميلادية الثالثة قد تراجعنا وأصبحنا في حالة يرثى لها من الضعف والهوان . في بداية الألفية الثانية كانت مراكز العلم والمعرفة في دمشق وبغداد وقرطبة وسمرقند ، فأين هي الآن؟

وبالمناسبة ، فإن البلدان الإسلامية كانت ومازالت تمتلك النسبة الغالبة من الموارد الطبيعية في العالم .

لكن بالرغم من ذلك ، فإن معظمها غارق في مستنقع الفقر والنزاعات الداخلية العنيفة . ونلاحظ أن النزاعات والحروب المسلحة بين البلدان الإسلامية بعضها بعضا ، أكثر من النزاعات التي تقع بين المسلمين وغير المسلمين .

وبالنظر إلى الأوضاع المتردية في البلدان الإسلامية ، وما حل بها من نكبات وكوارث ، فإن مفهوم «السلام والتنمية» الذي اتخذناه شعارا لقممتنا الحالية ، يجرى في وقته المناسب . ذلك أن هذه القمة تتيح لنا فرصة مناسبة لاستخلاص الدروس والعبر والتجارب من الماضي ، وتسمح لنا في الوقت نفسه باستشراف الرؤى والمفاهيم والبرامج الجديدة ، لإحداث التنمية في بلداننا الإسلامية . هذان الأمران لا بد من تناولهما بكل أمانة وشفافية ، علما بأن معالجتهم هي مسئولية جماعية تقع على عاتقنا كلنا .

دعونا في هذا المقام ننظر إلى كلمة «السَّلام» ، فقد وردت هذه الكلمة التي تشكل جزءا أساسيا من مقومات حياة الإنسان المسلم ، وردت في ثلاث وخمسين آية من آيات القرآن الكريم . هذه الكلمة «السَّلام» ينطق بها المسلمون في كل لحظة وفي كل ساعة وفي كل يوم وفي أى بقعة من بقاع العالم ؛ لأنها هي اللفظ الذي يحيون به بعضهم بعضا .

لذلك ، فإن من واجب المسلم أن يسعى إلى التمكين للسلام كأسلوب للحياة ، بما يمكن من إحداث التنمية . وبالمقابل فإن تصيد الأسباب لإفشاء الخصومات والحروب بين بعضهم بعضا ليس من الإسلام في شيء . إن السلام والتنمية تحديان متلازمان يواجهان الأمة

الإسلامية وهما متكاملان لا يمكن فصلهما عن بعضهما بعضا ، ولأن يتحقق واحد دون الآخر .

وبما أن منظمة المؤتمر الإسلامي قد أنشئت في الأساس لتعزيز فرص الوحدة الإسلامية والتعاون ، فإنها مطالبة ببذل جهود عملية في سبيل تحسين فرص السلام والتنمية وتعزيزها . بمعنى أن المنظمة مطالبة بالعمل الدؤوب والمنهجى للتأكيد على نشر وغرس ثقافة جديدة في الدول الإسلامية وبين المسلمين بعامة معنية بالسلام والتنمية .

لقد شهد العالم في زماننا تغييرا مهما لصالح صيغة «الاعتماد المتبادل» وقد بات جلياً أن مصالح متعددة الوجوه ولاعبين يقيمون إئتلافات واندماجات على أسس ديناميكية غير ثابتة ، يتحكمون في مصير العباد ، ونلاحظ في سياق هذا المناخ المستجد ، أن البلدان قد بدأت تغير جلودها ، وأن الأصدقاء والأعداء يتم صنعهم ويعادرسهم في المواقع حسب المصلحة ، ولم يعد أى شىء مغلقا ولا محرماً ، بل مفتوحا لكل التفسيرات والتغييرات والتحالفات ، في وقت تمت فيه إعادة صياغة أدوات لتحقيق رؤى وأهداف جديدة .

في ضوء هذه الحقائق الجديدة فإن التساؤل الحاسم الذى يطرح نفسه بإلحاح هو : هل منظمة المؤتمر الإسلامى قادرة على إعادة تحديد هويتها وتجديد نفسها لتفعيل دورها في معالجة التحديات والآمال المعلقة عليها ، وإعادة صياغة بنيتها الهيكلية ومنهجيتها ، بما يمكنها من بلورة استراتيجيات جديدة كفيلة بمعالجة التحديات المرتبطة بالسلام والتنمية؟

إن الصعوبات التى تواجه المنظمة ستفرض عليها ، عاجلاً أو آجلاً ، إعادة صياغة بنيتها المؤسساتية وآلياتها في العمل . ومادام الأمر كذلك فمن الأجدى أن تبادر المنظمة بالتحرك بأسرع وقت ممكن لإنجاز تلك المهام الضرورية ، ولا داعى للتأخير . ويقينى أن من حق الأمة الإسلامية على المنظمة أن تستعجل إنجاز هذه المهمة .

إن الصعوبات التى اعترضت مسيرة منظمة المؤتمر الإسلامى طوال الفترة الماضية ، ترجع في معظم الأحيان ، إلى تباين المصالح والخلافات الإيديولوجية بين الدول

الأعضاء ، إضافة إلى طموح بعضنا إلى الهيمنة على الآخرين . نحن مطالبون في الوقت الحالى بتجاوز سلبيات الماضى ، ومن المؤكد أن أحدا ما كان لينجح بفرض رؤاه وتصوراتاه على أكثر من مليار مسلم . ومن الأفضل لنا أن نقر ونقبل بأوجه الخلاف والاختلاف بيننا ، وأن نتركها جانباً لنركز على التعاون الجماعى المشترك .

فى ضوء الشعار الذى تنعقد القمة الحالية فى إطاره ، ينبغى أن تعنى عملية الإصلاح بتفعيل وتعزيز دور المنظمة ودعمه وبصفة خاصة على صعيدى السلام والتنمية فى البلدان الأعضاء والأمة الإسلامية بصفة عامة .

ولكى نضمن أن يكون تجديد المنظمة لنفسها ، منسجماً مع الأهداف والاحتياجات ، وأن يطور فى الوقت نفسه من فاعليتها وكفاءتها فى معالجة قضاياها ، فإن عملية الإصلاح لا بد أن تؤسس على إجماع جديد بين الدول الأعضاء حول دور منظمة المؤتمر الإسلامى ووظائفها الرئيسية وأولوياتها والمجالات التى يمكن أن تنجح بمفردها فى أدائها على النحو الأفضل ، وما يفترض فيها أن تتعد عنه ، تاركة أداءه للآخرين .

إننا ندرك تماماً مدى التعقيد والصعوبات التى تعترى هذه المهمة ، والتى يتطلب نجاحها إحداث تغيير فى بنية المنظمة ومنهجيتها فى العمل ، وهذا بدوره يتطلب تضافر مواقف الحكومات وجهودها مع الجهد الذى تبذله الأمانة العامة للمنظمة .

ومما لاشك فيه ، أن العولة الاقتصادية التى تطول تأثيراتها العالم كله وأوجه الحياة كافة بما فى ذلك المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، تجسد وجه وشكل العالم الجديد . ويقينى أن مفهوم العولة الذى يطرح علينا فى الوقت الحالى مخاطر وتحديات مخيفة ، يمكن أن يصبح إسلامياً (بمفهوم الإسلام للأمة) أكثر منه قطرياً ، كما يمكن أن يشكل قوة ديناميكية فعالة لتعزيز وتدعيم التعاون بين بلداننا الإسلامية ويوفر زحماً جديداً لدفع النمو والتنمية فيها إلى الأمام . هذه القناعة يمكن أن تتحقق متى ما ضمننا أن منافع العولة وإيجابياتها تشمل جميع الناس ، وأنها ليست محتكرة لصالح فئة قليلة مهما كانت المبررات .

وبما أن النشاط التجارى يلعب دورا مهماً ومتعاظماً فى التنمية الاقتصادية ، فإن الوقت قد حان للدول الأعضاء فى منظمة المؤتمر الإسلامى لتعزيز التعاون التجارى بينها وتوسيعه من خلال رفع الحواجز التى تعوق التدفق السلعى عبر حدود البلدان المنضوية تحت عضوية المنظمة . إن رفع الحواجز التى تحد من تدفق النشاط التجارى سيسهم فى إنشاء سوق ضخمة من الدول الإسلامية تتوفر فيها كل عناصر وعوامل الجذب لاستقطاب الاستثمارات الأجنبية المباشرة . كما يمكن بلورة برنامج علمى مدروس لترويج الاستثمارات الإسلامية المباشرة بين الدول الأعضاء فى المنظمة . ولا بد من الإشارة فى هذا المقام إلى أن الحصة الغالبة من الاستثمارات الأجنبية المباشرة تتجه إلى الدول المتطورة نظراً لتشابك المصالح والعلاقات بينها .

وبالعودة إلى خطة ترويج الاستثمارات الإسلامية فى الدول الأعضاء بالمنظمة ، فإن الأمر يتطلب تشجيع الرأسماليين المسلمين فى العواصم الغنية ، على توظيف استثماراتهم فى البلدان الإسلامية التى تمتلك المهارات والتكنولوجيا ، لكنها تفتقر إلى رؤوس الأموال . وبالمقابل يمكن للمستثمرين من البلدان الغنية وتلك التى ينقصها رأس المال ، أن يشكلوا مجموعات استثمارية « كونسورتيوم » للاستثمار فى الدول الإسلامية الغنية بمواردها الطبيعية التى ينقصها رأس المال والمهارات والتكنولوجيا . ونذكر أن نسبة كبيرة من السلع والبضائع التى تستوردها الدول الإسلامية يمكن أن يكون مصدرها بلدان إسلامية أخرى وبالجودة والكلفة نفسها .

لكن لا بد لنا من أن نذكر أن جذب الاستثمار الأجنبى والاستثمار الإسلامى المباشرين ، وإنشاء الصناعات فى الدول الإسلامية ، يتطلب فى المقام الأول ، توفر بيئة استثمارية جاذبة ومغرية . هنا لا بد من أن ننوه وننوه إلى الآثار السلبية التى تترتب على محاولات بعض الجهات تغيير الشروط التى يتم الاتفاق عليها عند إبرام الاتفاقيات التى تحكم الاستثمار ، وهو أمر غير مقبول مهما كانت الأسباب ، بما فى ذلك التغييرات السياسية ؛ لأن

ذلك يهدد الاستثمارات القائمة ويقوض استقطاب فرص جديدة .

لقد ظل البنك الدولي للتنمية (أى .دى .بى) يقوم بوظيفة مهمة على صعيد تمويل المشروعات ، لكنه يمكن أن يقدم خدمات أفضل من ذلك من خلال إتاحة الفرصة للدول التى تجابه بعض الصعوبات للإفادة من الصناديق . أما النظام المصرفى الإسلامى فيمكن أن يكفل للبنوك فرض أرباح فعلية على القضايا المتصلة بالاستثمارات والأعمال التجارية .

فى ضوء ما تقدم ، فإن منظمة المؤتمر الإسلامى حريٌّ بها أن تعيد تعريف نفسها وهويتها وصياغة وظائفها واهتماماتها لمواكبة التطورات والتحديات الحالية ، بما يمكن الأمة الإسلامية خلال الثلاثين سنة المقبلة من تكييف نفسها مع العولمة وعصر المعلومات .

وغنى عن القول إن من أكثر واجبات الدول الأعضاء فى المنظمة إلحاحاً أن تعمل وتدفع باتجاه إحداث تلك التغييرات .

وبينما لا ينبغي أن نسمح بنجاح أى محاولة لتهميش أو تناسى القمع والاضطهاد والقهر الواقع على إخواننا الفلسطينيين والمسلمين فى كل مكان ، ينبغى علينا أيضاً ألا ندع ذلك يعيننا عن أهدافنا طويلة الأمد . أنا على ثقة تامة بأن مداورات هذه القمة المباركة ستسفر عن نتائج ملموسة وعملية من أجل بلورة توجه جديد لمنظمة المؤتمر الإسلامى يمكنها من تحقيق السلام والتنمية بما يهيئ الأمة الإسلامية لمجابهة التحديات التى فرضها القرن الحادى والعشرون .

إن منظمة المؤتمر الإسلامى مدعوة إلى الاضطلاع بدور قيادى من أجل تحقيق أهدافها ، ونحن من جانبنا لن ندخر جهداً - بحول الله تعالى - لوضع أمتنا الإسلامية فى مكانة تمكنها من مساعدة نفسها بنفسها وحل مشاكلها من خلال التعاون والدعم المشتركين .

إن بلادى بحكم عضويتها فى منظمة المؤتمر الإسلامى ، حريصة كل الحرص وجادة بالاستمرار فى تعزيز نفوذ المنظمة ودعم أنشطتها وبرامجها .

إننا نقدر عالياً هذه القمة التي نعتبرها قمة الألفية الثالثة ، ونرى فيها منبراً مهماً يثير حوارات ومداومات بناءة لتنمية الأمة الإسلامية ، ويطيب لى بهذا الصدد أن أطلب إنابة عن الشعب الماليزى وحكومته ، من الأخوة الأعضاء أن يمنحونا شرف استضافة القمة الإسلامية العاشرة المقرر عقدها فى عام ٢٠٠٣ م . وأرجو أن يحظى هذا الطلب بترحيب موافقة كل الأخوة الأعضاء .

الفصل الثاني الإسلام والعولمة*

العولمة ، بحسب الصياغات المتداولة حالياً ، هي اختراع من بنات أفكار دول شمال الأطلسي ، ويمكننا أن نقول ويكل ثقة ، إنها مصممة لزيادة ثروة أهل تلك البلدان وتعزيز هيمنتهم التي فرضوها منذ زمن بعيد على الشعوب الأخرى في مختلف بقاع العالم .

نعم ، لقد فرضت تلك البلدان هيمنتها على العالم منذ أمد بعيد لكنها مازالت تسعى في الوقت الحالي إلى إحكام سيطرتها وتعزيز قبضتها بما يكفل لها عدم بروز أى منافس حقيقي ، سواء من البلدان الكبرى في شرق آسيا أو حتى من الدول الإسلامية التي لم تفق من غفوتها بعد .

لقد أثبتت الوقائع التاريخية أن الشعوب الأوروبية بطبيعتها تنطوي دائماً على نزعة عدوانية وتملكها روح السيطرة على حقوق ومقدرات وأراضى الآخرين .

فعندما كانت تلك الشعوب غير قادرة على عبور المحيطات ، لم تتوقف في يوم من الأيام عن محاربة بعضها بعضاً بغرض التوسع داخل القارة الأوروبية ، باحتلال أراضى الأمم المجاورة . ويستفاد من التاريخ أنه لم يمر عام واحد على مدى الألفيتين الماضيتين دون أن تقع حرب بين مجموعتين أو أكثر من المجموعات الأوروبية المتناحرة .

ولعل الثقافات والأنظمة الاقتصادية الأوروبية ذاتها تقوم في الأساس على الحروب والتوسع ؛ إذ لا ينفك الأوروبيون عن التفكير في كل وقت على ابتكار وإنتاج الأسلحة الجديدة الأكثر فتكاً بالجنس البشرى . وحتى يومنا هذا نرى الأوروبيين مولعين بابتكار أدوات

* كلمة أمام جمع من المثقفين المسلمين ورجال الأعمال بالدوحة في ١١ نوفمبر ٢٠٠٠ م .

جهنمية جديدة لقتل البشر بفعالية أكثر . كما نلاحظ أنهم لا يتورعون عن إجراء التجارب لاختبار مدى كفاءة هذه الأسلحة في بلدان أخرى متى وأينما كان ذلك ممكناً ، بما يؤدي إلى قتل العشرات ، بل والآلاف في بعض الأحيان ، لكن هذه المرة بذريعة حفظ الأمن والسلام في العالم في أعقاب إجادتهم لفنون الإبحار ، اتجه الأوروبيون بنزعتهم العدوانية التوسعية ، إلى بقية أنحاء المعمورة . ولم تكد تضى سنوات معدودة من مطلع القرن الماضي حتى وقع معظم أجزاء العالم تحت حكمهم الاستعماري الاستغلالي . ومن الناحية العملية كانت لكل دولة أوروبية منطقة تسمى مستعمرة باسمها .

لم يقتصر الأمر على إخضاع الدول الآسيوية والإفريقية وفي الأمريكتين ، للحكم الأوروبي الاستعماري المستبد والوحشي المباشر فحسب ، بل تم استغلال ثروات وموارد تلك الدول ونهبها لتنمية وتعزيز البلدان المستعمرة . وقد افترض الأوروبيون في الأجناس الأخرى في مختلف بقاع العالم ، أنها ضيعة ومتخلفة ، وتعاملوا معها من هذا المنطلق ، لدرجة أنهم أبادوا بعض الجماعات بها .

كان الأوروبيون يقتلون السكان الأصليين في أستراليا (الأبورجين) على الملأ بشكل لا يختلف عن قتل الحيوانات ، وتسببوا في انقراض إنسان تسمانيا المنسوب إلى ولاية تسمانيا بالكومنولث الأسترالي . لم يجرؤ أحد في ذلك الوقت على الكلام ولو بالمصادفة عن حقوق الإنسان ؛ لأن ذلك كان يتعارض تماماً مع مصالحهم وأهدافهم الخاصة .

وبنهاية الحرب العالمية الثانية ، بدأ الأوروبيون يتخلون تدريجياً عن سيطرتهم على البلدان الأخرى بمنحها الاستقلال ، لكن ذلك لم يكن نابعا أبداً من تغيير في ذهنيتهم التوسعية ، كما حاولوا الإيحاء لضحاياهم ، لكنهم كانوا في الواقع يخشون من أن تشق الشعوب المضطهدة عصا الطاعة عليهم بالتمرد والانضمام إلى المعسكر الاشتراكي الذي برز آنذاك كبديل آخر ، في غمرة المواجهة بين الغرب الرأسمالي والشرق الشيوعي ، فيما عُرف بالحرب الباردة .

ولابد من الإشارة في هذا المقام إلى أن الأوروبيين المستعمرين لم يتخلوا أبداً عن فكرة الهيمنة . ففي أثناء انسحابهم من المستعمرات الواحدة تلو الأخرى ، كانوا يقومون بتعزير نفوذهم بما يضمن لهم استمرار الهيمنة على العالم ، وبعد ذلك أدركوا الحاجة إلى تقارب بعضهم من بعض ، فشكّلوا المجموعة الاقتصادية الأوروبية التي تحولت في وقت لاحق إلى الاتحاد الأوروبي ، كما كونوا منظمة معاهدة شمال الأطلسي المعروفة بحلف شمال الأطلسي (الناتو) وعندما انتهت الحرب الباردة بانهيار المعسكر الاشتراكي ، اقتضت مصالحهم أن يندمجوا ، فصاروا الآن كياناً أوروبياً أكثر تماسكاً تقوده الدول السبع الأقوى في العالم .

لقد كشر الغربيون في الوقت الحالي عن أنيابهم ، وكشفوا نواياهم الرأسمالية الكالحة . فبعد أن اطمأنوا إلى أن الشيوعية لم تعد تشكل خطراً يهدد مصالحهم ، طرحوا «عقيدتهم» الجديدة التي تتمثل في حرية التجارة التي أصبحت تشكل لهم كل شيء لأنها ، بحسب زعمهم ، ستؤدي إلى جلب الثراء لكل البشرية وسوف تحقق جنة الله على الأرض ، لكن كثيراً من الناس تناسوا وعوداً مماثلة قطعها البعض بجعل الدنيا فردوساً عندما كانوا ييشرون بالشيوعية والمساواة المطلقة . الآن عاد الغربيون ييشرون من جديد بذات الوعود ، ويبدو أن البعض منا زال على استعداد لأخذ الأكاذيب الغربية على محمل الجد .

إن حرية التجارة التي يروج لها الغرب الاستعماري ، تعني رفع أو إزالة الحواجز التجارية كافة بما يسمح للسلع والخدمات بالتدفق عبر الحدود دون عائق . وتوصف حرية التجارة على أنها بمثابة تسوية وتهيئة لأرض الملعب ، وهو أمر يفهم من ظاهره أنه يكفل منافسة عادلة للاعبين ، لكن المفارقة تكمن في تعمّد تلك الأصوات إغفال الحديث أو الإفصاح عن حجم وقدرات اللاعبين .

ويبدو أن تلك الوعود أصبحت بمثابة عامل مخدر للشعوب ؛ إذ إن دولاً فقيرة عديدة أخذت تتحدث عن تهيئة المسرح لتحرير التجارة ، متناسية أنها لا تملك شركات أو مؤسسات عملاقة ولا بنوك ضخمة ، ولا منتجات تؤهلها للمنافسة من خلال عرض بضاعتها في

الأسواق . ومن الواضح بجلاء أن أولئك الذين يملكون المال والمنتجات هم وحدهم القادرون على فرض سيطرتهم ومنتجاتهم على الأسواق .

إن قضية تحرير التجارة التي لم تكشف أبعادها الخطيرة عند بدايات طرحها ، اكتسبت نوعاً من القدسية عبر الاتفاقيات العامة للتعرفة والتجارة (جات) ومنظمة التجارة العالمية . كما وجدت في الوقت نفسه دعماً وترويجاً كبيرين من البنك الدولي وصندوق النقد الدولي ووسائل الإعلام الدولية الخاضعة للسيطرة الغربية . ويلاحظ أن تلك الجهات درجت على تصوير كل معارض لتحرير التجارة على أنه مهرطق وكافر يعمل على عدم اسعاد الفقراء ويسعى لإبقائهم في حالة دائمة من العوز والفقر والتعاسة . ١

لم تكشف الأيام عن الأبعاد الحقيقية المدمرة لحرية التجارة ، إلى أن بلغت حرية الاتجار بالعملات ذروتها بالمأساة التي ضربت في صيف عام ١٩٩٧ منطقة شرق وجنوب شرق آسيا ، ممثلة بالأزمة المالية والاقتصادية الطاحنة . فقد انهارت تلك الاقتصاديات الغنية الناشئة فجأة ودون مقدمات بسبب تخفيض قيمة عملاتها والاتجار بها لجنى الأرباح الطائلة . وزعم التجار المضاربون بالعملات أن النظم الاقتصادية «للنمور» الآسيوية صدمت وفسدت تلوثها الممارسات القائمة على المحاباة والمحسوبية ، الأمر الذي تسبب في تدهور قيمة عملات تلك الدول من تلقاء نفسها .

غير أن الواقع ليس كذلك ؛ إذ وجد المضاربون بالعملات فرصة سانحة لجنى ومراكمة أرباح هائلة من خلال تخفيض عملات النمور الآسيوية . وقد حصد هؤلاء المغامرون مليارات الدولارات في لمح البصر ، لا لاستثمار أقاموه ولا لرأسمال وظفوه ، بل بواسطة تدمير ثروة بذلت شعوب هذه المنطقة تضحيات جسيمة لمرآمتها عبر عقود عديدة من الزمن .

الأخطر من ذلك ، أن الأزمة المالية الاقتصادية في بلدان النمور الآسيوية تسببت في إفقار شعوب تلك البلدان ، وألقت بالملايين منهم في الشوارع ودفعتهم إلى الركون إلى

أعمال الشغب والتظاهرات والتي تفاقمت واتسعت ، لدرجة أدت إلى مقتل عدد كبير من المواطنين فى مختلف دول المنطقة ، وأطاحت بحكومات بكاملها . ورغم وقوع هذه الأزمة فى صيف عام ١٩٩٧ م ، فإن شرائح واسعة من المواطنين الذين كانوا أغنياء قبيل ذلك ، مازالوا حتى يومنا هذا يتخبطون على غير هدى بسبب الفقر وانعدام التوازن والاستقرار .

من الواضح أن تحرير التجارة وما تمخض عنه من مأسٍ غير مسبوقه بمنطقة شرق وجنوب شرق آسيا ، والذي يقف شاهداً لا يدحض على المخاطر الحقيقية لتلك العملية ، لم يكن كافياً لإقناع بعض الفئات بأن هذه التجربة لا تشكل مطلقاً حلاً للصعوبات الاقتصادية للدول الفقيرة وشعبها .

وللأسف الشديد ، نجد أن قضية تحرير التجارة بمآسيها التى شهدناها ، قد تم تطويرها تحت مسمى جديد هو (العولة) التى تعنى علماً دون حدود أو حواجز . ويحاول الغربيون مرة أخرى أن يسوقوا لنا هذه الصيغة (العولة) على أنها سوق تجلب الثراء لكل الناس فى كل شبر من المعمورة !!

دعونا نقف قليلاً لتفحص محتويات العولة . هذه العملية تشتمل من بين جوانب عديدة ، على ممارسة الأنشطة (التجارية والاقتصادية) دون أن تكون للدولة ولاية أو سيادة على إقليمها الجغرافى القطرى الذى يصبح مجرد اسم يطلق على منطقة يعينها على خارطة المعمورة . لذلك فإن الدولة القطرية تصبح عاجزة تماماً عن تخصيص نفسها وراء حدودها لوقف أو منع جحافل الغزاة القادمين من الدول الغنية ، من أن يدمروا مؤسساتها النامية وينوكها وصناعتها الناشئة ، إلى أن يتم الإجهاز عليها تماماً .

هذا الغزو السافر يتم التمهيد له من خلال الآلة الإعلامية الجهنمية الغربية التى تروج له بالقول : إن احتكار الشركات الأجنبية العملاقة للأنشطة الاقتصادية فى البلدان النامية والفقيرة ، سيؤدى إلى رفع الكفاءة والارتقاء بنوعية المنتجات والخدمات التى يتلقاها مواطنو البلد المستهدف ، وتحسين المستوى المعيشى والحياتى بوجه عام .

نعم ، ربما يتحسن مستوانا المعيشى ، وربما نكسب مزيدا من النقود ، لكننا قطعاً سنصبح خدماً للأجانب . بيد أن المأساة لا تكمن فى هذا الجانب فحسب ، فالأسوأ من ذلك أن هذه الأعمال التجارية الضخمة ستسيطر على اقتصادنا تماماً ، وتزحف فى وقت لاحق لبسط هيمنتها على حكوماتنا . هذه الوضعية سوف تجعل من بلداننا أسوأ من «جمهوريات الموز» ، حيث يكون أصحاب المؤسسات الأجنبية أقوى وأكثر نفوذاً من قادة تلك البلدان ورؤساء حكوماتها .

ولا شك أن مالكي هذه المؤسسات العملاقة سيحددون بمفردهم من يحكمنا من قادة ورؤساء حكومات . والسؤال الذى يطرح نفسه : هل يجوز لنا فى هذه الحالة أن نقول : إن بلداننا مستقلة ومكتملة السيادة؟ بالطبع لا يمكن لعاقل أن يدعى ذلك ، ولا يمكن له أن يزعم أننا نقرر مصائرنا ومصائر شعوبنا وبلداننا كما نشاء . نحن فى هذه الحالة نكون عملياً قد عدنا القهقرى دورة كاملة لنخضع مجدداً للاستعمار الأوروبى .

فى بداية هذه المحاضرة قلنا إنه متى ما جاء الأوروبيون بفكرة ما ، فإنها لا تعنى غير تكريس هيمنتهم على العالم . وعليه فإن العولة من بنات أفكارهم ، وسنرى كيف أنها تصب فى اتجاه يكرس إعادة بناء إمبراطوريتهم العالمية . ونشير هنا إلى أن الدول النامية ستدفع ثمناً باهظاً إذا ما استمرت فى الأخذ بكل ما يأتى من أوروبا من رؤى وأفكار دون فحصها بعين بصيرة ناقدة .

وانطلاقاً من حقيقة كونها بلداناً نامية ، فإن الدول الإسلامية كلها ستصير فى يوم من الأيام جزءاً من إمبراطورية شمال الأطلسى إذا ما سارت العولة بمفاهيمها المطروحة ، والتي نراها ماثلة أمامنا فى الوقت الحالى ، وتقتضى المصلحة أن نقر بأن الصورة مروعة دون أدنى مبالغة ، ذلك أن الدول الإسلامية كافة ضعيفة ولا يوجد بينها من يمتلك الأسباب التى تمكنه من التأثير فى الشؤون الدولية . لقد مضى الآن قرن كامل والمسلمون يعانون فى صمت من القهر والاضطهاد . هذه الوضعية المأساوية تنطبق تماماً على ما يجرى حالياً فى الأراضى

الفلسطينية المحتلة . فنحن نشاهد يوميا على شاشات التلفاز جنود الاحتلال الإسرائيلي يتصدون بالرصاص الحى للأطفال الفلسطينيين الذين يلقون الحجارة عليهم . فى المقابل نجد أن أكثر من مليار مسلم يقفون مكتوفى الأيدي يتفرجون على ما يجرى فى فلسطين اللهم إلا من مناقشات للمجتمع الدولى واللاعبين الأساسيين على المسرح العالمى ، للتحرك لوضع حد لهذه المذابح . لكن لسخرية القدر ، أن ردود الفعل الصادرة عن تلك الجهات تطالب المسلمين بالتحرك لوقف «العنف» الفلسطينى ، بمنع الأطفال من رشق الإسرائيليين بالحجارة أو لأقبل التحدث عن العنف الإسرائيلى الذى يأتى ، بحسب رأيها ، فى سياق «الدفاع» عن الجنود والمستوطنين الصهائنة إنها حالة شاذة كونها تعنى أن رد الفعل الطبيعى لأى جندى أو شخص ما يتعرض للرشق بالحجارة ، أن يضغط على زناد بندقيته ويلقى بالشخص الآخر صريحا ! ومع ذلك فإن هذه الجهات التى تدافع عن أعمال التقتيل والبطش والتعذيب التى تمارسها قوات الاحتلال الإسرائيلى ضد الأطفال والنساء والشيوخ الفلسطينيين العزل ، تتحدث فى الوقت نفسه وباستمرار ، عن حقوق الإنسان والعدالة وحكم القانون !!

لقد ركزت فى الشق السابق على الوجه الكالحن للعوامة وكيف أنها يمكن أن تكون سببا فى قمعنا والرجوع بنا القهقرى ، لنعود خدما للمستعمرين الأغنياء . لكن ذلك لا يعنى بالضرورة أن تنتهى هذه العملية إلى هذه النتائج السلبية فى كل الحالات . بمعنى أن العوامة يمكن أن تكون على عكس تلك الصورة وأن تتمخض عن نتائج تصب فى مصالحنا وخدمة قضايانا كدول إسلامية وبلدان نامية .

ولكى نسخر العوامة لتحقيق مصالحنا وخدمة قضايانا ، علينا أولاً أن نشخص ونستوعب تماماً الكيفية والأدوات التى تعمل بها فى ضوء التفسيرات والمفاهيم المتوفرة عن هذه الظاهرة فى وقتنا الحالى . هذه النقطة حاسمة ومهمة ، ولناخذ التجربة الماليزية لندلل على أهميتها . فعندما تعرضت بلادنا لهجوم تجار العملات فى صيف عام ١٩٩٧ م ، أغشتنا الصدمة لأننا اكتشفنا فى وقت حرج جداً مدى جهلنا وعدم إلمامنا بالأنظمة المالية الدولية

وكيف يتم الاتجار بالعملات وكيف يتم تحويلها من دون نقل فلس واحد !!

نحن نطالع فى الوقت الحالى أن مئات المليارات من الدولارات يتم تسديدها لشركات من قبل أخريات ترغب فى النمو السريع والتوسع بواسطة الاكتساب (دمج شركات أخرى) . كما نقرأ عن اندماج شركات ومؤسسات عملاقة لتكون عملاقة أكثر من وضعها الذى هى فيه ، لكننا نجهل الكيفية التى يفعلون بها ذلك ، ومن أين يأتون بتلك الأموال الهائلة . هؤلاء المضاربون قد أفلحوا فى إيجاد أساليب وابتكارات أخرى مكنتهم من توظيف مبالغ طائلة من الأموال لخدمة مصالحهم . وإذا كنا نحن على علم مسبق ودراية كافية بهذه السبل والصفقات ، لتسنى لنا لعب دور مماثل وفق القوانين والنظم الخاصة بنا ، ولربما كان بإمكاننا اختراق شبكاتهم على الأقل على النحو الذى تتسلل به الفيروسات ، لشل قدراتهم وحركتهم ، وبث اليأس فى نفوسهم .

وقد يبدو لنا أن هذه الشركات من الضخامة بما يوحى بأنها محصنة ضد أى محاولة استهدافية ، غير أن الحجم لم يكن كافياً فى أى يوم من الأيام لمنع الفشل . هذه المجموعات يمكن أن تفشل مثلما يحدث فى عدد كبير من الحالات ، ويمكن أن تخسر تريليونات الدولارات وتدمر نفسها بنفسها .

إننا نعرف قصة صندوق إدارة رأس المال بعيد الأجل (ال. تى. سى. إم) - صندوق استثمارى طويل الأجل - الذى كان من الضخامة بما يعجز كثيرون عن تصوره ، وكان يتعامل بمليارات الدولارات ، لكنه خسر فجأة . ولولا الدعم الذى وجده من المحسوبين والمتفعين من داخل الحكومة ، لأطاح بالنظام المالى للأثرياء .

إن البنوك العملاقة والمؤسسات الضخمة يمكن أن تتعرض لأزمة شبيهة بأزمة (ال. تى. سى. إم) إذا لم تكن إدارتها على قدر عال من المهارة والكفاءة . وبما لاشك فيه أن انهيار مؤسسات مالية أو استثمارية أو صناعية بهذا الحجم ، يمكن أن يتسبب فى انهيار واضمحلال دول بكاملها مهما بلغت من القوة .

لقد تمكن المسلمون في يوم من الأيام من بسط نفوذهم على العالم قبل أن تضمحل حضارتهم وينحسر نفوذهم وتسقط دولتهم . ونتج الاضمحلال والسقوط عن المشاحنات والخصومات التي مزقت وحدة المسلمين ، والتي نتجت بدورها عن الخلافات في تفسير العقيدة والتعاليم والأحكام الإسلامية . وقد ظلت الحكومات الإسلامية على مدار التاريخ الإسلامي ، عرضة لهجمات وحملة الغلاة المتشددين في أوساط المسلمين . وتسبب انشغال المسلمين وحكوماتهم بالمعارك الجارية في تراجعهم عن مركز الصدارة والريادة وإضعفهم فرصة الإفادة من الثورة الصناعية التي كانت آنذاك تنمو وتتسع في أوروبا . وقد تراجع المسلمون وتخلفوا ؛ لأنهم لم يسهموا ولم يشاركوا في الثورة الصناعية في أوروبا ، وبالتالي لم يكن بوسعهم الإفادة منها . بمعنى آخر إن تراجع المسلمين عن ركب الأمم ، لم يقتصر على الناحية الكمية بخصوص الثروة والممتلكات ، ولكنه شمل أيضاً تخلف قدراتهم الصناعية وملكاتهم الإبداعية والابتكارية ، إضافة إلى ضعف القدرة على إبداع وتصميم وإنتاج أدوات ووسائل التقدم والتطور . لقد انتهى المسلمون إلى مرحلة اعتمدوا فيها كل الاعتماد على استيفاء حاجياتهم الأساسية وأدواتهم الدفاعية مما يتجه غيرهم ، بمن فيهم الأعداء .

إننا نشهد في وقتنا الحالي بزوغ فجر عصر المعلومات في كل مكان ، لكن يبدو أن المسلمين سيضيعون للمرة الثانية فرصة الإفادة من الثورة المعلوماتية بمثل ما سبق لهم أن فرطوا في المساهمة والإفادة من الثورة الصناعية وللأسباب نفسها ؛ إذ أنهم مازالوا منشغلين بخصوصياتهم الجارية التافهة ، دون إغارة القضايا والتحديات الجوهرية الاهتمام الذي تستحق .

ومما يؤسف له حقاً أننا كمسلمين نملك قدرات وطاقات لا حد لها ومن شأنها أن تتيح لنا المساهمة في تطوير تقنية المعلومات وفي تطبيقاتها اللامحدودة ، لكننا مازلنا مكتفين بدور المستهلك .

هناك بالطبع عدد كبير من العلماء والخبراء المسلمين الماهرين والمؤهلين تأهيلاً عالياً في

مجالات علمية وتكنولوجية متطورة ، غير أنهم يعيشون حالياً ببلدان شمال الأطلسي . هؤلاء الخبراء والعلماء لم يختاروا الإقامة خارج بلدانهم الأصلية طواعية ، لكنهم لم يجدوا البيئة والمناخ الملائمين للبحث العلمي والتقني ، فاختاروا الهجرة إلى أرض الله الواسعة ، حيث يتوفر ما يفى بحاجاتهم البحثية وتطلعاتهم الإنسانية .

لذلك نجد أن أبناء أمتنا وإخواننا في العقيدة يساهمون دون اختيارهم في بعض الأحيان في بناء الرصيد المعرفي والمهارات ذات الصلة بعصر المعلومات في بلدان أجنبية قد تلجأ في يوم من الأيام إلى استخدام تلك الحصيصة المعرفية والتقنية ضد البلدان الأصلية للعلماء الذين أنتجوها .

إن الفرصة على أي حال ، مازالت متاحة أمامنا لإغراء هؤلاء العلماء والخبراء للعودة إلى بلداننا للإفادة من مهاراتهم وإمكاناتهم التقنية العالية في تطوير وتعزيز قدراتنا في مجال تقنية المعلومات ، بما يمكننا من مجابهة النتائج السلبية المترتبة على العولة على دولنا ودرئها .

إن هناك أساليب عديدة يمكن من خلالها العمل سوياً لتوفير الحماية اللازمة لاقتصادياتنا وبلداننا على السواء . بمعنى أننا يمكن أن نبقى على بعض الحواجز والقيود للحد من تدفق السلع والمنتجات التي نرى أنها لا تناسب بيئتنا أو أسواقنا ، إلى حين تكيف وإعداد البيئة المحلية ، بما يمكننا من درء سلبياتها ويمكننا أيضاً أن ندخل التعديلات التي تناسبنا على معنى ومضامين العولة ، كأن نطلق عليها تعريفاً أكثر شمولية يتضمن التأكيد على حقوق مواطني الدول الفقيرة في العبور السلس إلى الدول الغنية .

هذه الخطوة ستساهم في كسر حدة الفقر وتضييق نطاقه في بلداننا من خلال التحويلات التي يرسلها المهاجرون إلى بلدانهم الأصلية . كما أن زيادة حجم وعدد الجاليات الإسلامية في البلدان الغربية والغنية ، سيمكن المهاجرين منا من المحافظة على معتقداتهم وثقافتهم ، بما يمكن أن يعزز نفوذهم على مختلف الصعد في بلدان المهجر . ونوه هنا إلى أن الوضع الديموجرافي العالمي سيتغير إلى حد بعيد خلال بضعة عقود ، لن يتمكن أي بلد في

العالم من المحافظة على النقاء العرقى لسكانه الأصليين ، وهذه نقطة يمكن توظيفها أيضاً لصالح الأمة الإسلامية إذا ما نجحنا في استغلالها بذكاء .

وهناك وجهة نظر ترى أن العولة قد تنتهى بفرض المؤسسات العملاقة لسيطرتها على الدول التي تزاوُل أنشطتها فيها . فى هذه الحالة فإن المهاجرين من الدول الفقيرة بإمكانهم ، إن لم يؤخذوا على حين غرة ، أن يلعبوا دوراً ما على الأقل فى إدارة وتصريف شئون الحكم فى بلدان المهجر . كما يمكن أن يتوفروا على الأسباب التى تمكنهم من كبح الاضطهاد والقمع الذى يتعرض له المسلمون فى بقاع العالم كافة .

إن السؤال الجوهري هو : هل سيتراجع المسلمون ويفقدوا دورهم فى ظل أمة كونية واحدة بعيدا عن الدول القطرية ، بما فيها الدول الإسلامية؟ الإجابة بالإيجاب طبعاً . إذا ما اكتفى المسلمون بدور المتفرج على ما يجرى من أحداث وتطورات متسارعة على الصعيد العالمى . ويستحسن فى هذا المقام أن نقف عند بعض الحقائق المهمة ؛ إذ أن تعداد المسلمين فى العالم بلغ فى الوقت الحالى نحو ؛ مليار نسمة ، بمعنى أن هناك شخصاً مسلماً من بين كل ستة أشخاص فى المعمورة . غير أن المشكلة الحقيقية تتمثل فى تجاهل المسلمين لمبدأ الأخوة الإسلامية . وبينما يسعى غير المسلمين إلى التوحد وتعزيد قوتهم ومنعتهم ، فإننا فى البلاد الإسلامية لا نأبه بمزيد من التمزق والتشتت ولا نعمل شيئاً لوضع حد لما يجلب الشحاء والبغضاء بيننا ويوسع الشقة بين صفوفنا .

إن المسلمين مواجهون بتحديات ضخمة ومروعة ، ذلك أن تجليات العولة التى نلاحظها بعيوننا حالياً ، تشكل خطراً وتهديداً على المسلمين ودينهم الذى هو الرسالة المحمدية الخاتمة . إننا مطالبون بالانفث غضبنا وإحباطاتنا بالركون إلى أساليب العنف المعزول غير المجدى . وبدلاً من ذلك ، ينبغى علينا أن نلجأ إلى التخطيط وإحداث التنمية على مستوى البلدان الإسلامية ، بما يمكننا من التسلح بتقنية المعلومات وامتلاك القدرات الضرورية لمعالجة التحديات التى يطرحها عصر المعلومات فى كل يوم . هذا هو الجهاد الحقيقى الذى ينبغى

على المسلمين أن يتدافعوا للانضمام لركبه ، وإني على يقين بأننا نمتلك المواهب والقدرات التي تكفل لنا النجاح في هذا الجهاد .

لقد تعلمنا من القرآن الكريم بأن الله سبحانه وتعالى ، لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وأن نعقل البعير ونتوكل على الله من بعد ، إذا علينا نحن المسلمين أن نسعى بأنفسنا لمساعدة أنفسنا ، وأن نعقل البعير قبل أن نتوكل .

أنا لست الآن في وضع يسمح لي بالاقتراب من القرآن الكريم والحديث ، ولا حاجة لي بالاستطراد في جدال حول المعاني الواردة في الكتاب والسنة ، بما يدعم ما ذهبت إليه في اتجاه التحرك لمجابهة التحديات التي تفرضها العولمة الكونية على العالم الإسلامي .

وختاماً ، لا بد من أن نؤكد أن مشيئة المولى عز وجل قادرة على أن تعيننا على السيطرة على العولمة وتطويرها بما يمكننا من استعادة العصر الذهبي للأمة الإسلامية .

الفصل الثالث القوانين الإسلامية في العالم المعاصر *

القانون هو مجموعة القواعد التي يتم الاحتكام إليها ، بما يكفل تحقيق المساواة والعدالة . لكن هناك قوانين رديئة لا تكفل العدالة مثل تلك التي كانت تجيز الاسترقاق وتسمح بمعاملة الرقيق معاملة قاسية . هذه القوانين سيئة السمعة ، تم إلغائها مفعولها مع تطور المجتمعات البشرية ، وحلت محلها قوانين أكثر عدلاً وإنصافاً .

في وقتنا الراهن تمخضت الأفكار الليبرالية ، عما هو صواب وما هو خطأ وما هو عادل وما هو غير ذلك ، عن تحقيق العدالة لبعض الفئات إلا أنه قد نتج عنها أيضاً ظلم وانتهاك لحقوق فئات أخرى . وتأسيساً على ذلك ، فإننا نجد في بعض الديمقراطيات الليبرالية أن حقوق الأغلبية يتم تجاهلها والتكر لها ، في سبيل حماية حقوق الأقلية ودعمها ، بل حقوق أفراد بعينهم في بعض الأحيان . وبطبيعة الحال فإن النتيجة دائماً ما تكون صورة زائفة ومشوهة للعدالة والديمقراطية . لقد أثبتت التجارب عبر التاريخ ، أن المبالغة والإفراط في محاولة إصلاح أى خلل ، تؤدي في معظم الأحيان ، إلى ردة فعل عنيفة في الاتجاه المعاكس ، وهو أمر لا يقل خطراً وعبثاً .

لقد أصبح مفهوم المساواة في وقتنا الحالي أقرب ما يكون إلى الحكم الديني القاطع . فالتناس كلهم متساوون في نظر القانون ولا يجوز معاملة شخص ما على نحو يميز بسبب منزلته الرفيعة أو ثروته الطائلة والعكس صحيح لقد كان المجتمع البشري صفتاً حتى وقت قريب ولم يكن مبدأ المساواة فيه مسلم به على نحو مطلق . بمعنى أن ملاك العبيد والمخدمين

* ألفت في السمنار الدولي عن القوانين الإسلامية في العالم المعاصر ، الذي نظمه المعهد الماليزي للفهم الإسلامي (إي . كي . إي . أم) بكوالالمبور - ماليزيا ، ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٠ م .

كانوا يجدون معاملة متميزة تختلف تماما عن المعاملة التي يلقاها الخدم والعمال .

عقب ذلك ، انعطفت اتجاه البندول انعطافاً حاداً ؛ إذ تم تحرير الرقيق ، وبدأ العمال يطالبون بمعاملة تضعهم على قدم المساواة والعدل مع مخدموهم وتطورت الأمور إلى أن وعى العمال خطورة عددهم ، فتكتلوا مشكلين قوة لا يستهان بها . وعندما وصل الشيوعيون إلى الحكم خطوا خطوة أبعد من ذلك ؛ إذ استولوا على ممتلكات الأثرياء من المخدمين وقتلوا معظمهم ، فيما أخضعوا الباقين لمعاملة مذلة لكرامة الإنسان ، وبعبدة كل البعد عن روح المساواة والعدالة . هذه التطورات أوضحت بجلاء أن السعى إلى انصاف العبيد والعمال قد انتهى إلى إلحاق الظلم والجور بفئات أخرى .

ربما يقول قائل إن ما سقناه ما هو إلا عدالة شاعرية ، لكن ذلك لا يغير من الأمر شيئاً ، فالظلم ظلم أينما وجد ومهما كان . إن نزوع الضحايا نحو الانتقام ممن سبق أن ساموهم العذاب والذل ، قوى جداً ، إلا أن هذا لا يغير من طبيعة الظلم حتى لو لحقت بإنسان ظالم .

إن المبدأ يقتضى بالطبع أن توفر العدالة لكل الناس دون تمييز حتى للمذين يمارسون الظلم . ومن الواضح أن الإنسان لم يتعلم منهم مقومات العدالة ، ونتيجة لذلك فإن الظلم بين المجتمعات البشرية لن يختفى من على وجه العمورة ، ويعود السبب في ذلك إلى اختلاف مفهوم العدالة والمساواة نفسه من مجتمع لآخر باختلاف ثقافات الشعوب . ذلك أن ما يبدو عادلاً وفق قوانين بعينها في مجتمع ما ، قد يبدو مجافياً تماماً للعدالة والمساواة في قوانين ونظم أخرى . ومع ذلك فإن في العدالة جوانب عالمية مشتركة بين الشعوب المختلفة بثقافتها ، وعاداتها ، وموروثاتها المتميزة ، فعلى سبيل المثال ، إنزال العقاب بالمجرم أمر شائع ويعتبر عين الصواب في كل المجتمعات ، بينما تعتبر معاقبة الضحية ظلم ما بعده ظلم أينما وجد وبمقتضى أى قانون .

لقد جاء سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم برسالته من المولى عز وجل إلى مجتمع كان بكل المقاييس يقوم على القمع والعسف والظلم ، حيث كان العبيد يعاملون

بقسوة وكأنهم ليسوا بشراً . وكانت البنات يتم وأدهن وهن أحياء ، فيما كانت النساء يعاملن معاملة القطيع ، وكان من حق الرجل أن يتزوج بمن يشاء وبأى عدد وأن يهجر من يشاء دون نفقة أو دعم . إلى جانب ذلك كان الأغنياء يضطهدون الفقراء وكانت الخلافات الشخصية تتحول إلى حروب قبلية لانهاية لها ، حيث يأكل القوي الضعيف بصرف النظر عن الصواب والخطأ والعدل والظلم .

حمل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، إلى هذا المجتمع بكل تخلفه وجهله وقمعه وحروبه ، شريعة المولى سبحانه وتعالى ، وكذلك المعاني والمفاهيم الحقيقية للعدالة والمساواة . وقد أولى القرآن الكريم ، ومن بعده السنة النبوية اهتماماً خاصاً بالعدالة ورفعاً من شأنها إلى أسمى الدرجات . وتنص التعاليم الإسلامية بوضوح على تحريم وعدم جواز أى عمل أو فعل يكون من نتائجه الظلم . هذا هو جوهر القوانين الإسلامية وهذه هي العدالة التي نادى بها ديننا الحنيف .

إن الدين الإسلامى لم يعر فى يوم من الأيام القضايا والجوانب الشكلية أهمية أبداً على حساب الجوهر والمعانى الحقيقية لكل الممارسات والشعائر . ذلك أن الكيفية التي تؤدى بها صلواتنا لم تكن من الأهمية فى شىء فى يوم من الأيام مقارنة بالنية والإخلاص فى أداء هذه الشعيرة . بمعنى أن أداء الجوانب الشكلية فى الصلاة مثلاً من حركات ووقوف وغيره ، يمكن القيام بها متى ما كان ذلك ممكناً ، لكن إذا كان الظرف لا يسمح ، فى حالات المرض والسفر والموانع المرتبطة بالزمن وغيرها من الظروف الأخرى ، فإن الجوانب الحركية يمكن اختصارها أو تقليصها أو إلغاؤها تماماً فى بعض الأحيان . لكننا للأسف نجد أن عدداً كبيراً من المسلمين يؤمنون بالجوانب الشكلية فى الإسلام أكثر من إيمانهم بجوهره . فعلى سبيل المثال اهتم الإسلام بمفهوم الأخوة الإسلامية ونص صراحة على مراعاته والحرص عليه ، لكن الغالبية العظمى من المسلمين لا تعدم حيلة لتوفير كل الأسباب التي تؤدى لإهمال وتجاهل هذا المفهوم . فى الواقع كثيراً يهتم المسلمون بالخلافات الصغيرة التافهة بين بعضهم بعضاً

ويستندون إليها في تكفير خصومهم في الرأي والفكر بما يكرس روح العداء بينهم واسقاط مفهوم الأخوة الإسلامية .

نحن نعلم تمام العلم أن القرآن الكريم يشتمل على أحكام وأوامر إلهية محددة لا تترك مجالاً للتأويل أو سوء التفسير . لكن في الوقت نفسه نجد أن القرآن يتخذ من ضرب الأمثال والعظات والقصص أسلوباً ليرشدنا إلى الطريق القويم من خلال الاتعاظ بتجارب الأمم السابقة ، وهو أمر يؤدي إلى تفسيرات مختلفة لبعض النصوص . ونحن نعلم أيضاً أنه حتى الأحكام والأوامر الإلهية المحددة ، قد وردت مقيدة ومشروطة فيما عدا تلك المتصلة بالعدالة والتي وردت بصيغ مطلقة تضع العدالة في مراتب رفيعة وسامية ، مما يعكس مكانتها في الإسلام . لكن لسوء الحظ فإن بعض إخواننا المسلمين يقدسون الجوانب الشكلية ولا يولون العدالة المكانة والاهتمام اللتين تستحقهما . هذا التبجيل والاهتمام بالشكل يقود إلى اعتبار الظلم عدلاً طالما استوفيت الشروط المتصلة بالشكل ، مما يجعل العدالة الإسلامية تبدو في نظر كثيرين من الناس قاسية ومجردة من الرحمة .

المشكلة الأخرى التي تواجه الملتزمين الداعين إلى تحكيم مبادئ العدالة الإسلامية ، تتمثل بالنزوع إلى خلط القيم والثقافات القبلية العشائرية بالإسلام . لتوضيح ذلك ، قد حدث مؤخراً أن امرأة ما كانت على علاقة غير شرعية برجل ما أرغم على الزواج منها لكنه طلقها لاحقاً . ولدى عودتها إلى منزل ذويها رأى شقيقها في عودتها عيباً ما بعده عيب على الأسرة يستوجب إزهاق روحها . ونفذ ذلك بمفرده دون وجه حق . هذا السلوك لا يستند إلى أي مبرر قانوني ولا يجيزه الإسلام على الإطلاق ؛ لأن ديننا الحنيف ينهى عن قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق . لكننا نجد أن الانطباع الذي يخرج به عامة الناس هو أن تصرفه هذا متفق مع التعاليم الإسلامية . نحن بالطبع لا يمكننا النظر لهذه الحادثة إلا في سياق منظومة القيم التي كانت سائدة في فترة الجاهلية والتي تتمد البنت في صغرها لإغلاق الباب الذي يمكن أن يأتي منه العار على الأسرة والقبيلة .

ويبدو أن عدم الاهتمام بتصنيف وتنظيم القوانين الإسلامية وتدوينها ، ومن ثم تطبيقها على نحو دقيق يكفل العدالة ، قد فتح الباب لتفسيرات عديدة وتأويل يتناقض في بعض الأحيان ، مع جوهر العقيدة الإسلامية . نحن في ماليزيا ، كان لنا شرف السعى لتدوين وتطبيق الأحكام والقوانين الإسلامية ذات الصلة بالأنشطة والممارسات الاجتماعية . لكن نظراً لطبيعة المجتمع الماليزي القائم على التعددية العرقية والدينية ، فإن صعوبات وعقبات جمّة حالت دون استكمال هذا الجهد . ومع ذلك فإن القوانين المعمول بها أساساً في البلاد ، ليست من جنس تلك القوانين التي تتناقض مع مبادئ القوانين الإسلامية والعدالة الإسلامية . صحيح أننا قد نجد اختلافاً في العقوبات ، غير أن المبادئ العامة للقوانين لا تختلف عن المفهوم الإسلامي .

وحرى بنا أن نوضح أن القوانين الإسلامية ليست مرفوضة من قبل الحكومة الماليزية ، لكن هناك إجماع واسع على أن تطبيقها على نحو كامل في ظل الظروف السائدة حالياً في البلاد ، غير ممكن . أما إذا نظرنا إلى تجربة بعض البلدان الإسلامية ، فنلاحظ بوضوح أن القوانين الإسلامية ليست مدونة ولا مطبقة على الأقل على نحو متكامل . ومن الواضح أيضاً أن هناك شبه استحالة في أن نعثر على تجربة عملية متكاملة في مجال تدوين وتطبيق القوانين الإسلامية في تلك البلدان .

هذه الخلفية تجعل من الصعوبة بمكان تجديد الجوانب الإجرائية التي يتم اتباعها في مراحل نظر الدعاوى القضائية وما يترتب عليها من تطبيق وتنفيذ للقوانين الإسلامية .

نتيجة لذلك نلاحظ أن بعض الاعتقالات في بلدان إسلامية على سبيل المثال ، طالت أناساً من بينهم أجنب ، لكنها تمت على نحو عشوائي بعيداً عن سلطان القانون والحكم الشرعي . بعبارة أخرى فإن القوانين الإسلامية ذات الصلة التي تم الاستناد إليها لتبرير الاعتقالات لم تحدد ، ولم يبلغ المتهمون بكنهها وماهيتها . وبما لاشك فيه أن ماصدر من أحكام بحق المعتقلين ومن قبلها التحقيق والاستجواب ، لم تستند إلى نظام إجرائي واضح

القسمات .

ونحن لانستبعد أن يكون قاضى المحكمة التى أصدرت الأحكام ، قد استند إلى أى نص قانونى أو أى كتاب بهذا المجال ، أو ربما اعتمد على القرآن والسنة ، غير أن الإجراءات التى اتبعت فى المحاكمة غير واضحة ولا تساعد الدفاع الذى هو الطرف الآخر فى المعادلة ، على إعداد مرافعته . ربما يعود ذلك ، وكما ينبغى أن يكون ، إلى أن القوانين الإسلامية تستند مباشرة إلى القرآن والسنة ، غير أن هذين المصدرين يثيران تفسيرات مختلفة باستمرار . نحن لانستبعد أبداً أن يطرح قضاة مختلفون تفسيرات مختلفة وربما متباينة فى دعوى واحدة ، مما يؤدى إلى اختلاف فى الأحكام التى تصدر بحق المتهمين فى ذات الدعوى ، مع ملاحظة أن العدالة تقتضى ألا تختلف العقوبات التى تصدر ضد متهمين ارتكبوا الجرم نفسه . أما فى حال صدور أحكام متباينة بحق متهمين ارتكبوا الجرم نفسه ، فإن التساؤل الذى يطرح نفسه هو : هل تنسجم تلك الأحكام مع العدالة الإسلامية وتتوافق معها؟

تلك الخلافات التى تقود إلى الظلم ومجانبة العدالة ، كانت كافية لحمل ماليزيا على تدوين وتصنيف مجموعة القوانين الإسلامية ؛ لأن الاختلاف فى تفسير النصوص القرآنية والأحكام الشرعية أمر شائع بين المسلمين . بمعنى أن هناك اختلافات بين السنة وبين الشيعة فى فهم وتفسير التعاليم والأحكام الإسلامية ، وهناك اختلافات بين السنة أنفسهم فى تفسير بعض القضايا مثلما هو الحال لدى الشيعة ؛ لأن الطائفتين تنقسمان إلى مدارس وفرق بحسب آراء الأئمة فى كل طائفة .

واستناداً إلى ذلك ، فإن تدوين وتوحيد القوانين الإسلامية سيؤدى إلى تضييق أوجه الاختلاف بين الطوائف والمدارس الإسلامية إلى حدها الأدنى ، بما يكفل عدم وجود اختلافات بين أتباع الطائفة الواحدة أو المذهب الواحد على الأقل ، حول الأحكام الإسلامية .

إن التجربة الماليزية فى مجال تدوين القوانين الإسلامية تكشف تماماً مدى الصعوبات التى تعترى محاولات إيجاد نسق معيارى فى التعاليم والأحكام الإسلامية . ذلك لأن الشئون

الدينية الإسلامية في البلاد ليست من اختصاص الحكومة الاتحادية ، بل هي جزء من السلطات الخالصة لسلطين الولايات . وبالرغم من أن الملايين الذين يشكلون السواد الأعظم من المسلمين في البلاد ، من السنة ويتبعون المذهب الشافعي ، فإن الولايات المختلفة تطبق قوانين إسلامية مختلفة ، بل متناقضة في بعض الأحيان . هذه الاختلافات بين الولايات وفي بلاد واحدة ، مهمة لدرجة أنها تدفع مسلما إلى الهرب من ولايته واللجوء إلى ولاية أخرى لتفادي تطبيق قانون إسلامي يعينه . لقد بذلت ماليزيا جهودا مقدره لإيجاد صيغة معيارية للقوانين الإسلامية في ولاياتها المختلفة ، غير أن هذه الجهود لم تحقق نجاحًا كاملا .

وعليه ، إذا كانت القوانين الإسلامية التي تحكم أناسًا من طائفة واحدة ومدرسة واحدة وفي ذات البلاد ، لا يمكن توحيدها في نسق معيارى واحد ، فما مدى صعوبة توحيد القوانين الإسلامية في كافة بقاع العالم ، أو حتى لأتباع طائفة واحدة من المسلمين في المعمورة؟ ا يبدو أن هناك حاجة ملحة لأن يجلس المسلمون من كل الطوائف مع بعضهم بعضاً ليقارنوا ما بين أيديهم من نصوص وقوانين إسلامية وكيفية تطبيقها في البلدان الإسلامية كل على حدة .

إذا تناولنا الأمر بمزيد من الدقة ، يجب أن تؤدى الأمور إلى رأس الدولة في البلاد أو الشخص المسئول عن إدارتها ، باعتباره المرجع الذى يفصل فى القضايا على نحو نهائى . وإذا نظرنا إلى العهد الإسلامى الأول لوجدنا أن سيدنا محمدا- صلى الله عليه وسلم- كان الحكم فى كل شئ ، أو على الأقل المرجع الذى يؤول له القول الفصل . وينص القرآن الكريم صراحة وعلى وجه التحديد ، على وجوب طاعة المسلم لولى الأمر بما فى ذلك القبول بسلطته فى البت فى المنازعات ، وما يصدر عنه من أحكام ضد المذنبين . لكن باتساع الأمصار الإسلامية وزيادة عدد المسلمين ، أصبح هناك استحالة عملية فى الرجوع للحاكم فى كل القضايا القانونية ، فظهرت فكرة القضاة الذين يتم تفويضهم من المركز للبت فى قضايا الناس .

ترتبت على هذا التطور نتائج مهمة على صعيد الجوانب التطبيقية فى القوانين

الإسلامية وصلتها بالعدالة الإسلامية ، فبينما كان من غير الممكن أن تصدر عنه أحكام متباينة في معالجة قضايا متماثلة ، نجد أن القضاة صاروا يتتهون إلى أحكام مختلفة في قضايا متشابهة ؛ لأن كل واحد منهم ينطلق من تقييمه الشخصي للحالة التي ينظر فيها وبالتالي أصبحت تصدر عن القضاة في الأمصار الإسلامية أحكام مختلفة في معالجة جرائم متطابقة تماماً في طبيعتها ، وهو أمر مجحف غير ملائم لمفهوم العدالة الإسلامية .

من الواضح أن هناك حاجة ملحة لجمع القوانين الإسلامية وتنسيقها وتدوينها بهدف توحيدها والوصول إلى صيغة معيارية في الجوانب الإجرائية المتصلة بتطبيقها ، إضافة إلى توحيد العقوبات التي تصدر في الجرائم المتشابهة . إن العدالة الإسلامية كما حددها القرآن الكريم والسنة النبوية لا يمكن أن يقال عنها أنها غير عادلة أو غير نزيهة . لكن الحقيقة هي أن مظاهر الضعف البشري هي التي أفسدت القوانين وشوهت العدالة وهو ما يحاول الناس إغفاله .

مهما يكن من أمر ، وبصرف النظر عن الأسلوب الذي يتم به تطبيق القوانين الإسلامية ، فإن المسلمين والبلدان الإسلامية في ظل عالمنا المعاصر ، لا يمكن أن يكونوا معزولين عن الشعوب والبلدان الأخرى ، وأن الحاجة تقتضى أن نوضح للأخريين بكل جلاء أن القوانين الإسلامية عادلة بطبيعتها ، وأن تطبيقها يتم على نحو عادل ونزيه . ربما يقول قائل : إن القوانين الإسلامية قد لا تتطابق تماماً مع التفكير الليبرالي الحديث ، بيد أنها يمكن أن تتفق وتتناغم مع المفاهيم العالمية للعدالة . صحيح أن القوانين الإسلامية لا يمكن أن تتغاضى عن الشذوذ الجنسي ، الذي لا يعد مخالفاً للقوانين في المجتمعات الغربية ، بمعنى أن الإسلام يعالج قضية الانحراف الجنسي على أنها جريمة يعاقب عليها القانون حتى لو اعتبر الغرب ذلك منافياً لحقوق الإنسان ومنافياً للعدالة . غير أن العدالة الإسلامية لا تختلف عن العدالة الغربية عندما تتعلق المسألة بمعاقبة المجرمين وإنصاف المظلومين ، لا يمكن للإسلام بالطبع أن يعاقب مظلوماً ويترك للمجرم فرصة الإفلات من العقاب .

هناك طائفة من المسلمين ترى ، أنه إذا اقتضى تنفيذ القوانين الإسلامية إنزال العقوبة بالضحية في ظل إفلات المجرم من العقوبة ، فإن هذا يعتبر أيضاً نوعاً من العدل . بمعنى أنه إذا تعرضت امرأة للاغتصاب لكنها لم تتمكن من إثبات التهمة على الجاني بشهود ، فإنها تعتبر مذنبة بارتكاب الزنى إذا حملت .

وفي هذه الحالة فإن المذنب لا يمكن محاكمته بالطبع إلا بشهود الإثبات ، فيمضى طليقاً دون عقوبة ، بينما تنتهي المرأة إلى القتل بالرجم ؛ لأن الشريعة الإسلامية تقضى برجم الزانى والزانية بالحجارة .

في نظر عدد كبير من المسلمين يمكن أن يكون هذا مناقضاً للعدالة ، إلا أن البعض الآخر يرى فيه العدل كله على نحو أو آخر ، نظراً لأنه حدٌ من الحدود التي أتى بها الإسلام . هؤلاء لا يقيمون وزناً لتشديد الإسلام على ضرورة التزام العدل في كل الأمور ، ويعتبرون ذلك أمراً لا يستحق حتى مجرد التفكير فيه ، طالما تمَّ استيفاء الإجراءات الصحيحة في المحكمة ، وأن الأحكام الصادرة كانت نتيجة لتلك الإجراءات .

وعندما يفسر المسلمون التعاليم الإسلامية على هذا النحو ، فإن ديننا الحنيف يبدو في نظر غير المسلمين وحتى غالبية المسلمين ، غير عادل ولا منصفاً ، ومجرداً من الرحمة والتسامح . ومع ذلك فإن المشرعين الذين يذهبون لمثل هذه التفسيرات المشتطة ، يُنظر إليهم على أنهم في موقف صائب ، لالسبب سوى أنهم يتمسكون بمواقفهم المتزمتة إزاء القوانين الإسلامية دون النفاذ إلى جوهرها .

ولاشك أن استدعاء الحالات التي يمكن أن تخفف من الغلواء في مفهوم بعض الناس للقوانين الإسلامية وتسهم في تحقيق العدالة الإسلامية الحقيقية ، من شأنه أن يتسبب في فتور حماسة بعض الناس لعقيدتهم . كما أن غلاة المتشددين لن يترددوا في إدانة أى محاولة لتخفيف المواقف المتعصبة إزاء هذه القضية ، حتى لو كانت تهدف إلى تقديم الإسلام للآخرين على أنه أكثر عدلاً من الصورة المشوهة المرسومة عنه . هذه الفتنة تنطلق

من موقف متطرف مؤداه أن المؤمنين الحقيقيين ينبغي أن يتجاهلوا آراء ومفاهيم غير المسلمين في كافة ما يتصل بالتشدد في التمسك بالأحكام والأوامر التي أتى بها الإسلام . وهؤلاء لا يمكن أن يخطر ببالهم أبداً أن تفسيرهم للإسلام يمكن أن يجانب الصواب أو يحد عنه . إنهم يؤمنون تماماً بأن إلحاق مزيد من العقوبات والمعاناة بأنفسهم وبالآخرين ، من شأنه أن يقوى ويعمق عقيدة المسلم وإيمانه . كما أنهم يفسرون أية محاولة لتحدى وجهات نظرهم ومناقشة مواقفهم المتمتة ، على أنها ضعف في الإيمان بالعقيدة .

إن الدين الإسلامى هو العقيدة التى حملت العدالة للعرب الوثنيين فى الجاهلية وأقامتها ونشرتها بينهم ، مما أضعف القبائل العربية باعتناق الدين الإسلامى بعد أن تبين لهم مدى سفاهة عبادة الأوثان . وكان النبى عليه أفضل الصلاة والسلام - قدوة ومثالاً أعلى للعدل ؛ إذ لم يرفض وجود وسريان قوانين أخرى فى ظل سريان القوانين الإسلامىة . لذلك عندما اعترف يهوديان بممارسة الزنا ، قضى بقتلها ؛ لأن القوانين اليهودية تنص على ذات العقوبة لهذا الجرم ، بمعنى أنه حاكمهم بقوانينهم .

توحي سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - الحذر والحيطه فى مناسبات كثيرة ، ولم يتعجل إنزال العقوبة ببعض المذنبين إلى أن يثبت بالدليل القاطع الذى لا يدانيه شك ، أن المتهم قد اقترف ما نسب إليه من ذنب . هذا الحذر يدل دلالة كافية على أن الرحمة متأصلة ومتجذرة فى نفسه الكريمة . وليس بمستغرب أن العرب الوثنيين تدافعوا زرافات ووحداً لاعتناق الإسلام الذى جسّد لهم قمة العدالة التى كانوا يفتقرون إليها فى مجتمعاتهم .

وينبغى أن نشير فى هذا المقام إلى أن الصّرب المسيحيين فى أوروبا الشرقية قد قبلوا الحكم الإسلامى التركى ؛ لأنه خلصهم من بطش حكامهم الطغاة وسادتهم المتسلطين المتجبرين وقمعهم . وقد سمح الأتراك المنتصرون للفلاحين بتلك المناطق بامتلاك وفلاحة أراضيهم لقاء دفع الضريبة المعهودة . وينسحب هذا الموقف على الأمصار الإسلامىة التى كان المسلمون والمسيحيون واليهود يعيشون فيها إلى جوار بعضهم بعضاً فى مساواة تحت راية

القوانين الإسلامية . وعندما استعاد المسيحيون الكاثوليك إسبانيا وطرّدوا المسلمين من الأندلس ، فإن اليهود والمسلمين الذين بقوا هناك ، خُيِّروا بين خيارين لثالث لهما : إما الارتداد باعتناق المسيحية أو الطرد . ومن المواقف المشهودة التي تدل على سماحة الإسلام والمسلمين ، أن اليهود اختاروا الهجرة للإقامة مع المسلمين في بلدان المغرب العربي بدلا من البقاء بإسبانيا في ظل حكمها المسيحي . وإلى يومنا هذا فإن أكثر من مليون يهودى يعيشون في المغرب .

غير أن المسلمين اليوم ومنهم الماليزيون ، صاروا أقل سماحة واعتدالا ولا يراعون وجهات نظر الآخرين وحقوقهم ، لدى ممارسة التعاليم الإسلامية وتطبيقاتها ، وكأن الواحد منهم لن يكون مسلما حقاً ما لم يتشدد في تطبيق القوانين الإسلامية ويبدو أن الفئات المتشددة تميل إلى مزيد من التشدد والتزمت حتى في الحالات التي يسمح فيها الإسلام بإبداء المرونة هذا . مفهوم يقوم على أن المسلم لا يكون مسلما ومؤمناً حقاً ما لم يكن أكثر تشدداً وتعصباً .

لقد أدت المنافسة السياسية بين الجماعات الإسلامية المختلفة إلى التشدد في تفسير التعاليم والأحكام الإسلامية ، معياراً للحكم على مدى عمق الإيمان والالتزام بالإسلام لدى الطرف المناوئ . وقد بلغ الأمر ببعض الناس إلى تفسير أى مؤشر على التسامح والمرونة في بعض القضايا ، على أنه ضعف في الإيمان بالعقيدة الإسلامية . كما بلغ الأمر بفئات أخرى أن تتعمد النقل والتفسير الخاطى لإظهار نفسها بأنها أكثر تمسكاً والتزاماً بالإسلام من الفئة الأخرى . وقد انتهت محاولات الطوائف والمجموعات المتنافسة للقدح بإيمان والتزام بعضها بعضاً بالعقيدة ، إلى إظهار الإسلام وكأنه دين يقوم على التعصب والتطرف ولا علاقة له بالتسامح . ونتيجة لذلك ، أصبح الإسلام الذى اهتم بالعدالة أيما اهتمام ورفع من شأنها إلى أعلى الدرجات ، يبدو في نظر الآخرين على أنه دين قمعى لا مجال فيه للرحمة .

لقد أضحى الإسلام مختلفاً تماماً اليوم عن دين الرحمة والتسامح والسلم الذى أتى به سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام . كما أصبح الإسلام في نظر المؤمنين وغير المؤمنين نموذجاً

للتطرف والتعصب والتشدد وعدم التسامح وانتهاك العدالة ، بسبب الصورة المشوهة التي يعكسها عنه المتطرفون وأصحاب الغلو والمصالح الشخصية .

نتوقف هنا لنقول بملء أفواهنا ، إنه إذا ما أُريد للإسلام أن يستعيد صورته ومكانته كدين قائم أساساً على العدل والمساواة ، فعلى المشرعين المسلمين أن ينظروا مجدداً ويتمعن في معنى التفسيرات الصحيحة القديمة للتعاليم الإسلامية ، وخاصة المرتبطة منها بالعدالة ويسبروا جواهرها . وأنا على يقين لا يدانيه شك بأن الإسلام يكفل العدالة ويدعمها ، وإذا ما بدا عكس ذلك في أى وقت من الأوقات ، فإن الخطأ والعيب لا يكون في الإسلام ، بل في القائمين عليه وفي المسلمين بوجه عام .

الفصل الرابع

مَسْتَقْبَلُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْقَرْنِ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ *

القرن الحادى والعشرون فى الأساس ، ما هو إلا محطة زمنية قائمة على التقويم الجريجورى المسيحى ، لكن ينبغى ألا يمنعنا ذلك من اعتماده كحدث يمثل مرحلة من مراحل التاريخ المهمة فى حياة البشرية ، وننتقل منه لتقييم أحوال المسلمين وأوضاعهم فى وقتنا الحاضر ونحاول استشراف ما يمكن أن يكون عليه حالهم فى المستقبل . وينبغى علينا فى الواقع أن نجعل من بداية هذا القرن سبباً يستوقفنا لإعادة النظر فى أنفسنا وإعادة فحص الاتجاه الذى اتخذناه هدفاً لمسيرتنا .

فإذا نظرنا قليلاً إلى الوراء وتأملنا ما كان يجرى عند بزوغ فجر الألفية الثانية تحديداً ، لوجدنا أن المسيحيين كانوا آنذاك يتوقعون قيام يوم الحساب ، فى وقت كان المسلمون يعيشون أزهى حالاتهم بتصدرهم قائمة الريادة وإنتاجهم واحدة من أعظم الحضارات فى العالم .

كان المسلمون وقتها يمثلون القوة العظمى فى العالم ، وكان قادتهم هم قادة المجتمع الدولى ، وكانت مدنهم تفخر بأنها من أشهر العواصم من ناحية التجارة والمعرفة ، وكان علماءهم ودارسوهم يعدون أفضل من ملكوا ناصية العلم والمعرفة ، ولا يقلون درجة عن العبقرىات الفذة التى برزت فى الغرب . كان العالم الإسلامى يمثل مركز النشاط السياسى والاقتصادى والاجتماعى فى العالم . لقد كان ابن سينا (٩٨٠-

* أقيمت فى لقاء جمعه بالمثقفين والمهنيين المسلمين فى لندن فى ٣ أكتوبر ٢٠٠٠ م .

١٠٣٧) طيب وفيلسوف زمانه ، فيما كان ابن الهيثم أعظم طبيب وفيزيائي مسلم حاز الريادة في علوم البصريات ، كما شكلت القواعد التي أرساها في هذا المجال أسس علوم الفضاء الحديثة . أما الألفية الثانية فقد كانت زمن البيروني (٩٧٣-١٠٤٨) المؤرخ الرياضى وعالم الفلك العربى الذى ربما كان أفضل علماء الفلك فى زمانه ؛ إذ قال : «إن الأرض تدور حول محورها» ، والشىء نفسه ينطبق على أبى القاسم الزهراوى (٩٦٣-١٠١٣) الذى يعد أفضل الجراحين العرب ؛ لأنه ابتكر آلات جراحية عديدة وأتى بالعجائب فى مجال الطب والجراحة .

التساؤل الملح هو ؛ أين صنائع وإنجازات المسلمين اليوم مقابل هذه الصفحات الناصعة المليئة بأمجاد غير مسبوقه حققها أسلافنا فى العصر الذهبى للأمة الإسلامية؟ إننا نبدو عاجزين تماما عن إنتاج مثل أولئك العظماء من جديد أو تحقيق ما أنجزوه من أمجاد . لدينا بالطبع قادة سياسيون ، لكنهم لم ينجحوا فى إقامة دول عظمى ، ناهيك عن إنتاج حضارات عظيمة من ذلك القبيل . إنهم قادة لم يشتهروا إلا بما يجلبوه من جدل مثير ، ولن يتركوا ذكرى فى أذهان شعوبهم بمثلما نجد من ذكرى عطرة وحية لأولئك العلماء والدراسين المسلمين الذين مازالت الأمة الإسلامية تعيش على ما تركوه من أمجاد ومساهمات من أجل إسعاد البشرية .

وعندما نتأمل كيفية اضمحلال وسقوط أعظم إمبراطوريتين إسلاميتين فى التاريخ الإسلام ، لا يمكننا أن نلقى بالاكبير للقوى الخارجية بقدر ما علينا أن نتوقف عند ما أصاب هاتين الإمبراطوريتين من فساد وانحراف ، ذلك أنه منذ عهد انشقاق الخوارج على سيدنا على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان ، وانتهاء بعصرنا الحاضر ، فإن من يحتكرون الإسلام ويزعمون أنهم يمثلون الفئمة الناجية الوحيدة دون غيرهم ، لا ينفكون يدبجون الخطاب التى تدين التيار الغالب فى صفوف المسلمين وتصنفهم على أنهم غير مسلمين أو غير ملتزمين بأمور دينهم فى أحسن الأحوال . هذه

الفئة بلغت مبلغاً من الشطط لدرجة دفعتها إلى إصاق تهمة الكفر بسيدنا على - كرم الله وجهه ، وشتت عليه أعنف الحملات .

وفى وقت لاحق من التاريخ الإسلامى نجد أنه ما من مجتمع إسلامى أو دولة بعينها بدأت سعيًا حثيثاً لإحداث التنمية وامتلاك المعارف والمهارات المختلفة لتعزيز قدراتها ، بما يوفر لها إمكانية حماية الأمة الإسلامية ، إلا وثار الجدل الدينى العنيف والخلافات الحادة حول توجهها الجديد ، الأمر الذى يؤدى إلى صرف العقول وتبديد طاقات المجتمع من خلال الانجرار وراء حملات الدفاع عن يسمون أنفسهم بالمسلمين التقدميين فى مواجهة هجوم السلفيين . وحتى إذا كان أعداء الإسلام يقفون على الأبواب ، فإن المسلمين لن يجدوا حرجاً فى تصعيد الخلافات والصراعات التى تعصف بمجتمعهم ، وهى صراعات لم ينجحوا على مدى التاريخ فى حلها .

إنَّ الجدل العنيف لن يتوقف أبداً ؛ فالطرفان وربما غيرهم فى بعض الأحيان ، ينضمون إلى ذلك الجدل العقيم ويقتبسون من القرآن والحديث وكتابات وتفسيرات وأقوال عدد من العلماء المرموقين فى الماضى والحاضر . ومهما يكن من أمر ، وبغض النظر عن المصدر الذى يقتبسون منه ، لن يكون هناك إجماع فى يوم من الأيام على تفسير بعينه ، أو طريقة بعينها فى أداء العبادات يمكن اعتبارها تمثل طريق الإسلام القويم والصحيح . وعندما تتسع دائرة الجدل الرسمى وغير الرسمى فى الخطب والأحاديث والمحاضرات وفى عناوين الصحف ومواقع المجلات فى الإعلام الإلكترونى والإنترنت ، فإن الدفاع عن المسلمين وبلدانهم والدفاع عن الأمة فى مواجهة المجدفين وأعدائها الحقيقين ، سينتهى إلى الإهمال والنسيان .

وهكذا نلاحظ أن انشغال المسلمين بخلافاتهم بين بعضهم بعضاً واندفاعهم باتجاه تصعيدها ، غالباً ما يقودهم إلى الاستعانة بالكفار للقضاء على أعدائهم من

إخوانهم المسلمين ، ويمكننا أن نجزم أن كل الفرق المتحاربة ، أو المتخاصمة فى أوساط المسلمين دون استثناء ، لن تجد حرجاً فى أن تربط نفسها بالتزامات مع حلفائها من غير المسلمين ، وتكون رهن إشارتهم فى كل الأمور .

ومما يؤسف له حقاً أنه بعد مرور ١٤٠٠ عام من الهجرة ، مازال المسلمون منغمسين فى جدل عقيم لا منتهاه عما إذا كان يجب قطع رأس المرتد . ورغم أننا لن نستطيع عملياً تنفيذ تلك العقوبة بحق المرتد ، إلا أنه لا بد للجدل والخلافات من أن تستمر لإحداث مزيد من الفرقة فى صفوف المسلمين وتصعيد الاتهامات بين بعضهم بعضاً ، والركون بصفة خاصة إلى محاولات التكفير بين مختلف الطوائف . وإذا كانت تلك الفرق والطوائف التى تدعى احتكار الإسلام ، على حق فيما تذهب إليه من تكفير بعضها بعضاً ، فيمكن الاستنتاج أنه لا يوجد شخص مسلم فى هذه المعمورة . وإذا ما افترضنا صحة ادعاء أحد طرفى الصراع بأنه يمثل الإسلام الصحيح وأن الطرف الآخر قد ضل السبيل ، فإن ٥٠ فى المئة من المسلمين اليوم ينبغى ألا تكون لديهم علاقة بالإسلام بحسب زعم الجهة التى تحتكر الإسلام .

ونتيجة لانشغال المسلمين بالجدل العقيم حول أيهم أحق بادعاء الإسلام الصحيح ، فإن مسيرة بلداننا الإسلامية تمضى فى اتجاه عكسى ، متراجعة عن ركب التطور فى العالم ؛ لأنها عاجزة عن مواكبة التحولات التى تجرى من حولها ، يسهل على الآخرين الهيمنة عليها . وبينما تحاول الأطراف إلقاء اللائمة على المستشرقين بزعم أنهم ضللوا المسلمين عن النهج الإسلامى القويم ، فإنه لا يوجد أى طرف من بينها يجرؤ على تجاهل المستشرقين ، أنا على يقين بأنه حتى إذا لم يكن هناك مستشرقون ، فإن المسلمين لن يعدموا سبباً للاختلاف والجدل حول التفاصيل التافهة بشأن الدين والعقيدة .

عندما تفجرت الثورة الصناعية فى أوروبا ، لم يرصد المسلمون ما سياتى على ذلك التحول من آثار مهمة بوعى تام ، بل الأسوأ من ذلك أنهم لم يهيئوا أنفسهم للإفادة منها بما يمكن من تعزيز قوتهم ويسهم فى تطوير بلدانهم وتنميتها . وبينما كانوا من قبل يتصدرون ريادة المخترعين والمنتجين للسلع الصناعية ، اكتفى المسلمون بدور المراقب الذى يرصد حجم الإنتاج الضخم لسد الحاجة المتزايدة من سلع وبضائع متنوعة . كما أصبحوا يعتمدون اعتماداً كاملاً على منتجات غير المسلمين للتزود لاحتياجاتهم الدفاعية ، حتى من بعض الأطراف التى تدور بينهم وبينها الحروب .

لقد ظللنا منذ زمن طويل جداً ومازلنا نلهث ونهرول من موقع متأخر جداً فى سبيل اللحاق بركب الأمم الصناعية غير أن تلك الأمم لم تتوقف عند تلك النقلة التاريخية ؛ إذ انتقلت فى الوقت الحاضر من عصر التصنيع إلى ثورة المعلومات التى دكت الحصون ولم تترك لنا ما نختبئ خلفه وراء الحدود . بمعنى أننا وجدنا أنفسنا عاجزين تماماً عن وقف تدفق رؤوس الأموال وحركة التجارة وانتقال المعلومات عبر الحدود دون حاجز أو رقيب . وقد أصبحت عقيدتنا ومعتقداتها تتعرض للتشويه من خلال المشاهد الإباحية والمادة البذيئة المتوفرة على شبكة الإنترنت ووسائل الإعلام الإلكترونية الأخرى .

يبد أن هذه التحولات الجذرية ، بما تستبطنه من آثار عميقة ، لم تكن المسلمين عن الماضى قدما فى جدلهم حول من هو أحق بادعاء الإسلام الصحيح ، والمساهمة فى تصعيد الخلافات والصراعات بين مختلف الطوائف الإسلامية . فى ماليزيا ، على سبيل المثال ، ظهرت مجموعة متطرفة أقنعت نفسها أنها ستكون محصنة وخفية عن أنظار ورقابة العباد من خلال تلاوة بعض أى من الذكر الحكيم ، فقررت شن عصيان مسلح ضد ما تسميه الحكومة الكافرة فى البلاد . فى ظاهره قد يبدو هذا التطور مجرد حادثة سخيفة مضحكة ، غير أنه فى الواقع واحد من عوارض الوباء الذى أصاب الأمة

الإسلامية منذ قرون عديدة .

لقد حصلت ماليزيا على استقلالها الوطنى منذ ٤٣ عاماً وهى فترة ليست طويلة مقارنة بأعمار الشعوب . وقد نجحت البلاد خلال تلك الفترة فى المحافظة على الاستقرار والسلام الاجتماعى ، برغم ما يتوفر بها من إمكانات الانفجار ممثلةً بالتعددية الدينية وسط السكان الأصليين (الملاويين) وأولئك الذين ينحدرون من أصول صينية وهندية وغيرهم . ويعتنق الملاويون الذين يشكلون غالبية سكان البلاد ، الدين الإسلامى ، بينما يدين المواطنون من أصل صينى بالبوذية ، والمواطنون من أصل هندى بالهندوسية . هناك صعوبة حقيقية فى أن يقبل هؤلاء الناس المختلفون على العيش فى مكان واحد . فالملاويون المسلمون يمتنون لحم الخنزير الذى يسيل له لعاب المواطنين من أصل صينى ، بينما يمتنع المواطنون من أصل هندى عن تناول لحم البقر الذى يحبه الملاويون . مع ذلك فإن المواطنين الماليزيين بمختلف معتقداتهم وتباين جذورهم الثقافية ، نجحوا فى إيجاد معادلة تكفل لهم الجلوس مع بعضهم حول طاولة واحدة لتناول الطعام ، وكل واحد منهم يقدر إحساس الآخر تمام التقدير ، ويراعى شعوره حق الرعاية ومما لاشك فيه أن الفضل فى هذا الإنجاز يعود للقيادة المسلمة التى تهيمن على مقاليد الأمور فى البلاد . هذه القيادة نجحت فى إحداث التنمية فى ماليزيا بمعدل عال وسريع لتتحول البلاد من دولة تعتمد كل الاعتماد على المطاط والقصدير ، إلى واحدة من أكبر الدول المنتجة والمصدرة للرقائق الإلكترونية (مايكروتشيبس) والثلاجات ومكيفات الهواء . أصبحت السلع الصناعية تشكل ٨٢ فى المئة من صادرات ماليزيا التى تحتل المرتبة السابعة عشرة فى قائمة الدول الأكبر حجماً فى النشاط التجارى على مستوى العالم .

تعتمد ماليزيا نظاماً ديمقراطياً تجرى فيه انتخابات تشريعية كل خمس سنوات ، يخوض الحركة فيها مرشحون من صفوف المعارضة ، وتتوفر لهم فرص النجاح كافة ،

لدرجة أن بعض أحزاب المعارضة نجحت أكثر من مرة في الهيمنة على حكومات ولايات عدة . وقد ظل ائتلاف الجبهة الوطنية الذي يتألف من ١٤ حزباً يشكل المسلمون غالبيتها ، يسيطر على الحكومة الاتحادية منذ الاستقلال وحتى يومنا هذا ، عن طريق انتخابات حرة ونزيهة .

ويعد الحزب الإسلامى الماليزى الذى يعرف اختصاراً بـ(باس) أكثر الأحزاب اعتماداً على العنف فى البلاد ، وقد ظل هذا الحزب يزعم أن من يعطى صوته لمرشحيه فى الانتخابات ، سيضمن مقعده فى الجنة فى الآخرة ، ويسعى إلى تضليل عامة الناس بأنه يجسد الإسلام الصحيح ، وأن المسلمين الآخرين فى البلاد ما هم إلا كفاراً وعصاة . ورغم أننا كنا نعتقد أن هذه المزاعم لن تنطلى على أحد ، إلا أن قيادة وأعضاء (باس) استمروا فى هذا المنهج الخطير ، فشنوا حملات واسعة ابتداء من رياض الأطفال ومروراً بالمراحل التعليمية المختلفة وانتهاء بالجامعات ، لتأجيج الكراهية ، والحقد بين المواطنين . وقد نجحوا للأسف ، فى غرس الكراهية بين عامة الناس ، وألبوهم ضد الائتلاف الحاكم فى البلاد ، لدرجة أنهم نجحوا مؤخراً فى الاستيلاء على الحكومة فى ولايتين . ويلاحظ أن أعداء ماليزيا بالخارج الذين لا يريدون للبلاد استقراراً وتقدماً ، وجدوا ضالتهم فى هذا الحزب ، فأخذوا يشجعون أنشطته ، لا لغرض يصب فى مصلحة الإسلام والمسلمين ، بل لخلق عدم الاستقرار فى البلاد وتهديد وحدتها وتقويض الرفاه الذى تحقق فيها .

نحن لانود أن نعير هذه الفئة المارقة اهتماماً يذكر ، لكننا نشعر بالقلق ؛ لأنها سادرة فى أنشطتها لدرجة أن عدداً متزايداً من المواطنين أصبح يؤمن أن نظام الحكم القائم فى ماليزيا نظام كافر لا علاقة له بالإسلام . ولاأظننى بحاجة لأن أذكركم بأن المجموعة التى تسمى نفسها «المعونة» والتى دبرت مؤخراً محاولة مسلحة للإطاحة بالحكومة الماليزية المنتخبة ، هى فرع أصيل من منظمات الحزب الإسلامى الماليزى

(باس) وكانت وما زالت تؤمن إيماناً قاطعاً بأن النظام الحاكم بعيد كل البعد عن الدين الإسلامي ، وينبغي تغييره باستخدام العنف والقوة .

نحن مستعدون بطبيعة الحال وفي أى وقت لخوض المنافسة فى الانتخابات البرلمانية على المستوى الاتحادى وعلى مستوى الولايات ، والتي تجرى فى البلاد كل خمس سنوات ، ونقبل بما تسفر عنه من نتائج ونتقيد بها ، لكن أن يفكر أى شخص كان فى تغيير النظام بأسلوب التمرد المسلح ، فهذا شىء آخر ولا يمكن السكوت عليه .

ويبدو أن المجتمع المالىزى المسالم الآمن غير محصن من البغضاء والكرهيات الدينية التى انتشرت فى معظم الدول الإسلامية وجعلت الحياة فيها أشبه بالجحيم وأقعدتها عن تحقيق التنمية والتطور .

من الجوانب الجديرة بالملاحظة ، أن المسلمين يبحثون دائماً عن أسباب تسوغ لهم شن حرب الجهاد ، لكنهم لم ولن يتوخوا الدقة الكافية فى المشروعية الدينية للجهاد ، مما أدى إلى إضعاف الدول الإسلامية . ومن الواضح أن مفهوم أولئك المسلمين عن الجهاد هو أن يذهب المرء لجهة القتال غير مبال بالموت ، ليفوز بالشهادة ويصبح شهيداً ضحى بحياته من أجل الإسلام ونصرة قضاياها ، وهو أمر يكفل للمؤمن مكانة رفيعة فى الجنة . هذه العقلية لا تهتم كثيراً بكون تضحية الإنسان بنفسه قد لا تسهم بمثل ذرة فى دفع قضايا المسلمين الرئيسية إلى الأمام . كما أنه لا يهتمها فى شىء كون ما أنت به من صنيع قد تسبب فى حدوث نكسات خطيرة لمسيرة الأمة الإسلامية ، لم تتخلص من آثارها السلبية على مدى عقود ، بل قرون .

إن أعداء المسلمين وقوى الكفر لا حصر لهم ، غير أن من يدعون لأنفسهم البحث الدائم عن الشهادة ، لا يستهدفون الكفار بقدر ما يسלטون سهامهم على المسلمين أنفسهم ، ويركزون مخططاتهم العنيفة نحوهم . ورغم أن المولى عز وجل قد

نهى عن قتل المسلم لأخيه المسلم إلا بالحق ، فإن الجماعات المتطرفة لا تجد صعوبة فى الالتفاف حول هذا الأمر الإلهى من خلال رمى الناس بالكفر ، ولا تعدم المبررات التى تسوغ لها قتل المسلمين حتى إذا كانوا من الملتزمين بأوامر الله بإيمان عميق ، ويؤدون الشعائر والطقوس الدينية كلها ، ويعيشون حياة إسلامية خالصة . هذه الجماعات تنظر إلى كل من لم يندرج تحت لوائها ، على أنه ليس بمؤمن مئة فى المئة ، وهو بذلك كافر ينبغى قتله .

ثمة قناعة وسط المتطرفين بأن الحكومات فى البلدان الإسلامية دون استثناء ، غير ملتزمة بالإسلام وينبغى تأليب الناس عليها . ويصرف النظر عن كل ما تفعله تلك الحكومات فى سبيل الامتثال لأوامر الله جل شأنه والعقيدة الإسلامية ، فإنها تظل غير إسلامية بالدرجة التى تراها الجهات المتطرفة مطلوبة أو كافية . إنها مجرد حكومات وثنية تسيطر عليها شرذمة من المرتدين . وبما أنها حكومات يهيمن عليها مرتدون ، فإن قتلهم ومشايعهم واجب لا يخالف التعاليم والأوامر الإلهية . دعونا نتأمل تجربة الخوارج الذين بلغ بهم الغلو والتطرف مرحلة لم يتورعوا فيها عن تصنيف سيدنا على - كرم الله وجهه ، الخليفة الرابع وابن عم الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، والذي قاتل إلى جوار النبى وأبلى بلاء حسنا فى مجاهدة الوثنيين - على أنه كافر !!!

هؤلاء الأفراد الذين يطلقون على أنفسهم صفة «المجاهدين» قتلوا من المسلمين أكثر مما قتلوا من الكفار أعداء الإسلام . وقد تسببوا فى إعاقة مسيرة الحكومات الإسلامية وعطلوها عن إحراز أى تقدم نحو الانتقال ببلدانها إلى مرحلة النمو الاقتصادى الشامل بما يساعد على إعادة بناء الحضارة الإسلامية واستعادة الأمجاد الإسلامية الغابرة .

صحيح أن هذه الجماعات المتطرفة استهدفت بعنفها أهدافاً غير إسلامية أكثر من

مرة ، لكنها لم تجن من تلك الهجمات غير قتل الأبرياء وإيقاع التخريب والدمار بالمباني والطائرات والممتلكات الأخرى ، وهى نتائج لم تحمل غير المسلمين على الخضوع والانصياع لمشيئة الغلاة ، وجلبت فى المقابل سمعة سيئة لديننا الإسلامى ومعتقيه .

لاشك أن المسلمين لم ينجوا من سلوك وممارسات تلك الجماعات غير التعاسة والبؤس والمزيد من الكراهية والإدانان من المجتمعات الأخرى إضافة إلى تعطيل مسيرة التنمية والتقدم فى البلدان الإسلامية ، وإحباط أى جهد يهدف إلى تأهيل الأمة الإسلامية . ومما يحز فى النفس كثيراً أن هذه الجماعات ستتقل بحقدتها الأعمى وعنفها غير المبرر إلى المستقبل لإفساد حياة الأجيال المقبلة . بمعنى أن علماءنا المعنيين بشئون الدين يسهمون فى تكريس التطرف والعنف فى ذهنية الشباب من خلال ما يطلقوه من مواعظ فى أحاديثهم وخطبهم دون مراعاة لطبيعة الأوضاع ، وهو أمر يصب فى المجرى العام للغلاة والمتعصبين الذين يجدون معينا لا ينضب لاستقطاب الناشئين فى المستقبل . إن قصور علمائنا الذين يفترض فيهم تربية أجيالنا القادمة تربية إسلامية صحيحة ، عن إدراك خطورة الأوضاع فى الوقت الراهن وطبيعة المستجدات والتحديات القائمة حالياً ، يسهم بغير قصد فى إلحاق ضرر كبير بالإسلام وقضية المسلمين .

إن التساؤل المطروح بالحاح هو ماذا سيكون عليه مستقبل المسلمين فى القرن الحادى والعشرين الميلادى؟ أقول بكل صراحة :إننا فى القرن الخامس عشر الهجرى وأنا غير متفائل . نحن ندرك أن المسيحيين كانوا فى القرن الخامس عشر الميلادى يحرقون السحرة وكانوا يعرضون صكوك الغفران للبيع . كان جميع المسيحيين دون استثناء ، يعتبرون خارجين عن دينهم أو على الأقل غير ملتزمين به وتتم إدانتهم بالردة وقتلهم ميدانيا . وقد وجد الناس ضالتهنم فى العالم الجديد (الأمريكتين) فلدجأوا إليه أحاداً وزرافات هربا من القمع الدينى .

اليوم ينبغي ألا يغيب عنا أن عددا كبيرا من المسلمين يعيشون في الشتات بالأمريكتين تحديدا ؛ لأنهم اضطروا للهرب باعتبارهم غير مرغوب فيهم في بلدانهم الإسلامية .

وكما كان الحال بالنسبة للاجئين المسيحيين الذين نجوا بجلدهم من جحيم ومحارق المسيحية ، فإن معظم جموع المسلمين الذين اضطروا للهجرة من بلدانهم ، أناس موهوبون وحرفيون بارعون وعلى قدر عال من المعرفة والكفاءة . ورغم أن هذه الجماعات مازالت على دينها الإسلامي وملتزمة بأداء شعائرها وطقوسها الدينية ، إلا أنه لا أمل لها في أن تتمكن من تحويل بلدانها بالتبني إلى بلدان إسلامية . وسيظل المسلمون في المهجر يشعرون بالغرابة وسط الأغلبية غير المسلمة ، التي لن تخفف من حدة عدائها لهؤلاء الغرباء بأكثر من وجه .

لقد تمكنت أعداد كبيرة من المسلمين المهاجرين من إسداء خدمات جليلة لا تقدر بثمن لبلدانهم بالتبني ، وساهمت سواء برغبة منها أو على مضض ، في مراكمة مزيد من الثروات لتلك المجتمعات غير الإسلامية ، ورفدتها ببعض المواهب والمهارات على قدر بالغ من الأهمية . وبالمقابل فإنهم اضطروا لحرمان بلدانهم الأصلية (الإسلامية) من تلك المواهب والمهارات السديدة رغم حاجتها الملحة لها في الواقع . نعم إن بلداننا الإسلامية بحاجة ماسة لتلك المواهب والمهارات الرفيعة أكثر من بلدان الشتات والمهجر ، غير أن هؤلاء المهاجرين لن يجدوا للأسف إمكانية توظيف مواهبهم ومهاراتهم وكفاءاتهم العالية في حال إذا ما قرروا العودة إلى بلدانهم الأصلية . ذلك أن هذه البلدان من الدول الفقيرة ويعيش مواطنوها حالة فقر مدقع ، ولا تتوفر فيها الإمكانيات والتجهيزات اللازمة للبحث والتجريب والعمل . إذا ما تركنا قضية شح الموارد المالية بالبلدان الإسلامية جانبا ، فإن الأعمال والإنجازات الجليلة التي يمكن أن يسديها هؤلاء المهاجرون لبلدانهم الأصلية ، لن تجد التقدير والتقييم السليمين بينما لا

توجد ضمانات بعدم اتهام العائدين بعدم الالتزام بالإسلام أو حتى الكفر والزندقة ، حتى إذا كانت سمات الصلاة تكسو وجوههم .

إننى لعلى يقين تام بأن عددا مهماً من المسلمين الذين هاجروا بحثاً عن فرص أرحب و حياة أفضل ، مازالوا يولون بلدانهم الأصلية ولاءً ما بعده ولاء ، ويهتمون بها اهتماماً خاصاً ، ولن يترددوا عن إسداء كل جميل لها ولبنى جلدتهم ، ويحنون دائماً للعودة إلى مسقط رؤوسهم ، غير أن عوامل كثيرة تحول دون ذلك .

لكل تلك العوامل والأسباب ، فإن عدداً محدوداً جداً من أولئك المهاجرين سيفكرون فى العودة إلى بلدانهم الأصلية ، لكن الأخطر والأمر هو أن بعضاً منهم قد يفكر فى التخلي عن عقيدته الإسلامية (ردة) لكى يتم إدماجه على نحو كامل فى بلاده بالتبني ، وتسكن هواجسه ويشعر بالأمن والاستقرار فى مجتمعه الجديد . هذا سيناريو تراجمى لما سيكون عليه حال المسلمين فى المستقبل . لكن ينبغى ألا نسلم تماماً بأن هذا السيناريو قادم .

وإذا جاز لى ، فإننى سأعرج قليلاً على منهج المسلمين الماليزيين فيما يتصل بالعمل على إعادة الصحوة والريادة للأمة الإسلامية .

نحن فى ماليزيا نؤمن بأن استعادة أمجاد المسلمين الضائعة تتطلب وقتاً طويلاً قد يستمر لبضعة عقود أو حتى قرون عديدة ، الأمر الذى يُحتم علينا أن نتحلّى بسعة الصدر والصبر والجلد فى مجابهة الصعاب والعقبات وحتى يتسنى لنا المضي قدماً فى مشروعنا الحضارى ، فإننا نعمل على إرساء دعائم السلام والأمن والاستقرار فى البلاد ، ونقيم إدارة مستقيمة وفاعلة لتضطلع بتنفيذ السياسات والتنمية التى تقرها حكومة يتم انتخابها من قبل الشعب الماليزى ، فى عملية انتخابية حرة ونزيهة كما أننا نعمل على تأهيل المواطنين المسلمين تأهيلاً عالياً فى مجالات الآداب والفنون والعلوم

والتكنولوجيا ، دون أن يكون ذلك على حساب إلمامهم بالمعرفة المتصلة بالدين الإسلامي وأداء الشعائر الدينية . ذلك لا يعنى بالطبع ، أننا نسعى لتمييز المسلمين على المواطنين الآخرين ، بقدر ما نحاول إعدادهم للمنافسة والإفادة من فرص مراكمة الثروة على نحو شرعى وعادل . نحن نعمل على إعداد المالىزيين روحياً بما يمكنهم من مجابهة التحديات التى تطرحها المجتمعات المعادية للإسلام والمسلمين . كما نسعى لإعدادهم لعدم الركون والاستسلام للعاطفة ، ومجابهة الصعاب بواسطة التخطيط العلمى ووضع الاستراتيجيات ، على أن يتحللوا بالشجاعة والصبر فى مواجهة التحديات ، وأن يعملوا على الإمام بنقاط الضعف والقوة لدى الخصم ، بما يمكنهم من التخطيط السليم للتغلب على المخاطر وإحراز النجاح والنصر . نحن قطعاً نعمل على ألا ينجرف المسلم المالىزى فى معركة مع عدوله ، دون معرفة بنقاط ضعف الأخير ومكامن قوته ، ومن معرفة لكيفية إدارة المعركة ، لا لسبب إلا لاعتقاد لا يقوم على أساس لنيل الشهادة .

إننا على قناعة تامة بأن جهادنا ينبغى أن يتركز أولاً على بناء دولة إسلامية يقودها إداريون ومسئولون يتحللون بالعقلانية وعلى قدر عال من المهارة والكفاءة ، وملمون بالعلوم التكنولوجية وخبراء مطلعون على قضايا التجارة والصناعة ، وضالعون فى السياسة والاقتصاد والاجتماع ، على أن يتصفوا بالنزاهة والاستقرار والتوازن الروحى . فى تقديرنا أن دولة يقودها كادر بهذه المواصفات والمؤهلات ، قادرة على تقديم الكثير والكثير لخدمة قضايا الإسلام والمسلمين . هذا هو عين ما يسعى لتحقيقه المسلمون الذين يهيمنون على الحكومة المالىزية فى الوقت الحالى ، علماً بأن زملاءنا فى الائتلاف الحاكم من غير المسلمين لا اعتراض لهم على خطط إعادة تأهيل المسلمين ؛ لأننا أوضحنا لهم على نحو مقنع أن حكومة يقودها المسلمون ستكون عادلة ومنصفة لهم ولغيرهم من الكتائبين وبقية المواطنين بالبلاد ، دون أن تخالف التعاليم الإسلامية

السمحة .

إننا في ماليزيا نأمل بطريقة أو بأخرى ، أن نضئ الطريق الذى يقود المسلمين والبلدان الإسلامية باتجاه إحداث النهضة الإسلامية وبعث الأمة من جديد . ونأمل أن يجد إخواننا فى العقيدة فى تجربتنا ما يمكن أن يصلح ليكون نموذجاً يحتذى . هذا الأمل مازال قائماً رغم أننا رأينا فى ماليزيا مؤخراً ظهور صراعات بين المسلمين أنفسهم ، وهى صراعات يمكن أن تتسبب فى انحراف مسيرتنا عن مسارها وهدفها . وبما يؤسف له حقاً أننا رأينا عدداً من المهنيين الماليزيين المتعلمين ينزلقون بتأثير من حقد أعمى ، وراء حملة عداوية لأناس كان لهم فضل تعليمهم والارتقاء بهم إلى مراتب مرموقة فى سلم الوظيفة العمومية . كيف لهؤلاء المتعلمين أن ينساقوا وراء المتطرفين وأن يجعلوا جلاً تفكيرهم مُنصباً على نيل الشهادة من خلال إحداث القلاقل فى المجتمعات المسلمة ، أكثر من التفكير فى أمن واستقرار الأمة الإسلامية وإعادة تأهيلها لإعادة إنتاج الحضارة الإسلامية فى ثوب جديد

أحاول بقدر المستطاع ، أن أكون متفائلاً بمستقبل المسلمين فى القرن الحادى والعشرين من الألفية الثالثة الميلادية ، لكننى حقيقة أجد صعوبة فى أن أكون كذلك ؛ لأننى لا أجد إلا عدداً محدوداً من المسلمين ممن يدركون الحقيقة والواقع . نحن نلاحظ أن الغالبية العظمى من المسلمين تعيش فى عالم وهمى ، يصور فيه الضعف على أنه قوة ، ويعد الإخفاق نجاحاً . ويبدو أنه على الرغم من مرور نحو ١٤٠٠ سنة على مجيء الرسالة المحمدية إلا أن عدداً كبيراً من المسلمين مازال عاجزاً عن فهم وإدراك طبيعة رسالة عقيدته نفسها ، هذا الرسالة التى لم تكن فى يوم من الأيام عبثاً على أحد . . ومن الواضح أننا سنستمر فى جدلنا العقيم وخلافاتنا الحادة حول التعاليم التى جاء بها ديننا الحنيف . وسوف تتصاعد هذه الخلافات وتؤدى إلى الاحتراب بيننا ليقتل بعضنا بعضاً - ونسدى دون وعى - خدمة كبيرة لأعدائنا ، طالما أننا نحارب بعضنا بعضاً بدلاً

من إعداد العدة لمنازلة أعداء الإسلام .

أنا أسف لأننى لم أر فى أقق القرن الحادى والعشرين نهضة حضارية إسلامية . نحن لم نستيقظ بعد على حقائق عصر الثورة الصناعية ، ناهيك عن عصر المعلومات . وما لاشك فيه أن عدداً محدوداً منا يدركون المستجدات والتحديات الهائلة ، لكنهم ليسوا فى وضع يمكنهم من فعل شئ يذكر ، نظراً لضآلة عددهم . هذه الشريحة المستتيرة منا مضطرة للعيش فى المنافى وستلحق بها أعداد متزايدة فى المستقبل .

لدى أمل بأن يكون هناك أناس آخرون فى صفوفنا ينظرون إلى المستقبل بنظرة إيجابية ليحملونا على الاقتناع بأن القرن الحادى والعشرين سيشهد استعادة الحضارة الإسلامية بكل ما تعنيه من عنفوان وإنجازات . إننى أتطلع إلى أن أقتنع بوجهة نظر هذه الفئة من المسلمين ، بما يمكننى والمسلمين الآخرين من المساهمة بقدر المستطاع بما يؤدى إلى النهضة .

الفصل الخامس

أهميّة الحجّ ومغزاه الحقيقيّ *

الحج حدث فريد لا نظير له في العالم ، حيث يأتي أكثر من مليوني من كل بقاع الأرض ومختلف مشارب الحياة ، وغالبا ما يسافرون مسافات طويلة ويتحمّلون أشد الصعاب ليتجمعوا في مكة المكرمة والمدينة المنورة وعلى صعيد عرفات ، كي يؤدوا شعائرهم ونسكهم ، ملين خاشعين لله سبحانه وتعالى ، مجددين تأكيد إيمانهم بدينهم . . الإسلام .

فالحج إذا ليس مجرد شعيرة دينية وإنما هو أيضا مؤتمر جامع للأمة الإسلامية ، يسوده الوثام والشعور الحقيقي بالوحدة والأخوة الإسلامية بين الحجاج الذين يفدون من بلاد عديدة مختلفة ، وهذا هو المغزى والمكسب الحقيقي للحج ، إلى جانب أدائه كفریضة تمثل الركن الخامس للإسلام .

وعندما يؤدي الحجاج شعائرهم ويكثرون من الدعاء لأنفسهم ولجميع المؤمنين ، فإنهم يكسبون الحسنات ويحققون السكينة والطمأنينة الذاتية الشخصية . لكننا نجد أن الشعور بالأخوة الإسلامية في الحج يشكل رسالة لجميع المسلمين والأمة الإسلامية التي أصبحت منذ سنوات ، بل قرون عديدة منقسمة إلى طوائف وأمم كثيرة متفرقة ومتنازعة في أغلب الأحوال ، تحارب بعضها بعضا ، ولم يعد المسلمون يشعرون بأنهم أخوة ، رافضون مبدأ أساسياً في الإسلام ألا وهو أنهم أمة واحدة .

* أقيمت في المؤتمر الدولي للحج المنعقد بالعاصمة الماليزية كوالالمبور في ٣٠ سبتمبر ٢٠٠٠ م .

وبطبيعة الحال ، فإن الامتناع عن النزاع والقتال هو جزء أصيل من الحج ؛ لأن القتال محرم خلال الشهر الحرام وفي المناطق المحرمة ، وهذا أمر كان كذلك منذ أيام الجاهلية . غير أن الإسلام ذهب إلى أبعد من ذلك ؛ إذ حرم قتل المسلم للمسلم في أى مكان وزمان .

الآن بات واضحاً تماماً أن المسلمين يخالفون هذا الأمر بشكل صارخ ؛ إذ يحارب بعضهم بعضاً ويرمون مخالفيتهم من إخوانهم المسلمين بالكفر والردة عن الدين في بعض الأحيان ليبرروا قتلهم ، بل إن الأمر بلغ بهم مبلغاً جعلهم لا يقلقون ولا يلقون بالأوهام يمارسون الحروب والقتل والتكفير بين بعضهم البعض . بمعنى آخر يمكننا القول إن كثيراً من إخواننا المسلمين قد عادوا القهقري إلى الجاهلية الأولى قبل الإسلام حين كانت القبيلة هي محط الولاء عند القبائل العربية ، وينحاز المرء إلى قبيلته حتى لو كانت على خطأ .

واليوم ، تنطبق هذه الحال على المسلمين ودولهم وأحزابهم السياسية ، حيث يدينون لها بالولاء ويحاربون ويقتلون مسلمين آخرين من أجل ولاءات ضيقة ، ويرون أن دولهم وأحزابهم وطوائفهم لا يمكن أبداً أن تكون على خطأ .

وهكذا ، رغم الحج والأمر بعدم قتال المسلم للمسلم ، نجد المسلمين منقسمين بشدة فيما بينهم ، يتقاتلون بلا ضمير أو شعور بالندم ، بل حتى إنهم يساندون غير المسلمين من أجل أن يروا أعداءهم المسلمين مهزومين ، أذلاء خاضعين ومضطهدين . إنهم في الحقيقة لا يبهون للإخوة في الإسلام ، إنما ينقضونها لتبرير هجومهم على المسلمين الآخرين ، فمعاناة هؤلاء لا تعنى شيئاً لهم . وحتى إذا تعرض أخوان لهم في الإسلام للقمع والمذابح فلن يهتّبوا لنجدتهم ؛ لأنهم أيضاً مشغولون بنزاعاتهم الخاصة بالحروب فيما بينهم .

يخبرنا القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف كيف أن الرسول محمداً - صلى الله عليه وسلم ، أبطل الولاءات الضيقة والعصبية للقبائل العربية خصوصاً أهل المدينة المنورة (الذين آخى بينهم) عبر تعاليم الإسلام التوحيدية ، وأسس أول دولة إسلامية من قبائل عديدة . وقد ألحق المسلمون المتحدون الهزيمة النكراء بعدوتهم قريش ، فأصبحت شبه الجزيرة العربية بكاملها موحدة لأول مرة . كما يحدثنا التاريخ أن المسلمين مضوا قدما بعد ذلك ليلفتحوا معظم مناطق العالم المعروف في ذلك الوقت فقط ، بل ليوحدوا الشعوب من مختلف الأعراق والعقائد ، وليقيموا إمبراطورية لم يشهد العالم مثيلا لها من قبل ورغم أن الكثيرين في تلك الإمبراطورية ظلوا على أديانهم الأصلية ، إلا أن الغالبية اعتنقوا الإسلام وتركوا لغاتهم ليتحدثوا باللغة العربية ، ونما المجتمع الإسلامى ليصبح أكبر كثيرا من جملة مجموع العرب ، وسار في طريقه لتحقيق المجد والعظمة لوجه الله سبحانه وتعالى طوال ثلاثة عشر قرناً .

وطوال تلك الفترة لم يعد هناك حديث عن أن الدنيا الفانية ما هي إلا ملك ومتاع للكفار ، وأن الله سبحانه وتعالى أعد للمسلمين الدار الآخرة التي لا تفتنى ، وبالتالي يجب على المسلمين ألا يسعوا لكسب عرض زائل لتوسيع أرضهم أو يجتهدوا لزيادة عددهم .

وقد كان المسلمون في العصر الذهبي لدولتهم متسامحين ، فدرسوا أعمال العلماء السابقين بمن فيهم فلاسفة اليونان من أجل أن يزيدوا معارفهم ويطبّقوها ، واليوم نقرأ عن علماء مسلمين أجلاء وعلماء رياضيات وفلكيين وبحارة بارعين وخبراء مهرة في معالجة المعادن والزجاج ومنتجين لأجود أنواع السلع من أجل سد حاجات شعوبهم وبقية شعوب العالم ، لكننا عجزنا تماما في وقتنا الحالي عن إضافة أى اسم جديد لتلك الكوكبة ، ولا يوجد بيننا من يهتم بتحقيق المجد والعظمة التي حققوها في الماضي . نحن نعلم أننا معشر المسلمين اليوم أقل تسامحا ولانتهم إلا بعلوم

الدين والعبادات ، مع أن فقه الشعائر الدينية ليس هو الشيء الوحيد الذى ألزمنا به الإسلام أصلاً ؛ أى أننا ننظر لأى أمر لا يتصل مباشرة بقضايا الدين ، على أنه لا يجلب حسنة ولا منفعة وينبغى ألا نشغل به بالنا ونضيع من أجله وقتنا . إن الدين متصل بالشعائر وبقية العبادات الأخرى التى يجب علينا أن نؤديها لكى يجزيها المولى جزاءً حسناً فى الدار الآخرة .

إن هناك صعوبة فى تحديد تاريخ بعينه لنقول إن ذلك هو اليوم الذى أصبح فيه المسلمون أقل تسامحاً ، ورفضاً لما نصفه بأنه لا دينى (دنيوى) ولا يمت للدين بصلة ، بل يذهب البعض منا أبعد من ذلك كثيراً ليصف كل شئ لا يتعلق مباشرة بالمعارف الإسلامية والشعائر الدينية بأنه علمانى ويجب رفضه جملة وتفصيلاً . ولاشك أن تدهور وانحطاط المسلمين قد جاء متزامناً بالضرورة مع بداية رفضنا لكل ما نصفه بأنه غير إسلامى . نحن نقول أن ما يحدث فى الحياة الدنيا لا يهمنى كثيراً ؛ لأن مصيرنا الجنة . أما أولئك الناجحون فى هذه الدنيا فسيتتهون إلى الحميم فهل نحن يقيناً أننا بلا ذنوب وأنا سندخل الجنة حتماً؟

لقد كلفنا القرآن الكريم بأن نحافظ على سلامة أنفسنا بوصفنا مسلمين وألا نلقى بها إلى التهلكة ، وأن نعد ما استطعنا من قوة وأن نتجهز بكل الضروريات الدنيوية لكى ندافع عن أنفسنا ونرهب أعداءنا ، إلا أننا لم نأتمر بهذا التكليف كما هو واضح تماماً . ونتيجة لذلك فإن المسلمين فى جميع أنحاء العالم مضطهدون ، وقد أرغم كثير منهم على اللجوء والهجرة إلى دول غير إسلامية . وفى هذه الحالة لا يمكن الزعم بأننا نفتدى بالمسلمين الأوائل الذين هاجروا إلى دولة الحبشة المسيحية للنجاة بأنفسهم من اضطهاد كفار قريش ، لقد فرّ أولئك بدينهم من مكة غير الإسلامية ، بينما يفرّ المهاجرون المسلمون اليوم من بلادهم الإسلامية ومن إخوانهم المسلمين .

هل يمكننا إذاً ، هل القول أن اعتمادنا على غير المسلمين لتأمين حاجتنا الدفاعية يتفق مع تعاليم الإسلام؟ نحن نؤدى الحج كل عام قادمين على طائرات صنعها غير المسلمين ، وأحياناً يقودها طيارون غير مسلمين ، وهذا يعنى أنه بدون تكنولوجيا هؤلاء الناس فلن يؤدى شعيرة الحج إلا عدد قليل منا .

ونحن نقول إن مساعدة أحد ما على أداء عبادة واجبة ، فهى واجب لا يقل عن العبادة نفسها . لكننا نجد أن ما فعلناه قليل ، بل أننا عاجزون عن مساعدة إخواننا المسلمين على أداء فريضة الحج . هل نصدق أننا لم نعص أوامر ديننا ولم نرتكب إثماً لفشلنا فى أداء فرض الكفاية عن طريق الإعداد للدفاع عن الأمة ومساعدتها فى أداء فريضة واجبة؟ وهل نصدق حقاً أن لنا مكاناً فى الجنة رغم هذه الإخفاقات وإخفاقات أخرى كثيرة؟!

ينبغى ألا نكون متصالحين مع أنفسنا للغاية وما نزعمه لها من أن لها مكاناً فى الآخرة ، بل يجب أن نختبر حقيقة ما إذا كان المطلوب منا فقط هو التركيز على أداء فرض العين وإهمال واجباتنا الدنيوية . فالإسلام لا يعلمنا أن نكون أنانيين نؤدى العبادات لكسب الأجر لأنفسنا فقط وأن نتجاهل واجباتنا المفروضة علينا لصالح المجتمع الإسلامى .

إننا نقول بفخر إن الإسلام دين غير عادى . وأنه منهج متكامل للحياة يجب أن يمارسه المسلمون ولا يقتصر تحديداً على الاستعداد للآخرة فقط وإهمال مصالح الأمة كل الإهمال ، والاكتفاء بموقف المتفرج بينما نرى إخواننا المسلمين يقاتلون بعضهم بعضاً ونرى الآخرين يمارسون ضدهم أبشع أنواع القمع دون أن نهباً لنجدتهم .

إذا كنا نعتقد أن موقفاً من هذا القبيل هو ما نقصده بالمنهج المتكامل فى الحياة ، فعلى الدنيا السلام ، لكننى لأعتقد أن منهج الإسلام فى الحياة يقتصر على أداء الشعائر

الدينية الواجبة فرضاً وتحصيل المعرفة التي تكسب الثواب للأخرة .

إن منهج الإسلام في الحياة هو الإسلوب الذي يكفل للإسلام والمسلمين الاحترام والتقدير ويحميهم من اضطهاد الآخرين ، ويضمن أن تكون الحكومات الإسلامية ماهرة في إدارة شئون الحكم ، وتوفير ضرورات الحياة ، وتسيير دولاب الحكم على نحو عقلائي وعادل بما يكفل الريادة للمسلمين في مجال العلوم الدنيوية ، ويمكنهم من استغلال الموارد التي حباهم المولى عز وجل بها من أجل رفاهيتهم ومد يد المساعدة للفقراء والمحتاجين والبؤساء من المسلمين وغير المسلمين ، مما يجعل منهم نموذجاً لكل القيم النبيلة والصفات المحببة للجنس البشري بصفة عامة .

هناك من يعتقد أن الشعائر الدينية التي تؤديها هي مجرد تعبير عن الإيمان ولا تمثل إرشادات لحياة المسلمين ، ويكفي فقط أن تحقق لنا الأجر ، وليس هناك شيء آخر يمكن أن نتعلمه من أداؤها . لكن آخرين يعتقدون أنها تعلمنا الكثير حتى نكون مسلمين صالحين ، ومن هذا المنطلق فإن الحج له وظيفة ودلالة أكثر من كونه مجرد عبادة ، ويجب أن يتعلم المسلمون منه المزيد من الدروس ، وأن يكون هناك مغزى من تعبيرنا عن الخضوع التام لله سبحانه وتعالى .

أنتم هنا اليوم في هذا المؤتمر الدولي تعبرون عن مغزى أهداف شعيرة الحج لتعملوا على توسيع معرفتنا واستجلاء الدروس والعبر المستفادة منها ، وأنا واثق من أن الله سبحانه وتعالى سيهبكم الرشد ويهديكم إلى الصراط المستقيم بما يمكنكم من إضاءة الطريق أمامنا وينير سبيل الأمة الإسلامية بأسرها .

ولاشك أن المسلمين اليوم في حاجة ماسة لمن يهديهم إلى الرشد والطريق القويم ؛ لأن كثيرين منهم فقدوا جادة الصواب ، ونحن نريد العودة إلى الطريق الصحيح القويم ، لكننا مضطربون ومحتارون بسبب التفسيرات المتضاربة ، التي لا

تحصى ولا تعد ، لديننا الخفيف لدرجة جعلتنا أعجز ما نكون عن استخلاص مغزى
وجوهر الرسالة المحمدية ، وبما يجعلنا من أتباعها الحقيقيين المخلصين ، ويعيد للأمة
الإسلامية أمجادها من جديد .

نحن ندرك تماماً أنكم لن تتمكنوا من إيجاد حل لكل التساؤلات والقضايا
المطروحة على بساط البحث في هذا المؤتمر ، لكننا نأمل حقاً في الاستزادة والاستنارة
بمداخلاتكم ومداولاتكم الثرية . وما التوفيق إلا من عند الله .

الفصل السادس

التَّجْرِبَةُ لِلْمَالِيَّةِ - دُرُوسٌ وَعِبْرَاتٌ لِّلْإِسْلَامِيَّةِ *

أود في البداية أن أعبر عن خالص تقديري وامتناني لبيت التمويل الأمريكي (لاريا) لتشريفى من خلال إسباغه علىَّ جائزة الإنجاز لمدى الحياة ، اعترافا بدورى فى معالجة الأزمة الاقتصادية التى ضربت بلادى ضمن بلدان أخرى ، منذ صيف عام ١٩٩٧م ، أنا فخور بهذا التكريم سيما أننى علمت أن شخصى المتواضع هو أول من منحت له هذه الجائزة المرموقة .

إننى أتقبل هذا التقدير والتكريم بتواضع جم ، لكن يجدر بى أن أعترف بأن أبناء الشعب المالىزى هم الذين يستحقون هذه الجائزة . فمن خلال دعمهم ومؤازرتهم الخالصة وتفهمهم العميق وتعاون الغالبية العظمى منهم ، كللت جهودنا بحماية اقتصادنا من المحاولات المتعمدة التى قامت بها قوى بعينها بغرض تخريبه ودفعه إلى الانهيار . لقد وقَّفتنا وكسبنا هذه المعركة بفضل جهودنا ورؤانا الخالصة دون مساعدة من أى دولة أخرى . ولهذا فإننى أقبل هذه الجائزة المرموقة من مؤسسة (لاريا) كوسام شرف أو نوط جدارة لأضعه على صدر كل فرد من أبناء شعبى .

إن العالم الإسلامى اليوم يعج بالمتناقضات والمفارقات . فبالرغم مما تملكه بلداننا الإسلامية من موارد غنية ، إلا أن شعوبنا فقيرة اقتصادياً وضعيفة عسكرياً . بينما يعيش بعضنا فى رغد من العيش والوفرة والثراء الفاحش ، فإن الغالبية العظمى من المسلمين تعيش فى حالة فقر مدقع . وبينما يسجل العديد من دول العالم ابتكارات واختراقات فى مجالات العلوم والتكنولوجيا ، نجد أن معظم المسلمين مازالوا يقبعون فى براثن الجهل والتخلف .

* خطاب بمؤسسة «لاريا» الأمريكية بشيكاغو ، التى أسبغت عليه جائزتها للإنجاز - ١ سبتمبر ٢٠٠٠م .

هناك بون شاسع بين هذا العصر الذى يجسد حال الانحطاط بين المسلمين ، والعصر الذهبى للأمة الإسلامية الذى حفل بإنجازات رائدة على المستويين الدنيوى والروحي . كان ذلك عصر انتصارات المسلمين وامتداد نفوذهم وتفوقهم فى جميع المجالات ، حيث دانت لهم الإمبراطورية الفارسية وجزء كبير من البيزنطية ، وانتشر الإسلام فى وقت وجيز وسريع ، مشكلاً نظاماً جديداً امتد من جزر البيرنية إلى جبال الهملايا ، متفوقاً على الإمبراطورية الرومانية فى أوج عظمتها ومجدها .

أنظر إلى أى درك انحدر المسلمون اليوم مقارنة بما كانوا عليه فى العصر الذهبى للحضارة الإسلامية؟ لقد حان الوقت لكى يقف المسلمون وقفة جادة وينظروا لحالهم الراهن بعين ناقدة ، وليحددوا إن كانوا يريدون السير قدماً وكيف يمكنهم ذلك .

أنا أقول إذا كنا نريد الانطلاق إلى الأمام ؛ لأن عدداً مهماً منا لا يريد لمسيرتنا أن تتقدم ، والبعض الآخر يخشى معارضة أعداء التقدم الذين يزعمون أن مواقفهم مستمدة من الإسلام ، بل إن ممارساتهم وسلوكهم هما تجسيد للإسلام الحقيقى ! من العبث بطبيعة الحال أن نوهم أنفسنا بأننا يمكن أن نمضى بمسيرتنا إلى الأمام ما لم نقرر ذلك أولاً . نحن فى ماليزيا نؤمن بتحرير التجارة ورفع القيود عن الصادرات والواردات مثلما كان الحال بالنسبة لأسلافنا من المسلمين الأوائل . وترحب بلادنا بالاستثمارات الأجنبية المباشرة ، ولا تفرض قيوداً على إعادة تصدير الأرباح ورأس المال . وقد قمنا فى ماليزيا بإنشاء نظام مالى إسلامى ليساعد المواطنين المسلمين على الاستفادة من المنافع والفرص التى يوفرها أى نظام مالى حديث ، يتفق مع النظرة الإسلامية لهذا المجال .

إننا لا نشك فى أن بلادنا تنتهج نظام إدارة مالية يتميز بقدر عال من التعقل والكفاءة ، ودرجنا على تسديد قروضنا الخارجية كلما كان لدينا موارد مالية فائضة ، فى وقت لم تلجأ فيه الحكومة على مدى عمرها منذ الاستقلال إلى البنك المركزى للتمويل بسبب العجز . وقد أنشأنا سوقاً للأوراق المالية يتميز بحيوية عالية لتمكين الشركات الماليزية من تكوين رأس مال

بكل بساطة . كما أننا طبقنا الخصخصة على نطاق واسع جداً . وقد طبقنا كل ذلك انطلاقاً من إيماننا بأن الحكومة ينبغي أن تكون واقعية وعملية في سياستها التنموية ، وألا تتردد في تجريب أى نموذج أو تجربة أجنبية أثبتت نجاحها في بلاد أخرى .

نحن فى ماليزيا نعتبر أنفسنا مثل أسلافنا المسلمين فى العصر الذهبى ؛ لأننا نلتزم رؤية ومدخلاً أصيلاً ينسجم مع روح وجوهر الإسلام . وكان لابد لنا من أن نبدأ أولاً بتحقيق النمو . وفيما قمنا بتطبيق مختلف الحزم المعيارية اللازمة لحفز نمو الناتج المحلى الإجمالى ، اتخذنا التدابير التى تكفل المساواة ، الأمر الذى لم يحظ باستحسان الغرب الذى يؤمن بأن البقاء والثراء هما فقط للأقوياء على حساب الفقراء .

إن مفهوم اقتران التنمية بالمساواة فى الفرص بماليزيا ينطوى على أهمية خاصة ؛ نظراً لأن مجتمعنا يقوم على التعددية العرقية والدينية . ذلك أن السكان الأصليين الذين يعرفون بلفظ (بومييترا) يشكلون نحو ٦٠ فى المئة من مجموع سكان البلاد . لكننا عندما نتحدث عن الثروة والمداخيل ، فإنهم يحتلون موقعاً متأخراً مقارنة ببقية السكان الذين ينحدرون من جنسيات أخرى . هذا الواقع دفعنا إلى أن ندشن فى عام ١٩٧٠م ، سياسة اقتصادية جديدة تم تصميمها بما يكفل للبومييترا الحصول على نصيبهم من الكعكة الاقتصادية . هذه السياسة لم يتم تطبيقها على أساس انتزاع جزء من ثروة وممتلكات وفرص الأغنياء لتمليكها للفقراء ، بقدر ما أنها قامت على تخصيص قسط أكبر للمواطنين الأصليين (البومييترا) من كعكة اقتصادية متسعة باطراد .

هذه السياسة أحرزت نجاحاً نسبياً على صعيد إعادة الهيكلة الاقتصادية والاجتماعية ، فى وقت حافظت فيه البلاد على استقرارها السياسى والاجتماعى . وبما أن ٩٠ فى المئة من البومييترا مسلمون ، فإن السياسة الاقتصادية الجديدة كأنما كانت تعنى رفع وتعزيز الأوضاع الاقتصادية للأمة الإسلامية فى ماليزيا بوجه عام .

كنا أصيلىين كذلك فى إجراءات الخصخصة التى طبقناها فى ماليزيا . فقد اعتمدت

الممارسة في البلدان النامية الأخرى التي تبنت الخصخصة ، على بيع الأصول والشركات الحكومية للمستثمرين الأجانب ، لكننا قمنا بدلاً من ذلك ببيعها للمواطنين المالكين . وبما أن مبدأ اقتران التنمية بالمساواة كان ينبغي أن يتم تطبيقه على جميع المستويات ، فإن البوميبترا أسندت لهم فرص أكبر في عملية الخصخصة بما يكفل تواجدهم وتمثيلهم في أعلى المستويات . وبطبيعة الحال فإن هذا الموقف أثار حفيظة الغربيين كما كان يحدث في كل مرة ؛ لأنهم رأوا أن الثروات والأرباح التي أتاحتها الخصخصة في ماليزيا ذهبت للمواطنين المالكين ، فاتهموا حكومتنا بالمحسوبية والفساد . في المقابل كنا مقتنعين تمامًا بالنجاح الذي حققناه على صعيد إصلاح الخلل في توزيع الثروة والفرص في مجتمع يقوم على التعددية العرقية .

كما قمنا أيضاً بتطبيق نظام مصرفي إسلامي فريد أطلقنا عليه اسم النظام المزدوج ، ووفرناله كل الشروط اللازمة لتمكين النظام المصرفي الإسلامي من العمل وأداء وظائفه جنباً إلى جنب مع النظام المصرفي القياسي السائد . هذا النظام لم يصمم لخدمة المسلمين فحسب ، بل أتاحت خدماته ومزاياه لجميع المواطنين بمن فيهم غير المسلمين .

إنها معالجة وجدت القبول من كل الأطراف الماليزية بصرف النظر عن المعتقدات الدينية ، خاصة أنها لم تسبب في إحداث إرباك في الأنشطة الاقتصادية ، ولم تؤثر سلباً على معدلات النمو .

كذلك أنشأنا نظاماً لترتيبات الدفع الثنائي مع ٢٦ دولة من البلدان النامية من أجل خفض الاعتماد على العملات الأجنبية لتمويل التجارة . وقد نتج عن ذلك أن ازداد حجم تجارتنا مع البلدان النامية بنسبة ٤٠٠ في المئة .

وبالنظر لاستراتيجيتنا التنموية ، فإنها حققت نجاحاً مهماً ؛ إذ نما الناتج المحلي الإجمالي للعام ١٩٩٦ بنسبة ٨,٥ في المئة للسنة العاشرة على التوالي ، وهو معدل نمو كان يمكن أن يستمر لسنوات عديدة . وبحلول عام ١٩٩٧ بلغ حجم تجارتنا الخارجية ١٥٧ مليار دولار ،

قافزاً بماليزيا إلى المرتبة الثامنة عشرة في قائمة الدول الأكبر حجماً من حيث الاستيراد، وهذا ما شهدت به منظمة التجارة العالمية .

وقد ظلت الحكومة الماليزية تحقق فائضاً مالياً سنوياً، في حين ظل الدين الخارجى للبلاد منخفضاً؛ إذ لم يتجاوز ٤٠ في المئة من الناتج المحلى الإجمالى . كذلك انخفض الحساب الجارى لميزان المدفوعات من ناقص ١٠ في المئة إلى خمسة في المئة من الناتج المحلى الإجمالى، وكانت كل التوقعات تشير إلى أنه ماض نحو تحقيق نتائج أفضل . ونجحت بلادنا فى الإبقاء على معدل التضخم منخفضاً بنسبة ١,٢ فى المئة .

على الجهة المالية، فقد تميز النظام بالأداء السليم المنضبط، وقد انعكس ذلك بوضوح من خلال القواعد الرأسمالية والأصول القوية للبنوك، وطبيعة الأصول الاستثمارية رفيعة المستوى وقد بلغ معدل الإيداع فى ماليزيا نسبة ٤٠ فى المئة من الناتج المحلى الإجمالى، وهو من أعلى معدلات الإيداع فى العالم . وتجدر الملاحظة إلى أن الإيداع القومى الماليزى بلغ مرحلة تكفى لتمويل ٩٥ فى المئة من جملة المشاريع الاستثمارية فى البلاد .

قبيل وقوع الأزمة المالية التى عصفت باقتصاديات المنطقة فى يوليو ١٩٩٧، كان واضحاً أن ماليزيا تسرع الخطى فى طريق التنمية المستدامة باتجاه بلوغ مرحلة الدولة المتطورة بحلول عام ٢٠٢٠ . لقد تسببت تلك الأزمة فى خفض قيمة العملة الوطنية الماليزية (رينجت) بنسبة ٥٠ فى المئة عما كانت عليه قبل الأزمة، وكان لابد لنا من المسارعة إلى اتخاذ إجراءات عديدة لوقف التدهور، غير أن كل وسائل العلاج التى جربناها انتهت إلى الفشل . فى هذا الوقت العصيب توقع عدد كبير من المراقبين أن نلجأ إلى صندوق النقد الدولى طالبين منه القروض التى تمكن من وقف الأزمة، لكننا اسقطنا هذا الخيار . كنا ندرك أن أية محاولة للاقتراض من الصندوق ستجلب كارثة جديدة على الأمة الماليزية؛ نظراً لأن جوهر السياسة الاقتصادية الجديدة (أنفة الذكر) لا يتفق مع فلسفة هذه المؤسسة المالية الدولية القائمة على المنافسة المطلقة غير المقيدة، والتى يأكل فيها القوى الضعيف دون اعتبار لأى

جانب آخر . بمعنى أن المساواة في الفرص ومراعاة الفقراء لا تدخل في أجدنة صندوق النقد الدولي ، بقدر اهتمامه أولاً وأخيراً بالكفاءة والقدرة ومضاعفة الربح للأغنياء على حساب الشرائح الأخرى من المجتمع .

كان علينا في ماليزيا أن نشحذ فكرنا لاستنباط حل لمجابهة تلك الأزمة ، وفي الوقت نفسه نحافظ على استقرار قراراتنا . وبفضل ثقتنا في الله سبحانه وتعالى أولاً ، وبأنفسنا في المرتبة الثانية ، تمكنا من الخروج بصيغة كفلت لنا إنقاذ البلاد والأمة الماليزية من حافة الانهيار . لكن قبل أن أدخل في تفاصيل هذه الصيغة (نظام التحكم والسيطرة بالتبادل الائتقائي) دعوني أصف ما حدث في يوليو ١٩٩٧ م .

عندما أطاحت الأزمة المالية بقيمة العملة الوطنية التايلاندية (البات) في يوليو ١٩٩٧ ، لم نستشعر نحن في ماليزيا أى نوع من القلق ؛ لأننا ندرك تمام الإدراك أن الوضع المالى فى البلاد كان أكثر قوة ومنعة مما كان عليه الحال فى تايلاوند . وقد كان التايلانديون يقترضون كميات كبيرة من القروض قصيرة الأجل من صناديق التمويل وفروع البنوك بالخارج بما يمكنهم من تمويل المشاريع التايلاندية المحلية طويلة الأجل . وقد وجدت هذه الاستراتيجية هوى فى نفوس المقيمين بتايلاوند ؛ نظراً لأن سعر الفائدة على الدولار الأمريكى كان منخفضاً جداً مقارنة بسعر الفائدة على البات (العملة المحلية) . المهم أن هذه الاستراتيجية اعتمدت تماماً على أساس أن سعر البات مستقر تماماً مقابل سعر الدولار الأمريكى .

لهذا السبب ، حاول البنك المركزى التايلاندى التدخل لحماية البات فى أثناء المراحل الأولى من بداية هجمات المضاربين بالعملة الوطنية وبطبيعة الحال فإن انخفاض قيمة العملة الوطنية التايلاندية يعنى أن تسديد الديون بالعملات الأجنبية يكلف مزيداً من الباتات . وإذا عجز المقترضون التايلانديون عن كسب باتات بكميات كافية ، فإن أزمة مالية ستضرب البلاد ، الأمر الذى يطيح بقيمة البات ، بما يؤدى فى نهاية المطاف إلى تعميق الأزمة المالية .

بهذه الطريقة حاول البنك المركزى التايلاندى الاستماتة فى الدفاع عن البات إلى أن

بلغ مرحلة استنفد فيها عمليا كل احتياطاته وإمكاناته الدفاعية ، الأمر الذى اضطره إلى اللجوء إلى تعويم قيمة البات ، وهو إجراء تسبب فى إحداث مزيد من الانهيار السريع فى قيمة العملة المحلية . فى نهاية المطاف وجدت تايلاند نفسها فى أزمة مالية واقتصادية فشلت فى معالجتها بإمكاناتها الذاتية .

فى ماليزيا ، كان الأداء المالى منضبطاً ودقيقاً وسليماً بدرجة تسمح بتسديد القروض ، ومع ذلك فإن قيمة عملتنا الوطنية (الرينجت) كانت هدفاً للمضاربين فوجدوا فى نظرية العدوى وسيلة لنقل الأزمة إلى أسواقنا المالية ، فبدأ تجار العملات فى التخلص من كميات الرينجت التى كانت بحوزتهم لحماية أنفسهم من الخسائر . لكن فى واقع الأمر لم يكن هؤلاء التجار يملكون أى رينجت بقدر ما وجدوا ظاهرياً سبباً مقبولاً للعمل على انهيار العملة الماليزية الوطنية ، فاندفعوا بتهور لتحقيق مكاسب لأنفسهم .

وكما هو معلوم ، فإن العملات وحدها لا تملك قرون استشعار أو أدوات تمكنها من الرصد والتفاعل مع الأداء الاقتصادى والمالى فى الدول المعنية . بمعنى أن عملة بعينها لا تدرک أن البلاد التى تستمد منها هويتها ، قد اقترضت مبالغ كبيرة أم صغيرة ، وما إذا كان بمقدورها سداد القرض أو العجز عن ذلك ، وإذا ما كانت عملات البلدان المجاورة مصابة بمرض معدأم كان نظام الحكم فى تلك البلدان صالحاً أو طالحاً يقوم على الفساد والمحسوبية ومحاباة الأصدقاء والأنصار . العملات بكل تأكيد لا تدرک هذه العلل ، غير أن الناس يعرفون ذلك وتجار العملات بصفة خاصة هم أكثر من يدرك ذلك . والأخطر من ذلك هو أن تجار العملات يعلمون أن بإمكانهم بكل بساطة المضاربة والتلاعب بسعر صرف أى عملة من خلال بيع أو شراء كميات ضخمة من تلك العملة . وعندما يشعر هؤلاء التجار المارقون أن عملة ما مهددة بالانهيار لا يحتاجون لأكثر من اقتراض كميات ضخمة من تلك العملة وإعادة بيعها على نحو متكرر ، بما يكفل انهيارها وبالسريعة التى يرغبون فيها . إن عمليات بيع العملة التى يقوم بها هؤلاء التجار ، هى التى تسبب فى انهيار قيمة تلك العملة لأبعد مما يمكن تفسيره بالأداء

الاقتصادى الضعيف للبلد المعنى .

عندما ضربت أزمة صيف عام ١٩٩٧ تاييلاند ، تجاهل التجار المضاربون الأصول الاقتصادية الماليزية القوية تماماً ، وجأوا بالصياح مهديين بانتقال العدوى من بانكوك إلى كوالالمبور ، وشرعوا فى الاقتراض وبيع الرينجت الماليزى على نحو حاد مقابل الدولار الأمريكى ، وتزامنت هذه العملية مع عمليات سحب لرؤوس الأموال الأجنبية قصيرة الأجل من سوق الأوراق المالية الماليزية ، الأمر الذى أدى إلى خفض قيمة القواعد الرأسمالية والأصول السوقية القوية فى البلاد إلى ثلث قيمتها الأصلية ، فأصبحت الشركات مهددة بالإفلاس ومعرضة للبيع بأسعار زهيدة .

ذلك الوضع الصعب جعل قيادة البلاد لا حول لها ولا قوة ، وراح المستولون يلقون باللائمة على تجار العملات ، متهمين إياهم بخفض قيمة الرينجت الماليزى . وكما هو متوقع فقد صب القادة الماليزيون جام غضبهم على هؤلاء التجار الذين كشفوا عن وجههم البشع والخطير . وبدورها لم تسلم قيادة البلاد من إدانات جميع الأطراف بدءاً من وكلاء ومدراء الوكالات الدولية ، وانتهاءً بمن جعلوا من أنفسهم خبراء ماليين وتجار عملات . كل تلك الشرائح تواضعت على أن السبب فى تدهور قيمة الرينجت الماليزى هو سوء الحكم والإدارة ، وذهبت تروج إلى أن إعادة الثقة بالأسواق الماليزية وضمنان إعادة العافية للعملة الوطنية ، لن تتأتى إلا باستبدال نظام الحكم القائم بنظام آخر يتميز بالمسئولية والانضباط .

فى بداية الأزمة المالية ، أدركت ماليزيا وحدها ، المخاطر طويلة الأجل للمضاربة بالعملات . وعقب تطبيق مجموعة من الإجراءات التقليدية التى فشلت فى وقف التدهور ، قررنا البدء بتطبيق صيغة التحكم والسيطرة بالتبادل الانتقائى غير التقليدى التى أشرنا إليها آنفاً . هذا النظام تم تطبيقه فى الواقع فى حده الأدنى ، ومن أهم الإجراءات التى اشتمل عليها :

١- وقف سوق تداول العملة الوطنية (الرينجت) فى الخارج ومنع المضاربين بالعملات من

النفاذ إلى الصناديق التي يتوفر فيها الرينجت . وقد تم تطبيق ذلك بواسطة تجميد حسابات الرينجت بالخارج غير المقيمة بالبنوك الماليزية . وهذا الإجراء سمح لغير المقيمين بالاستمرار في الاستثمار في ماليزيا بكل حرية ، مستخدمين مدخراتهم بالرينجت ، لكنه حرمهم من إمكانية إقراض أو بيع تلك المدخرات للآخرين . وقد اضطر المضاربون لوقف عملياتهم التخريبية عندما وجدوا أنفسهم غير قادرين على شراء أو اقتراض الرينجت .

٢- تسييت سعر صرف الرينجت عند ٣,٨ مقابل الدولار وهو السعر الذي كان سائداً عند فرض مجموعة إجراءات التحكم والسيطرة بالتبادل الانتقائي .

٣- فرض نظام يقضى بمنع إعادة تصدير السندات والأوراق المالية إلى بلدان المنشأ لمدة ١٢ شهراً ، وهى فترة ضرورية فى ضوء عدم الاستقرار الذى كان يعصف بالأسواق المالية فى البلاد . هذا الإجراء كان ضرورياً لمجابهة إمكانية تسبب الحملة العدائية التى شنت ضد ماليزيا عقب تطبيقها حزمة التحكم والسيطرة ، بحفز رؤوس الأموال قصيرة الأجل بكميات هائلة . هذا الإجراء نفسه تم استبداله عقب مرور ستة أشهر من تطبيقه ، بعد أن بدأ السوق يشهد نوعاً من الاستقرار ، بفرض ضريبة على رؤوس الأموال الجديدة ، لىتم فيما بعد تخفيف هذه القيود الضريبية إلى الحد الأدنى ، وقصر جبايتها على حصص أرباح الأسهم فى سوق الأوراق المالية .

من المفارقات الملفتة للنظر أنه بانتهاء مدة سريان هذا الإجراء (١٢ شهراً) فى سبتمبر ١٩٩٩ ، لم تشهد ماليزيا تدفقاً مهماً لرؤوس الأموال ، ويبدو أن مفاهيم وتوجهات السوق قد شهدت تغيراً درامياً خلال الفترة الممتدة من سبتمبر ١٩٩٨ إلى الشهر نفسه من العام التالى . ومن الملفت للنظر أيضاً أن المستثمرين الأجانب كانوا سعداء جداً بزيادة القيمة السوقية لخصصهم فى بورصة كوالالمبور خلال الفترة المذكورة آنفاً .

كان الهدف الرئيسى من وراء تطبيق حزمة التحكم والسيطرة بالتبادل الانتقائي فى سبتمبر ١٩٩٨ ، هو تمكين ماليزيا من بسط سيطرتها على اقتصادها بوقف هجمات

المضاربين والمانورين فى السوق لتغيير الأسعار ، بما يمكن المالىزيين من تحديد مصير البلاد . هذه الحزمة من الإجراءات تم تصميمها بعناية فائقة ، واهتمت اهتماما بالغاً بتفعيل وتعزيز الجوانب الإيجابية من العولة وطرح السلبى منها . بالنسبة للجوانب الإيجابية التى تم الإبقاء عليها وتعزيزها تضمنت الحرية التامة فى القضايا المتصلة بالتجارة الدولية والاستثمارات المباشرة الأجنبية . كما تم تثبيت النظام الليبرالى الذى ينظم المبادلات التجارية والاستثمارات المباشرة الأجنبية ، على حاله دون تغيير . أما الجوانب السلبية فى العولة التى تم التخلص منها فتشتمل على وقف الأسواق الخارجية للتجار بالرينجت المالىزى وحرية تدفق التمويلات قصيرة الأجل التى تسبب فى حدوث عدم استقرار فى اقتصاد البلاد بكل سهولة وبساطة . ومن هنا اتخذت هذه الحزمة صفة الانتقائية فى التحكم والسيطرة .

والتساؤل الذى يطرح نفسه هو كيف نجحت ماليزيا باستنباط هذه الوصفة العلاجية ، فى وقت فشل فيه الآخرون فى معالجة الأزمة المالية التى عصفت باقتصاديات بلدانهم ؟ لاشك أن السبب يكمن فى أننا تعاملنا مع حجم الأزمة بالجدية الكافية لمعرفة الكيفية التى تعمل بها أسواق التحويلات الأجنبية . لقد أنفقنا عدة أشهر ندرس آليات عمل أسواق التحويلات الأجنبية ومفهوم الرينجت المالىزى بالخارج ، ودوافع تاجر التحويلات الأجنبية (من جشع ومخاوف) وآليات تسعير العملات . وبالطبع لم يكن الأمر بالبساطة التى قد تتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى ، لكنه لم يكن من العسير أيضاً أن نستنبط الحلول التى تمكن من تجميد نشاط المضاربين بالعملات ، بمجرد إلماننا بكيفية عمل أسواق التحويلات الأجنبية . وفى الوقت نفسه ، حاولنا دراسة واستيعاب الكيفية التى تسمح لسوق غير رسمى لتداول الأوراق المالية من الإنجاز بالسندات المالىزية انطلاقاً من سنغافورة . هذا النشاط تسبب فى خلق مشاكل وصعوبات كثيرة فى سوق الأسهم المالىزية ؛ نظراً لكثافة عمليات البيع قصير الأجل للمحصر المالىزية التى كانت داخل هذا السوق غير الرسمية فى سنغافورة . وبما أن هذه السوق كانت خارج نطاق السيادة والتشريع المالىزيين ، لم يكن أمامنا من فرصة لتنظيمها ، لكننا نجحنا بوضع حد لنشاطها فى سبتمبر ١٩٩٨ بمجرد إلماننا بتفاصيل آلية

عملها .

لقد شهد الرينجت الماليزى وسوق الأسهم استقراراً مقدرًا بمجرد تطبيق إجراءات التحكم والسيطرة بالتبادل الائتقائى ، وضرب السوق غير الرسمية لتبادل الأوراق المالية فى سنغافورة . وعقب هذا الاستقرار النسبى اتخذت الحكومة مبادرات عديدة لإنعاش الاقتصاد الماليزى ، من بينها خفض قيمة الفائدة ورفع سقف الائتمان وزيادة النفقات الحكومية من خلال البدء بتنفيذ واستكمال المشروعات الاستثمارية التى توقف العمل فيها أثناء الأزمة المالية . وقد ساهمت المقاولات والتعاقدات فى مساعدة قطاع الأعمال على الإنعاش من جديد .

فى عام ١٩٩٧ أقامت ماليزيا أيضا مجلسًا وطنيًا للنشاط الإقتصادى (ان .ايه .أى .سى) كانت لجنته التنفيذية تجتمع يوميًا على مدى فترة الأزمة . هذه اللجنة اهتمت اهتماما خاصا بعمليات شركة (داناهارتا) لإدارة الأصول وشركة (دانامودال) لإعادة رسملة (إعادة تمويل رأس المال) البنوك بالإضافة إلى لجنة لديون الشركات وإعادة الهيكلة لـ(سى .دى .ار .سى) والتي أنشئت لمعالجة مشاكل الديون المدومة وإعادة رسملة البنوك . كانت مهمة داناهارتا تتمثل فى الاهتمام بمشاكل الديون المدومة بما يسمح للنظام المصرفى بإعادة تركيز جهوده على عمليات الإقراض والتسليف لإنعاش الاقتصاد . أما دانامودال فقد كانت مهمتها تتلخص فى إعادة رسملة المؤسسات المالية وزيادة القوة الرأسمالية للنظام المصرفى والانتقال بها إلى مستوى أكثر قوة . وبدورها عنيت شركة ديون الشركات وإعادة الهيكلة (سى .دى .ار .سى) بتوفير منبر يمكّن الشركات والبنوك من العمل سويًا لاستنباط برنامج لإعادة هيكلة الديون بعيدا عن الإجراءات الرسمية .

هذه الهيئات الثلاث (داناهارتا- دانامودال- سى .دى .ار .سى) بدأت تعمل بطاقتها

القصورى بمجرد بدء تنفيذ حزمة إجراءات التحكم والسيطرة بالتبادل الائتقائى . وبحلول ٣١ مارس ١٩٩٩ تمكنت داناهارتا من استخلاص ديون مدومة بلغت نحو ١٦ مليار ريڤجت

ماليزى ، فيما تمكنت دانامودال من إعادة رسملة عشر مؤسسات بنكية بنحو ٢, ٦ مليار ريجنت ماليزى . أما لجنة (سى .دى .ار .سى) فقد انقطعت تماماً لإعادة هيكلة عدد مهم من الشركات الضخمة التى تأثرت على نحو كبير بالأزمة .

ظلت اللجنة التنفيذية للمجلس الوطنى للنشاط الاقتصادى تقوم يومياً بفحص مختلف الأنشطة والجوانب الأخرى المرتبطة بالاقتصاد الماليزى . وكانت المعلومات والبيانات الخاصة بالأداء التجارى فى البلاد ، والاحتياطات الخارجية وأسعار الفائدة وعمليات الاقتراض بالبنوك والمبيعات العقارية ، وفى مجال السيارات وأليات النقل الأخرى والبيع القطاعى (التجزئة) وشحنات السفن وعدد الحاويات التى تم نقلها أو استقبالها فى الموانئ الماليزية ، وعدد المسافرين وكمية البضائع المنقولة عبر المطارات ، وعدد الشركات التجارية الجديدة وعدد البنوك المفلسة وحجم البطالة وعدد الفرص الشاغرة والأجور والمشاريع والمقاولات الحكومية ، وكمية استهلاك الكهرباء وغيره . كانت تعد وتوضع يومياً أمام أعضاء اللجنة لتتم مناقشتها بما يمكن من اتخاذ الإجراء المناسب لمعالجة أى خلل أو تعزيز نقاط القوة فى القطاع المعنى .

وبما لاشك فيه أن التجربة الماليزية فى معالجة الأزمة الاقتصادية والفوضى المالية التى ضربت البلاد (من بين دول المنطقة) فى صيف ١٩٩٧ ، غنية بالدروس والعبر المفيدة والمهمة للبلدان النامية ، وبخاصة الدول الأعضاء فى منظمة المؤتمر الإسلامى . ومن بين أهم الدروس المستخلصة من هذه التجربة الحاجة لإدراك واستيعاب الأسباب الحقيقية التى تؤدى إلى انكماش النشاط الاقتصادى والكيفية التى تعمل بها ، والعلاقات المتداخلة للقطاعات الاقتصادية المختلفة .

إن وضع وهندسة الاستراتيجيات التى تمكن من مكافحة الأزمة وإصلاح الخلل ليس بالأمر الصعب على الإطلاق ، بمجرد وضع اليد على العوامل المسببة واستيعاب طريقة عملها . وبطبيعة الحال فإن جهات الاختصاص تقوم بطرح حلول عديدة لكل علة ، لكن

لابد من مناقشة وتشريح كل على حدة وإخضاعه للتجربة بما يوفر بدائل جاهزة في حال فشل الحل الذى تم اختياره فى البداية كأفضل خيار من الخيارات . ولا بد من الإشارة هنا إلى أن عملية تطبيق الاستراتيجيات أو الحلول تتطلب تضافر جهود صانعى القرار ، بالإشراف على الإجراءات والخطوات التنفيذية على الأقل ، واتخاذ القرارات التى من شأنها معالجة الخلل وإزالة العقبات التى يمكن أن تعترض مسيرة الإصلاح .

إن توفر المعلومات والبيانات وضمان تدفقها باستمرار عن كل ما يجرى على الأرض ، أمر على قدر بالغ من الأهمية والحيوية . بمعنى أن الأرقام والرسومات التخطيطية (جرافيك) تعد من أفضل الوسائل لتوصيل المعلومة ، مقارنة بالأساليب الأخرى بما فيها التقارير الإنشائية . وفى الوقت نفسه ، ينبغى أن يقوم معدو ومحررو التقارير بشرح وتوضيح مضمونها للمسئولين شفاهة . ولا شك فى أن المسئولين الذين ترفع لهم هذه التقارير والبيانات ينبغى أن يكونوا على معرفة ودراية كافية بموضوع التقارير تمكنهم من تقييم الوضع على نحو سليم واتخاذ القرار الناجع بشأنه .

بالطبع هناك حاجة لوجود نظام فاعل سواء أكان على المستوى الحكومى أم الإدارى أم الاقتصادى ، إلا أن العنصر البشرى الذى يقوم بتشغيل هذا النظام هو العامل الحاسم والمهم فى مختلف جوانب العملية . ولا شك أن النظام الممتاز يمكن فى أفضل الأحوال ، أن يوفر حلولاً جزئية لما يطرأ من أزمات . غير أن العامل البشرى هو الذى يحدد كيفية وكفاءة تشغيل هذا النظام .

ومن بين الدروس المهمة المستفادة من التجربة الماليزية أيضاً أن الحكومة لابد من أن تولى إدارة اقتصادها اهتماماً كبيراً ومستمرًا ، وينبغى ألا تسمح لنفسها بالتراخى والضعف فى كل ما يتصل بالمحافظة على قوتها الاقتصادية والمالية . إن اليقظة المطلقة كانت وحدها الكفيلة بمحافظه ماليزيا على تحقيق معدلات نمو عالية ، والتى من شأنها أن تدفع بالبلاد باتجاه بلوغ مرتبة الدولة المتطورة بحلول عام ٢٠٢٠ م .

ونحن على يقين من أن الأزمة المالية بمنظمة شرق وجنوب شرق آسيا لم تكن حتمية ، وما كان لها لتحدث إذا كان هدف النظام المالى الدولى مجرد تسهيل لتدفق والتفاعل الاقتصادى بين الأمم ، بما فى ذلك الاستثمارات المباشرة الأجنبية . بيد أن القوة الرأسمالية المهيمنة كانت ومازالت ترغب فى الاستئثار بكل شئ . إنها ترغب فى نشر أجندتها السياسية التى تجعل النظام المالى الدولى لا يسمح فقط ، بل يشجع فى بعض الأحيان ، على الاتجار بالعملات ، وهو نشاط غير ضرورى على الإطلاق ويدمر ثروات أكبر مما يحققه المضاريون من أرباح .

إن مستقبل الأمة الإسلامية على الصعيد الاقتصادى بأيدى المسلمين أنفسهم . صحيح أننا نعيش فى عالم تهيمن على اقتصاده وسياسته دول غير إسلامية ، وصحيح أننا نعيش فى عالم لا يحظى فيه المسلمون بأقل قدر من التعاطف ، غير أنه لا يوجد ما يمنع أمتنا الإسلامية من النهوض مجددا متى ما أبدت الجدية اللازمة تجاه هذا الهدف .

ولعل من أهم القضايا التى ينبغى على المسلمين أن يبدأوا بها لإعداد أنفسهم لمواجهة التحديات المستجدة ، هى أن يكيفوا أنفسهم مع الواقع الراهن وأن يوفقوا أوضاعهم معه دون أن يتخلوا عن جوهر وأصول الدين الإسلامى الخفيف . لقد استخدمت كلمة أصول الإسلام وأعنى أساسيات وأصول ديننا التى تم إرساؤها خلال العصر الإسلامى الذهبى حينما غطت حضارتنا معظم بقاع العالم المعروف آنذاك . وأجد لزاماً على أن أشير هنا إلى أن من يدعون الأصولية اليوم يسعون فى الواقع إلى الالتفاف حول الإسلام على حساب جوهر وأصول ديننا الخفيف . إن ممارسات وسلوك هؤلاء المتطرفين لن تجلب للإسلام والمسلمين إلا مزيداً من التمزق والتجزئة والتخلف ، وتؤجج حقد وعداء ونفور الآخرين من غير المسلمين على ديننا وأتباعه فى كل مكان .

إننى مقتنع تماماً بأن الجهاد الحقيقى ما هو إلا جهاد المسلم لتحقيق الوحدة الإسلامية ، واكتساب فنون الحكم وإدارة الدولة وتخصيل المعرفة والتسلح بالمهارات العالية ، بما يؤدى إلى

تحرير المسلمين من الاضطهاد والقمع ، ويمكنهم من إعداد أنفسهم للمساهمة بفاعلية في إعادة إنتاج الحضارة الإسلامية المقبلة على غرار ما شهدته العالم من قبل .

الفصل السابع

الإتقان بمفهوم الإسلام وتعزيزه لدى وسائل الإعلام *

أبدأ كلمتى هذه بالتأكيد على أن هذه الحلقة الدراسية ستساعد أجهزة الإعلام المحلية والأجنبية ، إسلامية أو غير إسلامية ، فى تكوين صورة أكثر وضوحا عن الإسلام ، ويحدونى الأمل فى أن تسهم فى إيجاد فهم أوضح للإسلام من قبل هذه الأجهزة دون استثناء .

ولو جاز أن اقتبس من تشرشل قوله : «لم يحدث أبدا فى تاريخ البشرية أن مكن شىء* بهذا الحجم الصغير مثل هذا العدد الضخم من الناس فى الوصول إلى مثل هذه الكمية الضخمة من المعلومات» وأنا متأكد أن تشرشل سيعذرني عن هذا «التشويه» لتصريحه الشهير فى أثناء الحرب العالمية الثانية الذى عنى به سلاح الجو الملكى البريطانى . لكن ، حقا ، فإن هذه الرقائق الدقيقة مكنت الستة بلايين شخص على وجه الأرض عمليا من الوصول إلى جميع المعلومات التى يريدونها ، بل أكثر ، كما أتيج للبشرية استخدام هذه الخدمة لأى غرض كان .

وللمرء أن يتخيل أن هذه الفرصة هى هبة من الله للبشر . فى الأزمان القديمة عندما اخترع الإنسان الكتابة لتسجيل وإيصال الرسائل بطريقة أخرى غير الكلمة المنطوقة ، لم يجد فى هذا الاختراع الجديد ما يفيد إلا عددا قليلا من الناس كانوا يستطيعون القراءة والكتابة . كما كانت عملية الكتابة على الحجارة وأوراق الشجر مملة ومرهقة ، وبعث الرسائل بهذه الطريقة إلى أى مسافة كان أمرا غير عملى تماما . لكننا نجد اليوم أن بإمكاننا أن نرسل حالا الكلمات المكتوبة ، والأصوات ، وحتى الصور يمكن إرسالها حالا إلى أى مكان عبر

* كلمته فى أعمال الندوة الدولية حول ترقية وتعزيز مفهوم الإسلام - كوالالمبور ٣٠ يونيو ٢٠٠٠ م .

المعمورة . وهكذا فإن كل المعارف التي تراكمت على مدى ثلاثة آلاف عام ، وكذلك تلك التي نتجت عنها في الوقت الحالي ، يمكن تعلمها واستخدامها لتحسين مستوى حياة كل إنسان في كل مكان والارتقاء بها . وسيصبح العالم مجالا أفضل بالتأكيد بعد أن أصبحت المعلومات في متناول الجميع . ببساطة انقر على حروف لوحة مفاتيح الكمبيوتر فستأتيك المعرفة متدفقة على شاشة البيانات في الجهاز ، ومعها ستأتي جميع أنواع المهارات ، فتجعل الفرد أكثر تأهيلا للعمل وأكثر إنتاجا وأقدر على كسب دخل أعلى ، وبالتالي سيغتنى الأفراد وستصبح المجتمعات والأمم أغنى نتيجة لتوفر المعرفة وسهولة الحصول عليها وما ينجم عن ذلك من تطور هائل في قدرات البشر أنفسهم ونوعيتهم .

إننا نسمع أن كل محتويات مكتبة الكونغرس الأمريكي بما تحتويه من معرفة في كل المجالات ، متوفرة على شبكة الإنترنت . وقد أدى توفر أنواع البرمجيات الكمبيوترية وتطور وتعدد أدوات البحث إلى أن يصبح الحصول على المعرفة والمهارات أمرا في غاية السهولة . وبالطبع هناك آلاف المصادر الأخرى من المعلومات والمعارف المتدفقة عبر الكمبيوتر ، والتي تتوفر لقاء ثمن زهيد يكاد لا يذكر .

إنه عالم سحري عجيب ، عالم المعرفة الفورية غير المحدودة . لقد احتلت وسائل الإعلام مكانا مركزيا في بث ونشر المعلومات والمعرفة حول كل شيء عبر الكلمات المكتوبة والصورة عبر الإذاعة والتلفزيون وعبر الإنترنت . لاشك أن وسائل الإعلام لا يمكن احتواء أو تقييد حريتها ، فحدود الدول لا تعني شيئا لوسائل الإعلام التي بها وعبرها يمكن الوصول إلى أي مكان في العالم على نحو فوري وفي أي وقت . وإذا لم تستطع الكلمات أن تصف الحدث ، فإن الصور يمكنها أن تنطق بما يعادل مليون كلمة .

وتتوفر الآن فرصة خيالية رائعة لوسائل الإعلام كي تلعب دورا في نشر الحقيقة عن كل شيء ، من تنقية الهواء وتوفير فرص التفاهم وتعزيز كل ما هو جيد ، إضافة إلى إمكانية مساهمتها في محاربة كل ما هو سلبي وسوء . وهناك فرصة ذهبية لوسائل الإعلام لتسهم في

بناء عالم أفضل وأكثر عدالة ومساواة مثلما تتوفر الفرصة لها في المساهمة في تحقيق مزيد من الثراء في المعمورة ، وزيادة ثروة كل فرد في كل مكان في العالم .

هناك سوء فهم عميق في هذا العالم ، نابع من المعلومات الخاطئة أو عدم القدرة على تلقي المعلومات الصحيحة . ويسبب ذلك فإن الدول والأقاليم والناس والأعراق وأتباع الأديان المختلفة ، يكرهون بعضهم بعضا ، وفي أحوال كثيرة جداً ينظرون شزرا إلى بعضهم بعضا ، ويتقاتلون . إذن فإن المعلومة الصحيحة يمكن أن تساعد في تحقيق العداء والشكوك فيما بينهم ، إن جمع المجموعات البشرية جمعاء ربما يمكن من خلق عالم أفضل وأرحب .

دعنا نأخذ المفهوم العام للإسلام كمثال ؛ إذ لا نجد ديناً آخر أسى فهمه أكثر من الإسلام ، ليس من قبل غير المسلمين فقط ، بل من المسلمين أنفسهم ، ويسبب سوء الفهم هذا ، هناك نزاع دائم ومواجهة بين المسلمين وغير المسلمين وبين المسلمين أنفسهم .

إن الآراء والتصنيفات الانتقائية النمطية تعبير من أخطر أسلحة المتعصبين . فالإرهاب على سبيل المثال يتورط فيه أناس من كل الديانات مسيحية كانت أم إسلامية ، هندوسية أم بوذية وما يتفرع عنها من طوائف .

ولكن في حين يُربط الإرهاب دائما بالدين الإسلامي حيثما ارتكبه مسلمون ، فإن إرهاب غير المسلمين لا يُربط بأديانهم ومعتقداتهم ، حتى إذا ارتكبه من أجل إعلاء مصلحة وباسم دينٍ بعينه . فقد هاجم الهندوس على سبيل المثال ، المسلمين باسم الهندوسية ، لكن لم يُطلق عليهم إرهابيون هندوس . وسممت طائفة «أيوم شينريكيو» البوذية في اليابان الناس بإطلاق الغاز السام ، ولم يعتبر ذلك إرهاباً بوذياً . وأرهب الكاثوليك والبروتستانت في أيرلندا الشمالية بعضهم بعضا ، لكن لم يطلق عليهم إرهابيون مسيحيون . إلا أنه إذا هاجم مسلمون مضللون أناسا غير مسلمين أو مسلمين آخرين . دُمغوا بأنهم إرهابيون . إذا لماذا هذا التحيز ضد المسلمين من قبل وسائل الإعلام؟

هناك شواهد كثيرة أخرى على عدم نزاهة وسائل الإعلام في تناولها لقضايا الإسلام

وانتهاجها أسلوباً متحيزاً ضده . لقد أصبح الإسلام ديناً لم يسع فهمه فقط ، بل ديناً يعاديه وسبه غير المسلمين دون أى سبب وجيه .

مع ذلك فإن أمام وسائل الإعلام فرصة كبرى لتصحيح المعلومات المشوهة والفهم الخاطيء للإسلام ، وإذا ما استغلت هذه الفرصة فإنها يمكن أن تسهم كثيراً فى إيجاد تفاهم أكبر بين المسلمين وأتباع الأديان الأخرى ، وبالتالي جلب توافق أكبر وسلام إلى العالم . ويجب أن يقتحم وسائل الإعلام عدد كبير من الذين يرغبون فى فعل الخير والمساعدة فى حل بعض مشكلات العالم . وتستطيع وسائل الإعلام المساهمة فى خلق تفاهم بين المسلمين وغيرهم من أتباع الديانات الأخرى ، من خلال مساعدة الناس على فهم بعضهم بعضاً .

أن الإسلام هو دين السلام . فالمسلمون يحيون بعضهم بعضاً ويحيون الآخرين بتحيةة السلام عليكم ، وهذا يعنى الرغبة فى السلام ، فنحن نريد السلام للجميع . لكن لأحدنا يصدق اليوم أن المسلمين مسالمون ويريدون السلم للجميع ، مسلمين أو غير مسلمين . وأنا أعترف أن اللائمة فيما أصبح يعرف عنا من صورة سيئة ، تقع علينا نحن معشر المسلمين قبل غيرنا . فهناك أناس بيننا يقومون عمداً بتصرفات تجعل الآخرين يكرهون الإسلام . إنهم يفعلون ذلك باسم الإسلام ، لكن ما يفعلونه ليس من الإسلام . فالإسلام لا يقرّ التطرف أو عدم التسامح ، بل إننا مأمورون بأن نكون متسامحين وأن نمتنع عن استخدام القوة . لكن هناك جماعات إسلامية متطرفة لن نجد حرجاً ولا وازعاً فى السعى إلى حمل الناس بالقوة على أن يكونوا ورعين متى ما استولت على السلطة ، متناسية بالطبع أن الورع المفروض بالقوة ليس ورعاً على الإطلاق . وبالرغم من ذلك فإن المنتقسين من قدرنا لا يمكن إعفاؤهم من اللوم ، فهم ووسائل إعلامهم قد ألحقوا بالمسلمين هذه الصورة السيئة .

إننا كمسلمين مستعدون لتصحيح تلك الصورة المشوهة ، لكننا نحتاج إلى تعاون وسائل الإعلام ، خصوصاً الغربية منها . إذا نظر المرء حوله سيجد أن المسلمين مضطهدون فى كل مكان ويتم طردهم من أوطانهم ، إنهم فى الحقيقة ملة الشتات (الدياسبورا) فى

العصر الحديث) . فهم يغادرون أوطانهم لأنهم يتعرضون للاضطهاد من قبل مسلمين آخرين ، ولكننا نجد أن غير المسلمين يحاولون اضطهادنا على نحو أشنع وأكثر من ذلك . لقد أصبح المسلمون ضحايا للظلم والاضطهاد وهم أحوج ما يكونون للتعاطف والحماية . لكن بدلاً من ذلك فهم المتهمون عموماً بممارسة الاضطهاد ، بأنهم يستحقون المصير المحزن الذى يلاقونه على نحو ما نشهد فى وقتنا الحالى .

انظروا إلى البوسنة والهرسك وكوسوفو والشيشان والبلاد الأخرى التى سأكون غير دبلوماسى إن ذكرتها بصوت عال . المسلمون مضطهدون فى كل مكان ، وهذه قصة يجب أن تُحكى . القتل الجماعى فى سرير نيتشا يجب أن يُحكى . عمليات الاعتقال والتعذيب والقتل يجب أن تُحكى . وبينما الإرهابيون ذوو العقيدة الإسلامية يقال إنهم إرهابيون مسلمون ، فلا أحد يتحدث عن المسلمين الذين اضطهدوا ودُبحوا وطُردوا من أوطانهم الأم ؛ لأنهم ضحايا مسلمين . لاجرمة سوى أنهم مسلمون . نعم لقد أفضى بهم اليأس إلى القتال دفاعاً عن النفس وبضراوة فى بعض الأحيان ، وارتكبوا أعمالاً إرهابية فى أحيان أخرى . وصحيح إنهم غالباً ما يقتلون من دون رحمة وبلا تمييز ، لكنهم ليسوا الوحيدين الذين يفعلون ذلك بدافع الغضب والإحباط . فهل يعنى ذلك أن الظلم الذى وقع عليهم ينبغى ألا يكشف للعالم ودون تحيز؟ وهل نتركه يمر مرور الكرام دون الإدانة المعتادة؟ ألا يمكن ذكر الأسباب الحقيقية التى دفعتهم لارتكاب الأعمال الوحشية ظاهرياً؟ ألا يمكن أيضاً أن تقوم بوصف الأسلوب والطريقة اللتين تم إرهاب المسلمين بهما وما حلَّ بهم من اضطهاد من قبل أعدائهم وجلاديتهم؟

دعنا نأخذ العراق كمثال . أنا لا أتفق مع العراق فى مبرراته لغزو جارتها الكويت . وربما يكون للعراق ادعاء تاريخى ، لكن كثيرين منا لديهم ادعاءات تاريخية على ملكية أراضٍ مجاورة . ماليزيا لديها ادعاء فى تايلاند الجنوبية ، لكن ذلك كان تاريخياً ، لقد قبلنا بها كجزء من تايلاند ، ولن نقول أى شىء أكثر من ذلك حولها . ولن ندعم عمليات التمرد والعصيان

ضد تايلاند . وبالتأكيد فإن العراق يجب أن يقبل بأن الكويت الآن دولة مستقلة . لكن الحقيقة هي أن العراق هاجم الكويت وانهزم أمام ما أطلق عليها اسم «القوة الدولية» وكان بمقدور القوات المهاجمة أن تتقدم وتأسر زعيم العراق ، لكنها لم تفعل . وفى المقابل فإن من يُسمون بمحررى الكويت فرضوا جميع أشكال القيود على العراق ، قيود عاقبت المدنيين والأطفال والكبار والمرضى والنساء . وطوال عشر سنوات تُرك شعب العراق يعانى ؛ لأن قائده غير محبوب لدى الغرب .

فهل من العدل فى شيء أن نعاقب شعباً بأجمعه على أفعال رجل واحد لم ينتخبه ولا يستطيع إزاحته؟ . . ألا ينبغى أن تعكس وسائل الإعلام مأساة العراق الحقيقية ومعاناة شعبه؟ ألا يتعين أن تنظم الصحافة حملة من أجل إنهاء العقوبات؟ مع ملاحظة أنه حتى ضباط الأمم المتحدة المكلفون بمراقبة نشاطات العراق (الإجرامية) بحسب تعبير القوى المهيمنة قد أدانوا البربرية ضد ذلك البلد واستقالوا . ومع ذلك فإن قصة أولئك النفر الذين استقالوا لم تُنشر بالكامل ، ولا يزال شعب العراق يعانى .

هل سبب ذلك أنهم مسلمون وأن وسائل الإعلام تتجاهل معاناتهم؟ نتمنى أن يكون الجواب بالنفى . لكننا نعتقد أحياناً أن السبب هو لأنهم مسلمون . بالمقابل فإن العقوبات ضد صربيا لم تُفرض بفاعلية ، فهل لأنهم مسيحيون ، وفوق ذلك ؛ لأن ما ارتكبه من جرائم كانت ضد مسلمين؟ !

ما يجب ذكره هو أن غالبية المسلمين مثل غالبية المسيحيين والهندوس والبوذيين ، أناس طيبون لا يقصدون إلحاق أى أذى بأى شخص رغم أن صورة كل واحد منهم لدى الآخرين مشوهة تماماً . ولا شك أن وسط أى شعب أو أمة يوجد البعض غير العقلاء ومن يتسمون بالتطرف والعنف . وعدد أمثال هؤلاء بين المسلمين ليس أكبر من عددهم بين المجموعات الدينية الأخرى . نحن وغيرنا مطالبون بالسعى لأن نفهم لماذا صار الإرهابيون والمتطرفون والمتزمتون على ما هم عليه من حال !

إن تطرف هذه الفئات لاصلة له بالإسلام ؛ لأن ديننا الحنيف لا يقر التطرف ، والإسلام ينبذ ويمقت الفوضى . ومن الضروري أن يفهم الآخرون أن الإعداد للحرب في الإسلام مطلوب فقط لحماية المسلمين إذا ما هوجموا في إطار الدفاع عن أنفسهم .

ورغم أن أعمال الإرهاب لا مكان لها في الإسلام ، إلا أن هناك بين المسلمين عدداً من المتهورين والمحيطين بشدة ، بسبب الظلم الواقع عليهم وعلى بلادهم ، ولدرجة أنهم ينسون تعاليم الإسلام ، ويحاولون أن يحاربوا باسم قضيتهم بطريقتهم الخاصة ، أو في الحقيقة بالطريقة التي ينتهجها الآخرون تجاه المسلمين . لقد تعلم المسلمون خطف الطائرات ، من غير المسلمين ، لكننا نجد أن من ابتدعوا هذه الفعلة لم يدمغوا بالأرهاب ولم يلمص ذلك بدينهم .

أما الخاطفون المسلمون فليسوا مجرمين عاديين يريدون إثراء أنفسهم ، إنما هم أصحاب قضية ويعتقدون بكل إخلاص وصدق أنهم يخاطرون بأرواحهم لصالح المسلمين . فإذا عرضوا الآخرين للخطر وأوقعوا خسائر في صفوف غير المحاربين ، من مدنيين وغيرهم ، ألا يفعل أولئك الذين يضطهدون المسلمين الشيء نفسه ، من قصف وقتل بحق المدنيين الأبرياء؟ هذه وجهة نظرهم بالطبع ، لكن العالم الإسلامي لا يقبل مثل هذه الأعمال . نحن نحاول أن نتفاوض ، ونحاول أن نوضح ، لكننا نجد أنفسنا أمام حائط أصم . هناك عدم استعداد مطلق للاستماع إلى وجهة نظرنا في هذه القضية . فالدول غير الإسلامية القوية لديها وجهة نظر منحازة ضدنا . ووسائل الإعلام الغربية متحيزة دائماً ، وتقاريرها وتحليلاتها وأخبارها مُحَرَّفَة ومشوَّهة ، بهدف إبراز أفعال وممارسات قلة من المسلمين المُضَلَّلين والمُحِبِّطين وكأنها تُجسِّد رغبات وتوجهات الأمة الإسلامية التي تتألف من بليون نسمة .

ومع ذلك ، فإن وسائل الإعلام يمكنها أن تخفف من هذا التحيز والتحامل بإعطاء الصورة الحقيقية للوضع وقول الحقيقة . لكن الإعلام الغربي ، دون استثناء تقريباً ، يسهم بمفاخرة الأمور عن طريق المبالغة وتقديم أخبار مُحَرَّفَة عن المسلمين الإرهابيين ، هل نسيت وسائل الإعلام أن الإرهابيين في العديد من مستعمرات الغرب أصبحوا فيما بعد يوصفون

بأنهم رجال دولة ، وكانوا في الحقيقة مقاتلين من أجل الحرية ، يناضلون لتحرير بلادهم؟
 وبعدما حققوا الاستقلال تم الاعتراف بهم كقادة مسئولين لحكومات دولهم المستقلة ا من هو
 جومو كينياتا رئيس كينيا؟ ألم يكن يُصنّف في عداد الإرهابيين؟ ألا يمكن أن يصبح من يُطلق
 عليهم الإرهابيون المسلمون اليوم ، رجال دولة ، غداً يقودون شعوبهم في سلام ووثام مع
 بقية دول العالم؟ بطبيعة الحال يصعب الآن تخيّل أن هؤلاء المناضلين الذين يناضلون ضد
 الاضطهاد ، والذين لم يأتوا بكبيرة في الواقع سوى أنهم يردون للغرب بضاعته من قتل
 وسفك دماء وإرهاب ، لكنهم ينطلقون من أجل قضية ، يمكن أن يصبحوا في يوم من الأيام ،
 رجال دولة أو قادة لشعوبهم ، على الإطلاق . لكن هل نستطيع حقًا القول بأن حدوث شيء
 من هذا القبيل مستحيل تمامًا؟

الحقيقة التي يجب أن يعترف بها الجميع هي أن المسلمين والعالم الإسلامي لم يتم
 تهميشهم فقط ، بل إنهم اضطهدوا على نحو بشع ؛ لأنه لا توجد اليوم قوة إسلامية واحدة في
 العالم يمكن أن تتصدى لحماقات الآخرين . إنهم مجردون تمامًا من القدرة على الدفاع عن
 أنفسهم ، ويعتمدون تمامًا على حكامهم المستبدين وعلى أولئك الذين هم ضدهم سرًا أو
 علنًا . ويلاحظ أن كل نوع من أنواع الظلم يمكن أن يمارس ضد المسلمين ، غير أن مرتكبيه لا
 ينجون بجرمهم فحسب ، بل غالبًا ما يتم تمجيدهم ، وخلق أبطال منهم .

ففي البوسنة والهرسك كان العالم يشاهد يوميًا على شاشات التلفاز الفظائع التي
 يرتكبها الصرب في حق المسلمين البوسنيين . وفي إحدى الحالات ، كان ضابط بريطاني
 منزعًا وغازبًا للغاية وهو يدين إحراق منزل به نساء وأطفال أحياء . الآلاف قتلوا على أيدي
 الصرب في سربرينيتشا ، ومع ذلك تراجعت القوات الأوروبية التي كان يفترض أن تمحيهم ،
 وأدارت ظهرها إلى الجهة الأخرى . وقد ماطلت الدول الأوروبية وأمريكا في التحرك لاتخاذ
 عمل ضد الصرب في البوسنة والهرسك وفي صربيا خشية تدخل روسي للدفاع عن
 الصرب . غير أنهم في أماكن أخرى لم يخافوا من الروس ، حيث قصفوا العراق بكل حرية

وهو حليف لروسيا . أما في يوغسلافيا فقد خافوا من رد فعل روسيا ، لذلك سمحوا للفظائع الصربية بأن تمضى قدماً ، أكثر من ٢٠٠ ألف يوسنى كانوا ضحايا مذابح جماعية ودفنوا فى مقابر حُفرت على عجل .

كثيرون من الناس علقوا ساخرين بالقول بأنه لو كانت البوسنة والهرسك تنتج النفط للغرب ، أو لو كان الصرب مسلمين لرأينا تدخلاً سريعاً ضدهم !

الآن نرى الروس يمسحون الشيشان من على وجه الأرض ، إن ما يحدث فى الشيشان هو إبادة جماعية بكل معنى الكلمة . المقاتلون الشيشان يعرفون أنهم لا يستطيعون هزيمة الروس ؛ لأن المعركة غير متكافئة فهناك مليون شيشانى ضد ٢٦٠ مليون روسى مسلحين جيداً وقساة لا يرحمون ، لكن الشيشان أرادوا الاستقلال لدولتهم الصغيرة؟ !

لا شك أنه لا يوجد بلد واحد يقدم على التخلي عن بوصة مربعة من أرضه وليس من الحكمة أن يقوم بلد بدعم انفصال إقليم من أى دولة ؛ لأن مثل هذه السابقة قد تستخدم لاقطاع أرض من إقليم ذلك البلد نفسه . لكن الاتحاد السوفيتى تم تفكيكه وبرزت منه دول مستقلة عديدة . فلماذا لا يستقل الشيشان؟ يجب ألا ننسى أن المجتمع الدولى ساند مؤخراً انفصال تيمور الشرقية عن إندونيسيا . هناك دول إسلامية أخرى تبدو سعيدة بالبقاء جزءاً من الاتحاد الروسى ، لكن الشيشان تريد أن تكون مستقلة .

وبالطبع نحن فى ماليزيا مثل جميع الدول الأخرى لا نشجع الانفصال ولن نعترف بدول منشقة ؛ لأن بلادنا نفسها تتكون من اتحاد ولايات ، ولن نسمح بأى انفصال لأية واحدة من ولاياتنا .

ولكن للشيشان كيانها مثل الدول الأخرى فى الاتحاد الروسى أو الاتحاد اليوغوسلافى ، والشيشانيون شعب يتميز بنزعة استقلالية شديدة ، وهم بالمصادفة مسلمون أيضاً . ألا يمكن أن تحل مشكلة انفصالهم سلمياً؟ لكن الذى يحدث اليوم هو عكس ذلك . . يجرى الاستئساد عليهم وإبادتهم وتدميرهم نفسياً من قبل الروس . كم من الناس

تساءلوا عن انتهاك روسيا لحقوق الإنسان وإساءة استخدام قوتها؟ الموضوع برمته غير نزيه وغير عادل .

لقد أحسن المسلمون على نطاق العالم بالظلم ، غير أن ما كان يجرى على الأرض في الشيشان لم يتم تسجيله وبثه بالأسلوب الصحيح وبالذقة التي تكشف حجم تلك الفظائع . ولقد تعمدت وسائل الإعلام غض الطرف عن تلك الممارسات الوحشية اللإنسانية ، في وقت درجت فيه على رصد وبث مظالم ثانوية وتافهة ، لا لسبب إلا لأنها وقعت من قبل أطراف إسلامية .

إن كل ما تفعله جماعات أو دول إسلامية لا يكون صحيحاً بنظر الإعلام الغربي ، فإذا احتجز أى شخص دون محاكمة فهذا ظلم . وعندما تكون هناك محاكمة مفتوحة أمام أنظار الجميع يقولون أيضاً إنها غير عادلة ؛ لأنه لن تكون هناك براءة .

المسلمون لا يطلبون من وسائل الإعلام أن تكون منحازة لهم ، بل كل ما يأملون به هو التغطية الخبرية النزينة على الأقل بعد كل تقرير متحيز أو غير مستحسن يجب أن يعطوا فرصة للاستماع للمسلمين لعرض وجهة نظرهم فى شأن القصة المطروحة . دون شك فإنهم لن يستطيعوا توضيح وتبرير كل الممارسات التى يأتون بها باسم الإسلام أو العدالة أو غير ذلك ، لكن العالم قد يجد فرصة كى يرى الأشياء بموضوعية ليحكم عليها من منطلق مستقل وغير متحيز .

نحن نعلم أن وسائل الإعلام قوية وواسعة النفوذ وعندما تعمل مجتمعة تزداد قوة على قوة . ونحن نعلم أيضاً أن القوة أو السلطة عامل مساعد على إفساد الذمم والضمائر . وتأسيساً على ذلك فإن قوة وسلطة الإعلام الغربى المطلقة يمكن أن تجلب فساداً مطلقاً بذات القدر .

الإعلام له أچندته الخاصة فى الوقت الحالى ؛ لأنه يريد تشكيل العالم ، وليس العالم أو فكر قاده هو الذى يشكل التغطية الإعلامية . إن ما تراه وسائل الإعلام أو ما تعتبره صحيحاً

للعالم ، هو الذى تعتد به الآن وتأخذه فى الحسبان وتبعا لذلك ، إذا كانت وسائل الإعلام مع أى شيءٍ أو ضد أى شيءٍ فإن تقاريرها ستعكس هذا الأمر . لكنها مثل أية مجموعات مصالح قد تكون مخطئة . وحتى حين تصر على ترويح وجهات نظرها الخاصة فالضرر الناتج عن ذلك قد يكون فادحاً .

نحن نعلم أن وسائل الإعلام خاضعة اليوم لهيمنة غربية شبه تامة . ورغم أن الحكومات الغربية لاتسيطر عليها على نحو مكشوف على الأقل ، إلا أن آراءها تعكس الانحياز الغربى والسياسات الغربية . وبما أن الغالب الأعم من وجهات النظر الغربية هى ضد المسلمين ، فإن وسائل الإعلام تروج عن عمد لهذه الآراء المعادية للمسلمين .

وتجدر الملاحظة ، أن المسلمين ليسوا بالضرورة معادين للغربيين ، فقد يكون البعض منهم موال للغرب ، بل أشد موالاة له . لكنهم بصفة عامة يظلون مسلمين بنظر الغربيين ، وهذا الأمر ينطبق أيضاً على بلدانهم كدول إسلامية . فماداموا مسلمين فهم لا يستحقون التعاطف أو التغطية التزيهة من قبل وسائل الإعلام . وبما أن التغطية غير نزيهة ، بل متحيزة تماما ، فإنها تعكس سوء فهم وتمييز الشعوب الغربية ضد المسلمين . وهكذا فإن وسائل الإعلام تسهم فى إدامة المواجهة بين المسلمين وغير المسلمين .

ربما يترتب عن ذلك بعض المكاسب ، لكن بالتأكيد سيكون الكسب أكبر عندما تنتهى المواجهة بين المسلمين وغير المسلمين ، ويراعى بعضهم بعضاً بوصفهم أعضاء فى الجنس البشرى مُعرضين للخطأ مثل كل البشر .

إن وسائل الإعلام بما لها من قوة وتأثير يمكن أن تسهم بفاعلية فى إيجاد تفاهم أكبر بين الشعوب ، وبين أتباع الأديان المختلفة . ولقد تعززت سطوة وسائل الإعلام بشكل هائل مع تكنولوجيا المعلومات الحديثة . وإذا اختارت أن تفعل الخير فبمقدورها أن تجلب السلام والتفاهم إلى العالم حقاً .

كما أنه يمكن لوسائل الإعلام أن تقدم الكثير من أجل توسيع دائرة تفهم الآخرين

للإسلام والمسلمين . وبالطبع يجب أن يفعل المسلمون شيئاً لأنفسهم أيضاً ، لكن دور الإعلام كبير جداً وقوته من الضخامة بحيث إن التزام المسلمين بالسلوك الحسن وحده لن يكون كافياً أو مجدياً ، ما لم يحصلوا على تعاون وسائل الإعلام .

المسلمون ليسوا ضد الغرب أو المسيحيين أو اليهود بالفطرة ، المسلمون يريدون السلام بقدر ما يريدونه الآخرون . نحن نريد تقاسم خيرات هذه الأرض ، نحن لسنا شعوباً عنيفة مجلوبة على الرعب والسلوك الفوضوى . قد يسيء بعضنا السلوك لكن ذلك ليس أكثر مما يفعله الآخرون ، ولا يجب دمغنا بطلاء واحد هو الإرهاب والتزمت ، ولا شك أن الغالبية العظمى من المسلمين ما هم إلا أناس طيبون وعقلانيون ومحبون للسلام .

يجب على وسائل الإعلام أن تعطينا حقنا ، وأنا متأكد تماماً من أننا معشر المسلمين ستجواب إيجابياً معها ، ربما ليس كلنا ولكن الأغلبية الساحقة منا .

نحن نتحدث الآن عن القرية الكونية حيث لا يستطيع أى منا أن يعيش الآن فى جزيرة معزولة ، بل ينبغى أن نكون جيران متفاهمين كسكان قرية واحدة ، وكل ما نحتاجه هو أن نجتمع ونحل خلافاتنا كما يفعل القرويون ، لأننا نكونوا فى مواجهة بعضهم بعضاً إلى ما لا نهاية .

هنا يمكن لوسائل الإعلام أن تلعب دوراً كبيراً فى تطوير ثقافة القرية الكونية ، حيث يعيش المسلمون وغير المسلمين ويعملون معاً ويتقاسمون ثمار عملهم معاً بالحسنى والتساوى (بالإحسان والعدل) إن توفرت تقنيات الاتصالات الفورية على مستوى العالم وعلى نحو غير محدود ، وقرمه فرصة ذهبية ، وينبغى على وسائل الإعلام الاتدع الفرصة تفلت منها .

إن ما يمكن أن يسهم به أى شخص فى سبيل تفهم بقية العالم للإسلام والمسلمين ، يشكل مساهمة أيضاً فى بناء القرية التى تتكون على نحو سريع جداً الآن . فإذا قامت هذه القرية على أسس مشوهة فستكون مشوهة طوال هذه الألفية الثالثة ، وإذا أنشأناها على قاعدة سليمة وجميلة ، فستدوم جمالاً إلى الأبد .

هذا هو التحدي الذي تواجهه وسائل الإعلام . نحن المسلمين نصلي لله ونأمل أن تتعاون معنا تلك الأجهزة من خلال تعزيز جهودنا بقوتها ونفوذها الواسع ، بما يمكننا سويًا من دحض هذه الصورة المشوهة الزائفة التي كوَّنها العالم عن الإسلام والمسلمين ومحورها .

الفصل الثامن

دور الدين في مجتمَع مُتَعَدِّدِ الأديان *

يُعدُّ الدين الإسلامي أكثر عقيدة أسيء فهمها في وقتنا الحديث من قبل المسلمين أنفسهم ومن قبل غير المسلمين بطبيعة الحال . وقد بلغ المسلمون درجة من إساءة فهم دينهم تسببت في خلق حاجز يقف عائقاً دون النفاذ إلى جوهر هذه العقيدة ، ويمنع غير المسلمين من السعى للتواصل والإحتكاك بهم . ويبدو أن المسلمين تناسوا أن أسلاف الغالبية العظمى منهم كانوا من غير المؤمنين بالرسالة المحمدية ، لكنهم اعتنقوا الإسلام نتيجة للاتصال والتفاعل بينهم وبين المسلمين .

لنفترض أن المسلمين الأوائل كانوا قد آثروا التصوقع على أنفسهم ووضعوا الحواجز والعقبات في وجه كل محاولة من غيرهم للاتصال بهم ، إذا صح ذلك فإنه ما كان لأسلافنا في بقاع كثيرة من العالم ليسمعوا بالدين الإسلامي ، ولربما ماتوا على دين آباؤهم من قبل أن يدركوا الإسلام . وبالتالي فإن مسلمى اليوم في بقاع واسعة ربما ولدوا في ملل غير إسلامية أو ربما اعتنقوا رسالة غير الرسالة المحمدية الخاتمة .

ثمة تجليات تكشف بوضوح لأي مدى أساء المسلمون فهم دينهم ، من بينها على سبيل المثال لا الحصر ؛ رفض مفهوم الأخوة الإسلامية . ذلك أن كل مجموعة من أتباع الطوائف الإسلامية المختلفة تنظر إلى الأخرى على أنها غير مسلمة أو أنها على أحسن الفروض ، منحرفة عن الطريق الإسلامي القويم وترفض بالتالي معاملتها من منطلق الأخوة

* كلمة ألقاها في المؤتمر العالمي للدراسات الدينية : مجابهة الألفية . كوالالمبور - ماليزيا - ٣٠ ديسمبر ١٩٩٩ م .

الإسلامية .

ويظهر الأحزاب السياسية في عصرنا الحديث بدأ أعضاء بعض التنظيمات ينظرون إلى خصومهم السياسيين على أنهم غير ملتزمين بالإسلام يعاملونهم على نحو أسوأ من معاملتهم لغير المسلمين .

مظهر آخر من مظاهر سوء فهم المسلمين للإسلام ، يتمثل في حالة العداء والحروب التي تقع بين عدد مهم من البلدان الإسلامية على نحو شبه مستمر ، وهو واقع لا يمت إلى مفهوم الأخوة الإسلامية بصلة . وحرى بالمسلمين إذا تفهموا المعاني السامية لعقيدتهم أن يعتبر كل واحد منهم الآخر أخاه في الإسلام ، بصرف النظر عن الاختلافات السياسية والتمايز العرقي .

هناك حالات صارخة تصل إلى رفض بعض الجماعات الإسلامية أداء الصلاة مع جماعات أخرى ، لالسبب سوى الاختلافات السياسية . وقد حضّ ديننا الحنيف المسلم على أن يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً ، وأن يعمل لآخرته كأنه يموت غداً . غير أن عدداً كبيراً من المسلمين يعتقد أن سعى العبد ينبغي أن يكون خالصاً للحياة الأخرى دون غيرها . إن اعتقاداً كهذا يدفع المسلمين إلى إهمال الجوانب المتصلة بإشباع حاجيات الإنسان المادية والاستسلام انتظاراً لما تسطره الأقدار ، ويترتب على ذلك أن يظل المسلمون فقراء معدمين غير قادرين على تحرير إرادتهم وعاجزين تماماً عن الدفاع عن أنفسهم ضد قهر واستغلال الآخرين .

ومما لا شك فيه أن الأوضاع المأساوية في البوسنة والهرسك وكوسوفا وعدد من دول غرب ووسط آسيا ، تقف شاهداً على حالة الضعف المهينة وحالة التخلف اللتين تعيشهما الأمة الإسلامية . إن إخفاق المسلمين في استيعاب وإدراك معاني ومغزى دينهم لا يساوى شيئاً مقارنة بإخفاق غير المسلمين وبصفة خاصة الأقليات الأوروبية ، في فهم الذهنية الإسلامية وعقيدتها . ولا شك أن هذا الأمر متجذّر في التاريخ ولم ينبع من فراغ . ذلك أن

الهيمنة الإسلامية الطويلة على أجزاء مهمة من أوروبا وبسط حكم الدولة الإسلامية على تلك الأجزاء ، ظلّ على الدوام معياراً يشكل النظرة الغربية إزاء الإسلام ويؤثر فيها باستمرار .

ومن الواضح أن الحروب الصليبية والمعارك الحامية التي شنت لطرده المسلمين من ربيع أوروبا ، لم تنته بعد رغم انتهاء الحكم الإسلامي لتلك الربوع منذ قرون عديدة . لقد هبّ الأوروبيون آنذاك للدفاع عن الديانة المسيحية وإنقاذها من الإسلام الزاحف ، غير أن ما تستشعره تلك الشعوب من خزي وعار في ضوء بسط الدولة الإسلامية لنفوذها على بلدانهم ، ظلّ هو الذى يؤثر فى طريقة تفكيرهم تجاه الدين الإسلامى والشعوب المسلمة إلى يومنا هذا .

إن حالتى الضعف والتجزئة اللتين تعيشهما الأمة الإسلامية وشعوبها ، لا تسمح حالياً بمحاولة إعادة الهيمنة الإسلامية على أوروبا أو جزء منها كما حدث فى الماضى . بيد أن المخاوف الأوروبية لم تهدأ بعد ، إن لم تكن تعمقت على نحو تصاعدى . وكرد فعل لتلك الهواجس ، يسيطر على الأوروبيين نوع من الريبة والشك حيال المسلمين ، ويعملون دائماً على اضطهادهم أينما وجدوا .

هذا السلوك اللاواعى إزاء المسلمين ، يسيطر على الأوروبيين لدرجة نجدهم فيها يخاطبون أناساً من المسلمين فى بعض الأحيان ، عن الحاجة لقمع واضطهاد جماعات إسلامية أخرى دون أن يدركوا أن الآخرين قد لا يشاطرونهم وجهة النظر نفسها ، ولا يبدون أدنى درجة من التعاطف مع طرح من ذلك القبيل .

لقد أخضعت الإمبراطورية العثمانية معظم أراضى أوروبا الشرقية لسيطرتها لقرون عدة ، وكادت أن تستولى على فيينا ، الأمر الذى كان بالإمكان أن يفتح الباب أمام المدّ الإسلامى الزاحف آنذاك لاجتياح البقاع الأوروبية كافة .

وبإلقاء نظرة على ما يجرى فى دويلات يوغوسلافيا السابقة ، يلاحظ المرء أن أقليات

أوروبية قد اعتنقت الإسلام وظلت على التزامها ووفائها له حتى فى أحلك اللحظات التاريخية إبان حقبة الحكم الشيوعى الصارم . ولم يكن مستبعداً على الإطلاق أن يكون الإسلام دين عدد كبير من الأوروبيين فى الوقت الحالى ، إذا ما قُدِّرَ للمسلمين بسط نفوذهم وسيطرتهم على أوروبا الوسطى وقتئذ . غير أن حدثاً من هذا القبيل كان من الممكن أن يكون بمثابة عملٍ ذى كارثةٍ للأوروبيين المسيحيين الملتزمين والذين يعتقدون المسيحية اسماً على حدّ سواء .

لقد رتب الأوروبيون سقوط الإمبراطورية العثمانية وعمل الفرنسيون والبريطانيون على وجه الخصوص على إشعال جذوة النزعة القومية العربية ، ومدّوا يد العون للحركات الوطنية لمساعدتها على التخلص من الحكم التركى . بيد أن العرب أدركوا عقب هزيمة الإمبراطورية العثمانية فى الحرب العالمية الأولى مباشرة ، أن هبّتهم القومية لم تفض إلى الاستقلال نظراً لأن البريطانيين والفرنسيين حلّوا محل الأتراك وأحكموا هيمنتهم على الدويلات العربية . وفى وقت لاحق أدرك العرب أيضاً أنهم لم يفعلوا شيئاً سوى استبدال حكم ذى هيمنة أوروبية مسيحية بحكم إسلامى هذه المرة . ولا بد من الإشارة إلى أنه بقدر ما ظلت ذكرى الحكم الإسلامى لأجزاء من أوروبا حية فى وجدان الأوروبيين وأذهانهم ، فإن العرب يذكرون بذات القدر الخديعة التى انطلت عليهم بطرد الأتراك المسلمين والوقوع فريسة سائغة للإستعمار من جديد ، ولكن هذه المرة على أيدٍ مسيحية أوروبية .

ويحدثنا التاريخ الإسلامى أن المسلمين كانوا قد نجحوا من قبل فى التعايش مع المسيحيين جنباً إلى جنب ، لكن مجيء الاستعمار الأوروبى الحديث جعلهم يربطون بين المسيحية وبين المستعمرين الجدد ، مما تسبب فى تفشى نزعة عداوية للديانة المسيحية فى أوساط المسلمين .

وتجدر الملاحظة إلى أن تلك النزعة العدوانية لم تقتصر على المسلمين فحسب ، بل إن العرب المسيحيين كانوا يمجّتون المستعمرين الجدد أيضاً ، ولم يخفف من كراهيتهم

للأوروبيين كونهم مرتبطين معا برابطة العقيدة الواحدة . وفي أعقاب زوال الإمبراطورية العثمانية شن العرب في غربى آسيا وشمال إفريقيا مقاومة لسنوات طويلة لتحرير بلدانهم من ريقة الاستعمار الأوروبى الفظيع ، فحاضوا حروباً تقليدية معززة بحروب عصابات فى بعض الأحيان ، فنجحوا فى إلحاق خسائر فادحة فى صفوف الاستعمار . وقد تعمق الإحساس بالمرارة إزاء الأوروبين لدرجة لم يعد من الممكن معها كبح مظاهر الغضب والإحباط ، إلى أن كُتلت تلك المسيرة النضالية الشاقة بحصول البلدان العربية على استقلالها الوطنى .

بيد أن الدولة الإسلامية الموحدة قد تم تمزيق أوصالها إلى دويلات حملت فى ثناياها بذور الضعف . كان هناك شبه استحالة فى الواقع لتحل أى من الدول الناشئة مكان الإمبراطورية العثمانية ، نظراً لأن الأخيرة كانت قوة أوروبية ونجحت بتوفير نوع من الحماية للمسلمين طوال فترة حكمها . كما أن الدول العربية نشأت ضعيفة بسبب التنافس فيما بينها ، وبرهنت على أنها لا يمكن أن تتطور إلى قوة يُحسب لها حساب فى المعادلات الإقليمية والدولية آنذاك .

ورغم ذلك ، كان بالإمكان أن تهدأ خواطر العرب وتخف حدة عدائهم إزاء الأوروبين عقب حصول البلدان العربية على استقلالها . لكن لسوء الحظ ترك المستعمرون جرحاً نازقاً لا يندمل فى الجسد العربى ، بمعنى أن الأوروبين رضخوا لمطالب محمياتهم بحقها فى الاستقلال وحكم نفسها بنفسها ، لكنهم أبوا إلا أن يجعلوا من فلسطين وطناً لليهود ليريحوا أنفسهم وشعوبهم من مشكلة اليهود الأوروبين إلى الأبد .

ونشير فى هذا المقام إلى أنه فى الوقت الذى أتخذ من فلسطين وطناً لليهود ، كان هناك أقليات يهودية تعيش فى سلام ووثام وسط غالبية ساحقة من الشعوب العربية بالمنطقة العربية نفسها .

وبطبيعة الحال ، كان لابد للعرب أن يعتبروا قيام دولة إسرائيل فى فلسطين عملاً سافراً

لمصادرة أرض أبنائهم وأجدادهم من أجل استرضاء اليهود من خلال حلّ ما كان يُعرف «بالمشكلة اليهودية» على حساب العرب . تلك التطورات شكّلت نقطة تحول مهمة بتدشينها عقلية الرفض العربي لكل ما هو أوروبي ولكل ما يمثله الغرب .

إن الحروب التقليدية لم تُمكن العرب من إزاحة إسرائيل من محيطهم ، واتضح بجلاء أن حرب العصابات هي الأسلوب الأمثل لردّ العدوان وإحباط الظلم الفادح الذي لحقه المستعمرون بالعرب ، وإعادة الأمور إلى نصابها بتحرير فلسطين ولعل من المفيد أن نشير إلى أن الأوروبيين ظلوا على مدى العصور التاريخية يوفرون للأخرين أحدث ما ابتكرته التكنولوجيا العسكرية في مجال الأسلحة وأدوات الحرب الأخرى . كما أن الأساليب الإرهابية التي تتضمن بين أشياء أخرى ، تهديد الأبرياء وإزهاق أرواح أعداد كبيرة منهم ، في كثير من الأحيان ، هي من بنات أفكار الأوروبيين . والأدهى والأمر أن بعض أنواع الإرهاب في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي كانت من صنْع الدولة الأوروبية ؛ إذ انتشرت العصابات الإرهابية في أوروبا مثل عصابة «بادر ماينهوف» في حين تقع مسؤولية اختطاف أول طائرة تجارية على عاتق الأوروبيين . وتعدّ أيرلندا الشمالية مسرحاً ثرياً للعمليات الإرهابية التي تستهدف الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة في الأماكن العامة دون تمييز بين الحرم والبرئ .

لقد لجأ العرب إلى استيراد تلك الأساليب الإرهابية مدفوعين بغبن دفين إزاء استلاب فلسطين ، فبدأوا باختطاف الطائرات وتفجير المرافق العامة وحسم الصراعات بينهم بالبنديقية التي استخدموها أيضاً ضد الأوروبيين .

وما لاشك فيه أن تلك الأساليب إرهابية من حيث أتت ، لكن بينما يُشار إلى الأجانب على أنهم إرهابيون فحسب ، أصبح العرب يُعرفون «بالإرهابيين المسلمين» . ومن القضايا التي لا جدال فيها أن هناك إرهابيين عربياً يدينون بالدين المسيحي ، لكنهم أصبحوا أيضاً يُعرفون «بالإرهابيين المسلمين» ؟ ، وهذا تصنيف يمكن إدراجه في سياق تجليات إساءة الغرب

فهم العقيدة الإسلامية ، إن الإسلام فى الواقع هو دين السلام ويدل على ذلك كلمة «إسلام» نفسها التى ترجع بجذورها إلى الكلمة العربية «السلام» بيد أن هناك صعوبة فى إقناع الآخرين بذلك .

قبل مجئ الدين الإسلامى ، كان العرب منقسمين إلى قبائل لا حصر لها تمزقها الحروب الداخلىة التى تكاد لا تتوقف على الإطلاق . وكان هؤلاء البدو يتوقون إلى السلم ، لكنهم لم يتمكنوا من تحقيقه . وكما هو الحال فى الصين التى كانت المجاعات تعصف بسكانها والتى درج الناس فيها على أن يحيوا بعضهم البعض بعبارة «هل تناولت طعامك؟» ، فإن العرب كانوا يتوقون للسلم من شدة ما فتكت بهم الحروب ، لدرجة أنهم يلقون التحية على بعضهم البعض بعبارة «السلام عليكم» .

ومن المصادفات المثيرة للاهتمام ، أن اليهود الذين يتمون إلى منطقة غرب آسيا يحيون بعضهم البعض بكلمة «شالوم» التى تحمل مدلولاً مرادفاً لكلمة «السلام» العربية .

لذلك كان من الطبيعى أن يشدد الإسلام على كلمة «السلم» بما يفضى إلى توحيد القبائل العربية المتحاربة وجمع المسلمين مع بعضهم فى أمن ووثام وسلام . وتجدر الإشارة إلى أن الإسلام يرفض الحرب كأسلوب لحل المنازعات بين الناس على نحو قاطع ، ولا يقر حقاً للمسلم فى القتال إلا فى حال رد العدوان . مع ذلك فإن المؤرخين الغربيين بدون استثناء يعزون انتشار الإسلام إلى استخدام القوة والسيوف . ويستفاد من التاريخ المسيحى أن هناك حالات تمت فيها ممارسة العنف والتعذيب والحرق كأساليب لنشر المسيحية ، غير أن المؤرخين المسلمين لم يتحدثوا قط عن تلك النماذج من العنف كمظهر شائع لنشر الديانة المسيحية . وعندما يتحدث الأوروبيون بعفوية عن «الإرهابيين المسلمين» فإنهم يميلون إلى تناسى أو تجاهل نزوعهم إلى العنف ، متجاهلين أن عدداً كبيراً من المسلمين قد قتلوا على أيدى غير المسلمين فى البوسنة والهرسك ، مقارنة بعدد الذين لقوا حتفهم من غير المسلمين على أيدى «الإرهابيين المسلمين» . ويلاحظ أن الأوروبيين لا يتحدثون أبداً عن إرهاب مسيحى أو بوذى

أو هندوسى ، بينما لا يتركوا فرصة دون أن يربطوا أى عمل إرهابى بالمسلمين متى ما وقع هذا . دليل آخر يقف شاهداً على مدى ما بلغه الأورويون من سوء فهم للإسلام .

إن الملاويين الماليزيين مسلمون عن بكرة أبيهم ، ويشكل تاريخ شبه جزيرة مالايا نموذجاً للتعايش السلمى بين السكان الأصليين المسلمين وبين غير الملاويين الذين يعتقدون ديانات أخرى . ورغم وقوع أحداث عنف وصدامات عرقية بالعاصمة الماليزية كوالالمبور عام ١٩٦٩ إلا أنها لم تكن تستبطن أى بعد دينى على الإطلاق . ومنذ ذلك التاريخ ظل السكان الملاويون يعيشون فى أمن وسلام وانسجام مع المستوطنين من غير المسلمين من ذوى الأصول الصينية والهندية وغيرهم . ورغم أن ماليزيا تخضع لنظام حكم يهيمن عليه الملاويون المسلمون ، إلا أنه لم يتم قط استغلال لتلك الهيمنة لقمع أو اضطهاد غير المسلمين أو لهضم حقوقهم فى البلاد . وتتميز الحكومة الماليزية على الدوام بالاعتدال والمرونة ، وتؤكد دائماً على احترام ومراعاة المعتقدات الأخرى للمجموعات الدينية المختلفة فى البلاد . ربما لاحظنا فى الآونة الأخيرة ظهور بعض مظاهر الانحراف عن قاعدة التعايش الدينى بين مختلف الأديان فى البلاد ، غير أن ذلك لا يعدو كونه استثناء يثبت القاعدة وليس العكس .

إن بلادنا تقودها غالبية مسلمة فى الحكم ، تكفل بلا شك العدل والقسط لكافة مواطنيها بصرف النظر عن معتقداتهم الدينية وانتماءاتهم العرقية .

ينبغى التنويه إلى أن العقيدة تنطوى على أهمية خاصة فى البلدان متعددة الديانات مثل ماليزيا ، وتقتضى الحكمة عدم محاولة القفز فوق ذلك الواقع أو تجاهله . ذلك أنه من غير الممكن إقامة مجتمع علمانى فى ماليزيا ، ولا بد من إتاحة الفرصة لكافة المعتقدات فى أن تعبر عن نفسها وأن تقوم بدورها فى صياغة المجتمع . ورغم أن الإسلام هو الدين الرسمى للدولة ، إلا أنه لا يوجد حظر أو تضييق على ممارسة شعائر الديانات الأخرى التى يعتنقها بعض مواطني البلاد .

ويلاحظ في البلدان التي يكون فيها الدين الرسمي للدولة هو في ذات الوقت دين السواد الأعظم للسكان ، ألا تشكل حرية ممارسة الشعائر الدينية فيها حاجساً يشغل البال ، نظراً لأنها لا تنطوي على تبعات يمكن أن تكون خطيرة . ويعكس ذلك ، فإن حرية ممارسة الأديان في ماليزيا التي يدين ٦٠ في المئة من سكانها بالإسلام ، ليست مهمة تنطوي على معانٍ عديدة فحسب ، بل لأنها شديدة الدلالة على مدى تسامح الغالبية العظمى من السكان واستعدادهم للتعايش مع غير المسلمين .

هنا تكمن ضرورة فهم الدين الرسمي . فإذا كان الإسلام الذي هو الدين الرسمي للماليزيا ، يبدو غامضاً وتمّ ممارسة شعائره في الخفاء ، فإن ذلك يُشكل سبباً كافياً للاعتقاد بأن السلطات الرسمية سوف تسعى لفرضه على أتباع الديانات الأخرى ، وستضع العقوبات أمام ممارسة العقائد الأخرى وتعمل جاهدة لحمل المواطنين من غير المسلمين على اعتناق الإسلام .

إزاء هذا الواقع تقتضى الضرورة أن يمارس المسلمون في ماليزيا شعائر دينهم أمام الناس وفي وضوح النهار من دون تخف أو عزلة بغض النظر عن معتقدات بقية المواطنين . بينما لن يُطلب من غير المسلمين في ماليزيا المشاركة في الطقوس الدينية الإسلامية ، ينبغي في الوقت نفسه عدم حرمانهم من فرص التواجد وحضور أداء تلك الطقوس . وربما كان من حُسن الطالع أن نجد أن أداء الصلاة في ماليزيا وما يصحبه من تلاوة وغيرها لا يقلق أحداً ، وهو أمر مقبول من كافة السكان ، وبإمكان أي فرد من أفراد المجتمع الماليزي أن يؤدي شعائر دينه كما يفعل المسلمون في عباداتهم .

من الظواهر الأخرى التي تميّز المجتمع الماليزي ، مشاركة كل المواطنين على نحو أو آخر في الاحتفالات التي تقام في المناسبات الدينية المختلفة . ولنأخذ على سبيل المثال الدعوات العامة التي تُعرف (بالبيوت المفتوحة) والتي يقيم فيها المواطنون الولائم احتفالاً بالأعياد (رمضان والأضحى) ، نجد أنها تستقبل أفراد المجتمع الماليزي من مختلف الديانات ليلتقوا في

منزل واحد لتناول الطعام والتحاور والتعارف ، الأمر الذى يساهم فى تعميق تفهم المواطنين لثقافات بعضهم البعض على الأقل ، إن لم نقل معتقداتهم المختلفة .

ومن الجوانب المثيرة حقاً للاهتمام ما يحدث فى شهر رمضان الفضيل حيث درجت الفنادق الماليزية على تقديم الإفطار الجماعى للمسلمين (بوفية) لكننا نجد أن مواطنين من غير المسلمين ينضمون لتلك المواعيد ليتناولوا طعام الإفطار إلى جانب إخوانهم الصائمين . ويلاحظ فى هذا المقام أن الغالبية العظمى من أتباع الديانات الأخرى يمتنعون عن تناول الطعام فى رمضان أثناء النهار احتراماً لمشاعر إخوانهم المسلمين ومراعاة لحرمة هذا الشهر العظيم .

هناك مجتمعات عديدة تنظر إلى التعددية الدينية على أنها نقمة وليس نعمة ؛ لأنها كثيراً ما تجلب العنف والصراعات المسلحة ، لكنها فى ماليزيا تشكل عنصراً مهماً لجمع وتقريب المواطنين من مختلف الديانات إلى بعضهم بعضاً مما يسهم فى تعزيز الوحدة الوطنية .

إن ما حققته ماليزيا من وحدة وطنية ما هو إلا ثمرة لممارسة الشعائر الدينية وخاصة تلك المرتبطة بالإسلام ، فى وضوح النهار وبعيداً عن العزلة . لاشك أن للدّين دوره ومكانته فى القرن الحادى والعشرين ، ونحن نرى أن الغرب ينزلق كل الانزلاق باتجاه المادية البحتة ، ويعتقد الغربيون أن الثروة وحدها كفيلة بجلب السعادة وتوفير مستوى حياة أفضل .

وقد جربنا فى ماليزيا كيف أن الجشع وحب مراكمة الثروة غير المحدودة يمكن أن يتسبب فى تدمير مكتسبات شعوب بكاملها ، ويؤدى إلى تهديد أمنها واستقرارها . ولولا الإيمان بالله ، لأصيب الماليزيون باليأس والقنوط ، لكنهم تمكنوا من احتواء آثار الأزمة الاقتصادية التى ضربت المنطقة فى صيف ١٩٩٧م ، وتجاوزها من خلال التحصّن والتسلح بقيمهم الروحية . وقد حافظ الماليزيون على تماسكهم ورباطة جأشهم بفضل تلك المعتقدات

الروحية ، وأصابوا فى تشخيص الصعوبات المادية الناجمة عن الأزمة ووفّقوا فى مجابتهها وتجاوزها .

فى ضوء تلك التجربة ، يمكننا القول إن هناك صعوبة حقيقية فى معالجة التحديات التى طرحها القرن الحادى والعشرون دون التمسك بالقيم الروحية ، أخذين فى الاعتبار تجارب مجتمعات أخرى تحلّت من قيمها الدينية ، ففقدت توازنها وأقعدتها الإحساس بالضياع .

وبرغم مقولة كارل ماركس بأن «الدين أفيون الشعوب» ، فإن الأديان استمرت بالانتشار تصاعدياً ومستتمر بالوتيرة نفسها ، بينما ذهبت الأيديولوجية الماركسية إلى أضياب كتب التاريخ والمتاحف ، وهذا دليل كاف على أن الأيديولوجيات التى يضعها الإنسان ، لن تحل محلّ الأديان أبداً .

الفصل التاسع

دور الإسلام في تشجيع وتعزيز التسامح والتعاور بين الأديان *

نحن نعيش في مستقبل ألفية جديدة ، ولا بد لنا من أن نتفكر ملياً في ما حدث في الماضي وما يمكن أن يحدث في المستقبل ، وبهذا الصدد فإن استعراض الماضي هو الأسهل بطبيعة الحال . فعندما دخل العالم الألفية الثانية كانت الحضارة الإسلامية في قمة أوجها ، بينما حلت الألفية الثالثة فينا والأمة الإسلامية تعيش أقصى حالات الجزر والانعطاط . ورغم أن الأمم الإسلامية نالت استقلالها السياسي عن المستعمرين ، إلا أنها مازالت خاضعة إلى حد كبير لهيمنة قوى أجنبية . ويتعرض المسلمون في مواقع عديدة إلى مذابح وعمليات إبادة جماعية أودت بحياة مئات الآلاف منهم ، في وقت يكفي فيه إخوانهم في العقيدة بدور المتفرج العاجز عن وقف أعمال التقتيل .

ينبغي ألا نشعر بالدهشة والانتزاع إزاء عدم الاعتراف بالدور الذي لعبه الإسلام والحضارة الإسلامية في مجال حوار الأديان وتفهم بعضها بعضاً . أقول قولي هذا نظراً لأن المفهوم السائد عن الإسلام في وقتنا الراهن من قبل كل من المسلمين وغير المسلمين ، يختلف اختلافاً كاملاً ، ويتباين في أحيان كثيرة مع التعاليم الإسلامية التي اتبعتها ومارسها المسلمون الأوائل خصوصاً في فترة العصر الذهبي التي بلغت فيها الحضارة الإسلامية أوج مجدها .

إن النظرة السائدة عن المسلمين اليوم هي أنهم منعزلون متقوقعون على أنفسهم ،

* خطاب في ندوة عن دور الحضارة الإسلامية في تشجيع وتعزيز التسامح والتعاور بين الأديان ، نظمه المعهد الماليزي للفهم الإسلامي (IKIM) - كوالالمبور - ماليزيا ٢٥ مايو ١٩٩٩ م .

خاصة عندما يعيشون في مجتمعات يشكل غير المسلمين فيها نسبة كبيرة ، ومن النادر جداً أن يُنظر إليهم على أنهم فاعلون يسهمون في توسيع وتعزيز دائرة التفاهم والتحاور بين الأديان .

ونحن نشير إلى أن اللائمة تقع جزئياً على عاتق غير المسلمين ؛ لأنهم يروجون في معظم الأحيان أفكاراً ومفاهيم سلبية عن الإسلام والمسلمين .

كما يلاحظ أن ذكرى الجهاد وسيطرة المسلمين على الأراضي الأوروبية قبل قرون خلت ، مازالت حية في أوساط المجموعات الإثنية الأوروبية . كما يلاحظ أن هناك توجهاً عاماً لتضخيم أى خطأ أو أى ممارسة غير مقبولة تأتي من طرف فرد من المسلمين ، والسعى دائماً لربطها بالدين الإسلامى مهما بعدت الصلة بينها وبين الإسلام .

ذلك الموقف المنحاز لا يعترف أبداً بأن المسلمين هم أناس عاديون مثل بقية البشر ، يختلفون باختلاف أعراقهم وثقافتهم ، وأنهم مُعرضون لنقاط الضعف الإنسانى ، مثلهم مثل أى كائن آخر من البشر . وبدلاً من ذلك فإن الآخرين ينظرون إلى المسلمين على أنهم متحدون فى كيان واحد وأنهم من طينة واحدة .

هذا المفهوم الخاطى يقود دائماً إلى إصدار أحكام عامة مثل إلصاق أى جريمة أو سلوك خاطى تقوم به فئة محدودة ، بثقافة وممارسة المسلمين كافة .

لذلك نجد أن الشخصية النمطية للمسلم تُصوّر دائماً على أنها متخلفة وغير مُنظمة وغير اجتماعية ومتعصبة ، تميل إلى الإرهاب ، ولا يُشار أبداً إلى أن الإرهاب ليس حكراً على المسلمين وحدهم ، وأنه وىء متفش فى كل المجتمعات .

ويلاحظ أيضاً أن كل الأعمال الإرهابية التى تقع على المسرح العالمى ، تُنسب مباشرة إلى المسلمين ، إلى أن يثبت العكس . والحديث عن الإرهاب يقودنا إلى التأكيد على أن الإثنيات الأوروبية لا يوجد لها مثيل أبداً فى مجال القمع والاضطهاد والتقتيل المنظم ، ذلك

أن المجازر التي ارتكبتها النظام النازي في حق اليهود أثناء الحرب العالمية الثانية والتي راح ضحيتها نحو ستة ملايين يهودي ، تُعدّ من أشنع الجرائم التي شهدتها البشرية . كما أننا نشاهد في الوقت الحالي عمليات إبادة جماعية ضد ألبان كوسوفو ، وسبق أن تتبعنا في السنوات القليلة الماضية المجازر في البوسنة والهرسك ، والتي أودت بحياة مئات الآلاف من المسلمين . غير أن كل تلك الممارسات والعمليات البشعة التي ارتكبتها مجموعات إثنية أوروبية ، لا تصنّف على إنها إرهاب أوروبي أو مسيحي .

إلى جانب ذلك ، نجد أن المجزرة التي نفذتها الطائفة البوذية المتطرفة في اليابان ، والمذابح التي يرتكبها المتطرفون الهندوس من وقت لآخر ضد المسلمين في الهند ، تقف شاهداً على الإرهاب البوذي والهندوسي ، لكنها لا توصف على إنها كذلك .

في المقابل ، لا يكف العالم عن وصف أى عملية يقوم بها المسلمون في فلسطين (بالإرهاب الإسلامى) عن عمد حتى لو وقعت دفاعاً عن النفس . كما يُصنّف كل من يقوم بعملية من ذلك القبيل على إنه «إرهابى إسلامى» بصرف النظر عن كونه إرهابياً أم غير ذلك . خلاصة القول ؛ إن العمليات الإرهابية التي تقوم بها المجموعات العرقية الأوروبية أو المسيحيون أو اليهود المتطرفون أو البوذيون ، لا يتم الربط بينها وبين تلك الديانات ، فى وقت لا يكف فيه غير المسلمين عن الحديث عن الإرهاب الإسلامى .

وتلك محاولة فاضحة للتنكّر لوجود إرهابيين مسيحيين ويهود وبوذيين ومسيحيين أرثوذكس ، ممثلين بالمتطرفين الصرب ، فيما لا يجراً أحد على القول بأن من يوصفون «بالإرهابيين» من بين المسلمين قد دفعوا دفعاً لارتكاب أعمال مُصنفة فى خانة الإرهاب .

ويعنى آخر ، فإن الإرهاب يتم إرازه على أنه حكرٌ على المسلمين ، بينما يُصوّر الإرهابيون من غير المسلمين على أنهم إرهابيون فقط ، ولا يتم ربط ذلك بالإثنيات التي يتمون لها ، ولا بالثقافة السائدة فى مناطقهم أو الدين الذى يعتنقونه .

ودون أدنى شك فإن أكثر الناس عُرضة للاضطهاد فى وقتنا الحاضر هم المسلمون الذين كانت ومازالت حقوقهم الأساسية من حريات وحقوق مدنية وسياسية ، مهضومة ويتم انتهاكها على نحو مستمر . كما أن عدداً من بلدان العالم الإسلامى يتعرض من وقت لآخر للعقوبات والقصف وكل أنواع الإذلال والتحقير . فهل فى الأمر ما يشير الدهشة إذا ما أبدى المسلمون امتعاضاً دائماً؟ وكشفوا عن مواقف عدائية إزاء غير المسلمين ورفضوا اتباع قواعد السلوك وأساليب الحياة التى يعتقد الآخرون أنها لازمة مرتبطة بالمجتمعات المتحضرة؟ صحيح أن المسلمين يبدون وكأنهم يرفضون ديانات الآخرين ، كما يبدون وكأنهم لم يسهموا فى تعزيز الحوار والتفاهم بين الأديان . وينبغى أن نعترف بأن المسلمين مسئولون بدرجة لا تقل عن غير المسلمين عما لحق بسمعتهم وصورتهم من تشويه ، وما يعيشونه من عزلة مضروية عليهم . لكن هذا الوضع غير الطبيعى ، لم يكن كذلك فى كل الأوقات . بمعنى أن المسلمين الأوائل كانوا يجوبون الأرض شرقاً وغرباً ، وقدموا للشعوب الأخرى نماذج تُحتذى فى التسامح واحترام عقائدهم وحاولوا استنباط الجوانب المشتركة بينها وبين الإسلام وتبنيها ، علمابأن التعاليم الإسلامية لا تنهى عن هذا الأسلوب المتحضر الذى يُشكّل قاعدة للحوار بين الأديان . وقد حثَّ الإسلام المسلمين على الاعتراف بوجود ديانات أخرى وقبول الأساليب المختلفة التى يتعبّد بها أصحاب تلك الديانات ، ناهياً فى الوقت نفسه عن حمل غير المسلمين على اعتناق الإسلام بالقوة . كل ذلك يُبيّن بجلاء أن المسلمين مطالبون بالتسامح مع الكفار وإبداء قدر من التفهم لمعتقداتهم وعدم اعتبارهم أعداء دون أسباب . إذا ما هى تلك الممارسات المستفاعة من التعاليم الإسلامية التى قدّمها المسلمون الأوائل لغير المسلمين؟

وردت الإشارة أعلاه إلى أن الإسلام ذكر على وجه التحديد أهل الذمة الذين يتبعون ديانات أخرى ويمارسون شعائرهم الدينية بأساليب مختلفة . وقد ذهب الإسلام فى الواقع إلى أبعد من ذلك ، فحثَّ المسلمين على عدم الإستهزاء بالديانات الأخرى ، وعدم انتقاد الأساليب التى يتعبّد بها أصحاب تلك المعتقدات ؛ لأن ذلك يمكن أن يدفع غير المسلمين إلى إبداء ملاحظات سلبية ومسيئة للدين الإسلامى ، وهو ما لا يرضاه المسلمون .

إن القرآن الكريم لم يأمر بحمل الناس على اعتناق الإسلام بالقوة ، وقد حثَّ القرآن سيدنا محمداً - صلى الله عليه وسلم ، على ألا يقنط إذا امتنعت طائفة من غير المسلمين عن اعتناق الإسلام ؛ لأن الأمر كله مرتبط بمشيئة الله ، وإذا شاء المولى عز وجل ذلك ، لاهتدت تلك الطائفة إلى الرسالة الخاتمة . وقد شاء الله تعالى أن يهدى عدداً كبيراً من ألد أعداء الإسلام الأوائل ، إلى اعتناق الرسالة المحمدية ، وأبلوا بعد ذلك بلاءً حسناً . كما ذكر القرآن أيضاً في معنى الآية الكريمة أن الله خلق هذه الأرض وعمرها بقبائل وشعوب مختلفة للتعرف ، وبيّن في الوقت نفسه أن العرب ليسوا هم أكرم الناس ولا أعلى منهم مرتبة ، وحدّد التقوى وحدها كميّاراً للتفضيل بين الخلق .

وعليه ، فإن المسلمين الأوائل لم يكتفوا بإبداء أكبر قدر من التسامح مع غير المسلمين فحسب ، بل ذهبوا كما حثّهم دينهم في طلب العلم والمعرفة ، إلى التلمذ على غير المسلمين وبصفة خاصة اليونانيين ، ليتعلموا مبادئ العلوم والرياضيات . وحرص هؤلاء المسلمون على الإفادة من الإنجازات الحضارية للشعوب الأخرى ، فقاموا بترجمة الكتب اليونانية ودرسوها فاستوعبوها وساهموا فيما بعد في تطوير تلك العلوم .

وقد ساهمت الجامعات ومراكز العلم الإسلامية والعلماء الذين نهلوا العلوم بها ، في قيّة العالم وأصبحت محط أنظار الأوروبيين الذين تقاطروا عليها للاستزادة بالعلم والمعرفة منها . لقد بلغت الحضارة الإسلامية في إسبانيا قمة مجدها عندما كان المسلمون يتحلون بأقصى درجات التسامح وأبدوا قدراً عالياً من الاستعداد للتعلم والإفادة من غيرهم . وكان المسلمون في الأندلس يعيشون إلى جوار المسيحيين واليهود الذين كانوا يشغلون عدداً كبيراً من الوظائف في دواوين الحكام المسلمين وحكوماتهم . وعندما بدأ انهيار الدولة الإسلامية بإسبانيا في أوروبا قبيل أوروبا الشرقية ، انبرى العلماء والمثقفون والقضاة المسلمون لتفسير التعاليم الإسلامية ، فافترضوا أن المسلمين قد ابتعدوا عن التعاليم الإسلامية القويمة بمجرد أن بدأوا يسعون إلى اكتساب المعارف والعلوم غير الإسلامية ، وعاشروا غير المسلمين . واعتبر

أولئك العلماء العلوم والرياضيات وضروب المعارف الأخرى التي استحدثها المسيحيون أمورا دينوية ولا حاجة للإسلام بها ، مؤكداين على ضرورة تكريس حياة المسلم كلها للأعمال الخيرية التي يُثاب عليها الإنسان في الآخرة . وقد اهتم العلماء المسلمون بالقوانين الإسلامية وبتكريز خاص على العقوبات التي ينبغي تطبيقها على المتهمين بالانحراف عن الطريق القويم . فى ذلك الوقت بدأ المسلمون ينظرون إلى العناصر الإسبانية واليهودية التي اعتنقت الإسلام ، بنوع من الشك والريبة وبدأ صدرهم يضيق بهم ، فى دلالة واضحة على بداية النهاية للتسامح . فى تلك الظروف أدار المسلمون ظهورهم لكل أنواع المعارف والعلوم التي لا تعنى تماما بشئون الدين ، فتراجعت قدراتهم ومهاراتهم على نحو مريع ، فضعفوا أمام الأوروبيين وعجزوا عن مجارة التطور العلمى المتسارع وما ينتج عنه من تطور فى مجال القوة العسكرية والإمكانات التسليحية . وانتهى الأمر بالمسلمين إلى خيارين كان أحلاهما مر: إما الإرتداد عن الإسلام لاعتناق المسيحية . أو الطرد المهين . ومن سخرية الأقدار أن الإمبراطورية العثمانية انتهت إلى المصير نفسه . فعندما بلغت الإمبراطورية العثمانية قمة مجدها ، انزلت بطانة الحكم فى جدل عقيم حول مدى توافق التعاليم الإسلامية التي كانوا يمارسونها مع الإسلام الصحيح .

بينما شرع الأوروبيون فى عملية تحديث شملت جميع مناحى الحياة ، واكتشفوا وسائل جديدة وتقنيات متطورة لحماية أنفسهم وبلدانهم من المؤسسة العسكرية التركية المتوثبة ، كان الأتراك يتجادلون حول قضايا تافهة ويتساءلون هل يحل الإسلام ارتداء السروايل الضيقة؟ إلى غير ذلك من التساؤلات الهامشية .

وبينما كانت القوات التركية فى بداية عهدا مجهزة بأفضل وأحدث أنواع العدة والعتاد المتوفرة آنذاك ، بدأت قدراتها المعرفية والتصنيعية تتراجع تدريجيا وعجزت فى نهاية المطاف عن مجارة الثورة العلمية والصناعية التي جعلت من أوروبا عملاقا فى كل مجال . وانشغل علماء الدين الأتراك بالسعى لضمان التزام الأمصار والرعية التزاما صارما بالفتاوى

الدينية التي يصدرونها والامثال لتفسيرهم للتعاليم الإسلامية ، فى حين لم يفتح الله عليهم بكلمة واحدة حول مظاهر الضعف التى اعترت الدولة ، فتراجعت قدرتها الدفاعية مقارنة ببقية الدول الأوروبية من حولها .

فى تلك الأثناء تمردت الأمصار التى كان يقطنها مواطنون من غير الأتراك على الإمبراطورية العثمانية وتشجعت على الانشقاق عنها الوحدة تلو الأخرى . وأقامت كل واحدة دولة مستقلة بذاتها بعيداً عن سيطرة الأتراك . أما العرب الذين انتظروا طويلاً للتحرر من الهيمنة التركية فقد فوجئوا بحلفائهم الأوروبيين يخدعونهم ويحلون محل الأتراك ، فلم ينجوا شيئاً ، بل بدكوا استعماراً أوروبياً مسيحياً بحكم إسلامى ، وخضعت البلاد العربية فى المشرق إلى الاستعمار الفرنسى والإنجليزى . وفى شمال إفريقيا احتل الإسبان والفرنسيون المقاطعات الإسلامية . بينما بسط الشيوعيون الروس حكمهم على دويلات آسيا الوسطى الإسلامية وفرضوا عليها أيديولوجيتهم الإلحادية . وعندما أدرك المسلمون أن مجدهم قد ولى إلى غير رجعة ، كانوا قد بلغوا أقصى درجات التخلف وضعفوا أمام الآخرين ، فانتهموا إلى الخضوع والاستسلام للحكم الأجنبى .

لقد بلغ المسلمون مرحلة من الخضوع كانوا يضللون فيها أنفسهم ، معتقدين أن حظهم فى هذه الحياة الدنيا جد قليل لقاء وعد بجنة عرضها السماوات والأرض فى الآخرة ، متناسين أن القرآن الكريم شدد على ضرورة أن يسعى المسلم فى هذه الحياة الدنيا لاكتساب الحسنات ، واعتقدوا أن الإعداد للآخرة يتم عبر أداء الطقوس الدينية فحسب ، فأهملوا الاهتمام بأمر مجتمعاتهم وبنوا الحواجز بينهم وبين ما يجرى فى بقية أنحاء العالم ، ورفضوا السعى للتزود بالعلوم والمعارف ، فيما عدا تلك التى كانوا يعتبرونها جزءاً من التعاليم الإسلامية .

ولقد انكفأ المسلمون على أنفسهم وتراجعوا من موقع الأمة الأكثر تحضراً وامتلاكاً لناصية العلم ، ليصبخوا أكثر الأمم تخلفاً وضعفاً . ولعل هذا التراجع يفسر لنا عدم بروز أية

قوة عظمى إسلامية فى عصرنا الحديث ، وعدم سطوع نجم أية دولة إسلامية فى مجال المعرفة والتكنولوجيا والمهارات والقدرات الإدارية والتنظيمية . وكرد فعل على الهيمنة والقمع الذى مارسه غير المسلمين عليهم ، تأجيج فى أوساط المسلمين شعور بالغبن والكرهية السافرة للمستعمرين . لقد درج المسلمون على إلقاء اللائمة تماماً على عاتق أعدائهم فى كل النكبات والكوارث التى حلت بهم ، دون أن يتساءلوا عن الدور الذى لعبوه فى انهيار دولتهم وما تعرضوا له من صنوف البطش والاضطهاد على أيدي الأعداء فيما بعد .

وتعود أسباب سقوط الدولة الإسلامية جزئياً على الأقل ، إلى التفسير المتسم بالضيق والضحالة للدين الإسلامى والذى ظهر عقب ازدهار الحضارة الإسلامية . وانطلاقاً من مفهوم خاطئ ، مؤداه أن المسلم لا حاجة له بالعلوم الدنيوية ، وانسجاماً مع الجدل الذى كان يحتدم فى كل يوم حول ماهية التعاليم الإسلامية الصحيحة . أهمل المسلمون جزءاً مهماً من تلك التعاليم التى أمر بها القرآن الكريم حرفياً مثل : إعداد العدة للدفاع عن النفس . لقد أمر القرآن المسلمين بأن يقدفوا الرعب فى قلوب الأعداء من خلال إعداد رباط الخيل والعدة الأخرى . ومن البديهي أن القرآن ما كان ليأمر المسلمين بإعداد العدة لقذف الرعب فى قلوب الكفار فى ذلك الوقت المبكر من خلال تصنيع الدبابات والمقاتلات والقنابل والمدافع بدلاً من الخيل والسيوف ؛ لأن ذلك ما كان ليوجد صدئ فى نفوس أولئك الأعراب الجهلاء . وقد تجلّت الحكمة القرآنية فى مخاطبة الأعراب بما تدركه عقولهم وتستوعبه آنذاك . بيد أن الأمر القرآنى كان معنياً بإعداد قوة دفاعية كفيلة بردع الأعداء فى كل زمان ومكان . ولو قدر للمسلمين آنذاك أن يدركوا مغزى هذا الأمر ، لما زهدوا فى العلوم الدنيوية الضرورية لابتكار وإنتاج أسباب القوة المتجددة من أسلحة وعدة بقدر التحديات المطروحة .

كانت النتيجة بالطبع هزيمة ساحقة للجيوش الإسلامية التى دكت حصون الأعداء من قبل فى كل مكان ، فخضعت البلدان الإسلامية للسيطرة الأوروبية ، ومع ذلك فإن المسلمين لم يفلحوا فى تشخيص أسباب تلك النكسة واستمروا فى جدل عقيم حول الإسلام

والتشريع الإسلامى وممارسات المسلمين على الصعيد العملى . وقد تسبب ذلك الجدل والاختلاف فى إحداث انقسامات فى صفوف المسلمين فتفرقوا إلى طوائف تعادى بعضها بعضاً .

ويلاحظ أن حصول الدول الإسلامية على استقلالها الوطنى لم يؤد إلى إدراك الحاجة الماسة إلى اكتساب المعرفة والمهارات الأخرى الضرورية للدفاع عن الأوطان والعقيدة والحق بركب الأمم المتقدمة . وبدلاً من ذلك ، احتدام التنافس بين المسلمين الذين نالوا تعليماً دينياً وأولئك الذين نهلوا من العلوم الدنيوية ، للسيطرة على أجهزة الدولة ، ولم يكن ذلك التكالب على السلطة لدوافع دينية بقدر ما كان لإشباع طموحات شخصية بحتة .

ونظراً للنزعة الدينية المتجذرة فى الأوساط الإسلامية آنذاك ، فإن تلك الطوائف كانت تحاول إلغاء بعضها بعضاً بادعاء الوصاية على الإسلام والالتزام بالمبادئ والتعاليم الإسلامية الصحيحة .

وفى خضم تلك الصراعات ، ابتدعت الجماعات المتعصبة مصطلح «العلمانية» وأصبحت تصنف كل ما لا يمت بصلة مباشرة للعبادة والطقوس الدينية ، وما لا ينفع فى الحياة الأخرى ، بأنه علمانى وبالتالي فهو مخالف ومتعارض مع الدين . ولسوء الحظ فإن مؤسس وبنانى نهضة تركيا الحديثة الزعيم كمال أتاتورك أخطأ خطأ فادحاً بتحميل الإسلام مسئولية انهيار الإمبراطورية التركية ، متناسياً أن ديننا الحنيف برئ من هذه التهمة ، وأن تفسيرنا الخاطئ وممارساتنا المنحرفة هى التى تسببت فى هزيمة الدولة الإسلامية . واعتقاداً منه أن الحلول للمشاكل والقضايا التى أقعدت بلاده عن النهوض ، تكمن فى رفض الإسلام ، ولم يتردد أتاتورك فى فرض العلمانية ؛ عقيدة للدولة التركية . وقد عمل أتاتورك على تغييب الإسلام عن الحياة التركية إيماناً منه بأن العلمانية تقتضى ألا يجد الدين طريقه للتأثير فى شئون الدولة . وتوقع الزعيم التركى أن البلاد التى نجح فى حمايتها من الأطماع اليونانية ستكون شبيهة بالبلدان الأوروبية التى تفصل تماماً بين الدولة والكنيسة . وقد تسببت العلمانية

التي فرضها أتاتورك على بلاده في إثارة غضب وهواجس المسلمين في تركيا وفي العالم الإسلامي بوجه عام ، واتهموا تركيا بالارتقاء في أحضان أوروبا وتبني القيم المسيحية على حساب الإسلام ، متسببين بخلق فجوة ونوع من الخوف من كل ما يندرج في سياق العلمانية . وأدت تلك الموجة العاطفية الغاضبة إلى حجب الذهنية الإسلامية عن التفكير بمعنى العلمانية التي لم يتم النظر إليها أبداً من منظور إسلامي .

هناك إمكانية للفصل بين الكنيسة والدولة وبين العلمانية والعقيدة في الديانة المسيحية ، إلا أن ذلك غير وارد في الإسلام ، نظراً لأن الدين الإسلامي بطبيعته يشكل منهج حياة متكامل ، وأن أي أسلوب حياة كهذا لا يمكن أن يقتصر على العبادة الصرفة وممارسة الطقوس الدينية فحسب . كما أن نظام الحياة لا يمكن أن يُكرس كل التركيز للحياة الأخرى ، ولا بد من أن يستوعب الأنشطة والممارسات اليومية التي يؤديها المسلمون والبشر بصفة عامة . وعليه فإن دراسة العلوم والتكنولوجيا الحديثة واستيعابها للإفادة منها ، أمر لا غنى عنه لحياة المسلم ومرتبطة تماماً بقضايا الدفاع عن الأمة الإسلامية . إن إنشاء الأعمال التجارية والشركات الاستثمارية ومراكمة الثروة ، أمور ضرورية لأنها تصب في المجرى العام لإصلاح حال المسلمين والأمة الإسلامية في هذه الدنيا . وكيف لنا أن نتوقع من المسلمين إخراج الزكاة والصدقات لمساعدة الفقراء والمحتاجين من غير هذه الأعمال؟ كما أن تطوير وسائل السفر قد انعكس إيجاباً على أداء الشعيرة الخامسة من أركان الإسلام ، وأصبح بإمكان ملايين المسلمين أن يؤديوا فريضة الحج في كل عام بفضل وسائل النقل التي ابتكرها غير المسلمين .

ويعني آخر ، فإن تنمية البلدان الإسلامية وتحقيق الرفاه لشعوبها بقيادة حكومات صالحة ونزيهة تستند إلى نظام قضائي عادل وفاعل ، وغيره من الترتيبات الأخرى المتصلة بالأمور الدنيوية ، ترتبط ارتباطاً مباشراً بنظام ومنهاج الحياة . والأمر كذلك ، فإن المطلوب هو عدم تقاطع وتناقض تلك الأمور مع الأحكام والتعاليم الإسلامية ، بما يؤدي إلى الخروج عن

الملة .

إن الجهل بالمعارف الحديثة والاقتدار إلى المهارات وعدم السعى للإفلات من دائرة الفقر والاعتماد على استهلاك ما يتجه الآخرون بمن فيهم العلمانيون لتلبية الاحتياجات المعيشية والدفاعية ، ليست من النظام الإسلامى فى شىءٍ على الإطلاق . ولا شك فى أن حالة العجز التى يعيشها المسلمون حالياً والتي تحول دون نهوض الشعوب الإسلامية لحماية إخوانهم فى العقيدة الذين يتعرضون للسُّحل والتقتيل والطرده من ديارهم على نحو يومية ، لا تتفق مع نظام حياة المسلمين أيضاً . وعلاوة على ذلك فإن عجز البلدان الإسلامية عن حماية المسلمين الذين يتعرضون للمحن ، ناتج فى الأساس عن التخلف والفقر المتفشيين على نطاق واسع فى الأوساط الإسلامية .

وبالمقابل نجد أن دراسة العلوم واكتساب المهارات العالية وإجادة التعامل مع التقنيات المبتكرة والتي تسهم بجلب الرفاه والسعادة للمسلمين وتوفر لهم وسائل الدفاع عن النفس ، لا تنطوى على جوانب علمانية ولا تتضمن شيئاً يخالف التعاليم والأحكام الإسلامية على الإطلاق . كما أن زيادة رصيده المرء المسلم من الحسنات لا تنأتى بالعبادة وممارسة الطقوس الدينية والانتقطاع للعلوم الدينية فقط . واستناداً إلى القاعدة الإسلامية القائلة «بفرض الكفاية» فإن الأمة الإسلامية بأجمعها تكون أئمة إن لم يتخصص بعض أفرادها فى المجالات التى توفر للمسلمين الرفاه والسعادة فى هذه الدنيا .

لقد أدى عدم تفهم معنى ومدلول العلمانية من منطلق إسلامى ، والتخوف من إعادة إنتاج العلمانية التركية ، أدى إلى تكريس الجهل والتخلف فى الأوساط الإسلامية ، وأقعد المسلمين عن اكتساب مقومات الدفاع عن النفس اعتماداً على جهدهم الذاتى . وينبغى التأكيد على أن اللائمة تقع على عاتق المسلمين وحدهم ، نظراً لأنهم أهملوا جزءاً مهماً من التعاليم الإسلامية .

لقد اتجه المسلمون بدافع الخوف من العلمانية ، إلى عزل أنفسهم عن المحيط الخارجى ،

محاولين النأى بأنفسهم أو البعد عن الأفكار التي يرون أنها لا تتفق مع تعاليم عقيدتهم ، فامتنعوا عن الاتصال والاحتكاك بغير المسلمين اعتقاداً منهم أن تواملاً من هذا القبيل سوف يُدنّس عقيدتهم ويخالف نظام الحياة الإسلامية . تلك العزلة أدت إلى توقف مساهمة المسلمين المحدثين فى الحوار والتفاهم بنى الأديان ، على عكس ما فعله المسلمون الأوائل الذين كان لهم باع طويل فى هذا المجال .

فى ماليزيا بدأت تبرز نزعات فى المدارس تثير القلق حقاً ؛ إذ يحاول معلمو التربية الإسلامية أن يؤثروا على التلاميذ من خلال توجيههم لتحاشى الاتصال والاحتكاك بغير المسلمين لكى لا يفتحوا ثغرة يمكن أن تؤدى بهم ، بين أشياء أخرى ، إلى تناول طعام حرام . هذه التوجيهات تولد فى ذهن الطفل شكوكاً فى الطعام الذى يُقدم إليه فى منزله وأنواع الأكل التى يتم إعدادها فى المطاعم العامة . كما أن مثل هذه الشكوك ستدفع الأطفال فى بلاد كماليزيا تستوطنها نسبة مهمّة من السكان غير المسلمين ، إلى الاعتقاد بأن التواصل والتعايش مع غير المسلمين يتسبب فى تدنيس العقيدة من خلال الوقوع فى المحرمات ، وهو أمر يحول دون مساهمة هؤلاء التلاميذ فى إيجاد أرضية مشتركة من التفاهم المتبادل بين الأديان .

ولم تقتصر محاولات عزل المسلمين الماليزيين عن بنى وطنهم من غير المسلمين على رياض الأطفال فقط ، حيث يتم حثّ الطلاب المسلمين فى المدارس والجامعات على ألا يختلطوا بزملائهم الآخرين ، وألا يشاركوا فى الأنشطة غير المخصصة للمسلمين . ونتيجة لذلك ، لا يبادر المسلمون إلى الارتباط بصداقات بغير المسلمين ، وهذا بدوره يحد من مساهمتهم فى الحوار بين الأديان .

وعلى العكس من ذلك ، كانت الأجيال الماليزية فى السابق تتحلّى بروح اجتماعية عالية مكّنت سكان البلاد من مختلف الأديان من التفاعل فيما بينهم دون إحساس بالدونية . إما الأجيال الحديثة فإنها تواجه صعوبة فى التكيف مع المجتمع الماليزى الذى يتميز بالتعددية العرقية ، والدينية ، والثقافية .

إن عزلة كهذه ، لا تساعد على تعزيز الحوار والتفاهم بين الأديان ، ومن الواضح أن المسلمين في ماليزيا لن يتمكنوا من التكيف مع المجتمع الماليزي القائم على التعددية ، وسيجدون صعوبة في العيش فيه بانسجام مع الإثنيات الأخرى ، ولن ينجحوا في الاستفادة من الفرص الواسعة التي توفرها هذه المجتمعات . وتجدر الإشارة إلى أن محاولة ضرب سياج على النفس ظاهرياً على الأقل للمحافظة على النقاء العقائدي ، ليست مقصورة على مسلمي ماليزيا ، بل نجدها في مختلف بلدان العالم الإسلامي . وعليه ، فإن سوء الفهم الواقع على المسلمين وعدم قدرة هؤلاء على تقديم الجوانب الإيجابية التي لا حصر لها في أنفسهم وديانتهم ، نجما عن اختيار المسلمين النأى بأنفسهم عن الاحتكاك بالآخرين وعجزهم عن توصيل التعاليم الإسلامية الصحيحة إلى غير المسلمين .

غير أن احتفاء المسلمين بالعزلة وتقوقعهم على أنفسهم وعدم تواصلهم مع الآخرين ، ليس كل الأخطاء التي تتسبب بتشكيل نظرة سلبية وعدائية في أوساط غير المسلمين إزاء المسلمين ، وجعلت الآخرين منحازين ضد الشعوب الإسلامية . ذلك أن القمع الذي يتعرض له المسلمون في بعض بلدانهم مثل : فلسطين وأوروبا الشرقية ، ولد بداخلهم إحساساً بالمرارة والغضب الشديد ، مما دفعهم إلى اللجوء إلى العنف والأعمال التي توصف بأنها «إرهابية» للتنفيس عن حالة الاحتقان التي يعيشونها . هذا الإحساس بالإحباط دفع المسلمين لتعلم الأساليب الإرهابية التي تم ابتكارها في الغرب ، فأخذوا يختطفون الطائرات ويفجرون البنايات والمرافق ، ويقتلون الأبرياء وغيرهم ، كما انغمسوا في أنشطة عنيفة أخرى ، في محاولة لإبراز قضيتهم . لكن للأسف الشديد لم يسهم اللجوء إلى العنف في التعريف بقضية المسلمين ولم يستقطب لها المزيد من المؤيدين ، بل على العكس من ذلك ، تسبب في اتساع إدانتها وعمق إساءة فهمها . وقد أصبحت كلمتا «الإسلام» و«المسلمين» اليوم مترادفتين مع كلمة الإرهاب ، وكلما ذكرت واحدة منهما ، قفز إلى ذهن المتلقى العنف والتفجيرات وكأن الإسلام دعا إلى الإرهاب وأعمال العنف غير المبررة .

لقد ساهم المسلمون في تعميق سوء الفهم بينهم وبين غير المسلمين من خلال توظيفهم العقيدة الإسلامية كعامل موجب للعزلة ، وركونهم إلى استعمال العنف كرد فعل طبيعي للقمع الذي تعرضوا له .

لكن ، هل أمر ديننا الحنيف المسلمين بعزل أنفسهم عن غير المسلمين والامتناع عن التواصل بما يؤدي إلى حخلق سوء فهم بينهم وبين الآخرين؟

لم يأمر الإسلام في الحقيقة المسلمين بعزل أنفسهم عن الآخرين ولا بضرب سياج على دينهم للحيلولة بينه وبين التماور مع بقية الأديان . فعلى العكس من ذلك ، نجد أن سيدنا محمداً - صلى الله عليه وسلم ، والمسلمين ، قد أبلغوا منذ البداية بأن المولى عز وجل خلق هذا العالم من شعوب وقبائل مختلفة وحشهم على التعارف وتفهم بعضهم بعضاً . تلك الشعوب والقبائل بمن فيهم العرب قد لا يهدهم الله عز وجل إلى اعتناق الرسالة المحمدية الخاتمة . وقد جاء في القرآن الكريم أن بعض الناس سيكون لهم معتقدات خاصة بهم (لكم دينكم) وأن المسلمين ينبغي أن يفهموا رفض تلك المجموعات الدخول إلى الإسلام . وكان على سيدنا محمد أن يتقبل ذلك ؛ لأنه هو الرسول الذي كلف بنشر الدعوة ، وأن القرآن نص صراحة على أن النبي لن يهدي من أحب ، وأن الهداية هي أمر يقدره المولى عز وجل ، الذي لو شاء لجعل الخلق كلهم يعتنقون الإسلام ، ووجه الرسول بالأيا يحزن ولا يقنط لأن تلك هي مشيئة الله .

بمعنى آخر ، فإن المسلمين أمروا بقبول مبدأ وجود شعوب وقبائل مختلفة ومعتقدات وديانات عديدة ، وأن الله خلق الناس ليتعارفوا ويتداخلوا ويتواصلوا بما يوفر أرضية مناسبة للتماور والتفاهم بين مختلف الشعوب والأديان .

لقد تمكن المسلمون الأوائل في دولة المدينة من التعايش مع العبرانيين (يهود) والمسيحيين دون أن يحملوا أحداً على اعتناق الإسلام بالقوة . وفي وقت لاحق اضطر المسلمون إلى طرد اليهود عن المدينة ، لاختلافات دينية ، لكن لأنهم تأمروا مع الأعداء الذين

هاجموا المدينة والمسلمين . كما أن الفتوحات الإسلامية التي شملت بلداناً عديدة ومساحات واسعة كان فيها أناس يعتقدون ديانات غير الإسلام وحافظوا على معتقداتهم حتى يومنا هذا . وإذا عدنا لفترة الحكم الإسلامي في الأندلس نجد أن اليهود والمسيحيين كانوا يتمتعون بحرية تامة في ممارسة شعائرهم الدينية وأساليب حياتهم ونظمها دون قيد أو شرط ، بل كفل لهم حق المشاركة بفاعلية في إدارة البلاد .

باستيلاء فيرديناند وإيزابيلا على الأندلس اختفى المسيحيون من غير الكاثوليكين ، وفرض على اليهود والمسلمين إما الارتداد واعتناق المذهب الكاثوليكي أو مغادرة البلاد باتجاه شمال إفريقيا . أما في أوروبا الشرقية فقد هُلل المسيحيون للحكم الإسلامي التركي ؛ لأن الحكام المسيحيين اثقلوا كاهلهم بالضرائب والجباية ، في حين ظل المسيحيون في تلك المنطقة على مسيحياتهم واهتدى بعضهم إلى الإسلام . . وهناك شواهد كثيرة تقف دليلاً لا يُدحض على سماحة وتسامح المسلمين ، حيث مازالت توجد أقليات يهودية محدودة كانت تعيش التي خضعت للحكم الإسلامي . وبالمقابل نجد أن أقليات يهودية محدودة كانت تعيش بالدول الأوروبية في الماضي ، بينما لا تكاد نجد أثراً يذكر لوجود إسلامي أو غيره من أتباع الديانات الأخرى . وبينما ازداد عدد اليهود في المجتمعات الإسلامية وازدهرت أعمالهم التجارية . نجد أنهم قد تعرّضوا لأقسى أنواع البطش والاضطهاد في أوروبا ، التي بلغت قمتها بمجازر الهولوكوست التي راح ضحيتها نحو ستة ملايين يهودي . كان المسلمون الأوائل ملتزمين تماماً بالتعاليم الإسلامية التي تعترف بحقوق أهل الذمة الذين لا يتآمرون على المسلمين عندما كانت الدولة الإسلامية في أوجها ، على التعايش فحسب ، بل امتد الأمر إلى أبعد من ذلك ، ولعب غير المسلمين دوراً مهماً في المجتمعات الإسلامية . وقد ظهر تسامح المسلمين وتعاونهم مع غيرهم «بميثاق المدينة» الذي سنّه رسولنا الكريم لتشجيع وتعزيز التضامن والتعاقد بين المسلمين واليهود والمسيحيين في دولة المدينة .

ومضى الخلفاء الراشدون على المنوال نفسه ، فشجعوا التسامح والتداخل مع غير

المسلمين ، وحرصوا على كفالة واحترام دياناتهم . وعقب بسط النفوذ الإسلامى على فلسطين ، أعطى سيدنا عمر - رضى الله عنه ، بطريك القدس صوفرونيس ضمانات فى معاهدة الاستسلام (العهد العمرى) ضمن له بموجبها سلامة المسيحيين وبضائعهم وممتلكاتهم وكنائسهم وصلبانهم بالحالة التى وجدت عليها ، بالإضافة إلى ضمانات خاصة بحرية العبادة واحترام الديانة المسيحية . كما تعهد سيدنا عمر ، بعدم تعرض الكنائس ومنازل المسيحيين للهدم والتخريب . وقد ظل سيدنا عمر وفياً لتعهداته فى المعاهدة ، ولم تُغره القوة ولا النفوذ لدرجة أنه لم ينس وهو فى فراش الموات تذكير المسلمين بضرورة حُسن معاملة غير المسلمين . تلك العهد العمرى منحت أيضاً لأهل دمشق وسورية وآخرين . وقد كتب الباحث الغربى الكونت ليون أستروج قائلاً : إن المفكرين المسلمين أسسوا مبادئ التسامح مع غير المسلمين ووسّعوا مساحات التواصل بهم .

إن ثقافة التسامح والتعايش مع الأديان والمعتقدات الأخرى هى دون شك ، وليدة الحضارة الإسلامية التى وفرت مناخاً ملائماً لتلاقٍ إيجابى قائم على الأخذ والعطاء فى الأفكار بعيداً عن السلبية . وقد عمل أطباء يهود ومسيحيون فى مجال الطب إلى جانب أطباء مسلمين ، وأنتجوا سويًا بحوثاً علمية أفادت البشرية جمعاء . كما أن باحثين مسلمين ومسيحيين ويهوداً أجروا بحوثاً مقارنة مشتركة فى مجال العقيدة والأديان انطلاقاً من كونهم يؤمنون بعقائد قائمة على التوحيد . أما فى مجالات الإدارة ، فقد وظف خلفاء بنى أمية وغيرهم من الحكام المسلمين فى العصور اللاحقة ، اليهود وكلفوهم بأداء مهام دبلوماسية وإدارة الشؤون المالية والإدارة العامة فى الدولة الأموية . ويحدثنا التاريخ عن الطبيب اليهودى حاسدى بن شبروت الذى كان يعمل علناً على رعاية مصالح اليهود فى الأندلس أثناء فترة عمله بديوان الخليفة . كما أن عمليات إسناد مناصب ومواقع حساسة لليهود لم تنقطع فى الدولة الفاطمية والأيوبية وفى فترة حكم المماليك فى مصر .

أما فى المشرق فقد مضى المسلمون الأوائل إلى أبعد من ذلك ؛ إذ وجدوا أنفسهم على

اتصال وتعايش مستمرين مع المشركين ومعتقداتهم. ورغم عدم وجود إشارة في القرآن إلى تلك المعتقدات ولا إلى معتقبيها إلا أن المسلمين لم يجدوا صعوبة تُذكر في معاملة المشركين بذات الأسلوب من التسامح الذى عاملوا به أتباع الديانات القائمة على الوحدانية (أهل الذمة) وكدليل على ذلك، نجد أن الهندوس والبوذيين قد حققوا النمو والازدهار والرفاه فى بلدان خضعت للحكم الإسلامى، ومازال أتباع هاتين العقيدتين يعيشون فى بلدان حكمها ويحكمها المسلمون إلى يومنا هذا .

وعندما اعتنق سلطان «ملقا» (ولاية ماليزية حالياً) الإسلام تسبب فى تدمير المعابد الهندوسية التى كان أهله يتعبدون فيها . غير أنه لا يوجد ما يدل على الإطلاق أنه أُجبر الأجانب الذين كانوا يعيشون فى بلاده من هندوس وبوذيين على اعتناق الإسلام بالقوة ، ولم يُدمر المرافق التى كانوا يتعبدون فيها . هذا التسامح والتفهم للديانات الأخرى ، ما هو إلا جزء أصيل من الأحكام والتعاليم الإسلامية السمحة والتى ظل المسلمون على مدى التاريخ يعترفون بها ويمارسونها فى الواقع . وبما لا شك فيه أن لكل قاعدة شواذ ، وأن المسلمين ليسوا استثناءً ، حيث نجد بعض مظاهر الانحراف عن التعاليم الإسلامية الصحيحة هنا وهناك ، كما نجد تشويها لبعض الأحكام ؛ إذ يميل أصحاب الأجندة الخاصة إلى تفسير التعاليم والأحكام بما يخدم أغراضهم وأهواءهم الشخصية .

ويمكننا القول إجمالاً إن الحقب التاريخية المختلفة إنتهاءً بوقتنا الحاضر ، قد شهدت حالات من التصادم بين الأديان مصحوبة بنوع من سوء الفهم والتبرم بين المسلمين وغير المسلمين . غير أن ذلك استثناءً يبرهن على صحة القاعدة .

لقد ساهمت الحضارة الإسلامية فى الواقع مساهمة لا تُقدر بثمن فى تنمية وتعزيز الحوار والتفاعل بين الأديان ويتضح ذلك بجلاء كون الأقليات غير الإسلامية التى تقطن فى بلدان إسلامية قد حققت ومازالت تحقق زيادة مطردة فى تعدادها وازدهارها مقدرًا فى أعمالها التجارية واستثماراتها ، بعكس ما يجرى فى البلدان غير الإسلامية التى يوجد فيها

دين واحد في معظم الأحيان ولم يسمح بممارسة طقوسه إلا في الآونة الأخيرة ؛ إذ بدأت تظهر في أوروبا وأمريكا المساجد والهياكل وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن هناك عدداً ضئيلاً من الأوروبيين الذين اعتنقوا الإسلام أو البوذية أو الهندوسية .

تلك المقارنات ليست محاولة للوصول إلى نتيجة مؤداها أن غير المسلمين وما أنتجوه من حضارات ، لم يساهموا إلا بقسط ضئيل في الحوار والتفاهم والتفاعل بين الأديان ، بقدر ما هي محاولة للتأكيد على أن الدين الإسلامي والمسلمين يؤمنون إيماناً راسخاً بالتسامح الديني والحوار والتعايش مع غير المسلمين ، بعكس الصورة المشوهة التي يسعى الأعداء دائماً إلى إظهارهم بها .

وسبق أن أشرنا إلى أن المسلمين اليوم يميلون إلى الانعزال والنأي بأنفسهم عن الاختلاط بغير المسلمين ، ويلجأون إلى العنف للتعبير عن إحباطاتهم . إلا أنه ينبغي التأكيد على أن تلك الفئات ما هي إلا أقلية لا تذكر ، بل هم أفراد لا يُمثلون شريحة في جسد الأمة الإسلامية .

وبالرغم من تراجع نفوذ الحضارة الإسلامية و بروز نزعات الانحراف عن التعاليم والأحكام الإسلامية الصحيحة ، فإن الغالبية العظمى من المسلمين الموجودين في كافة بقاع العالم اليوم ، تتميز بدرجة عالية من التسامح إزاء الأديان الأخرى وأتباعها . فعلى سبيل المثال نجد أن المذابح وعمليات الإبادة الجماعية التي ارتكبتها الصّرب في حق المسلمين في البوسنة والهرسك ، لم تدفع المسلمين إلى الترحيح عن موقفهم المنتزم بضرورة إقامة دولة قائمة على التعددية الدينية والعرقية والثقافية ، يلعب المعتدون الصّرب دوراً نشطاً في حكمها . هذا الموقف ينطبق أيضاً على لبنان . وإذا ما استثنينا بعض الحالات ، فإن غير المسلمين الذين يعيشون في البلدان الإسلامية ، يتمتعون بحرية كاملة في ممارسة شعائرهم الدينية والقيام بأنشطتهم الأخرى .

وفي ماليزيا ، التي يشكل الشعب الملاوي المسلم غالبية السكان فيها ، نجد أنها قد

اختارت عن قصد تشكيل حكومات قائمة على التعددية الدينية والعرقية ، حيث يعمل الجميع بحرص وتفان على تنمية وتعزيز التسامح الديني والتعايش بين مختلف فئات الشعب بصرف النظر عن المعتقد .

لقد ساهم الإسلام والحضارة الإسلامية مساهمة بارزة في توسيع دائرة التسامح والتفاعل والتحاور بين الأديان إنطلاقاً من التعاليم الإسلامية التي أمرت بذلك . ورغم عدم اعتراف غير المسلمين بهذه المساهمة ، فإن ذلك لا يُقلل من أهميتها ، ولا يُشكك بحدوثها . وإذا كان هناك مسلمون في الوقت الحالي لا يساهمون في تنمية وتعزيز التحاور والتسامح بين الأديان ، فإن ذلك لا يُقلل من دور الإسلام بوصفه ديناً ، والحضارة الإسلامية بوجه عام ، في هذا المجال .

ويبدو أن الظروف السائدة وازمحلل الحضارة الإسلامية ، هما اللذان ساهما بطرح تفسيرات خاطئة للتعاليم الإسلامية ، وأدبياً إلى بروز نزعات انحرافية عن الأحكام الإسلامية .

الفصل العاشر

التعاون لإحداث التنمية بين الأمم الإسلامية *

كان مناسباً للغاية أن يلتئم هذا الجمع الكريم بينجلاديش أرض الشعراء والفنانين والمتقنين البارزين ، والتي تعكس ما يزرخ به العالم الإسلامي من إمكانيات حقيقية هائلة . فمئذ استقلالها في السادس عشر من مارس ١٩٧١ ، لم تتوقف معارك البناء والتنمية في هذه البلاد ، وقد بدأ ذلك الجهد يأتي أكمله الآن في ما نراه واضحاً للعيان . ويحدوني الأمل أن تُشكل هذه التجربة الإسلامية عاملاً ملهماً ونموذجاً نحتذى به نحن في مجموعة الدول الإسلامية وإيران وماليزيا ونيجييريا وباكستان وتركيا وبنجلاديش نفسها والتي تكوّنت في إسطنبول في يونيو ١٩٩٧ م ، بهدف تطوير التعاون الاقتصادي بين الدول الإسلامية والارتقاء به من خلال مشاريع واقعية تتوفر لها نسبة عالية من أسباب النجاح .

نحن قادة الدول الإسلامية الثماني النامية نلتقى في بنجلاديش في السنة التاسعة عشرة من القرن الخامس عشر للهجرة ، وهي سنة ليست ذات أهمية خاصة في التاريخ الإسلامي بحساب الأحداث التي شكّلت نقاط تحول في مسيرة الأمة الإسلامية . لقد مضت الآن أكثر من ١٤٠٠ سنة منذ انبلاج الإسلام وبلوغه مرحلة التمكين وازدهار الحضارة الإسلامية . في تلك الفترة من الزمن خضعت كل الأديان التي ألهمت البشرية من قبل وقادت خطاها ، إلى تطورات أفقدتها معناها الحقيقي ، وأضعفت تأثيرها ونفوذها وسط

* كلمة ألقيت في القمة الثانية لمجموعة الدول الثماني النامية بمنظمة المؤتمر الإسلامي بالعاصمة البنجالية دাকা في الأول من مارس عام ١٩٩٩ م .

أتباعها . والإسلام بالطبع ، ليس استثناءً ، وينبغي على المسلمين جميعاً أن يعترفوا بأن الإسلام والعالم الإسلامي يمران حالياً بحالة من الفوضى الضاربة بأطنابها في كل مكان ، وأن الانقسامات الحادة تسهم في إضعاف نفوذهما وتأثيرهما ، لدرجة أصبح المسلمون معها غير قادرين على مجابهة التحديات الحاضرة ولا على مجاراة التحولات المهمة التي تحدث تغييرات جذرية على المسرح العالمي ، وهو أمر يهدد الأمة الإسلامية بالانزلاق نحو مزيد من الضعف والتخلف .

وما من شك في أن البلدان الإسلامية تمتلك ثروات ضخمة وإمكانات لا حدود لها ، لكنها لم تستغل أبداً لتحقيق الرفاه والتقدم وسط الأمة الإسلامية بوجه عام . ونكاد نجزم أنه لا توجد دولة إسلامية واحدة تتوفر على أسباب القوة والنفوذ اللذين يجعلان منها أحد اللاعبين الأساسيين على المسرح السياسي في عالمنا اليوم ، وهناك مجتمعات إسلامية عديدة لم تتمكن بعد من إرساء دعائم الاستقرار في بلدانها ، وما زالت تقف عاجزة عن تطوير نفسها بما يمكنها من اللحاق بالدول المتطورة التي لم تحظ أي دولة إسلامية بعضويتها حتى الآن .

لقد دخل العالم القرن الحادى والعشرين ، غير أن الأمة الإسلامية ما زالت تعيش في سبات عميق في ظلام القرن الخامس عشر الميلادى ، وينبغي أن نعترف لأنفسنا قبل غيرنا بأن المجتمعات الأخرى قد سبقتنا ببضعة قرون . والحال كذلك ، فإن المسلمين مطالبون أكثر من أى وقت مضى بأن يدركوا حقيقة الوضع الذى هم فيه فى ضوء ما استحدثته المجتمعات البشرية المتطورة من أفكار تجديدية وتقنيات حديثة ، ما زالت الدول الإسلامية غير مهياًة لاستيعابها ، وعاجزة تماماً عن التعامل معها . ومن بين تلك التحديات الجديدة المطروحة ، مفاهيم مستحدثة تتصل بنظام الحكم والعلاقات الدولية . ولا شك فى أن المسلمين ليسوا فى وضع يمكنهم من رفض تلك المفاهيم الجديدة لنظام الحكم ؛ لأنهم لا يملكون لها بديلاً ، غير أنهم لم يتمكنوا من تطبيقها على نحو فاعل . فعلى سبيل المثال نلاحظ أننا غالباً ما نرى فهم فكرة الحكومات الديمقراطية ؛ إذ نهمل للحقوق التي تكفلها الأنظمة الديمقراطية من

دون أن نعترف بضرورة التحلى بالمسئولية التي هي في الواقع مرادف أصيل لتلك الحقوق. ونتيجة لذلك نجد أن الحكومات في الدول الإسلامية نادراً ما تجدد الاستقرار السياسي الضروري لتفعيل نظام الحكم بما يمكن من إنجاز ما ينفع الناس .

وبينما نحن مازلنا نعيش نوعاً من الفوضى الداخلية في بلداننا بسبب سوء فهمنا ومعالجتنا للأيديولوجيات الجديدة والمفاهيم المستحدثة عن نظام الحكم ، استجدت أفكار ومفاهيم جديدة في السياسة والعلاقات الدولية ، ذلك أن العولمة على سبيل المثال لا الحصر قد تسببت في تحطيم الحواجز والإجراءات التي شكّلت من قبل سداً منيعاً لحماية بلداننا وثقافتنا وأدياننا من الزحف الأجنبي القادم دون جيوش . ويتحطم دفاعاتنا أمام هذا الزحف الكاسح ، أصبحنا لا حول لنا ولا قوة ، ووجدنا أنفسنا غير قادرين على التكيف مع المفاهيم والأفكار المستجدة وتوظيفها لصالح وخير أمتنا وشعوبنا الإسلامية .

وبالتعمّن في تجليات العولمة بشكلها الحالي ، من ذلك للحدود القطرية وإزالة للحواجز من أمام حركة رؤوس الأموال وتمكينها من التدفق عبر الحدود دون كابح أو قيد ، فإنها دون شك تصبّ في مصلحة الغرب والشعوب الغربية . إننا لم نحسن استثمار الثروات الضخمة التي راكمناها عبر سنوات طويلة من المعاناة والجهد المُنصني ولم نعمل على توظيفها في بلداننا من خلال استخراج واستخلاص مواردنا الطبيعية ؛ إذ انسقنا وراء حرية حركة رأس المال فصدّرنا أموالنا وثرواتنا وأثرنا استثمارها في الدول المتطورة المستقرة ، فساهمتنا بدورنا في زيادة ثرواتها ، لكننا للأسف لا ندرى كيف يمكننا استغلال تلك الإمكانيات للتأثير على تلك الدول لتأمين مصالحنا . ومن سُخرية الأقدار أن الدول الغنية استخدمت أموالنا ذاتها ووظفتها في استثمارات في بلداننا ، لكنها جلبت لنا في الوقت نفسه عدم الاستقرار السياسي والاضطرابات الاجتماعية ، وأفقرت شعوبنا بواسطة سحب تلك الاستثمارات من بلداننا دون إنذار مُسبق أو مقدمات . لقد حاولت تلك الدول استغلال فقرنا وضعف خبرتنا في توظيف أموالنا وثرواتنا وحرية حركة رؤوس الأموال لفرض سيطرتها علينا ، علماً بأن نسبة

كبيرة من أموالنا مودعة على نحو أشبه ما يكون بوضع رهينة لدى الأطراف الأجنبية ، ليتم استخدامها ضدنا في الوقت الذي تراه تلك الأطراف موافقاً .

وفي الواقع ، نحن لا نستطيع مجرد توظيف ثرواتنا العريضة لتنمية شعوبنا وانتشالها من وهدة الفقر ، بل الأدهى والأمر أن مواردنا الطبيعية ذاتها هي سبب فقرنا وضعفنا في الوقت الحالي . إننا ندرك تمام الإدراك أن تلك القوى غير الإسلامية المهيمنة على المستوى العالمي تمتلك أدوات ووسائل وتقنيات متطورة ، ولكن بإمكاننا أن نوظف ثرواتنا الواسعة بما يُعزز قوتنا ويكفل لنا التأثير على بقية الأطراف ، لحماية أنفسنا من عسف واضطهاد وظلم القوى المعادية لنا ، هذا الخيار ، برغم ما يبدو عليه من بساطة لا يتطلب منا أكثر من تنظيم احتياجاتنا من الواردات وتوجيه مواردنا لما يحقق لنا القوة ويعزز نفوذنا على المستوى الدولي ، إلا أننا للأسف عاجزون حتى عن إدارة وتنظيم هذا الأمر .

ظاهرة العوالة التي نشهد بعض تجلياتها حالياً ، يتم تسويقها في مختلف المجالات ، وقد تجرّعت ماليزيا جرعة مريرة من جرعاتها . ذلك أن بلادنا كانت تسمح بحرية الحركة لعملتها من وإلى خارج الحدود ولا تفرض قيوداً على الاتجار فيها ، وظلت متمسكة بأن قيمة العملة المحلية (رينجت) لا ينبغي أن تقلّدها الحكومة الماليزية . واستمرت هذه السياسات لفترة طويلة من الزمن دون أن تسفر عن جوانب سلبية غير موافقة ، إلى أن ظهر تجار العملات الذين يتخذون منها سلعة رائجة تُباع وتُشترى . استحدث هؤلاء المضاربون نظاماً تجارياً مكنهم من تثبيت سعر صرف الينجت الماليزي كي يتسنى لهم جني أرباح طائلة . وقد استمدوا ، بواسطة هذا الإجراء الذي يتيح لهم الإثراء مقابل إفقار الماليزيين ، نفوذاً وسلطات جعلتهم أقوى من الحكومة الوطنية في كوالالمبور ، وشن المضاربون بالعملات هجومهم الشرس على العملة الوطنية في وقت حققت فيه ماليزيا ازدهاراً مقدرًا ، إلا أنه عقب نجاح هؤلاء التجار في خفض قيمة العملة الوطنية الماليزية مباشرة ، بدأت ثروة البلاد تتناقص وتتلاشى فجأة وبوتيرة درامية مخيفة . وقد كشف عجز ماليزيا عن مجابهة تلك الهجمات منذ بدايتها ، أن

السلطات الماليزية لم تكن مُهَيأة آنذاك لاستيعاب معنى العوالة ، ولم تكن تدرك أيضاً ما يترتب من تأثيرات سلبية خطيرة على ترك قرار تحديد قيمة العملة الوطنية بيد جهات أجنبية . لا شك أن تلك التجربة كانت درساً مفيداً جداً للماليزيا وللماليزيين ، غير أن استيعابه كان مؤلماً وقاسياً للغاية .

تتخذ العوالة أشكالاً عديدة ، وعندما رحبنا بها كنا نعتقد أنها ستتيح لنا المشاركة في الثروة والتكنولوجيا المنتجة في البلدان الغنية المتطورة ، بيد أن الدول الغنية كانت تفكر بطريقة تختلف تماماً عن حساباتنا ، حيث تركز همها الأول والأخير حول الكيفية التي توظف بها العوالة ، مما يُمكنها من استغلال موارد الدول الفقيرة من خلال توظيف رؤوس أموالها الهائلة وتكنولوجياها المتطورة . ويقف انقضاخ التجار المضاربين على العملات الوطنية التايلاندية والإندونيسية والكورية الجنوبية والماليزية ، شاهداً على الكيفية التي يمكن بها استغلال العوالة للسطو على مقدرات الآخرين . ومن المدهش حقاً أن الاستحواذ على موارد وثروات الفقراء ودفعهم إلى مزيد من الفقر والفاقة في سبيل زيادة الأغنياء غنى وثناء ، لا يعتبر ظلماً ولا أمراً مُستهجناً مادام يتم باسم العوالة وبواسطة أدواتها . إن المضاربة بالعملات والانقضاخ على أسواق الأوراق المالية ، ما هي إلا مقدمة لتجليات جديدة لمضامين العوالة التي ستكشف عن نفسها تباعاً ، مما يفتح المجالات لتكريس وتسريع وتيرة استغلال الدولة الغنية للموارد الطبيعية للبلدان الفقيرة .

لقد اهتم ديننا الإسلامي بإيجاد نوع من التوازن بين الجوانب المادية والروحية في الإنسان وبين الحياة الدنيا والآخرة . إلا أن تحلل الغربيين من القيم الروحية أدى إلى غلبة النزعة المادية في تلك المجتمعات ، فأصبح المال يُشكّل كل شيء في الحياة . ويلاحظ أن المجلات والصحف والبرامج التلفزيونية في الغرب ، لا تُركز إلا على كيفية مراكمة المزيد والمزيد من الثروة ، كما أصبحت تلك المجتمعات تنظر إلى القيم الروحية على أنها من الأمور البالية التي لم يعد لها تأثير في الحياة . ونتيجة لذلك ، تحول الغربيون إلى عبادة المال كغاية في حد

ذاتها وليس كوسيلة ، فاستتبع ذلك تحلل من كافة القيود والضوابط الأخلاقية والمادية التي كانت تحدّ من جشع الطامعين بمراكمة المزيد من الثروة بجميع السبل ، بما فى ذلك تدمير اقتصاديات البلدان المستهدفة وقتل الأبرياء وتجويع الأطفال .

لقد تسبّب الاتجار بالعملات فى تدمير اقتصاديات إقليم بكامله وأدى إلى إفقار مئات الملايين من مواطنيه إضافة إلى زعزعة استقرار حكومات منطقة جنوب شرق آسيا . لكن نظرا لأن إشباع نهم تجار العملات بجنى المزيد من الأرباح ما كان ليتمّ إلا بواسطة تلك المآسى ، فإن القوى المهيمنة وقفت تشاهد انهيار الاقتصاديات ببلدان جنوب شرق آسيا ولم تُحرك ساكناً لوقف التدهور ، بل كانت تدعى أن ما حدث بالأسواق الآسيوية صيف عام ١٩٧٧ م ، ما هو إلا انعكاس طبيعى لتحرير الأسواق وأنه لا ينبغى وضع العقبات بوجه آليات السوق . كما كانوا يزعمون أن السوق هى الأدرى بآليات عملها وهى وحدها القادرة على تحديد اتجاه حركتها والمبادلات التى تتمّ فيها ، كما أنها وحدها التى تمتلك الوسائل اللازمة لكبح أى جموح من شأنه تدمير المصادر التى تجنى منها الربح ! لكن للأسف لم تُدرك الأسواق المحلية والإقليمية ، ما لحق بها من دمار إلا بعد فوات الأوان ؛ إذ بلغ حجم الدمار الاقتصادى درجة يتطلب إصلاحها سنوات طويلة من الجهد المتواصل والتضحيات الجديدة . إن كل ما تعلمته الأسواق أثناء تلك الفوضى الاقتصادية لم يتعدّ كون أسواق أخرى كانت بانتظار مصيرها المحتوم بمجرد الإجهاز على سابقتها .

وفى المقابل ، لم تتحرك الجهات المهيمنة لوقف ذلك الاستغلال البشع ؛ لأنها كنت مستفيدة من ذلك الخراب المبرمج بهدف الربح الفاحش ومراكمة الثروة . وفى تلك الأثناء كانت الدول الإسلامية النامية تبذل أقصى ما فى وسعها لتكييف أنفسها مع الأيديولوجيات الجديدة وأنظمة الحكم المستحدثة . وقد بذلت ماليزيا جهوداً مُضنية لترسيخ دعائم الديمقراطية ، وعندما حققت نجاحاً بهذا الصدد شهد به الأعداء قبل الأصدقاء ، تغيّر الهدف وأعيد تعريف الديمقراطية لصياغة ما تحمله من مضامين بحسب مصلحة الجهات المهيمنة .

وقد لجأت بعض دولنا إلى الاحتمااء بنظمها السياسية السائدة ، وهو أمر لا يثير هواجس الدول الغربية مادام لا يقف عقبة بوجه مصالحها ، بينما حاول بعضنا الآخر استغلال ملكاته الإبداعية بأسلوبه الخاص ، فصاغ فلسفته ونظمه الخاصة به التي تكسرت للأسف أمام سطوة الغرب .

هذه المجموعة التي نطلق عليها مجموعة الدول الثماني الإسلامية النامية ، تسعى إلى التغلب على الصعاب والمشكلات بما يرتقى بها إلى مستوى التحديات العالمية الحالية الشبيهة تماما بوضع الحصار الذي فرض على الإمبراطورية الإسلامية قبل بضع مئات السنين . لكن لا بد من أن نقرّ بضعف إعدادنا وتجهيزنا لمجابهة المخاطر التي تتهددنا ، أن ننحى جانبا المصالح الشخصية الضيقة والخلافات التافهة وننطلق متراصين في إطار أمة إسلامية واحدة ، بما يفرض على الآخرين احترامنا ومراعاة مصالحنا .

لقد التقينا في هذا المكان الطيب ، لالسبب إلا لكي نفكر معا لأننا نرى أن مصلحتنا تكمن في العمل سوياً ، ولنعاون بعضنا البعض في تحمّل مسؤولياتنا بما يحقق مصالحنا المشتركة .

خلاصة القول ، لقد فقدنا كثيراً من مقدراتنا ، لكننا لم نفقد كل شيء ، حيث مازلنا نملك الأصول والموجودات ومقومات القوة الحقيقية . إذاً نحن بحاجة في الوقت الحالي إلى رصد تلك الإمكانيات والمقومات وفحصها ومن ثمّ الجلوس معا للعمل سوياً على بلورة الخطط والبرامج التي تُمكن من تفعيل استخدامها بأقصى طاقتها للارتقاء بالمرود . وبما لا شك فيه أن العالم الإسلامي زاخر بالمهارات العالية والعقول النادرة التي هاجرت إلى الغرب ؛ لأن البلدان الإسلامية لم تُوفر لها احتياجاتها الشخصية والتجهيزات الخاصة بالبحث والإبتكار .

إننا مطالبون بتوفير البيئة الملائمة التي تغري علماءنا بالعودة إلى بلدانهم بما يمكننا من الاستفادة من قدراتهم في إعادة بناء أمتنا والحقاق بركب الدول المتقدمة .

فى نهاية المطاف ، نحن واثقون من النجاح بمشيئة الله ومساعدة أولئك العلماء ،
ويفضل التزامنا بالتعاليم الإسلامية الصحيحة .

الفصل الحادى عشر التسامح والاعتدال في الإسلام *

يُشرفنى غاية الشرف أن تُتاح لى فرصة التحدث فى هذا الصرح العلمى الإسلامى العريق ، وأمام هذه الكوكبة من العلماء الأجلاء . لقد قبلت هذه الدعوة ؛ لأننى مسلم حريص غاية الحرص على دينى ؛ ولأننى أشعر بالحزن عندما أرى أن الإسلام يُساء فهمه وتفسيره من قبل المسلمين وغير المسلمين ، ويتعرض للهجوم ، ويتهم بكل نقيصة ، ويربط ما بينه وبين الممارسات البغيضة ، ويصبح موضعاً للسخرية والاستخفاف . والإسلام برئ من هذا كله ، فهو دين الله المتزه ، الذى لا يأتيه الباطل من أمامه أو خلفه ، وإنما تكمن المشكلة فى إساءة تفسيره وتأويله سواء من جانب المسلمين أو غير المسلمين من أصحاب الهوى ، الذين يريدون تبرير الذنوب التى ارتكبوها أو التى ينوون ارتكابها . فالإسلام هو الدين الكامل ، وليس منا نحن البشر من هو كامل أو خال من النقائص . ونقائصنا هذه وعدم التزامنا بتعاليم الدين الإسلامى الخنيف ، هى التى أدت بالإسلام والمسلمين فى جميع أنحاء العالم ، إلى الحالة التى نشهدها اليوم .

الإسلام دين يقوم فى جوهره على التسامح والاعتدال ، والمسلم الحق ، هو الذى يتحلى بالسماحة والاعتدال . وبالتالي فإن الإسلام بوصفه ديناً ، والمسلمين كونهم جماعة ، أبعد ما يكونوا عن تُهم التطرف والتعصب التى تُلصق بالإسلام والمسلمين ، ليس من قبل غير المسلمين فحسب ، وإنما من جانب بعض المسلمين الذين يدعون أنهم أصحاب أفكار ليبرالية مستتيرة .

* كلمة رئيسية ألقىت فى جامعة الأزهر - القاهرة - مصر ، بتاريخ ١٠ مايو ١٩٩٨ م .

والإسلامُ كما بشر به نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم ، ونشر في العالمين ، دينٌ تسامحٍ ومعتدل ، وتتجلى ذلك واضحاً في سيرة النبي الكريم ، ومواقفه تجاه أفراد عائلته الذين لم يؤمنوا بالإسلام ، ومواقفه ومعاملته لأهل مكة عندما قام بفتحها ، وتعاليمه بشأن عدم إساءة معاملة الأسرى ، أو المسلمين الذين ارتكبوا المعاصي ، أو الذين ارتدوا عن دينهم ، لم يكن الرسول - صلى الله عليه وسلم ، قاسياً متطرفاً في معاملته لأي فئة من الفئات ، إنما كان نموذجاً للاعتدال والتفهم والسماحة .

وليس هناك موقف تتجلى فيه سماحة الرسول الكريم ورأفته أكثر من صلح الحديبية ، فنحن نعرف كيف أساء أهل مكة الجاهليين معاملة الرسول - صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه وكيف حالوا بين أهل المدينة وبين القيام بالحج ، كما أننا نعرف أيضاً مدى التكبر والغرور الذي كان عليه أهل مكة عندما عقد صلح الحديبية ، وكيف رفضوا ذكر الكلمات الدالة على وحدانية الله سبحانه وتعالى ، ونبوة رسوله الكريم في نص الاتفاقية ، مما أدى إلى غضب أصحاب الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، من موقف أهل مكة ، فدعوا الرسول إلى التوقف عن المفاوضات ، ورفض كلمات وشروط الاتفاقية . ولكن الرسول الكريم أقتنعهم بوجهة نظره ، ووافق على شروط الاتفاقية كما هي ومهرها بختمه .

لم يكن الرسول الكريم في ذلك سياسياً حصيفاً فحسب ، وإنما كان قدوة في السماحة في أعلى درجاتها ، والاعتدال في أرقى صورته ، حتى في تعامله مع الاعداء . ونحن نعرف ماذا حدث في العام التالي ، حين دخل الرسول - صلى الله عليه وسلم ، مكة دون مقاومة من أهلها الذين دخلوا في دين الله أفواجا . كان الرسول رحيماً غاية الرحمة مع أهل مكة ، حتى مع «هند» التي أكلت كبِد سيدنا حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه في معركة أحد .

ويثَّ تعامل الرسول مع أهل مكة يوم الفتح ، الطمأنينة في قلوب أهل الجزيرة العربية الذين دخلوا في دين الله أفواجا ، واتحدوا في أمة واحدة . ومنذ ذلك التاريخ بدأ الدين الإسلامي ينتشر في مشارق الأرض ومغاربها ، ويقضى على الإمبراطوريات الكبرى القائمة

وقتذ ، ويصبح القوة الدافعة وراء إنشاء الدولة الإسلامية التي كان لا قبل لأحد بالوقوف أمام زحفها . لقد حقق الإسلام هذه المعجزة بفضل ما يتحلى به من اعتدال وسماحة كدين وكأمة .

وإذا ما كنا لا نزال في شك أن الإسلام قد أمر أتباعه بالاعتدال والسماحة ، وأن الرسول الكريم كان يتبع تعاليم الدين الخفيف عندما كان معتدلاً ومتسامحاً مع أصحابه ومع أعدائه على حد سواء ، فدعونا إذن نقرأ ما جاء في آيات القرآن الكريم عن الاعتدال والسماحة . ففي الآية التاسعة من سورة الممتحنة يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلوْكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوْكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تُوَلُّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١) صدق الله العظيم . وفي الآية ١٥٩ من سورة آل عمران نقرأ قوله تعالى : ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (١٥٩) ﴿ صدق الله العظيم . وشجع الدستور الذي وضعه الرسول - صلى الله عليه وسلم ، في المدينة على التعاضد والتعاون بين أهلها من مسلمين ونصارى ويهود وغيرهم . وضمن الدستور الذي كان مكتوباً - الحرية للجميع بما فيها حرية العبادة ، كما ضمن العدالة والمساواة للجميع . ونقرأ في سورة الكافرون : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (٦) ﴿ صدق الله العظيم .

إن تعاليم الدين الإسلامي الخفيف هي التي وحدت بين المهاجرين والأنصار في المدينة في أمة واحدة تختلف عن بقية أمم الأرض الذين دخلوا في حلف مع رسول الله ، بأنهم «أمة» كذلك مثل «أمة» الإسلام ، وإن كانت كل «أمة» قد استمرت في ممارسة شعائر دينها .

ومن أهم التعاليم التي جاء بها الرسول الكريم لقبائل العرب ، ضرورة وضع حد لما كان بينهم من أحقاد وعداءات في أيام الجاهلية ؛ لأنهم لن يجنوا منها سوى الضرر والخراب . ففي الجاهلية ، كما نعرف ، كانت هناك حروب لا تنقطع بين القبائل العربية . كان بعضها

بسبب خلافات أو نزعات حدثت في الماضي البعيد . وعلى الرغم من أن تلك القبائل كانت تنسى بمرور الزمن السبب الأصلي الذي تسبب في تفجير النزعات والأحقاد بينها ، إلا أنها كانت تواصل كراهيتها وعداؤها للقبيلة أو القبائل الأخرى . هذا التعصب للقبيلة كان لا بد من أن يؤدي ، مع مرور السنين ، إلى حروب ومعارك لا جدوى منها ، وإلى الشقاق والضعف . والإسلام يدين التعصب وضيق الأفق الذي لا بد وأن يؤدي في النهاية إلى الضعف والتطرف على حساب الاعتدال والتسامح . ولا شك أن من أبرز إنجازات الإسلام وإنجازات الرسول الكريم ، النجاح في توحيد القبائل وجعل ولائها للإسلام ، الأمر الذي ساعد على انتشار الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها في نهاية المطاف .

وفي سورة آل عمران ، الآية (١٠٣) نقرأ قوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١٠٣) ﴿ صدق الله العظيم

إن الولاء للإسلام لم يكن تعصبا . وإنما كان ولاء قائما على أسس سليمة ، وعلى معرفة أكيدة بأن الوحدة تحقق القوة والنجاح . كان الولاء للإسلام يحمل في طياته قدرا كبيرا من التسامح تجاه الآخرين ، والقبول بالاختلافات حتى في بعض العبادات والممارسات الدينية وتطبيقاتها . لم يكن الإسلام ديناً جامداً أو متصلباً ، وإنما كان يقبل الاختلاف في وجهات النظر ؛ لأن هذا أمر لا بأس به ويؤدي إلى إثراء الدين نفسه ، طالما أنه يؤمن أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

وفي عالم اليوم نجد الكثير من المسلمين ممن لا يلتزمون حرفياً بتعاليم الدين ، وقد يتغافلون عن نواهيه ، ولكنهم مازالوا مؤمنين . لماذا؟ لأنهم يؤمنون بوحدانية الله ونبوة الرسول الكريم . ونحن لانرفض مثل أولئك المسلمين ، وإنما نقبلهم بيننا ، وندعو الله سبحانه وتعالى في الوقت نفسه أن يهديهم إلى سواء السبيل ، وإلى جادة الصواب ، وإلى الالتزام بأوامر الإسلام والابتعاد عن نواهيه .

واليوم ، نرى الملايين من المسلمين ممن أُجبروا على ترك الإسلام ، أو ممن عاشوا في مجتمعات معادية للإسلام يعودون إلى حظيرة الإسلام بكل ما في قلوبهم من حماسة ، باذلين كل غال ورخيص في سبيل التمسك بدينهم مهما كانت العوائق والصعاب .

ولكن السؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا في هذا المقام هو : هل يلتزم المسلمون بتعاليم الإسلام الداعية إلى التسامح والاعتدال؟ الإجابة بالإيجاب . لماذا؟ لأن الملايين من المسلمين ، أو فنقل الغالبية العظمى منهم في مشارق الأرض ومغاربها ملتزمون بتعاليم الدين الخفيف التي تدعو إلى التسامح والاعتدال . ولكن ، وكما في أي مجتمع أو في أي تجمع أو في أي دين ، هناك من هم خارجون عن الإجماع ، وهناك من هم استثناء من القاعدة العامة .

ولماذا نذهب بعيداً ، أليس هناك بين المسيحيين من هم أكثر تطرفاً وعنفاً من المسلمين ، والذين يسمّونهم بالمتعصبين أو المتطرفين !! لقد رأينا مثل هؤلاء المسيحيين في البوسنة والهرسك يقتلون الرجال والنساء والأطفال ويغتصبون ويعذبون إخوانهم في الوطن لمجرد أنهم مسلمون . ولو عدنا إلى وقائع التاريخ في العصر الوسيط لرأينا محاكم التفتيش الإسبانية التي ظلت تمارس عملها على مدى ثلاثمائة عام ، في تعذيب المسلمين وملاحقتهم وطردهم من الأندلس ، بل وصل الحال بها إلى أنها كانت تحقق حتى مع من ارتدوا منهم إلى المسيحية للتأكد من أن ردّتهم قد جاءت عن اقتناع وليس من أجل الهروب من الملاحقة والاضطهاد والتعذيب .

وفي أيرلندا ، رأينا كيف كان التسامح قائماً حتى بين المسيحيين من طائفتي البروتستانت والكاثوليك ، وكيف أدى عدم التسامح هذا إلى حرب ضروس بين الطائفتين ظلت مشتعلة لفترة طويلة من الزمن . كما رأينا كيف أدى تعصب الميليشيات المسلحة في لبنان إلى اندلاع نيران الحرب الطائفية هناك والتي أنت على الأخضر واليابس في ذلك البلد الجميل الذي كان درة البلدان .

كما أننا نرى التطرف وعدم التسامح في إسرائيل أيضاً من بنيامين نتنياهو من جهة ،

وقادة الأحزاب الدينية المتطرفة فى إسرائيل الذين نسوا ما تعرضوا له من اضطهاد فى أوروبا ، ويقومون اليوم بممارسة ظلم أنكى ، واضطهاد أشد ضد العرب من مسلمين ومسيحيين ، وإجبار هؤلاء العرب على العيش فى أحياء منعزلة كالتى فرض هتلر عليهم العيش فيها فى ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية .

وفى الهند ، نرى التطرف من جانب الهندوس ضد المسلمين . . وفى بلدان آسيوية أخرى نرى تطرفاً بوذيًا ضد أصحاب الأديان الأخرى .

خلاصة القول ، هو أن لأحد يستطيع الادعاء أن التسامح والاعتدال حكر عليه دون غيره . . ففى كل مجتمع وفى كل دين سوف يكون هناك نوع من الزيغ أو الضلال ، وسوف تكون هناك قلة شاذة أو خارقة عما هو مألوف ومتفق عليه . ولكن البشر عموماً يميلون إلى التعميم ، فإذا كانت هناك فئة ضالة فى مجتمع ما ، رموا المجتمع بأسره بالضلال ، وإذا كانت هناك جماعة متطرفة ، رموا المجتمع كله بالتطرف .

يجب علينا نحن معشر المسلمين فى الأمة الإسلامية أن نعترف أن من بيننا قلة متطرفة ، وفئة متعصبة ، بعيدة عن اعتدال الإسلام وعن سماحته ، بالرغم من أن التطرف والتعصب من الأمور الخارجة عن تعاليم الدين الإسلامى الخفيف . وكما هى العادة دائماً فقد استغل أعدؤنا أعداء الإسلام هذه الفرصة فوصموا المجتمع الإسلامى كله والمسلمين جميعهم بالتطرف والتعصب .

ومما يؤسف له حقاً أن أولئك المتطرفين والمتعصبين قد نجحوا فى بعض الدول فى السيطرة على زمام الأمور ، ويدأوا فى فرض طريقة فهمهم للدين على الآخرين بالقوة والعنف ، ومن الأسف أيضاً أن نجد الإسلام والتطرف أصبحا يعينان شيئاً واحداً فى نظر الغرب وفى نظر الشعوب غير المسلمة ، فهم يرون فى الإسلام ديناً يدعو إلى التطرف والإرهاب ، وعدم التسامح ، وعدم التَّقبُّل لرأى الآخر . ومهما حاولنا أن نبين لهم أن ذلك ليس صحيحاً ، وأن التعميم أمر خاطئ ، وأن وجود فئة متعصبة أو متطرفة ، لا يعنى أن

المسلمين كلهم كذلك ، وأن ما قامت به محاكم التفتيش الإسبانية ليس تعبيراً عن المسيحية ودعوتها إلى السلام والتسامح ، وأن ما قام به الصرب من مجازر وفظائع ضد المسلمين لا يمكن أن ينسحب على الكنيسة الأرثوذكسية التي تدعو إلى الرحمة والرفق بالإنسان . . . ولكن بالرغم من كل تلك المحاولات ، فإن المفهوم الخاطيء للإسلام مازال مستمراً بصورة أو أخرى .

والسؤال الذى يطرح نفسه هو : هل يجب علينا أن نشغل أنفسنا بنظرة الآخرين لنا ورأيهم فينا وفى ديننا؟ الإجابة هى أننا يجب أن نفعل ذلك . فعندما نزل الوحي على الرسول - صلى الله عليه وسلم ، كان أول من آمن بالإسلام من أصحاب الرسول هم أولئك الذين رأوا فى الإسلام وسيلة للخلاص . فمجتمع شبه الجزيرة العربية فى الجاهلية كان مجتمعاً قاسياً وغير متسامح ، يتخذ البنات ويتخذ الرجل فيه عدداً غير محدود من الزوجات ، ويعامل السيد عبده بقسوة ، ويقهر الغنى فيه الفقير ، والقوى الضعيف .

ثم جاء الإسلام ليعد المظلومين بالخلاص والعدالة ، ويدعو إلى عدم وأد البنات ، وإلى تحديد عدد الزوجات بأربع فقط ، وإلى العدل بينهن ، وإلى طائفة أخرى من التعاليم الكفيلة بخلق مجتمع أفضل . وهكذا رأينا المظلومين يعتنقون الإسلام ، ورأينا بلائاً العبد الحبشى يصبح من أوائل من آمنوا بالرسول ودخلوا الإسلام .

وسواء أكانا نريد نشر الإسلام أم لا ، فإن علينا فرضاً واجباً وهو أن نقوم بشرح الإسلام والدعوة إليه بين المسلمين وغير المسلمين . يجب علينا أن ندعو إلى الدين بالحسنى ، وأن نحاول أن نجعل الآخرين يفهمون الإسلام على حقيقته ، ثم نحاول تعميم ذلك المفهوم الصحيح على جميع دول وشعوب العالم . وليكن هدفنا دائماً أن نحاول إبراز سماحة الدين الإسلامى واعتداله فى دعوتنا وفى سلوكنا ، وأن نتعد كل البعد عن كل ما يمكن أن يجعل الآخرين ينظرون إلى الدين الإسلامى على أنه دين تطرف وتعصب .

والعدالة فى الإسلام ، كما هو معروف ، تقوم على مبدأ (الجزء من جنس العمل) وأن

العين بالعين ، والسنّ بالسنّ ، والبادئُ أظلم . ولكن ما هو غير معروف لدى الغرب هو أن الإسلام يراعى الاعتدال والرحمة في تصريف شئون العدالة .

فالإسلام يأمرنا المرة بعد الأخرى أن نكون رحماء ومراعين لحقوق الآخرين . فهو يوفر للشخص المظلوم الحق في طلب الإنصاف والعدل ، وأن يطلب بأن تكون العين بالعين ، والنفس بالنفس ، ولكنه يدعو في الوقت نفسه إلى العفو والمغفرة من جانب من وقع عليهم الظلم نحو ظالمهم ، مقابل الدية والتعويض . فمبدأ العين بالعين ، والسنّ بالسنّ إذن ليس مبدأ إجبارياً ، وإنما الغرض منه فقط هو تقييم الجريمة وتحديد العقاب المناسب لها .

في سورة المائدة الآية ٤٥ يقول الله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله : ﴿ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٤٥) ﴿ صدق الله العظيم .

فالله سبحانه وتعالى غفور رحيم ، ويريدنا أن نكون كذلك . ولكي نغفر ونرحم لا بدّ لنا أن نكون متسامحين ومعتدلين . وما لاشك فيه أن الرغبة في الثأر التي تتحكم في الإنسان وتملك عليه تفكيره ، وذلك الشعور بالانتقام الذي يملكنا بضرورة إلحاق الأذى بأعدائنا كما ألحقوا الأذى بنا ليس من الرحمة والمغفرة في شيء .

وإذا ما أردنا أن نُصحح هذه الصورة المشوّهة عن الإسلام ، وإذا ما أردنا أن نزيل الفكرة الراسخة لدى الأوروبيين بأن المسلمين يتصفون بالفجور في الخصومة وعدم التسامح وعدم الصّفح وعدم الاعتدال ، والتطرف ، فإننا يجب أن نظهر رغبتنا في التغاضي عن الانتقام ، وعن انتهاج أسلوب العنف الذي لا يعرف الرحمة .

أما ما تقوم به فئة من المسلمين من قتال فيما بينها ، أو قتال مع الغير من أجل إظهار مدى عمق التزامنا بقضايانا ، فقد ينجح في جذب الاهتمام إلى ما نعانيه من ظلم على أيدي الآخرين ، ولكنه أبداً لن يقودنا إلى النجاح في نضالنا من أجل نيل حقوقنا العادلة . ونحن

نعرف أنه كلما زاد حجم الظلم والقهر الواقع علينا ، زاد عزمنا وتصميمنا على مواصلة النضال ، وبالطريقة نفسها ، كلما ألحقنا الأذى بأعدائنا ، زادت لديهم الرغبة والتصميم على الانتقام منا ، وزادت مقاومتهم لنا ولديننا الخفيف . هذا الطريق لن يقودنا إلى النجاح بالطبع ؛ لأننا لانسعى إلى النجاح والفوز وإنما إلى إشباع الرغبة في الانتقام من أجل الانتقام . . لإشباع غرائزنا الحيوانية .

لذلك كله ، لا بد لنا من أن نتمسك بقيم التسامح والاعتدال التي يأمرنا ديننا الخفيف بأن نتمسك بها . ونحن نعرف أن القرآن الكريم يقول إننا إذا أخطأنا أو أصابنا الفشل ، فإن ذلك يرجع إلى أسباب كامنة فينا . أما إذا وُقِّعنا فإن هذا التوفيق بفضلته تعالى خالق السماوات والأرض . وإلى الآن أقول لكم أيها السادة الأجلاء إننا قد فشلنا . . وقد يسأل سائل : فيم فشلنا؟ وأجيبه ؛ بأننا قد فشلنا في استرداد أمجادنا السابقة ؛ لأننا فشلنا في حماية أنفسنا ، والحفاظ على قوتنا ، وعلى إيماننا . . كما أننا فشلنا في الالتزام بتعاليم الإسلام وأوامره ونواهيه ، كما جاءت في القرآن الكريم وفي سنة نبيِّه الكريم ، وليس لأن الله سبحانه وتعالى ، قد أراد لنا الفشل .

وفي الوقت نفسه ، نجد بين المسلمين من يظنون أنهم يتبعون تعاليم الدين لمجرد أنهم يقومون بأداء الفروض والسنن ، أو لأن مظهرهم الخارجي يتطابق مع ما يجب أن تكون عليه صورة المسلم الحق . وأنا هنا لا أناقش مدى قوة إيمان أولئك الناس ، ولكنني أود أن أقول إن الإسلام ليس شعائر ومظاهر فقط ، بل هو منهج حياة ، وأسلوب الحياة هذا لا ينعكس بالشعائر والمظاهر فقط ، وإنما ينعكس في التزامنا بالاعتدال والرحمة في كل ما نقوم به . كيف يمكن لنا أن نصلى ، ثم نذهب بعدها للانتقام من أخوة لنا في الإسلام ونذبحهم؟ وقد يكون هؤلاء ممن لا يصلون مثلما نصلى ، ولكنهم مع ذلك قد يكونون أقرب إلى الله سبحانه وتعالى ، منّا . فالله سبحانه وتعالى هو وحده المطلع على القلوب ، وهو وحده الذي يعرف من يلتزم بأوامر الإسلام ونواهيه ، ومن لا يفعل ذلك . هل نستطيع بعد أن ندرك هذا ، أن

نعطى أنفسنا الحق في الحكم على إسلام الآخرين ، وأن نسمح لأنفسنا بمعاقتهم بناء على ذلك ، مما يؤدي إلى إضعاف الإسلام وإلى إعطاء الفرصة لأعداد الإسلام والمسلمين لتحقيق الانتصارات علينا؟

لقد ذكر الله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله أكثر من مرة أن هؤلاء الذين نحكم عليهم بأنهم أقل إيماناً منا ، قد يكونون في الحقيقة أكثر إسلاماً وإيماناً منا ، وأكثر قرباً لله سبحانه وتعالى . وفي الحقيقة ، إن إدانتنا للآخرين ليست إلا انعكاساً لافتقارنا إلى الاعتدال والتسامح ، وهو أمر يعتبر بالتأكيد ضد الإسلام وضد التعاليم الإسلامية وما أرسته من قيم . ففى سورة الحجرات الآية (١١) يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ صدق الله العظيم .

والإسلام دين عملي ، ولم يقصد به أبداً أن يكون ديناً مفروضاً بالقوة والقهر على أتباعه . وليس مقصوداً به أن يكلفهم بما لا طاقة لهم به . ولذلك يقول سبحانه وتعالى في سورة البقرة الآية (٢٥٦) : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ صدق الله العظيم .

وفي سورة المائدة الآية (٦) يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنْتُمْ جُنُبًا فاطَّهَّرُوا وَإِن كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُنِيعَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ صدق الله العظيم .

ونحن نعلم أنه ليس جميع المجتمعات الإسلامية تعيش في بلدان جميع سكانها من المسلمين ، فاليوم نجد أن أعداداً متزايدة من المسلمين تعيش في بلدان غير إسلامية . وفي

المجتمعات غير الإسلامية هناك أشياء لا يستطيع المسلمون أن يقوموا بها مثلما يقومون بها في الدول ذات الأغلبية الإسلامية .

ولذلك فعلى المسلمين الذين يعيشون في بلاد إسلامية بالكامل ، أو في بلاد يشكل المسلمون الغالبية العظمى فيها ، أن يتذكروا أن أى عمل يقومون به ضد من هم غير مسلمين ، سوف يؤخذ عليهم وسوف يؤثر على حياة ومصير وأرزاق المسلمين الذين يعيشون في بلدان غير إسلامية أو في بلاد يشكل المسلمون فيها أقلية ضئيلة .

وفي الحقيقة ، قد يحدث أحيانا أن نكون عادلين ومتسامحين مع الأقليات غير المسلمة التى تعيش فى بلادنا ، ومع ذلك يستمر عذاب المسلمين ويستمر قمعهم فى المجتمعات والدول الأخرى غير الإسلامية . فعلى سبيل المثال : ماذا فعلنا كى يستحق المسلمون كل هذا التنكيل والوحشية من جانب الصرب فى البوسنة . - أو من جانب غيرهم فى البلدان الأخرى ؟ ولكن الله سبحانه وتعالى له حكمة تجلّ عن الفهم . ويجب أن نعرف أننا بعيدون كل البعد عن الصراط المستقيم ، أو أننا لا نعيش كما أمرنا ديننا الحنيف ، وإنما نأخذ من التعاليم الإسلامية ما يمكن أن نتخذه ذريعة لتبرير ما نسعى إليه من رغبات ، ونطرح جانباً ما يبين أو يظهر أننا قد أخطأنا .

وماليزيا ؛ كما تعرفون أيها السادة الأجلة ، بلاد ذات أغلبية إسلامية ، علماً بأن عدد غير المسلمين فى بلادنا يصل إلى ٤٠ فى المئة من عدد سكانها الإجمالى . فى أيام الاحتلال ، عمد البريطانيون إلى فصل الأجناس الموجودة فى ماليزيا عن بعضها ، ثم حرصوا على اندلاع النزعات الطائفية والدينية . فالملاويون كما تعرفون أيها السادة شعب مسلم بالكامل ، فى حين أن السكان الصينيين يدينون بالكونفوشيوسية ، وبيدين الهنود بالهندوسية ، وعندما تحقق استقلال البلاد وجدت هذه الأجناس أنها لا بد من أن تتعامل وأن تتواصل مع بعضها بعضاً . وكانت سماحة واعتدال رئيس الوزراء الماليزى فى ذلك الوقت (تتكو عبد الرحمن) سبباً فى إقناع الأحزاب القائمة على أسس عنصرية وإثنية بالدخول فى ائتلاف موحد . لكن

المطرفين العنصرين انسلخوا عن التحالف فيما بعد من أجل تكوين أحزاب بديلة . ومع ذلك ، فإن الغالبية ظلت مع تنكو عبد الرحمن الذى استطاع ائتلافه تحقيق الانتصار فى أول انتخابات تعقد تحت الإدارة البريطانية ، وكذلك فى الانتخابات التى تم تنظيمها فى أعقاب الاستقلال . وفى عام ١٩٦٩ م ، اندلعت أعمال العنف العنصرى ؛ لأن الوحدة السياسية لم تكن قوية بالدرجة المطلوبة التى تمكن البلاد من التغلب على الاختلالات فى موازين القوى الاقتصادية لصالح الأجناس المتعددة الموجودة فى البلاد فى ذلك الوقت . والذى حدث أن القلاقل وأعمال الشغب والتنكيل لم تستمر طويلاً . ففى خلال عام واحد ، استطاع القادة وخصوصاً القادة المسلمون تهدئة شعبيهم عن طريق إعداد سياسة لتصحيح الخلل الاقتصادى . ومنذ ذلك الوقت لم تحدث أى اضطرابات عنصرية فى ماليزيا ، كما أن المحاولات التى بذلتها العناصر المتطرفة الإسلامية وغير الإسلامية لإثارة مشاعر الكراهية والضيق ضد الآخرين ، قد باءت بالفشل . واستطاعت الحكومة أن تحدّ من أى نزوع نحو التطرف الدينى وذلك عن طريق الإقناع بالحسنى .

واليوم نجد ماليزيا دولة تنعم بالسلام والاستقرار . ولم تنجح جميع المحاولات التى قامت بها العناصر الأجنبية لإثارة التطرف الدينى والفتنة وتهديد استقرار الدولة واقتصادها ، وإعادة إنتاج الفوارق الاقتصادية بين الأجناس المختلفة الموجودة فى البلاد .

نتيجة لهذا ، أصبحت ماليزيا دولة قادرةً على تحقيق نمو سريع فى كافة المجالات . فقد نمت الثروة الاقتصادية ، والمعرفة التقنية والمهارات الإدارية فيما بيننا بما فى ذلك المسلمون . ونجد اليوم المسلمين لا يقلّون فى قدرتهم وإمكاناتهم عن غير المسلمين فى مجال الإدارة والسياسة والتقنية والتجارة العالمية .

كما نجد أن مسلمى ماليزيا يؤمنون بالاعتدال والتسامح ؛ لأن هذا هو ما يطالبنا ديننا به . ولقد كان لهذا الاعتدال والتسامح ردُّ فعل طيب لدى الأجناس الأخرى من غير المسلمين التى بادلتنا المساعر نفسها وتعاملت معنا بالطريقة نفسها التى نتعامل بها معهم . ولذلك

نراهم يقومون بتقديم الدعم للمسلمين بكل حماس لتمكينهم من الوصول إلى نفس المستوى الذى بلغوه . كان هذا هو ثمرة سياسية الاعتدال والتسامح التى أتت أكلها لأهل ماليزيا من المسلمين .

فتعاليم الإسلام فى ماليزيا لا تقتصر على الأمور العقيدية البحتة ، وإنما تمتد لتغطى طرق وأساليب العيش على النهج الإسلامى الصحيح ، فى إطار من الاعتدال والتسامح وإذا ما أهملنا هذه التعاليم فإننا لن نكون قد ارتكبنا خطأ فظيلاً فحسب ، وإنما سنعمل أيضاً على حرمان أنفسنا من مزايا الإسلام ومنافعه . وإذا حدث أن فشلنا بعد ذلك أو لحقت بنا المهانة والضعف ، يجب علينا عندها ألا نلوم إلا أنفسنا !

الفصل الثاني عشر

مُسْتَقْبَلُ الْأُمَّمِ الْإِسْلَامِيَّةِ *

نلتقى هنا في طهران في أعمال القمة الثامنة لمنظمة المؤتمر الإسلامي ، ونحن على أعتاب قرن جديد وألفية جديدة ، بما يطرحة ذلك من تحديات ضخمة تفرض علينا بإلحاح الاستعداد لها باستنباط السبل الكفيلة بمواجهتها . وتتعقد هذه القمة في وقت تتعرض فيه الأمة الإسلامية إلى تهديدات وضغوط جديدة متزايدة . فالقضية الفلسطينية لم يطرأ عليها تطور جديد بالاتجاه الإيجابي ، والفلسطينيون ظلوا على ما كانوا عليه من مأس وبعث عن نيل حقوقهم المشروعة ؛ إذ تحول اتفاق أوسلو إلى أوهم ، وإقامة دولة فلسطين المعترف بسيادتها مسألة تبدو بعيدة الاحتمال كما كانت دائماً ، مالم يقيم الفلسطينيون بالمغامرة وإعلان دولتهم المستقلة من جانب واحد ، وهي خطوة سوف ينتج عنها بكل تأكيد نزيف دماء دون مُبرّر .

إن هدف إخواننا الفلسطينيين من نضالهم الوطني واضح وضوح الشمس في كبد السماء ، ويجب ألا نجعل غضبنا الشديد يسيطر علينا مهما حدث من تطورات ، لكي لا نبتعد عن هدفنا الأصيل أو يجعلنا ذلك ندخل في مغامرات غير محسوبة العواقب .

نحن في ماليزيا نشعر بالحزن الشديد إزاء أعمال القتل التي تجرى في بعض الدول الإسلامية ضد غير المسلمين والمسلمين على حد سواء . إن هذه الأعمال لا علاقة لها

* كلمة ألقيت في أعمال القمة الثامنة لمنظمة المؤتمر الإسلامي في طهران- إيران ، بتاريخ ٩ ديسمبر ١٩٩٧ .

بتعاليم الدين الإسلامى من قريب أو بعيد ، كما أنها لا تنفيذ قضية الإسلام ، ويجب علينا كأمم إسلامية أن ننبد خلافتنا ونوحد صفوفنا ، لكى نواجه الأخطار الداهمة التى تهددنا . كما يجب ألا نكون أعداء لأنفسنا ؛ لأننا نرى فى العديد من الدول الإسلامية حروباً ومعارك ؛ يقتل فيها المسلم أخاه المسلم ، وتؤدى إلى عدم الاستقرار ، الذى يؤدى بدوره إلى إضعاف الحكومات ، وعدم قدرتها على تحمل مسئوليات الحكم وتبعاته بكفاءة وفاعلية ، وعدم قدرتها على تنمية وتطوير البلاد بما يكسبها القدرة على منافسة الأعداء فى شتى المجالات . بالإضافة لذلك ، أدت المنازعات الشخصية والأطماع الفردية والتعطش للسلطة إلى تخريب الإدارة الحكومية ، وشل قدرتها على الوفاء باحتياجات الشعوب .

نتيجة لذلك كله ، بقيت الأمم الإسلامية ، فى مجملها متخلفة وفقيرة ، وغير ماهرة ، وغير متعلمة ، وغير قادرة على الإسهام الإيجابى فى رفاهية المسلمين وعقيدتهم وأهمهم .

وعلى الرغم من أن الكثير من الدول الإسلامية تنعم بموارد غنية ، فإننا لانزال غير قادرين على الإفادة من هذه الموارد بالصورة المثلى فى خدمة الإسلام والدود عنه وعن الشعوب الإسلامية ضد أولئك الذين لا يخفون كراهيتهم لنا ولديننا ولا يتورعون عن الجهر بنواياهم السيئة نحونا .

هذا هو الحال السائد فى بلداننا ، والذى تسبب فى هروب أفضل العناصر من بلداننا الإسلامية للخارج للمساهمة بعلمهم ومهاراتهم فى رفاهية شعوب البلدان التى يهاجرون إليها ، والتى يحدث فى بعض الأحيان أن تكون معادية لنا . وللأسف الشديد لا تتوافر لدينا الإمكانيات التى يمكن أن نقدمها لعلمائنا الأذكياء الموهوبين ، مما يجعلهم يشعرون دائماً أن البيئة فى بلدانهم الأصلية لا تتسع لأحلامهم ، وهو أمر كفىل بدفعهم

للتفكير فى الهجرة .

كما أننا لم نستطع حتى الآن تطوير نظام يحدد الأسس والطرق التى يمكن أن نحكم بها بلداننا ؛ فبعض دولنا يتبع نظاما ملكياً ، فيما يطبق بعضها الآخر نظاماً ثيوقراطياً يقوم رجال الدين على شئون الحكم فيه ، ومجموعة ثالثة اتبعت نظم حكم ديمقراطية . وعلى الرغم من جميع الادعاءات والمزاعم التى تسوقها الدول الغربية من أن الديمقراطية على النمط الغربى هى الديمقراطية الصحيحة ، فإن الحقيقة هى أن الديمقراطية أو النظام الديمقراطى قد فشل حتى الآن فى إثبات جدواه وفاعليته ، سواء بالنسبة للدول الغربية أو حتى بالنسبة لأى دولة فى أى مكان فى العالم ، ففى كثير من الحالات يتم بموجب هذا النظام اختيار أشخاص غير ملائمين أو غير صالحين لتولى مسئولية الحكم ، وفى هذه الحالة نجد أولئك الأشخاص مثلاً يهتمون بمصالحهم الخاصة على حساب مصالح الشعب ، مما يؤدى إلى صرفهم عن الواجبات والمهام التى يجب أن يقوموا بها ، الأمر الذى يؤدى بدوره إلى نفشى الفساد وانهيار القيم الأخلاقية .

ولكى يتمكن هؤلاء من صرف الأنتظار عن المشاكل التى تواجهها بلدانهم ، نجدهم يركزون على سلبيات وعيوب الحكومات والدول الأخرى . ولذلك نجد هذه الدول تتهمنا نحن فى البلدان الإسلامية على وجه الخصوص بأننا ننتهك حقوق الإنسان ونمارس العنف والإرهاب ، ونفتقر إلى الكفاءة الإدارية اللازمة لتدبير أمور شعوبنا ، بل تصل الاتهامات فى بعض الأحيان إلى حد الزعم بأننا نقوم بتدمير البيئة . وبواسطة المنظمات غير الحكومية نجدهم يتدخلون بفاعلية فى شئوننا الداخلية ، وتحريض شعوبنا على استخدام العنف ضد حكوماتهم ، بل وضد بعضها بعضاً . كما تقوم هذه الدول أيضاً بتوفير المأوى والأمان للإرهابيين الذين يقومون بأنشطة تخريبية فى بلادنا .

ومفاهيم الديمقراطية ونظامها الغربي الحديث ، ليست أفضل حالا من الدول الإقطاعية أو الدول القائمة على حكم الصفوة الدينية الشيوقراطية التي سبقت وجود النظام الإقطاعي . صحيح أن الطريق قد يكون مختلفاً ، ولكن الهدف واحد في النهاية . ويجب ألا ننسى أن هذه الدول هي التي أضمرت نيران محاكم التفتيش الإسبانية .

ورغم أنهم ما عادوا يقومون بحرق الضحايا أحياء ، فإن الضغط الاقتصادي الذي يمارسونه على ضحاياهم ليس أقل قسوة من ذلك ؛ إذ يضعون الناس أمام خيارين أحلاهما مرّ: إما الاستسلام وإما القتل .

والأمم الإسلامية ليست بحاجة إلى اختراع أشكال جديدة للحكومات ، لأن هذه الأنظمة في النهاية لن تكون كاملة ، ولن تستطيع أبداً أن تضمن الحكم الرشيد . إن الذي يجعل نظام حكم ما راشداً هو نوعية الرجال الذين يتصدون لتصريف شئون الحكم . ولكي نعرف ما هي مواصفات هؤلاء الرجال الملائمين لممارسة الحكم ، علينا أن نعود إلى تعاليم الإسلام ؛ وهي التعاليم الحقة وليست التعاليم التي يتم تأويلها لتبرير ما نقوم به سواء أكان خطأ أم صواباً ، خيراً أم شراً .

وإذا لم نكن متأكدين مما تعنيه التعاليم الحقة ، فإننا سوف نكون بحاجة إلى توجيه بعض الأسئلة : هل الإسلام يدعو إلى الحروب والعنف بين المسلمين سواء أكانوا جماعات أم ملل ؟ هل الإسلام يدعو إلى قهر الشعوب على أيدي الحكومات ؟ هل الإسلام يدعو إلى تهديد استقرار الحكومات وقلبها من خلال أعمال غير مسؤولة بواسطة الناس ؟ هل الإسلام يدعو إلى رفض الحياة الطيبة في هذا العالم أو الحياة الطيبة في الآخرة ؟ هل نستطيع أن نقول حقاً إننا كي نكون متدينين لابد من أن نكون فقراء ، وأن نكون بلا معرفة وبدون مهارات ، وغير قادرين على الدفاع عن أنفسنا ضد أعدائنا ؟

هل اعتمد الرسول - صلى الله عليه وسلم - على ثروة وذكاء صحابته أم أنه قام بشراء الأقواس والسهام والسيوف والخيول والجمال من هؤلاء الذين كان هدفهم المعلن والواضح هو تكوين الثروات لأنفسهم ، ليس هذا فحسب ، بل وتدمير الإسلام والمسلمين؟

إننا نعرف إجابات جميع هذه الأسئلة ، ومع ذلك فإننا لانهتم بتابع الطرق التي تدلنا على الإجابات الإسلامية لهذه التساؤلات . وبدلا من ذلك نشغل أنفسنا بالتفاهات والصغائر مثل طول : لحية المسلم أو طول جلبابه . وفي بعض الأحيان ندخل في حروب ضد بعضنا البعض بسبب خلافات بسيطة بشأن أساليب التعبير عن إيماننا . لذلك نجد دائما أن كل واحد منا يحاول أن يزايد على الآخر فيما يتعلق بمظاهر التقوى والورع الدينى ، سواء عن طريق اختراع أفكار متطرفة أو ممارسات متشددة جديدة لم تكن معروفة من قبل ، من أجل إظهار قوة إيماننا . وليت الأمر يتوقف عند هذا الحد ، بل إننا نحاول أن نفرض هذه الأفكار والممارسات المتطرفة على الآخرين بالقوة ، ونقوم بإدانتهم إذا مارفصوا ذلك . وكل هذه الممارسات تؤدي إلى تقسيم المجتمعات وبث الفرقة بينها ودفعها إلى مقاتلة بعضها بعضا بسبب بعض الخلافات الناتجة عن اختلاف في فهم الدين .

والإسلام دين سلام ودين أخوة ودين مرونة ، وممارسات الإسلام ليست متشددة على الإطلاق . وهناك دائما تيسير في الدين بحيث لا يشعر الإنسان بأن التعاليم الدينية تشكل قييدا على حريته ، وعبئا يجب عليه أن يتحملة . ففي أداء الصلاة والصوم وتوزيع الزكاة وأداء شعائر الحج ، يراعى الإسلام ظروف كل شخص على حده ، ويسمح للظرف السائد أو الطارئ أن يملأ طريقة ممارسة الشعيرة أو العبادة . وهكذا فإننا نرى أن المسلم يمكن أن يؤدي صلاته بطرق مختلفة حسب الظرف وحسب حالته الصحية وقدرته الجسدية . والأمر نفسه ينطبق على الصيام الذى يعتمد على حالة

الإسان الصحية وقدرتها البدنية أيضاً ، بل وعلى المكان الذى يوجد فيه كذلك . كما أن المسلم يخرج الزكاة بحسب قدرته المادية ، ويقوم بالحج إلى بيت الله إذا ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . أما الشيء الذى لا يمكن أن يتسامح فيه الإسلام فهو إنكار أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ إذ يجب على المسلم أن يشهد بذلك علناً ، أو أن ينطق الشهادة بقلبه إذا ما أجبر على إنكارها فى العلن تحت الضغط والتهديد .

أنا لا أحاول أن أنصّب نفسى فى موضع الواعظ ، ولكننا جميعاً نعرف أن هناك من يدفعنا لأن نكون متشددين فى إسلامنا . الحقيقة إننا نبذو كما لو كنا نتنافس فيما بيننا على إظهار مدى تمسكنا بالإسلام حتى ولو أدى ذلك بنا إلى تحمل أشياء لا طاقة لنا بها ، أو إلى الضغط على أنفسنا لأبعد الحدود ، على الرغم من أن الإسلام دين يسر لا عسر .

إننا نبذو وكأننا نرفض نعم الله سبحانه وتعالى ، التى أنعم بها علينا فى هذه الدنيا ، بما فى ذلك نعمة التفكير ؛ لأننا دائماً نعتبر أن هذه الدنيا لم تخلق لنا . وليس معنى هذا أننى أدعو إلى الانغماس فى ملذات الدنيا دون أن نعمل عقولنا . إن ما أدعو إليه هو اكتساب المعرفة والمهارات المطلوبة للدفاع عن الإسلام ، والإسهام فى صنع عظمته وقوته فى العالمين ، كطريقة حياة متكاملة ، وكأسلوب متكامل للتفكير والفعل لكل هذه الأسباب التى ذكرتها آنفاً نجد أن الأمة الإسلامية تتعرض إلى الظلم والعنت والقهر والإهانات فى كل مكان ، فى الوقت الذى نقف فيه عاجزين تماماً عن فعل أى شىء للدفاع عن شرفنا والذود عن حمى الإسلام .

وفى عالم اليوم لا نجد دولة إسلامية واحدة ضمن القوى الكبرى فى العالم ، ولا نجد أمة إسلامية واحدة قادرة على حماية أمة إسلامية أخرى تتعرض للعدوان . لقد رأينا مئتى ألف مسلم يتعرضون للذبح فى البوسنة والهرسك أمام أنظار العالم ، وأمام

أنظار قوات حفظ السلام ، دون أن يحرك أحد ساكنًا . ونحن لانستطيع أن نلوم جنود قوات حفظ السلام ؛ لأنهم لم يفعلوا شيئًا ، لأننا نحن أنفسنا لم نفعل شيئًا ولأننا سمحنا أن نضع أنفسنا تحت قيادة وسيطرة الآخرين كى يتحكّموا فينا كما يشاءون . فإذا أرادوا أن يتركوا إخواننا فى الدين ليتعرضوا للتعذيب والاغتصاب والذبح ، فإننا لن نقدر على فعل أى شىء لحمايتهم ، وسنقف مكتوفى الأيدى مثلهم تمامًا سواء أكانت لنا قوات ضمن قواتهم أم كنا فى الأصل قد تقاعسنا عن إرسال قوات للذود عن إخواننا فى الإسلام .

وماليزيا تدرك ضعف قدراتها الدفاعية ؛ لأنها ركزت جهدها على تحقيق استقلالها الاقتصادى ، معتقدة أن بإمكانها تحرير نفسها من الضغط السياسى ، وحمايتها من الوقوع فى براثن الاستعمار مرة أخرى ، أو الوقوع تحت سيطرة الدول الأجنبية كى تُملى عليها ما تشاء من أوامر وسياسات ، وتُحدد لها ماذا تفعل وما لا تفعل ، ومن تُصادق ومن تُعادى . اعتقدت ماليزيا بإمكانها تحقيق كل ذلك ، إذا ما تمكنت من تطوير اقتصاد قوى قادر على الوقوف على قدم المساواة مع الاقتصاديات المتقدمة فى العالم .

واليوم نجد أنفسنا غير واثقين تمامًا من أن ذلك وحده كاف ، فالعولة غيرت المعادلة برمتها . وقد لانكون راغبين فى قبول المستجدات والتغييرات التى تحملها لنا الأوضاع والتطورات الجديدة فى هذا المجال . وقد لانريد فى الوقت نفسه أن نكون بعيدين عن مجرى الأحداث ، أو أن نقف على الهامش ، ولكن الحقيقة هى أننا ، شئنا أم أبينا ، وسواء اخترنا هذا الطريق أو ذاك ، فإن عملية العولة وإزالة الحدود الفاصلة بين الدول سوف تضى فى طريقها وتصبح إحدى حقائق الحياة التى نعيشها فى هذا العالم .

والسرعة التي تمضي بها حركة التقدم ، وسهولة الاتصالات وتطور تقنيات الوسائط المتعددة ، كل ذلك سوف يجعلنا مُعرّضين ومكشوفين تماماً أمام أى شيء يحدث من حولنا ، وهكذا فإن مثل هذه الأشياء قد تقوّض إيماننا ، أو قد تدفعنا إلى الانخراط في ممارسات متطرفة ، أو إلى تدمير أنفسنا بأنفسنا ، أو إلى رفض كل شيء والانعزال عن العالم وإغلاق الأبواب على أنفسنا ، مما يقضى بنا في النهاية إلى المزيد من التخلف عن ركب الحياة التي تمضي بخطى حثيثة في كل المجالات . وفي النهاية سوف يفرض التقدم العلمي والتكنولوجي نفسه علينا فرضاً ، ولن يكون أمامنا في هذه الحالة من وسيلة سوى الخضوع لمقتضيات التطور تماماً مثل أسلافنا الذين وجدوا أنفسهم غير قادرين على مقاومة تقنيات البنادق والمدافع والسفن المصنوعة من الصلب والطائرات الحربية وتغيير طبيعة المعركة والحروب ؛ لأن ذلك لو حدث لكان معناه أنهم يريدون الوقوف في وجه حركة التاريخ مما كان سيعرضهم لمزيد من التخلف عن ركب الحضارة الذي كانوا رواده في يوم من الأيام . لقد خسر المسلمون المعركة ؛ لأنهم عجزوا عن التكيف مع مقتضيات التغيير ومع المعارف والعلوم الحديثة التي كانت تقف وراءه .

واليوم نشهد ثورتين تحدثان في الوقت نفسه : الثورة التكنولوجية ، والثورة في مفهوم العلاقات بين الدول والتي يُطلق عليها اسم «العولمة» . وسواء أقبلنا بهاتين الثورتين أم لا ، فإنهما ستفرضان نفسيهما علينا شئنا أم أبينا ، تماماً مثلما فرضت الثورة الصناعية نفسها علينا منذ قرون قليلة .

ومن حُسن حظنا أن هذه التطورات والتغيرات والثروات جديدة بالنسبة لأعدائنا مثلما هي جديدة بالنسبة لنا ، فهم يتلمسون طريقهم إلى هذه التغيرات والثورات ، تماماً مثلما نفعل نحن ، وسط متاهة المعرفة والمقدرات والإمكانات التي خلفتها ثورة المعلومات ، وحقيقة أن إزالة الحدود بين الدول التي فرضتها العولمة . ونحن في الحقيقة

لسنا متخلفين عنهم كثيرا فى هذه المجالات ، بل إن الواقع يقول إن كثيرين منا يساهمون فى تقدم هذه العلوم والمهارات الجديدة ، وفى صنع المعرفة والمفاهيم المتعلقة بالعلاقات الدولية .

وثمة فرصة لا تُعوّض متاحة أمامنا كى نختصر المراحل ، ونختصر عصر الثورة الصناعية وندخل مباشرة إلى عصر المعلومات وإلى العالم المفتوح ، وأن نصبح فى نفس المستوى مع الآخرين . ولسوء الحظ فإن الأمر يبدو أحيانا وكأننا على وشك أن نضيع هذه الفرصة من بين أيدينا ، كما ضيّعنا من قبل فرصاً أخرى مثلها ، ثم جلسنا نبكى عليها وتُبدى ندمنا ، حيث لا ينفع الندم .

ولذلك من المهم أن نتصدى لهذه التحديات التى نواجهها فى عالم اليوم . . . عالم عصر المعلومات والحدود المفتوحة . وإذا ما نجحنا فى ذلك ، فإننا نستطيع أن نحدد شكل استجابتنا لهذه المتغيرات والتطورات ، وأن نقوم باستنباط أساليبنا الخاصة بنا المتعلقة باستخدام معطياتها ، وبحيث لا نتعرض لفقدان إيماننا فى هذا الخضم الزاخر من التيارات المتلاطمة ، أو إلى فقدان هويتنا ، أو اتجاه مسيرتنا فى هذه الحياة .

إننا نستطيع ، إذا ما اقتدينا بالمسلمين الأوائل ، الذين آمنوا بالإسلام دينا ، ثم اهتموا به فى التكيف مع الظروف السائدة فى الدول التى خرجوا إليها شرقاً وغرباً ، واستطاعوا أن يقيموا صرح إمبراطورية عظمى شملت المسلمين وشعوباً أخرى من غير المسلمين فى آسيا وإفريقيا وأوروبا . إننا نستطيع أن نقتدى بأولئك الرواد الأوائل ، وأن نتكيف مع التغيرات التى تحدث الآن من حولنا ، فى ذات الوقت الذى نحافظ فيه على ديننا وعلى أسلوبنا فى الحياة كما فعلوا تماماً . وإذا ما قمنا بتوظيف جميع الطاقات والخبرات والمهارات المتاحة لنا ، فإننا لن نستطيع البقاء فقط ، بل إننا سنلعب دوراً فى توجيه استخدامات هذه التقنيات والمفاهيم .

لذلك من المهم أن نُقدر القيمة الحقيقية للقوى العظيمة التي تتجمع من حولنا ، وهي قوى غالبًا ما تكون معادية لنا . أما إذا اخترنا الانعزال عن المعلومات والمعرفة فسوف نجد أنفسنا تحت هجوم وضغط مستمرين ، مُجبرين على التقهقر في معظم الأحيان . وإذا ما قمنا باستيراد هذه المهارات منهم فإن ذلك سيكون بمثابة قيامنا باستيراد أسلحتنا وقدراتنا الدفاعية منهم . بمعنى أننا سوف نكون مُجبرين في هذه الحالة على القبول بما قرروه لنا وليس ما نختاره نحن ، لكي يضمّنوا أننا لن نُحقق به النجاح التام .

فلنفكر إذن في الحالة المتردية التي يمر بها العالم الإسلامي اليوم ، وعجزه الواضح عن مساعدة نفسه ، ولنحاول إيجاد الحلول المناسبة للمشاكل الفعلية التي نواجهها في عصرنا الراهن .

الفصل الثالث عشر

دُرُوسٌ وَعِبْرَةٌ مِنَ الْمَاضِي *

لكي نُخطِّطَ للمستقبل علينا أولاً أن ننظر إلى الماضي كي نعرف من أين جئنا ، وإذالم نعمل ذلك فإننا قد نتراجع إلى الوراء ، حتى وإن كنا نشعر أننا ماضون إلى الأمام .

هذا بالضبط ما سيحدث عندما نقوم بمواجهة القرن الحادى والعشرين ، القرن الذى ستقوم فيه المعلومات المتوفرة من خلال التقنيات المتطورة ، بتغيير أنماط حياة البشر ، والذى لن تستطيع فيه الحدود القائمة بين الدول أن تمنع تدفق المعلومات والأشياء الأخرى . ومصاحبة هذا التدفق المعلوماتى سوف تكون هناك تحديات اقتصادية ومالية واجتماعية وثقافية ، الأمر الذى يعنى أنه ينبغى علينا أن نسعى إلى الاسترشاد والهداية ، وأن نستلهم الدروس والعبر من تاريخ العالم ، وتاريخ الإسلام والمسلمين .

وهذا لا يعنى بالضرورة أننا نستطيع أن نجد جميع الحلول الصحيحة من خلال قراءة التاريخ الإسلامى ، ولكننا قد نستطيع تعلم الاستراتيجيات والمناهج التى استخدمها المسلمون الذين نجحوا نجاحاً باهراً فى السنوات الباكرة من عمر الإسلام ، على الرغم من أن تلك الاستراتيجيات أصبحت غير ملائمة فى السنوات التى تلت ذلك وترتبت عليها نتائج سلبية ، لكننا على الأقل سنكون قادرين على معرفة الطرق والأساليب غير الفعالة التى تم استخدامها لمواجهة المشاكل السائدة فى ذلك الوقت ، وهى مشاكل وتحديات قد تكون مشابهة لتلك التى يحتمل أن نواجهها فى المستقبل .

* كلمة أقيمت فى مؤتمر إقليمى نظمه المعهد المالىزى للفهم الإسلامى بعنوان «نحو القرن الحادى والعشرين : الإصلاح والتحديات اللذان يجابهان المسلمين فى المنطقة» فى كوالالمبور - ماليزيا ، بتاريخ ٢٢ أغسطس ١٩٩٧ م .

وحتى إذا لم نتمعق في دراسة تاريخ الإسلام ، فإننا ندرك بوضوح أن العرب الأميين الذين كانوا يعيشون في صحراء شبه الجزيرة العربية وأصحاب الثقافة المتخلفة التي كانت تدفعهم إلى وأدبناهم ، والذين كانت تسيطر عليهم أفكار وأساليب الجاهلية الأولى ، قد نجحوا ، بعد أن أشرق عليهم نور الإسلام وآمنوا به واتبعوا تعاليمه ، في أن يؤسسوا إمبراطورية مترامية الأطراف وأن يقيموا حضارة تفوق بمراحل على حضارات الإمبراطوريات التي كانت قائمة في ذلك الوقت . كما نجح أولئك العرب في نشر الإسلام من الصين شرقاً إلى إسبانيا غرباً ، مما يعني أن نصف سكان العالم في ذلك الوقت قد قبلوا الدين الجديد وقاموا بتغيير أنماط حياتهم ولغتهم ونصوصهم المكتوبة بناء على ذلك . كما تعتبر الإنجازات التي حققها الإسلام في ذلك الزمان مذهلة إذا ما أخذنا في اعتبارنا أن صاحب الدعوة ، رسولنا الكريم محمداً - صلى الله عليه وسلم ، كان رجلاً أمياً . فبعد قرن واحد من الهجرة ، استطاع العرب الجاهلاء المتخلفون الذين اعتنقوا الإسلام وآمنوا بمبادئه ، بناء إمبراطورية قوية مترامية الأطراف . وبعد ذلك الانتشار المذهل للإسلام في قرونه الأولى ، تباطأ إيقاع ومعدل انتشاره ، على الرغم من بعض الجهود الناجحة التي بذلت في هذا المضمار .

ونحن نعرف من خلال قراءتنا للتاريخ أنه بعد خروج العرب من الأندلس عام ٤٩٢م ، بزغت شمس الإمبراطورية العثمانية في شرق أوروبا وآسيا الوسطى ، وساهمت في المحافظة على الإسلام ونشره لقرون عديدة قبل أن تضعف وتفقد دورها كمركز للإسلام وللإمبراطورية الإسلامية ، بل وتقوم بإعلان أنها دولة علمانية ليس لها علاقة بالإسلام ولا تتدخل في شئون العالم الإسلامي .

كان صعود نجم الدولة الإسلامية وأفوله في التاريخ مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بمدى تمسك المسلمين بدينهم الحنيف . فالعرب المتخلفون الجاهلاء استطاعوا عندما اعتنقوا الإسلام والتزموا بتعاليمه وساروا على نهجه ، أن يُنشئوا إمبراطورية كبرى . وعندما ضعف ارتباطهم بالدين وابتعدوا عن طريقه المستقيم وانخرطوا في صراع على السلطة ، مُتدرِّعين بأنهم

يقومون بذلك باسم الدين ، اعتراهم الضعف وانكسرت شوكتهم ، وخضعوا للأمم والشعوب الأخرى .

وفى أتون تلك الصراعات تم اغتيال ثلاثة من الخلفاء الراشدين ، ولم ينج من ذلك المصير سوى سيدنا أبى بكر الصديق -رضى الله عنه ، وهو معروف فى التاريخ بأنه رجل متواضع ، لم يعرف التكبر طريقاً إلى نفسه . وعندما نودى به خليفة للمسلمين ، طلب من الناس أن يقوموه إذا أخطأ ؛ لأنه بشر وليس نبياً ، والبشر مُعرضون للخطأ .

أما اغتيال سيدنا عمر بن الخطاب وسيدنا على بن أبى طالب ، فقد جاء نتيجة أن بعض المسلمين كانوا غير راضين عن توليها الخلافة . فعندما نودى بسيدنا على بن أبى طالب خليفة للمسلمين ، كانت هناك معارضة قوية من جانب الكثير من الناس فى ذلك الوقت ، وأدى ذلك إلى قيام الصراع بين أنصار على بن أبى طالب من ناحية وأنصار معاوية بن أبى سفيان من ناحية أخرى ، ذلك الصراع الذى انتهى باغتيال سيدنا على بن أبى طالب . وأدى ذلك إلى انقسام فى صفوف المسلمين ما زال مستمراً إلى يومنا هذا بين السنة والشيعه . كانت الخلافات بين السنة والشيعه شديدة بسبب ادعاء أنصار كل مذهب أنهم أصحاب الفهم السليم للإسلام . والسؤال الذى يتبادر إلى الأذهان فى هذا السياق هو : كيف انقسم الإسلام الذى بشر به الرسول الكريم سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم ، إلى مذهبين تفصل بينهما خلافات كثيرة؟ المؤكد أن مذهباً من هذه المذاهب لا صلة له بالدين الإسلامى ، أو بما كان كلاهما لديه تفسير وفهم مختلف للدين ، قد يكون صحيحاً أو غير صحيح . غير أن الشئ الواضح وضوح الشمس من خلال قراءة وقائع التاريخ الإسلامى هو أن ذلك الصدع الخطير الذى مزق تماسك الأمة الإسلاميه ، إنما حدث نتيجة الصراع على السلطة لرغبة أشخاص بعينهم فى تولى منصب الخلافة بصرف النظر عن أحقيتهم فى ذلك .

وبقى التفسير المختلف للإسلام مستمراً بعد ذلك ، سواء أكان السبب هو المشاكل التى جاءت بها العهود المتغيرة أم القيادات السياسية المتناحرة فى المذهبين : السننى والشيعى . وفى

غضون ذلك ، استمر العلماء فى إصدار الفتاوى والأحكام ، فى وقت قام فىه بعضهم بتقديم فتاويهم الخاصة وإنشاء طوائفهم وطرقهم المختلفة . وفى سبيل إثبات صحة ما يدعون قام بعضهم بدسّ أحاديث لأساس لها من الصحة .

وبعد مرور مائتى عام على الهجرة النبوية استطاع الإمام البخارى جمع قرابة ستمائة ألف حديث ، وقام بإثبات صحة سبعة آلاف منها ورفض نحو خمسمائة وثلاثة وتسعين ألف حديث رأى أنها غير صحيحة . وفى الوقت نفسه كان هناك أئمة وعلماء فى الإسلام مثل : الإمام مسلم والإمام الترمذى قبلوا عدداً أقل من الرقم الذى قبله الإمام البخارى وقد حدث ذلك ولم يكن قد مضى على بدء الرسالة المحمدية أكثر من مائتى عام فقط !

أما ما حدث بعد ذلك ، فهو قيام الكثيرين باختلاق أحاديث لم تكن موجودة فى الأصل ، وتعددت الآراء والتأويلات والفتاوى المؤيدة لهذا الحديث أو ذاك . بعض تلك الأحاديث تمت معارضتها بواسطة علماء جاءوا فى عهود لاحقة ، ولكن ذلك لم يحل دون قيام البعض بالاستمرار فى إصدار الفتاوى دون أن يكونوا مؤهلين لذلك ، ودون مراعاة للقواعد والأسس الصحيحة لإصدار الفتوى كما حددها الدين الإسلامى الحنيف .

ومن هنا تحديداً نشأت التفسيرات المختلفة للإسلام ، والحقيقة أن المسلمين وجدوا أنفسهم طوال الأربعة عشر قرناً الماضية مُمزقين بين تعاليم إسلامية مختلفة يدعى صاحب كل منها صحة ومطابقة موقفه مع الأحكام الإسلامية الصحيحة فقد ظهر نحو ألف طائفة تتراوح بين جماعات تفسر الإسلام من منطلق ضيق متزمت يرفض المعطيات الحديثة جملة وتفصيلاً ، ويطلب بإعادة إنتاج واقع الأمة الإسلامية كما كان منذ ١٤٠٠ سنة فى عهد النبى عليه أفضل الصلاة والسلام وأصحابه الكرام ، وبين أخرى تقوم بتهميش الإسلام وتنادى بتبنى العلمانية ، ونتيجة لذلك وقع المسلمون فى حيرة بالغة ، وأصبحوا غير قادرين على معرفة الصواب من الخطأ والحق من الباطل ، وانتهى الحال ببعضهم إلى مجانبة العقل والابتعاد عن الطريق القويم أثناء المسيرة .

فهل يستطيع مثل هؤلاء المسلمين أن يواجهوا التحديات التي سيأتي بها القرن الحادى والعشرين ، والتي بدأت تُسفر عن عالم على شكل قرية كونية صغيرة تهيمن عليها تقنيات المعلومات المتطورة والصواريخ وأشعة الليزر وسفن الفضاء والقنابل الذرية؟ وفى عالم تسيطر عليه القوى العظمى التي لا يوجد بينها قوة واحدة مسلمة . . عالم تسود فيه المظالم ، ويُذبح فيه المسلمون الذين لا حول لهم ولا قوة على أيدي أعدائهم ، ويتم فيه عزل دول إسلامية وفرض الحصار عليها وترك شعوبها تتضور جوعاً ، ويحارب فيه المسلمون بعضهم بعضاً ، ولا يعرفون أين الخطأ وأين الصواب فيما يتعلق بأمور دينهم وفهمهم للإسلام ، ويعانون فيه من الضعف والفقير والتخلف؟ هل يستطيع المسلمون فى ضوء كل ذلك أن يتوقعوا أى خير أو أن ينتظروا أى أمل من القرن الحادى والعشرين؟ الإجابة على كل تلك التساؤلات هي أن على المسلمين ألا يتوقعوا أى خير أو يتوهموا أنهم سيحظون بأى فائدة ، وإنما الحقيقة هي أنهم سوف يصبحون أكثر ضعفاً ، وسوف يتم قهرهم وإعادة استعمارهم ، سواءاً أكان ذلك بشكل مباشر أم غير مباشر .

غير أن الأمة الإسلامية لا تستحق أبداً هذا المصير . **والحقيقة أن المشكلة ليست فى الإسلام وإنما فى المسلمين** . فلو عدنا إلى صفحات التاريخ ، سنرى أن التقدم والإنجازات التي حققتها الدولة الإسلامية فى أول عهدها كانت محصلة ونتيجة لحقيقة مهمة مؤداها أنه لم يكن هناك فى ذلك الوقت تفسيرات متناقضة للإسلام ، ولا أحاديث غير صحيحة ، ولا فتاوى ضحلة تؤدي إلى تفريق المسلمين وعدم معرفتهم بالصواب والخطأ وتتسبب فى جرفهم بعيداً عن الصراط المستقيم .

لذلك استطاع المسلمون فى ذلك الوقت أن يوسعوا مداركهم بالانخراط فى دراسة العالم الذى كانوا يقودون خطاه . ولم يكتف المسلمون بذلك ، بل قاموا بترجمة علوم الآخرين ، واستفادوا منها ، ثم أضافوا إليها من عندهم ، مما مكّنهم من التفوق فى مجال العلوم على كافة الأمم والحضارات التي كانت موجودة فى ذلك الوقت . واستطاع المسلمون

إلى جانب ذلك ابتكار علوم جديدة مثل : علم الفلك والجبر واللوغاريتمات والملاحة والصيدلة وفروع عديدة من علم الحساب والرياضيات ، كما برع المسلمون في استخدام المعادن لدرجة أن مدينة كدمشق كانت معروفة بأنها تتوفر على أفضل صناعة في مجال الحديد والصلب لإنتاج الأسلحة . كانت دراسة تلك العلوم والمعارف مُيسرة آنذاك نظراً لعدم وجود حواجز أو موانع تحول دون ذلك ، كما لم تكن هناك أوامر بأن المسلمين مسموح لهم فقط بتعلم الدراسات الإسلامية وليس غيرها .

كان المسلمون في ذلك الوقت يهتدون بما جاء في القرآن الكريم من ضرورة قيام المسلم بدراسة كل شيء خلقه الله - سبحانه وتعالى - من الجبال والتلال والأرض والسماء والمطر والنبات والحيوان والملابس ، إلى القمر والنجوم والليل والنهار والطقس والمناخ وغيرها من آيات خلق الله . كان النظر في العلوم في ذلك الوقت لايعنى النظر بمعناه الحرفي فحسب ، وإنما كان يعنى التعمق في دراستها للخروج منها بفوائد للبشر .

ونجد في هذا السياق الحكمة القائلة : «اطلبوا العلم ولو في الصين» والتي يقول عنها أعداء الإسلام أنها مجرد كلمات تفوّه بها رجل مسلم ، ولم تكن أمراً إلهياً . فعندما يوجد حديث مُعين لا يوافق عليه هؤلاء ، كانوا يسارعون دائماً إلى التهجم عليه ورفض اعتباره مصدراً من مصادر التعاليم الإسلامية . أما الأحاديث التي أدخلوها ، فإنهم لا يتوقفون عن اقتباسها مراراً وتكراراً حتى ولو كانت صحتها أمراً مشكوكاً فيه . فالملوك قد أن طلب العلم ولو في الصين ليس مقصوداً به العلم والمعرفة الإسلامية ؛ لأن الصين كانت في ذلك الوقت الذي عاش فيه الرسول -صلى الله عليه وسلم ، معروفة بأنها صاحبة حضارة عظيمة ذات معارف وعلوم متطورة وخصوصاً في مجالات الطب والأدب وصناعة الورق والمتفجرات وغير ذلك كثير .

ونظراً لأن المسلمين في ذلك الوقت اقتدوا بالرسول الكريم ، ويتعاليمه وسنته ، فإنهم استطاعوا تحقيق الكثير حتى أصبحوا يُعرفون بالمهارة والكفاءة والقدرة على فهم نعم الله

لتسخيرها لمصلحتهم ومن أجل الأمة الإسلامية ، وهذا هو السبب الذى جعلهم ينجحون فى بناء دولة عظيمة تزخر بمعاهد العلم والصناعات والنشاط التجارى ، وتقوم بتطوير الزراعة باستخدام أساليب هندسية جديدة .

لكننا لسوء الحظ نجد أن الذين يعارضون الأسلوب الذى تمت به ممارسة التعاليم الإسلامية فى العهد الإسلامى الأول خلال سنوات التقدم والإزدهار ، يرفضون كل المعارف وضروب العلوم المستحدثة ويضعون علامات استفهام عليها بدعوى أنها مخالفة للأحكام الإسلامية ، فمنعوا المسلمين من دراستها .

وبعد ذلك ، ظهرت فئة من المتنفعين الذين قاموا بإصدار ونشر فتاوى تؤيد ما ذهب إليه العلماء السابقون بشأن تعارض بعض العلوم مع الإسلام ، مما أدى إلى تشبيط همّة المسلمين وصدّهم عن دراسة تلك العلوم . ووصل الأمر إلى حدّ التوقف عن تزويد معاهد العلم بالكتب الخاصة بالعلوم والفلسفة غير المتخصصة فى الإسلام . كما توقف أولو الأمر عن بناء مكتبات جديدة ، وعن تزويد ما هو موجود منها بالكتب المتخصصة فى الموضوعات والعلوم التى تفوقت فيها الأمم الأخرى ، بل وصل الأمر إلى حدّ إحراق الكتب التى صنفت بأنها ضدّ تعاليم الإسلام ، بواسطة أعداء العلم والتقدم .

كما احتدمت المناقشات واشتدّ الجدل فيما يتعلق بتعريف المقصود بالعلوم الإسلامية ، وتحديد القوانين والأنظمة الإسلامية المتعلقة بتعريف الجرائم فى نظر الإسلام ، وهكذا تجمّد الفكر الإسلامى وعجز المسلمون عن مواصلة التقدم بسبب القوانين القائمة على التعسف فى التفسير وضيق الأفق الفكرى .

وفى مناطق معينة فى شمال إفريقيا ومناطق أخرى عديدة ، ظهر أشخاص يدعى كل منهم أنه المهدي المنتظر ، وأنه سيقوم بتطهير الإسلام مما علق به من تعاليم وممارسات خاطئة قبل أن يأتى يوم القيامة . وقام هؤلاء بمحاربة أى مسلم لم يعترف بهم ، وفى إسبانيا نجح هؤلاء فى الإطاحة بالحكومة الإسلامية وقاموا بفرض تعاليمهم المشددة الضيقة الأفق ، مما

أدى إلى تخلف المسلمين وإضعافهم وطردهم فى النهاية من إسبانيا ، ثم من شمال إفريقيا ذاتها .

وتاريخ الإمبراطورية العثمانية لا يختلف فى تفاصيله عن ذلك ، حيث أدت سيطرة بعض العلماء ذوى المصالح الشخصية على السلاطين العثمانيين ، إلى صعوبة تكيف الإمبراطورية العثمانية مع مستجدات الزمن ، مما أدى فى نهاية المطاف إلى إضعاف الجيش العثمانى وإلى تدخُّله فى شئون الحكم ، وانخراطه فى جدل عقيم حول الزى العسكرى والأسلحة والى صدرت فتاوى من بعض العلماء تصفها بأنها غير إسلامية . وأدت تلك الأوضاع فى النهاية إلى سقوط الإمبراطورية العثمانية أمام القوى الأوروبية وإلى تحول تركيا إلى دولة علمانية .

لقد سقطت الإمبراطوريتان : العثمانية والعربية ؛ لأنهما رفضتا العلوم الحديثة بحجة أنها تتعارض مع الدين الإسلامى ، مما أدى فى النهاية إلى عجز المسلمين عن الاستجابة لمقتضيات التغيير الذى كان يمضى بخطى متلاحقة فى العالم بأسره .

والآن ، ونحن نلج القرن الحادى والعشرين الحافل بالتحديات مثل : التكنولوجيا الحديثة وتكنولوجيا المعلومات التى ستقوم بتغيير أنماط حياة البشر تغييراً جذرياً ، لن يكون بمقدور أحد أن يعزل نفسه عن التكنولوجيا المتطورة وعن العالم . فالناس أصبحوا الآن قادرين على السفر إلى أبعد نقطة فى الدنيا فى أقل من يوم ، ويستطيعون الاجتماع مع بعضهم بواسطة تكنولوجيا الاتصالات الحديثة مهما تباعدت بينهم المسافات ، كما لو كانوا يجلسون فى غرفة واحدة . واختفت الرسائل البريدية العادية وحلت محلها الرسائل الإلكترونية ، وسوف يستطيع أولئك الذين يملكون المعلومات والخبرة والمعرفة الفنية اللازمة لاستغلالها ، سوف يستطيعون السيطرة على مقدرات العالم والتحكم فى شئونه السياسية والاقتصادية . وينفس المعيار سوف يكون النصر فى الحروب من نصيب أولئك الذين يمتلكون أحدث المعلومات ولديهم القدرة على استخدامها .

كما سيستطيع أولئك الذين يملكون الخبرة والمعرفة والمعلومات فى مجالات معينة أن يخرعوا أشياء تشبه السحر ويستطيعون أيضا أن يفعلوا أى شىء يريدونه فى هذا العالم بما فى ذلك قهر المسلمين والدول الإسلامية .

فى البوسنة والهرسك سمح هؤلاء بإيادة المسلمين إيادة جماعية فى وضح النهار ، ولم يكتفوا بذلك ، بل قاموا بمصادرة الأسلحة التى يمتلكها المسلمون ؛ لإتاحة الفرصة لأعدائهم لقتلهم دون أى عناء ، ودون أى مقاومة ، وقد تكرر هذا السيناريو نفسه فى الشيشان وباكستان وجنوب آسيا .

وعندما حدثت هذه المظالم ، كان المسلمون فى أسوأ حالاتهم ، وغير قادرين حتى على التعبير عن احتجاجهم ورفضهم لما يحدث لهم . هذا هو حال المسلمين اليوم ، وسوف يستمر على ما هو عليه ماداموا مستمرين فى رفض تعاليم الإسلام الصحيحة التى تكسبهم القدرة على الدفاع عن أنفسهم ، وتجعلهم يسعون لاكتساب المعارف التى تؤهلهم لذلك ، وسوف يستمر الحال كذلك ، طالما أن المسلمين لم يعملوا للدينامهم ولآخرتهم والتزموا بأوامر الإسلام وابتعدوا عن نواهيه ، وجعلوا السعى والعمل هدفهم ، وتقوى الله عز وجل دستورهم .

لا يختلف اثنان على أن المعرفة بأمر الدين أمر مطلوب ، ولكن ذلك لايعنى بأى حال من الأحوال أن يقتصر العلم على التخصص فى الأمور الدينية فقط ، مع إغفال باقى العلوم والمعارف التى تحقق تقدم المسلمين ورفيهم فى مدارج الحضارة . ولذلك فإن السؤال الذى يطرح نفسه فى هذا السياق هو : أليست المعرفة بالأمور الأخرى (غير الدينية) مطلوبة لإنقاذ المسلمين مما يجابههم من مصاعب ومظالم على أيدي غير المسلمين؟ ألا يشعر المسلمون بالذنب ؛ لأنه لا يوجد بينهم خبراء فى الميادين والمجالات التى يمكن أن تنقذ الأمة الإسلامية من الواقع الأليم الذى تردت إليه؟ أليس المسلمون هم السبب فى عدم وجود قوة إسلامية عظمى واحدة فى العالم؟ أليس المسلمون مخطئون عندما يقومون برفض إخوانهم

فى الإسلام ويخلقون العداوات بين صفوفهم بسبب ضعفهم وشعورهم بالإحباط؟ أليس المسلمون هم السبب فى انحراف بعض المسلمين عن طريق الدين القويم واتجاههم إلى طريق العلمانية والإلحاد بسبب ما يشعرون به من خيبة أمل نتيجة لما يرونه من ضعف المسلمين وتمزقهم؟

إننا نتفق مع القائل بأن المعرفة وحدها ليست ضمانة كافية لإفقاذ الأمة الإسلامية من محتتها ؛ لأن الأمر يتطلب بعد ذلك ، بل وربما قبل ذلك ، التمسك بالعديد من التعاليم الإسلامية الأخرى المهمة ، واتباع النهج الإسلامى القويم فى السلوك والعمل . والإسلام يحث أتباعه على المحافظة على أوامر الأخوة بينهم ، ولكن ما نراه فى الواقع هو العكس تماماً ، حيث نجد المسلمين يقاتلون بعضهم بعضاً ، لأن بينهم فئة تدعى الوصاية على الإسلام ، وتزعم أنها الوحيدة التى تفهم الإسلام بالطريقة الصحيحة ، وتحكم بتكفير الفئات الأخرى فى الأمة الإسلامية وتتهمها بالمروق والردة .

إن ذلك يحدث فى جميع الدول الإسلامية دون استثناء . فى ماليزيا مثلاً يدعون أنهم المسلمون الحقيقيون وأن الآخرين مارقون أو خارجون عن الإسلام . والقرآن الكريم يدعونا إلى الصبر ، ولذلك فإننا لا بد أن نصبر لأن الجهود الرامية لإعادة تأهيل المسلمين واسترداد قوتهم سوف تستغرق زمناً طويلاً . إن هذه الجهود تحتاج إذا ما أريد لها النجاح ، إلى استقرار سياسى وكفاءة إدارية وإتقان للعلوم الحديثة وإمكانيات مادية وصناعات متطورة ، وتطوير للقدرات الدفاعية القادرة على حماية الأمة والذود عن الحمى ، وبالرغم من دعوة الإسلام إلى التمسك بالصبر ، إلا أننا نرى الكثير من المسلمين وخصوصاً المتطرفين منهم يضيقون عند كل محنة ويميلون إلى القيام بممارسات يغلب عليها الانفعال والتسرع ، مما يؤدى بهم إلى إهدار ما تبقى من قوة لديهم دون تحقيق أى نوع من التقدم والتنمية . وليت الأمر يقتصر على ذلك ، بل إنهم يتسببون بما يقومون به من تمرد على السلطة ، وإثارة القلاقل والاضطرابات بتهديد استقرار الدول الإسلامية ، وخلق حالة من الفوضى بها ، مما يؤدى فى النهاية إلى المزيد

من الإضعاف لقوة المسلمين . وعندما يقوم المتطرفون بذلك فإنهم يقومون بطريقة غير مباشرة أو غير واعية بالتآمر مع أعداء الإسلام وفي مقدمتهم الصهيونية العالمية ضد المسلمين وأمتهم الإسلامية .

وبسبب أولئك المتطرفين ، يصعب علينا أن نجد دولة إسلامية قادرة فعلاً لا قولاً ، على مواجهة تحديات القرن الحادى والعشرين . ففي الوقت الذى يزداد فيه أعداء الإسلام قوة ، وفي الوقت الذى تزداد فيه الدول الكبرى غطرسة وتكشف عن رغبتها فى قمع المسلمين ، نجد المسلمين يتقلون من ضعف إلى ضعف ، ومن تخلف إلى تخلف ، ومن تمزق إلى تمزق مما يتيح الفرصة لأعداء الإسلام لاستغلال هذا الوضع ، لإلحاق المزيد من الضرر بقوة المسلمين .

الأمر الذى يدعو للاستغراب هو أن أولئك المتطرفين ، وبعد كل ما سببوه لمجتمعاتهم من ضرر وأذى ، وكل ما ألحقوه بها من ضعف وتمزق ، يُلقون بتبعة تمزقهم وعدم وحدتهم وانقسامهم إلى شيع وأحزاب ، يلقون بتبعة ذلك على أعداء الإسلام ، بينما الحقيقة هى ، إذا ما أخذنا بصحة ذلك ، أنهم هم الذين أوصلوا الدول والمجتمعات الإسلامية إلى ما تعاني منه حالياً من تردّد وتخلف . وعلى هذه الخلفية يمكن للبعض أن يتساءل عن طبيعة الإصلاحات المطلوبة من قبل المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، والتي يمكنها أن تساهم فى دعم المسلمين وجعلهم على أهبة الاستعداد لدخول القرن الحادى والعشرين وتحقيق النجاح فى جميع المجالات .

إن الإصلاحات المطلوبة هى تلك الكفيلة بعودة المسلمين إلى تعاليم الإسلام الصحيحة البعيدة عن التحريف والتأويل والفتاوى الغريبة التى لا أساس لها ، والتي كان لها أثر خطير على الإسلام والمسلمين على مدى الألف والأربعمئة عام الماضية منذ الهجرة النبوية الشريفة . إن تلك الإصلاحات يجب أن تكفل عودة المسلمين إلى تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية فى صورتها النقية أيام الرسول -صلى الله عليه وسلم ، والتمثل بالطريقة

السديدة التي تمكّن بها الرسول الكريم وصحبه من الخلفاء الراشدين ، من معالجة المشاكل والعقبات التي وضعها كفار قريش في مكة ، وكيف أخى بين المهاجرين والأنصار في مجتمع المدينة ، بالإضافة إلى تفهم الفلسفة الكامنة وراء الكفاح السياسي والعسكري للمسلمين ، من أجل فتح مكة .

إن الأمر الواضح وضوح الشمس في تعاليم القرآن الكريم وسنة نبيه هو أن التآخي بين المسلمين له أهمية قصوى تتفوق على ما عداها . فالمسلم لا ينبغي له أن يشن الحرب أو يرفع السلاح ضد أخيه المسلم بسبب اختلاف في رأى بشأن مسألة لها علاقة بالدين الإسلامي الحنيف . وخلال حياة الرسول -صلى الله عليه وسلم ، تحققت الأخوة الإسلامية في أسمى معانيها وأبهى صورها . فمن المفهوم أنه كان يمكن وقتئذٍ إحالة جميع المسائل التي يختلف عليها المسلمون إلى الرسول لوضع الحلول لها . . ولكن التعاليم الإسلامية دعت المسلمين إلى حل ما ينشأ بينهم من اختلافات ومنازعات عن طريق التشاور والتناصح فيما بينهم . فجميع الأطراف لها الحق في التعبير عن رأيها ، ولكن الرأى الذي يتم التوصل إليه والاتفاق عليه في نهاية المطاف هو الرأى الذي يجب على الجميع أن يمتثلوا له . ولم يكن بمقدور أحد ، حتى بين الخلفاء الراشدين أنفسهم أن يقوم باتخاذ القرار بشكل فردي ، وفرضه على الآخرين طوعاً أو كرهاً .

ولم تقم أى من الجماعات الصغيرة التي كانت موجودة في ذلك الوقت ، بالتمسك بتعاليمها وتبوايلاتها الخاصة بالإسلام ، ولم تحاول فرض ذلك على باقى جماعات المجتمع وفتاته عن طريق العنف والإرهاب كما يحدث في يومنا هذا في الدول الإسلامية في مختلف أنحاء العالم . كانت جميع الفئات الموجودة في ذلك الوقت تتصف بالتسامح ، والرسول عليه الصلاة والسلام نفسه ، لم يقم بفرض آرائه على أفراد أسرته الذين لم يهتدوا إلى الدخول في الإسلام .

كان المسلمون في عهد الرسول -صلى الله عليه وسلم يتحلون بالصبر والشجاعة

والنظام والولاء للرسول ، ولم يتم منع المسلمين في تلك الأيام عن العمل ، حتى في أيام الجمعة ، وذلك حتى يمكن الوصول إلى الحكمة الدنيوية وتحقيق الثروة الحلال . وكان أولئك المسلمون مكلفين بمهمة الدفاع عن الإسلام والمسلمين وكان تحقيق الأمن والطمأنينة هدفاً في حد ذاته ، يتعين تحقيقه بصرف النظر عن الأسلحة التي يتم استخدامها في ذلك ، أو الطريقة التي يتم استخدامها بها . ولذلك عندما كانت الضرورة تستدعي استخدام معدات مختلفة ، كان يتم اختراعها واستخدامها من أجل تحقيق الأمن للمجتمع المسلم . وإذا ما استدعى ذلك معرفة بعض العلوم الضرورية ، فإن تلك العلوم كان يجب أن تُدرس من أجل تحقيق الهدف الأكبر .

ولإتقاد المسلمين من الوضع الحالي الذي تردوا فيه ، يحتاج الأمر كذلك إلى حكومة قوية ومستقرة يتم اختيار قيادتها عن طريق الشورى وهي طريقة ديمقراطية ، وليس عن طريق بث الرعب في نفوس المسلمين بنشر تعاليم لا أساس لها من الصحة .

سوف تستمر الاختلافات في الرأي وفي تفسير التعاليم الإسلامية بين المسلمين ، وإذا ما كان الأمر يستدعي عودة الضالين إلى جادة الصواب ، فإن ذلك يجب أن يتم عن طريق الشورى وليس عن طريق الضغط والقمع والظلم . وإذا لم يكن الوصول إلى اتفاق في بعض الحالات ممكناً ، فإن التسامح والصبر وضبط النفس يجب أن تكون هي الأدوات المستخدمة لإيجاد مخرج من مثل هذا المأزق ، أما اللجوء إلى القوة في حل المنازعات ، فلن يجلب إلا الفرقة والانقسام في صفوف المسلمين . ولن يؤدي إلى شيء سوى خلق اضطرابات دائمة لا تنتهي أبداً ، وهو أمر يجب تفاديه في جميع الأحوال .

خلاصة القول ، إننا إذا ما أردنا أن نواجه القرن الحادي والعشرين بكل ما يحفل به من تحديات ، فينبغي علينا أن نسعى إلى إجراء الإصلاحات المطلوبة لمواجهة مطالب عصر المعلومات ، والتي تتمثل في التأكيد على قيم الإسلام ومبادئه الأصيلة ، وقيمه السمحاء الخالية من كل ما من شأنه زرع بذور الفرقة والانقسام في أرض الإسلام ، مع ضرورة الحرص

على تجنب التأويلات والتفسيرات الدينية التي لا تستند إلى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة .

يجب علينا ألا نغمض أعيننا عن حقائق العصر الجديد ؛ لأن قيامنا بخداع أنفسنا والتعامى عن حقيقة الوضع سوف يؤدي إلى فشلنا في التكيف مع مستجدات هذا العصر ، وأوضاعه المتغيرة وتحدياته الصعبة . إن الإصلاح الرئيسى المطلوب منا بوصفنا مسلمين هو إصلاح الفكر ، وتصحيح الأفكار بالنسبة لأولئك الذين سقطوا فى براثن التعاليم الخاطئة البعيدة كل البعد عن الإسلام ، والتي لا تؤدى إلا إلى زرع الفرقة والاضطراب فى صفوف المسلمين .

الفصل الرابع عشر التعاون لإحداث النمو الاقتصادي*

نلتقى اليوم بإسطنبول ، هذه المدينة التاريخية التي كانت مهداً للإمبراطوريات قبل نهاية الدولة العثمانية والتي أفسحت المجال لقيام تركيا الحديثة ، والتي تتمتع بديناميكية عالية تؤهلها لاستعادة أمجاد تلك الإمبراطورية .

لقد صاغ الزعيم التركي كمال أتاتورك رؤية واضحة المعالم ، استشرفت آفاق تطور تركيا الحديثة ، ولم يترك للحكومات التركية الوطنية المتعاقبة إلا المضي قدماً باتجاه تحقيق أهداف تلك الرؤية ، وإننى على يقين تام بأن القيادات التركية الحالية لن تخذل الآباء فى النهوض بأرض الأجداد . نحن سعداء بأن ترتبط بتركيا فى نضالنا وأن نعمل سوياً بجمعية دول أخرى لخوض غمار معركة طويلة تهدف فى نهاية المطاف إلى تحقيق رؤانا وأحلامنا وأشواقنا المشتركة .

هناك عاملان مشتركان يربطان بين أعضاء مجموعة الدول الثماني أولهما : أن كل أعضاء هذه المجموعة من الدول النامية التى تعمل لتقدم بلدانها وشعوبها والوصول بها إلى مراحل متقدمة من التنمية ، وثانيهما : أن المسلمين يغلبون على سكان دول المجموعة .

هناك أيضاً مجموعة من البلدان الإسلامية التى يمكن إدراجها ضمن مجموعة الثماني ، غير أن توسع عضوية المجموعة غالباً ما يتسبب فى إبطاء خطى التعاون بين الأعضاء ويعرقل مسيرته .

* كلمة ألقيت فى القمة الأولى لمجموعة الدول الثماني النامية بمنظمة المؤتمر الإسلامى - إسطنبول - تركيا ، فى ٢٢ أغسطس ١٩٩٧ م .

وبالرغم من أن ماليزيا تقف في الوقت الحالى مع عدم توسيع عضوية المجموعة ، إلا أن ذلك الموقف لا يعنى أبداً أنها تدعو إلى الانغلاق أو حصر عضوية مجموعة الثماني الإسلامية على دول بعينها ، بقدر حرصها على الإبقاء عليها فاعلة وقادرة على تحقيق الأهداف التى أنشئت من أجلها . إننى على يقين من أن عضوية المجموعة ستفتح لبقية الدول الإسلامية الأخرى بمجرد إحراز التقدم الكفيل بدفع مسيرة المجموعة إلى الأمام ، كما نؤكد أن قصر العضوية حالياً على ثمانى دول فقط لم يقصد منه استثناء أية دولة بعينها أو الإساءة إليها .

لقد أصبح تعزيز التعاون بين الدول هو الصيغة الشائعة لتسريع معدلات التنمية والتقدم ، ونلاحظ أن الدول المتطورة نفسها أصبحت أكثر ميلاً لإنشاء تكتلات وتجمعات بينها بغية توسيع اقتصادياتها . وهناك إجماع واسع على أن رفع مستوى معيشة المواطنين وجلب الرفاه لهم ، قد أصبح من أهم الأهداف التى تسعى الحكومات الوطنية إلى تحقيقها ، وإن هذه الغاية لا يمكن إدراكها إلا من خلال تحقيق التنمية الاقتصادية وتفعيلها .

ولاشك أن دولاً نامية مثل دولنا ، بحاجة أكثر إلحاحاً للتعاون البنين لتحقيق التنمية الاقتصادية ؛ نظراً لأن شعوبنا ليست بحاجة حالياً إلى الرفاه والوفرة والترف بقدر ما هى فى أمس الحاجة لضرورات الحياة الأساسية التى تحفظ لها كرامتها مثلها مثل المجتمعات البشرية الأخرى .

يبلغ تعداد سكان مجموعة الدول الثماني الإسلامية النامية نحو : ثمانمائة مليون نسمة . صحيح أن فى العدد الكبير من السكان مظهراً من مظاهر القوة ، لكنه ، وبفلس القدر ، يمكن أن يكون نقطة ضعف .

إن مساهمة هذا العدد الكبير من البشر فى تعزيز قوة دول المجموعة أو إضعافها ، يعتمد - إلى حد كبير - على حكوماتنا الوطنية المسئولة بالدرجة الأولى عن إحداث التنمية فى بلداننا . وإذا نظرنا إلى التجربة الخاصة ببلادنا ، سنجد أن ماليزيا البالغ عدد سكانها ٢٠ مليون نسمة ، وهى الأقل تعداداً وسط دول المجموعة ، قد نجحت فى معالجة كثير من المصاعب

وتجاوزت عقبات عديدة كانت تعترض مسيرتها التنموية ، وقد تمّ كل ذلك بفضل محدودية تعداد السكان فيها .

نحن لا ندعى أننا ندرك الكيفية التي تقود بها عدداً كبيراً من السكان ونعالج بها قضاياهم سيما أننا في الوقت الحالى بصدد اتخاذ مزيد من الإجراءات التي تعزز المسيرة الديمقراطية في البلاد ووضع السلطة في يد الشعب . إن زيادة عدد السكان تعنى المزيد من التباين في الرؤى ووجهات النظر التي يصعب التوفيق بينها ، وتجربتنا في هذا المضمار ليست كبيرة ولم تنضج بعد علماً بأن أى إخفاق في إدارة النظام الديمقراطي وتعزيز الاستقرار السياسى ، سيؤدى حتماً إلى تهديد التقدم الاقتصادى فى البلاد .

هذا بالطبع ليس اقتراحاً بالتخلي عن النظام الديمقراطي ، لكن طالما أن الوقت لا يسمح بأن نقف مكتوفى الأيدي إلى أن تتعلم شعوبنا الطريقة التي توفر أسباب النجاح للنظام الديمقراطي ، علينا إذاً ألا ننتظر ، ولنبدأ باقتحام التجربة لتتيح لمواطنينا الاستفادة منها لمعرفة أسباب نجاح النظم الديمقراطية وأوجه القصور فيها .

ولعل من المفيد التذكير بأن صلاحية أى نظام للحكم تعتمد على صلاحية القائمين عليه ، وأن النظام الجيد لن يقود إلى الأهداف المحددة له لمجرد كونه جيداً ، وإن ملائمة النظام الجيد وفعاليته تتوقفان على مدى قدرات المسئولين عن تطبيقه وكفاءتهم وسعة أفقهم .

وباستقراء تجارب عديدة نلاحظ أن الحريات الديمقراطية فى عدد كبير من بلداننا الإسلامية غالباً ما تقود إلى الفوضى وعدم المسئولية ؛ لأن الحكومات المنتخبة لا تجد فرصة كافية فى الحكم لتنفيذ برامجها ؛ إذ يُطاح بها بواسطة الاضطرابات المطالبة والتظاهرات وأعمال الاحتجاج . وعندما تجرى الانتخابات وتشكل حكومة جديدة ، تنتهى إلى المصير نفسه .

صحيح أن للنظم الديمقراطية مزايا إيجابية كثيرة ، لكننا لا نجنى منها إلا الفوضى التي

لا توفر مناخاً ملائماً لإحداث التنمية . ونلاحظ في هذا المقام أن الدول المتطورة قد لا تحتاج إلى حكومات لتقود عملية التقدم فيها ، بينما نجد أن البلدان النامية التي تعيش في حالة مستمرة من الفوضى والاضطرابات ، لا يتوقع منها النهوض بشعوبها من مستنقع التخلف الاقتصادى .

لقد تم الزجّ بنا في أتون معركة اضطرتنا لقبول النّظم الديمقراطية بحسب تعريفها عند الدول المتطورة القوية التي تتوفر على إمكانات أكبر لمجابهة واحتواء الأزمات المتلاحقة ، التي تطرحها تلك النّظم .

نحن إذاً مُطالِبون بالعمل على بلورة وصياغة النّظم الديمقراطية الخاصة بنا والتي تكفل قبل كل شيء مبدأ الإطاحة بالحكومات المُنتخبة بواسطة صناديق الاقتراع بعيداً عن الوسائل الأخرى ، على أن يُتاح لكل حكومة إدارة شؤون البلاد لدورة انتخابية كاملة . أما إذا فشلت الحكومة في إدارة البلاد وعجزت عن تلبية طموحات جماهيرها ، فينبغى إقصاؤها عن الحكم بواسطة صناديق الاقتراع أيضاً في الانتخابات التالية .

في مقابل ذلك ، لا بدّ للحكام من أن يدركوا أنهم ليسوا مُخلّدين في مقاعد الحكم ، وأن مصلحة الشعب فوق كل اعتبار . وفي هذا السياق ، يأتى لقاءنا الحالى بغرض تنشيط وتعزيز التعاون بين بلداننا الأعضاء في مجموعة الدول الثماني الإسلامية النامية . ويرأى إن قضية حماية وتأمين النّظم الديمقراطية السائدة في بلداننا ، ينبغى أن تحظى في أعمال اجتماعاتنا بالأولوية التي تستحق .

إننا نؤمن بأنه لا بدّ من أن نحكم شعوبنا بواسطة نُظم ديمقراطية ، لكن ينبغى في الوقت نفسه أن تكون تلك النّظم خاصة بنا ومُستوحاة من بيئتنا ؛ نظراً لأن الديمقراطية الليبرالية التي تلائم بعض الدول ، قد لا تكون كذلك في مجتمعات أخرى لها ظروفها الخاصة . ومما لا شك فيه أن الارتقاء بالوضع المعيشى لشعوبنا وجلب الرفاه والنمو لها ، أهم بكثير من كفالة حق بضعة أفراد في الإخلال بالأمن والسلم الاجتماعيين ، لالسبب إلا

للدعاية لأنفسهم والترويج لمصالحهم ، علمًا بأننا جربناهم في أكثر من مرة ، ولم يشبوا إلا فشلاً ذريعاً .

إن النظام الديمقراطي ليس قانونًا مقدسًا فهو من بنات أفكار البشر ، والبشر خطاءون ، وليس لأحد - أيا كان - الحق في أن يتهمنا بالهرطقة إذا ما رفضنا قبول تعريفه للأنظمة الديمقراطية .

ولابد من أن نؤكد أن بلدانًا نامية مثل بلداننا بحاجة إلى استقرار سياسي قبل أى شيء وأكثر من أى وقت مضى . نعم إن الإمبراطوريات أصبحت من مخلفات الماضي ، إلا أن الهيمنة السياسية والاقتصادية لم تتبدل ، وما زالت تمارس على نحو أشد ضراوة ، وإذا لم ننجح في ترتيب بيوتنا من الداخل ، واستمرت بلداننا على هذه الحال من الضعف السياسي ، فإننا سنعود القهقري وتصبح دولنا مستعمرة خاضعة للنفوذ الأجنبي من جديد . إن عدم الاستقرار السياسي يُضعف حتى الدول القوية اقتصاديًا ، بل يمكن أن يشل قدراتها على نحو تام . فما بالنا بدول مثل دولنا التي تعاني أصلاً من ضعف اقتصادى وعدم استقرار سياسى !

إننى لا أدافع هنا عن نظم حكم شمولية ولا أروج لها ، بقدر ما إننى أنادى بديمقراطية مثل تلك التى طبقت فى البلدان الغربية عندما كانت ديمقراطياتها فى طور الطفولة قبل أن تتجذر ويقوى عودها .

إننا لانطالب بأكثر من منحنا فرصة لتطوير ديمقراطياتنا حسب إيقاع تطور مجتمعاتنا دون أن يتدخل أحد ويسعى لفرض رؤاه على واقع لم ينضج بعد ، ولنا أسوة فى الديمقراطيات الغربية نفسها عندما كانت أقل ليبرالية ؛ إذ إنها لم تتعرض لتهديد من أحد قط ، ولم يسع الآخرون لإدانة ممارسات فيها يرون أنها لا تتفق مع روح الديمقراطية .

وعندما يتحقق الاستقرار السياسى فى دولنا يمكننا عندئذ أن نركز كل اهتمامنا

وجهدنا على تحقيق النمو والتنمية الاقتصادية وجلب الرفاه لشعوبنا . ورغم أنه بإمكان أى دولة من دولنا أن تنهض بعملية التنمية الاقتصادية بمفردها ، إلا أن تعزيز التعاون فيما بينها وتبادل الخبرات والمعلومات سيجعل من تحقيق النمو أمراً سهلاً وأقل تكلفة ، لكن ينبغي التأكيد على أنه لا توجد دولة مكمّمة بمفردها بكافة الجوانب المتصلة بعملية إدارة التنمية كلها . ونحن فى ماليزيا لانخجل من الاعتراف بأننا نقلنا تجارب عديدة من الشعوب الغربية ، وعملنا على تكييفها مع واقعنا ، وعندما ظهرت تجارب ناجحة فى المشرق لم نتردد فى التوجه بسياساتنا شرقاً للإفادة من تلك التجارب الجديدة ، كما أننا أفدنا إفادة قصوى من أخطاء الآخرين وتجنبنا الوقوع فى مزالق كثيرة . وما زلنا نبحث فى كل مكان لتتعلم من تجارب الشعوب التى سبقتنا . ومن هنا يأتى ترحيبنا وحماسنا للانضمام لعضوية هذه المنظمة (مجموعة الدول الإسلامية الثمانية) والتى نأمل أن نفيد من تجارب أعضائها وأن نتعاون معهم ونعزز علاقاتنا التجارية معهم .

هناك ثمة اعتماد بأن الدول الفقيرة ليست بالشريك التجارى الجيد ، ولكن ينبغي أن نعى تماماً أن الدول الغنية ترتبط باستمرار بعلاقات تجارية قوية مع البلدان الفقيرة ، وأنها مستفيدة من تلك العلاقات واللاقطعتها دون تردد . وطالما أن الدول الغنية تجنى فوائد وأرباحاً من نظيراتها الفقيرات ، فلماذا لانسعى نحن أيضاً للإفادة من بعضنا بعضاً على أساس المنافع المتبادلة ! ونشير هنا إلى أن التجارة بين دول مجموعة الخمس عشرة وبقية الدول النامية ، قد نمت بمعدلات فائقة منذ إقرار صيغة التعاون (جنوب-جنوب) بينما نمت التجارة بين الدول النامية بمنطقة جنوب شرق آسيا بمعدل ثلاثة أضعاف خلال خمس سنوات ، بالقدر نفسه يمكن لدول مجموعة الثمانية زيادة التجارة البينية بينها إذا ما تبنت السياسات اللازمة ووفرت الإطار القانونى لذلك ، وهو أمر يتطلب قبل كل شىء تبادل المعلومات والبيانات .

إننى أشعر بالسعادة بحق ؛ لأن هناك عدداً من اللجان التى تعمل لهذا الغرض ، ويرغم العقبات التى تعترض طريق هذه اللجان والتى تسبب فى تأخير إنجاز المهام الموكولة

إيها ، إلا أنني على يقين من أننا سنتخطى تلك العقبات متى ما توفرت بيننا الإرادة السياسية .
 واسمحوا لي في هذا المقام أن أشدد للمرة الثانية على الحاجة إلى قيادة سياسية قوية
 مقتدرة نظراً لأن الإرادة السياسية أمر ضروري لإحراز أى تقدم فى هذا الصدد . وكما سبق لى
 أن ذكرت أن بلداننا إلى جانب كونها دولاً نامية ، فإن المسلمين يشكلون غالبية السكان فيها ،
 مع ملاحظة أن قطاعاً واسعاً من المسلمين وغير المسلمين على حد سواء ينحون باللائمة على
 الإسلام فى ما لحق بنا من تخلف . هذا الافتراض يفتقر إلى الصحة ويعوزه الدليل نظراً لأن
 الإسلام لم يحفز القبائل العربية المتناحرة على التوحد وإقامة أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ
 فحسب ، بل إنه أثرى وجدان كل الذين اعتنقوه مادياً وروحياً وساهم مساهمة لا تنكر فى
 مجال المعرفة الإنسانية . إن تخلف المسلمين اليوم لا يمكن أن يعزى للإسلام بقدر ما إنه يعود
 إلى التفسير الخاطيء للتعاليم والأحكام الإسلامية . وطالما أن بلداننا الإسلامية تزخر بعدد
 كبير من العلماء المتبحرين فى شئون الدين الإسلامى ، والذين لا يخفون أشواقهم وتطلعاتهم
 لاستعادة أمجاد المسلمين الضائعة ، فإن الواجب يقتضى حثهم على العمل بجدية وإخلاص
 لدراسة الإسلام بتمعن وتقديم تفسير صحيح للتعاليم والأحكام الإسلامية .

نحن ننطلق من كون الدين الإسلامى قد أحدث تغييراً جوهرياً فى حياة القبائل
 العربية المختلفة خلال مئة سنة فقط من الهجرة ، فوحدها فى دولة واحدة تمكنت من إنتاج
 أعظم حضارة شهدتها التاريخ ، فمن غير المنطقى أن تكون العقيدة التى كانت العامل الأول
 والأخير فى جلب ذلك المجد ، هى نفسها سبب اضمحلال وانهيار تلك الحضارة العظيمة !
 علينا أن نقر بأن العيب فىنا نحن وفى أمتنا الإسلامية وليس فى الإسلام ، وإلا فكيف نفسر
 النزاعات والحروب التى تقع بين المسلمين ، فى وقت يحثنا الإسلام فيه على أن نكون إخوة !!
 ومع ذلك فإن عدداً كبيراً من المسلمين يفجرون فى الخصومة ولا يسعون بين إخوانهم
 المسلمين إلا بأسباب الجفوة والعداء ، فهل الخطأ فى الإسلام أم فى أولئك الذين يفسرون
 تعاليمه وأحكامه على نحو خاطيء ؟!

لقد حان الوقت لتبدأ دول مجموعة الثمانية الإسلامية النامية الاقتداء بالدول المتطورة لتعمل في شكل منتدىٍ محدد الأهداف لتبادل الآراء والأفكار وتشرع في تطوير برنامج عمل واضح القسامات بما يؤدي إلى تفعيل التعاون بينها . وفي تقديري أنه ينبغي علينا ألا ننساق في بداية الأمر وراء الأحلام والطموحات غير الواقعية ، وأن نتوخى جانب الحذر والتبصر في تخطيط هذه البرامج والمشاريع ، وأن نمضي قدماً فيها بخطوات مدروسة وإيجابية .

إن التنمية الاقتصادية والاجتماعية لا تحدث بين عشية وضحاها ، وعلى الناس أن يتحركوا لإحداثها . وينبغي التأكيد هنا على أن صدقية وجدوى مجموعة الثمانية تتوقفان على النتائج التي يمكننا تحقيقها سنوياً ، والتي لا تقبل التشكيك . وتقتضى الأمانة ألا نتظاهر بالنجاح إذا ما فشلنا في إدراك تلك النتائج . وفي هذه الحال يكون من الأفضل أن يمضى كل منا في طريقه بدلاً من التهافت على اجتماعات ومؤتمرات لا طائل منها . ذلك هو التحدي الذي لا بد من أن نواجهه بشجاعة وأمانة .

الفصل الخامس عشر

استعادة أمجاد الأمة الإسلامية *

لنبدأ بإلقاء نظرة سريعة على العالم الإسلامي نفسه ، حيث بلغت عضوية منظمة المؤتمر الإسلامي في الوقت الحالي ٦٥ دولة ، ورغم أن المسلمين لا يشكلون بالضرورة غالبية السكان في كل تلك الدول الأعضاء وأن الإسلام لا يشكل الدين الرسمي إلا في عدد محدود منها ، إلا أن المسلمين يتمتعون بنفوذ قوى في تلك البلدان ، لدرجة دفعت الحكومات فيها إلى الانضمام لعضوية المنظمة .

وتشير الإحصاءات إلى أن عدد المسلمين في العالم قد وصل إلى أكثر من مليار نسمة ، إلا أنهم لا يشكلون كيانا متحدا ؛ إذ تعصف بوحدتهم الانتماءات القطرية الضيقة والعصبية المذهبية والتباين في مفاهيم الإسلام وتفسير تعاليمه وأحكامه ، إضافة إلى الاختلاف حول ماهية الالتزام بالعقيدة .

وبما لا شك فيه أن الأمة الإسلامية لا تمثل حضارة إسلامية واحدة تربط بين عناصرها وحدة عضوية بما يجعل منها خطرا حقيقيا على الحضارات الأخرى أو على أي طرف آخر ، بل إننا على العكس من ذلك نجد المسلمين منشغلين بالمعارك الدائرة بين بعضهم بعضا والتي تحول دون توحيدهم ، وتبدد طاقاتهم ، مما يجعلهم أضعف من أن يهددوا أحدا .

وبالرغم مما تمتلكه دول عديدة من بلداننا الإسلامية من ثروات طائلة وموارد طبيعية قل أن توجد في أماكن أخرى من العالم ، فإننا للأسف لا نجد اليوم دولة إسلامية واحدة يمكننا تصنيفها ضمن الدول المتطورة ، بل على النقيض من ذلك ، نجد أن دولنا كلها متخلفة

* خطاب رئيسي في أعمال منتدى نظمه المعهد الماليزي للفهم الإسلامي ، بالتعاون مع مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية بعنوان : «العالم الإسلامي والتعاون العالمي : الإعداد للقرن الحادي والعشرين» ، في بيتالينجايا - ماليزيا ، بتاريخ ٢٥ إبريل ١٩٩٧ م .

عن ركب المجتمعات الأخرى على صعيد امتلاك المعارف الحديثة والتكنولوجيا المتطورة والمهارات العالية ، إضافة إلى افتقارها في حالات عديدة إلى حكومات فاعلة لإدارة شئون بلدانها .

والحقيقة أن مجموعة مهمة من بلداننا الإسلامية تعاني من وضع شبيه بالفوضى ، مما يجعل من الصعب تصنيف أى دولة بين أعضاء هذه المجموعة ضمن البلدان المتطورة . وقد أصبح الفقر والجهل وعدم الاستقرار السياسى من السمات المشتركة بين الدول الإسلامية لدرجة تجعل بعض الناس يحسبون أن تلك العلل لازمة مرادفة لكل من يتمسك بالتعاليم الإسلامية . هذا الموقف المتحامل يثير بطبيعة الحال غضب عدد كبير من المسلمين ، ولا شك فى أنهم محقون ؛ نظرا لأنه موقف غير منصف ومجاف للحقيقة ؛ ذلك لأن التعاليم الإسلامية بريئة من هذا الواقع المتردى وبعيدة كل البعد عنه .

غير أن الحقيقة التى لا يمكننا إنكارها هى أن الدول الإسلامية فقيرة ومتخلفة وضعيفة وغير متحدة ، وتعتمد على غير المسلمين اعتماداً كاملاً فى مختلف مناحى الحياة بما فى ذلك أسباب أمنها ، واستمرار الإسلام نفسه على نحو فاعل فى حياة المجتمعات .

ومما يؤسف له حقاً أن هناك حالة من الفوضى السياسية أو على الأقل حكومات ضعيفة تتولى زمام الأمور فى عدد كبير من المجتمعات الإسلامية . كما أن الغالبية العظمى من هذه البلدان تمزقها الصراعات على السلطة والتى تتسبب فى إزهاق أرواح ملايين المواطنين وإجبار عدد كبير منهم على الهرب من مناطقهم والنزوح إلى بلدان أخرى إضافة إلى تدمير الثروة والممتلكات الشخصية ، ونقص الأغذية الذى يتسبب فى حدوث مجاعات مهلكة للبشر . ويرغم هذه العواقب الوخيمة فإن النزاعات والحروب فى البلدان الإسلامية لا تتوقف ؛ لأن بعض الأشخاص والجماعات لن يتوقفوا عن السعى للاستيلاء على السلطة بكل السبل والوسائل غير الديمقراطية . ومن المخجل حقاً أن عدداً كبيراً من المسلمين الذين يطرحون أنفسهم على أنهم من الملتزمين بتعاليم دينهم ، لا يتورعون أبداً عن اللجوء إلى

الكفار طالبين العون والمساعدة لجلب السلام والأمن لبلدانهم وإطعام الجوعى والمحتاجين من مواطنيهم ، فهل نحن عاجزون عن إدارة وتدبير أمور شعوبنا؟ وهل نحن غير قادرين على تطبيق المفاهيم الجديدة لنظم الحكم فى بلداننا؟ أم تُرانا عاجزين عن بسط العدالة ومعالجة التحديات التى استجدت سلفا فى المجتمعات المتطورة؟! دعونا ننظر بموضوعية إلى الأوضاع السائدة حاليا فى بلداننا لنكتشف بجلاء أن التساؤلات المطروحة أعلاه ، تنسحب تماما على ما يجرى فى مجتمعاتنا .

إن امتلاك غير المسلمين الذين نصفهم بالأعداء ، لأسباب القوة وتكنولوجيا الأسلحة المتطورة الفتاكة ، يجعل بإمكانهم مسح البلدان الإسلامية من خارطة الأرض لولا رحمة الله ولطف من المولى العلى القدير .

ومما يدعو للأسى والأسف أن بلداننا لم تستشعر هذا الخطر الذى يهدد وجودها ولم تتخذ من الترتيبات ما يمكنها من مجابهة أسوأ الاحتمالات . كما نلاحظ أن المسلمين ماضون فى إضعاف أنفسهم من خلال الخصومات والمنازعات المستمرة بينهم ، والتفسير المتناقض للتعاليم الإسلامية ، وعدم التقيد بالأحكام الواردة فى الدين الإسلامى الخفيف ، علما بأنهم لا يكفون عن التضرع للمولى عز وجل أن يكفيهم شرور الأعداء ويحميهم من مؤامراتهم ، وينسون قوله تعالى فى الآية التاسعة والسبعين من سورة النساء : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (٧٩) . صدق الله العظيم .

لقد امتلك المسلمون فى يوم من الأيام ناصية المعرفة والعلم ، وكانوا أفضل مخططين استراتيجيين ومحاررين من الطراز الأول ، لا يقف العدو أمامهم ، وليبرالين أكثر من غيرهم من الأمم . بيد أن الحال قد تبدلت وتحولت إلى ما يشبه الخيال الأدبى نظراً لصعوبة تصور أن المسلمين الذين نراهم اليوم فى حالة يرثى لها من الضعف والهوان ، كانوا فى يوم من الأيام يتصدرون الأمم الأخرى على صعيد المعرفة والتفوق التقنى والتحرر الفكرى .

لكن دعونا نعود إلى الماضي لنلقى نظرة على الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى ، حين كانت البلدان التي نسميها في وقتنا الحالى بالدول الغربية ، من أكثر المجتمعات البشرية تخلفا في المعمورة . وكانت الشعوب الأوروبية آنذاك من أكثر شعوب الأرض إيمانا بالخرافات لدرجة أنهم فرضوا حظرا صارما على العلوم التي اعتبروها نوعا من السحر ، وكانوا يخشون انتشارها . وكان السحرة والمنجمون يحرقون على الملأ ، في وقت فرض فيه رجال الدين المسيحي حكما متسلطا على الرعايا وأرهبوهم بمحاكم التفتيش لقرون عديدة ، مما اضطر عدد كبير من المسيحيين واليهود لهجرة بلدانهم هربا من التعصب المسيحي وطلباً للحرية في بلدان أخرى . ومقارنة الشعوب الأوروبية بالمسلمين آنذاك ، يتبين لنا بجلاء أن الأوروبيين كانوا متخلفين بحق ، وتسيطر عليهم الخرافة والدجل ، وكانوا أبعد ما يكونوا عن الفكر الليبرالي . كما كانوا إقطاعيين يمارسون الاضطهاد والقمع على بعضهم بعضا ، فيما دفعت حكوماتهم القمعية المسيحيين أنفسهم إلى الترحيب بالحكم الإسلامي ، بل إن بعضهم ذهب الى أبعد من ذلك بتحريض المسلمين على توسيع نطاق حكمهم على حساب النفوذ المسيحي . حتى اليهود فضلوا العيش في كنف الحكم الإسلامي ولم يكن بإمكانهم الاستمرار في الإقامة بإسبانيا عقب انهيار الحكم الإسلامي في الأندلس ، فرحلوا مع جحافل المسلمين ليستقروا في شمال إفريقيا .

كل هذه الشواهد تدل دلالة كافية على مدى التسامح والليبرالية التي كان المسلمون وحكوماتهم يتمتعون بها في العصر الذهبي للدولة الإسلامية . هذا بالطبع لا يعني على الإطلاق أن الصورة كانت كلها وردية . فقد كان هناك حكام من المسلمين الذين مارسوا أبشع أنواع العنف والبطش والتسلط في عصور مختلفة . لكن ذلك لا ينفى أبدا أن غير المسلمين كانوا يجدون دائما في البلاد الإسلامية حرية تكفل لهم العيش في أمان والتنقل أينما شاءوا لتصريف أعمالهم التجارية ، كما تمتعوا بحريات دينية مطلقة .

عندما أشرق فجر الإسلام على الجزيرة العربية قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام ،

كان العرب يتخبطون فى بيئة غارقة تماما فى الخرافة والجهل . ويحكم بيئتهم القاحلة الجافة التى كانوا يعيشون فيها ، كان العرب (البدو) يضطرون للتقل من مكان إلى آخر طلباً للماء والعشب لحيواناتهم ومصادر الغذاء لأنفسهم ، كانوا منقسمين إلى قبائل وعشائر متناحرة تقاتل بعضها بعضاً . وكانت الحروب بين القبائل العربية تستمر لفترات طويلة جداً وعلى مدى أجيال عديدة ، بعضها يجهل تماماً الأسباب التى أدت إلى اندلاع الحرب . وقد تبلورت فى تلك البيئة منظومة قيم تحكم مفهوم الشرف وكانت نبيلة وقاسية فى آن واحد . ذلك أنه بمثابة كان العرب كرماء يأوون من يلجأ إليهم طلباً للحماية ، ويحمونه بالغالى والنفيس ، كانوا قساة ولا يتسامحون فى قضايا الثأر والشرف . وكانت المرأة هى مصدر العار الرئيسى لأولئك الأعراب ، ؛ إذ كانوا يعتبرونها جزءاً من ممتلكاتهم ويستخدمونها كسلعة لاستقطاب التحالفات فى الحروب ، إضافة إلى كونها بالطبع وسيلة لإشباع حاجاتهم الغريزية .

ورغم كل ذلك فإن سبى النساء واسترقاقهن من قبل الأعداء كان أكثر ما يخشاه العرب فى الحروب ؛ نظراً لأنه كان يجلب العار الذى يلطخ شرف الأسرة والقبيلة . ولذلك درج العرب على قتل بناتهم وأخواتهم ، ووآد وليداتهم الصغيرات لتضييق فرص جلب العار فى المستقبل . واشتهر العرب بحبهم للمديح على نحو مبالغ فيه . وكان أصحاب الحاجة (الشحاذون) يعلمون تماماً أن الأغنياء وأهل الجاه يجزلون المنح والعطايا كلما تمّ التغنى بما يُقال فى حقهم من المديح والإطراء ، فيعمد المادحون إلى الإطراء والمبالغة فى إبراز مآثر المدوح . وقد دفعهم خوفهم من الخرافات إلى اتخاذ آلهة من الحجارة والأخشاب يعبدونها وكانوا يزورونها بانتظام لتقديم الأضحية والقرابين بما فى ذلك من البشر ، اعتقاداً منهم أنها تملك القدرة على إنقاذهم وحمايتهم من القوى الخفية الشريرة .

وكان أفراد القبائل المتحاربة لا يتورعون عن الاقتتال عندما يلتقون فى مواسم الحج ، فيلحقون خسائر بشرية فادحة ببعضهم بعضاً . ولم يكن من بين العرب فى الجاهلية من اعتنق المسيحية أو اليهودية أو أصبح من أهل الكتاب الذين يؤمنون بالله الواحد الأحد ، إلا

نفر قليل جداً حيث أثر السواد الأعظم البقاء على دين آبائه دون أن يتدبر الأمر . ولم تجد دعوة الحواريين للدين المسيحي قبل مجيء الرسالة المحمدية ، إلا أذنا صمّاء ، لكن من الواضح أنهم كانوا على علم بالمسيحية وملمّين بطبيعتها للدرجة تم فيها استشارة المسيحي ورقة بن نوفل عن طبيعة الأصوات التي سمعها سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم ، عندما نزل عليه الوحي لأول مرة .

شكّل ذلك المجتمع ، بتخلفه وانغماسه في الخرافة وتحيّنه لفرص الاقتتال ، البيئة التي حمل إليها سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم ، رسالته الخاتمة ، ولا غرو في أن النبي الكريم قد واجه مشقة وعتّاً في حمل أولئك القوم على نبذ معتقداتهم الجاهلية وعاداتهم وتقاليدهم المتخلفة ، وإقناعهم بضرورة احترام المرأة ومعاملتها كإنسانة وعدم أدها ، وعدم الانسياق واء الشهوات الغريزية «بالزواج» من عدد غير محدد من الزوجات وقصر ذلك على أربعة فقط ، شريطة التزام العدل بينهن ، وهو أمر ، نصّ القرآن صراحة على أنه صعب التحقيق ، حيث نقرأ في سورة النساء الآية ١٢٩ : ﴿ وَلَنْ تَمْتَطِعُوهَا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً (١٢٩) ﴾ ، فالأصل هو الزواج من واحدة .

وبما أن العرب كانوا أيضاً مُحِبِّين لاحتساء الخمر ومُسْرِفِينَ فِيهَا ، فقد اقتضت الحكمة الربانية أن يتم تحريم تلك العادة بالتدرج ؛ لأن أي أمر بالنهاى عنها مرة واحدة كان سيصبح مدعاة للتماذى فيها .

لقد أمر الإسلام العرب بمصادقة أعداء الأُمس الذين هداهم المولى عز وجل ، فأصبحوا تحت قيادة النبي الأُمى أمة واحدة متخَلِّين عن العصبية القبلية وما جلبته عليهم من وبال ، حيث نقرأ في سورة آل عمران - الآية ١٠٣ : ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) ﴾ صدق الله العظيم .

بدأت لبنة الدولة الإسلامية بمجتمع المدينة الذي تم تنظيمه على نحو دقيق وفق نظام قانوني واضح حدد طبيعة الجريمة وأسلوب الأحكام وماهية العقوبات بتركيز شديد على ضرورة العدل في الحكم والرفق فيه ، مع إيلاء أهمية خاصة للعفو عن التائب الذي يتوب لرشده . وتآلفت تلك القبائل البربرية المتحاربة واتحدت تحت راية لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، مكونة دولة واحدة يحكمها دستور المدينة الذي كان أول دستور مكتوب في العالم ، ليتم بذلك وضع نواة أول أمة إسلامية . ومن المدينة بدأ سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، يبعث الرسل إلى المناطق والبلدان المجاورة حثاً حكامها على اعتناق الإسلام .

وقد التزم النبي الكريم التعاليم الإسلامية التزاماً صارماً في الحرب والسلم ، حيث لا إكراه في الدين ولا لأحد الحق في أن يحمل الآخرين على اعتناق الإسلام بالقوة بحسب نص الآية ٢٥٦ من سورة البقرة : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٥٦) ﴿ صدق الله العظيم . لكن لسوء الحظ لم يكن التابعون على قدر من الصبر والسماحة لتحمل معارضة أولئك الذين رفضوا التعاليم النبوية ، فبينما لم يخض الرسول عليه الصلاة والسلام ، الحرب إلا للدفاع عن النفس وكان دائماً على أتم الاستعداد للجوء إلى الصلح وعقد المعاهدات لفض المنازعات ، بدت على أتباعه روح قتالية فاتهمجوا إلى نشر الإسلام بالقوة ؛ إذ لم يكد القرن الأول الهجري ينقضى حتى انضمت أمصار وبلدان مترامية الأطراف للدولة الإسلامية ، صحيح أن الفتوحات ساهمت في نشر الإسلام ووسعت الدولة الإسلامية ، لكنها في الوقت نفسه أسفرت عن تنامي نزعة الاستخفاف بالتعاليم الإسلامية والتغاضي عنها في بعض الأحيان .

لقد حدث نوع من الاسترخاء في تطبيق وممارسة الأحكام الإسلامية بغرض إضفاء صفة الشرعية على أي فعل مهما كان (نافعاً أم خبيثاً) ، ما دام الحاكم يرى أنه يصب في خدمة

الإسلام . ولذلك نجد اليوم أن القدسية تُضفى على كل عمل خسيس غادريتم ارتكابه بحق المسلمين الآخرين . وبهذا الصدد تنص الآية -٤١ من سورة البقرة : ﴿ وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) ﴾ صدق الله العظيم . والآية -٢٢٤ من السورة نفسها : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَقْتُلُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) ﴾ صدق الله العظيم .

لقد تسبب النجاح غير المسبوق للدولة الإسلامية فى إفساد الناس وإشاعة الغيرة والحسد بينهم ، لدرجة أن ثلاثة من الخلفاء الراشدين قد تم اغتيالهم بينما لم يمتم مية طبيعية إلا الخليفة الأول سيدنا أبو بكر الصديق -رضى الله عنه . تلك التطورات كشفت بجلاء أن هناك فئة من المسلمين كانت لا تلتزم بنظام الحكم كما أمر به الإسلام منذ عهده الأول بدليل أن بعض المسلمين لم يتورعوا عن قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، بما فى ذلك اغتيال الخلفاء الراشدين .

بمبايعة سيدنا على بن أبى طالب -كرم الله وجهه ، كخليفة رابع ، بلغت الحروب بين المسلمين مرحلة فى غاية الخطورة لا تختلف عما كان عليه الوضع بين القبائل العربية المتحاربة فى الجاهلية . هذا الصدع الخطير تمخض عن انشقاق الأمة الإسلامية إلى طائفتين ، طائفة المناوئين لسيدنا على الذين التفوا حول معاوية بن أبى سفيان ، وأصبحوا يُعرفون (بأهل السنة والجماعة) بينما ألف أنصار سيدنا على (ربما على غير رغبة منه) طائفة الشيعة زاعمين أن الأخير هو الخليفة الحقيقى للنبي محمد عليه أفضل الصلاة والسلام . ومنذ ذلك الوقت ، درجت كل طائفة على السعى لإثبات صحة موقفها وإبراز ضلال الطائفة الأخرى ، ليس من خلال التفسيرات المتناقضة للتعاليم الإسلامية فحسب ، بل بابتداع أحاديث نبوية وإصاقها بالسنة النبوية لتبرير كثير من الأفعال والممارسات المنافية لأحكام وروح الإسلام . وعندما أراد الإمام البخارى دراسة الأحاديث للتحقق من صحة كل واحد على حدة ، وجد ما لا يقل عن ستمائة ألف حديث وانتهى إلى إثبات صحة سبعة آلاف منها فقط ، بينما أجاز دارسون

آخرون عددا يقل عن سبعة آلاف ، إلا أنهم اعتمدوا صحة أحاديث رفضها البخارى ولم يأخذ بصحتها .

هذا الأمر يوضح بجلاء أن هناك نحو خمسمائة وتسعين ألف حديث موضوع وغير صحيح ، غير أن الناس ما زالوا يستندون إليها ويقتبسون من نصوصها على نحو يرمى إلى تبرير ممارساتهم الخاطئة .

ومع توسع الدولة الإسلامية ، كان بعض الناس يسعون لوراثة لقب الخليفة وأمير المؤمنين ، فاشتعلت الحروب بين مختلف الطامحين إلى السلطة الدنيوية . وقد بدأ حكام الأمصار يبتعدون شيئا فشيئا عن السلطة المركزية سواء في المدينة أو بغداد أو إسطنبول ، تمهيدا لتكوين إمارات إسلامية مستقلة عن السلطة المركزية . وقد شهدت تلك الفترة ظهور طوائف إسلامية جديدة ، ظهر معها علماء بارزون في مجال التشريع ، ركزوا اهتمامهم على التأكيد بأن الشريعة تعلو وتسود على القرآن .

وبمرور الوقت تلاشى التسامح الذى كان سمة ملازمة للإسلام ، وحلت محله التفسيرات المترمة التى يصدرها أولئك المشرعون الذين كانوا لا يسمحون بمجرد التساؤل أو مناقشة ما يتفوهون به من فتاوى . وبطبيعة الحال ساءت أوضاع المسلمين وتدهورت حالهم ، لدرجة اقتصر فيها العلم على الدراسات الدينية وتم تحريم العلوم والرياضيات ، كما صنفت العلوم غير الدينية على أنها غير إسلامية . وقد فقدت المكتبات المنتشرة فى كل مكان قيمتها وتفشى الجهل فى أوساط المسلمين ، فى وقت بدأ فيه الأوروبيون المسيحيون الإفادة من الفرص المتاحة بدراسة الإنتاج الفكرى والمعرفى للعلماء المسلمين . لقد بات واضحا أن النجاح والسلطة أفسدا الحكام المسلمين ، بينما أصبحت دائرة الانحراف عن التعاليم الإسلامية الصحيحة تتسع بين الأوساط الإسلامية فى كل يوم .

كانت تلك هى البداية الحقيقية لاضمحلال الدولة الإسلامية وحضارتها القوية . وتسبب تفشى الفساد فى أوساط الحكام المسلمين والانحراف عن التعاليم الإسلامية القويمة ،

فى ظهور حركات إصلاحية تسعى إلى العودة إلى الممارسات الإسلامية الأصولية ، وتساعد الأمر ليلبغ ذروته بخلع الخلفاء وتنصيب قيادات بديلة كما حدث من قبل المرابطين ومن بعدهم الموحدين فى شمال إفريقيا وإسبانيا . لكن لسوء الحظ انتهى الحكام الجدد أنفسهم إلى الفساد والانحراف عن التعاليم الإسلامية من خلال تفسير الإسلام بما يناسب أهواءهم وآراءهم المتطرفة ومهما قيل من مبررات ، فإن الحكام المسلمين الجدد قد أسهموا فى اضمحلال الدولة الإسلامية وتسببوا فى وضع حد لتفوق المسلمين من خلال فهمهم الضيق للدين الإسلامى وخطل تفسيرهم لأحكامه ورفضهم للعلوم الدنيوية وإهمالهم اكتساب المهارات الأخرى ، مما أفقدهم القدرة على الدفاع عن حكمهم والأمصار التى كانت تحت سيطرتهم فى إسبانيا .

فى عام ١٤٩٢ . سقطت غرناطة التى كانت آخر معقل حصين للمسلمين فى إسبانيا ، أمام جحافل جيش فيردناند وإيزابيلا ووجد آخر حاكم نفسه عاجزاً عن قيادة جيشه ولو لمرة واحدة ، وأجبر على الاستسلام ومغادرة الأندلس إلى شمال إفريقيا . أما المسلمون الذين لم ينزحوا فقد وجدوا أنفسهم أمام خيارين أحلاهما مرّ: إما أن يرتدوا عن الإسلام ، أو يواجهوا الموت . فتلاشت بذلك آخر مقاطعة إسلامية فى أوروبا الغربية .

غير أن ذلك المصير لم يرض غرور الأوروبيين ؛ إذ لم يرق لهم ترك الدولات الإسلامية فى شمال إفريقيا تعيش فى أمن وسلام ، فتمكنت فرنسا وإسبانيا من توسيع نفوذهما فى المغرب ، ومن ثم الاستيلاء على إفريقيا من مصر إلى المغرب . لكن ذلك لم يكن نهاية المطاف ؛ إذ بينما لحقت الهزيمة النكراء بالمسلمين فى الأندلس ، بدأ الأتراك فى توسيع نفوذهم وبناء إمبراطورية إسلامية جديدة . وقد تمكنت الجيوش التركية من بسط سيطرتها وإخضاع منطقة البلقان لنفوذ العثمانيين ، بل إنها وصلت إلى أبواب فيينا ، بينما أحكم الأسطول البحرى التركى قبضته على البحر الأبيض المتوسط . لكن للأسف ، لم يمض وقت طويل حتى انتقل الداء العضال إلى بلاد السلاطين الأتراك ، حيث تسببت الثروة وحب

التظاهر والتفاخر والتترف في إفساد الحكام العثمانيين . وقد تخلى أولئك الحكام عن قيادة الجيوش الإسلامية لقيادة لا ينحدرون من أصول تركية ، بمعنى أن الأتراك لجأوا إلى استقطاب أبناء المسيحيين وتربيتهم على أسس إسلامية وتدريبهم وتأهيلهم ليتخرجوا جنوداً محترفين . وفي وقت لاحق تمكنت تلك الجماعات الدخيلة من بسط سيطرتهم على السياسة في الدولة العثمانية وخططت ونفذت عدداً مما يعرف (بانقلاب القصر) .

كان مستشارو السلاطين العثمانيين للشئون الدينية متملقين ومنافقين يبصمون على صحة كل ما يصدر عن الحكام من قول وفعل . أما السلاطين أنفسهم فقد انزلقوا عن جادة الحق فجلبوا إلى قصورهم أعداداً كبيرة من الزوجات والسراري والخدم لإشباع نزواتهم الغريزية ، بينما ذهب بعضهم إلى حد اغتيال أشقائهم ، لكي لا يواجهوا بأى تحدٍّ أو خطر على استمرارهم في الحكم . وبينما وجدت تلك الممارسات الشنيعة ترحيباً ومباركة من السلطات الدينية في البلاط العثماني ، أصبحت أي محاولة لتطویر وتحديث القوات المسلحة التركية تصنف على أنها منافية للإسلام . فعندما وضعت مقترحات لاستبدال «البنطلونات» الفضفاضة التي كان يرتديها الجنود بسرراويل أقصر وغير مصقولة ، إضافة إلى استبدال الطربوش بقبعات مستدقة الرأس ، وقع تمرد وسط القوات المسلحة التركية . وفي نهاية المطاف انتهى الجيش التركي الذي كان لا يقهر ، إلى الاعتماد تماماً على أسلحة بالية تقليدية غير فعالة ، فتراجعت قدراته إلى درك سحيق ، في وقت كانت الجيوش الأوروبية تزداد منعة وقوة من خلال امتلاك أحدث وأفضل التكنولوجيا العسكرية والتسليحية المتوفرة آنذاك . لقد بدأ اضمحلال الإمبراطورية التركية منذ إخفاق جيوشها في الاستيلاء على فيينا ، وبنهاية الحرب العالمية الأولى انقسمت الدولة العثمانية إلى عدد من الدويلات الضعيفة التي خضعت للسيطرة (الحماية) الفرنسية والبريطانية . أما تركيا نفسها فكادت أن تقع فريسة للسيطرة اليونانية لولا بروز مصطفى كمال أتاتورك .

كان المسلمون الأوائل الذين فروا بدينهم من الجزيرة العربية باتجاه الأصفق الأخرى

متمسكين بالتعاليم الإسلامية الحنيفة ومتسامحين مع أهل الكتاب لأقصى الحدود ومنفتحين على الحضارات الأجنبية؛ إذ أبدوا اهتماماً كبيراً باكتساب المهارات والفنون التي أبدعها غير المسلمين وخاصة اليونانيين. وعندما تمثلوا تلك المعارف، بدأوا يسهمون بقسطهم في حقول المعرفة الإنسانية، فأجروا البحوث في مختلف المجالات وابتكروا تقنيات وضعتهم في مقدمة الشعوب، لكن لسوء الحظ أدى ظهور الفقهاء الإسلاميين وأولئك الذين عرفوا «بالإصلاحيين» إلى إهمال جميع الدراسات غير الدينية، لئتم تحريمها أو منعها تماماً فيما بعد، وليبدأ عصر انكفاء المسلمين وتراجعهم عن الصدارة.

ومما لاشك فيه، أن استغلال وابتزاز السلطة والانحراف عن التعاليم الإسلامية الصحيحة والممارسات المنافية للإسلام خاصة من قبل الصفوة الإسلامية، هي التي أدت إلى ظهور الحركات الإصلاحية وهيمنة الفقهاء على المسار العام في الدولة الإسلامية. بيد أن المحصلة التي انتهت إليها محاولات الإصلاح، لم تكن لتصب في مجرى العودة إلى التعاليم الإسلامية الصحيحة. بمعنى أن الإصلاحيين المتعصبين والمشرعين الاتهازين الذين أعماهم ضيق الأفق، كانوا يهدفون إلى بسط مفاهيم إسلامية أكثر تزمناً وتطرفاً فيما يتصل بمراعاة بعض الممارسات والعبادات الإسلامية مقابل منع كل ما يرون أنه مخالف للإسلام ومجاف لروحه. بعبارة أخرى، حرص أولئك الإصلاحيون على مراعاة الشكل أكثر من جوهر ومضمون التعاليم والأحكام الإسلامية، فحرموا أو منعوا ما أسماه «بالمعرفة غير الدينية» وكل ما لم يجدوا له أصلاً أو جذوراً في العصر الإسلامي الأول. لقد اعتبرت تلك الفئة المنحرفة محاولات تحديث وتطوير الجيش التركي مخالفة للإسلام، متناسية الأمر الوارد في القرآن بضرورة إعداد العدة للدفاع عن النفس. نعم لقد اهتم الإصلاحيون بالشكل على حساب جوهر وروح التعاليم والعبادات الإسلامية، وحسبوا أنفسهم في عبادة الماضي دون تدبير للحاضر والمستقبل.

لقد ركز القرآن الكريم على ضرب الأمثال والحكم والمواعظ، حاثاً على استنباط

المعاني الحقيقية في سياق الأوضاع التي تواجهها الأمة الإسلامية عبر العصور. لكننا نلاحظ أن الغالبية العظمى من العلماء والدارسين في حقل المعرفة الإسلامية يصرون على الأخذ بالمعنى الحرفي للكلمات الواردة في القرآن. ولذلك نجد أن قضية الدفاع عن الأمة الإسلامية تراجعت أهميتها، ولم يعد الحكام يهتمون بإعداد رباط الخيل كما جاء في سورة الأنفال - الآية ٦٠: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ صدق الله العظيم .

نعم ، كانت هناك إمبراطورية إسلامية عظيمة لكنها اضمحلت وتلاشت تماماً . وقد تسببت الهزائم في ميادين المعارك وفي مجال إدارة العلاقات الدبلوماسية ليس في إضعاف الإمبراطورية فقط ، بل في انقسامها إلى دويلات إسلامية غير فاعلة ، سلمت أمرها فيما بعد إلى الهيمنة والاستعمار الأوروبي .

إن أسباب تجزئة العالم الإسلامي ووقوع دويلاته في قبضة الاستعمار الغربي ، تعود لمؤامرات الأوروبيين وما امتلكوه من قوة عسكرية . ويجب ألا ننسى أن الأوروبيين هم الذين دفعوا العرب إلى مقاتلة الأتراك في سبيل الحصول على استقلالهم . ولا شك أن المسلمين في كل بقاع العالم يكثرون من الحديث اليوم عن الإمبراطورية العملاقة التي أقامها أجدادهم الفاتحون ويحتنون دائماً لاستعادة أمجادهم الضائعة عندما بسط المسلمون سيطرتهم على جزء كبير من العالم القديم . لقد حكم المسلمون إسبانيا نحو ثمانمائة سنة ، بينما حكموا أجزاء واسعة من أوروبا الشرقية نحو أربعمائة عام . ولا يخفى على أحد مدى الحنين الذي يستشعره المسلمون للأيام التي حاز فيها أجدادهم الريادة في مجال العلوم والرياضيات والآداب والفنون ، وما سجلوه من بسالة في ميادين القتال ، وما حققوه من انتصارات مدوية . وما زال المسلمون يتحدثون عما بلغه أسلافهم في العصر الذهبي للإسلام من براعة في مجال المبتكرات الصناعية من جنس آلة «الإسطرلاب» الفلكية التي ابتدعوها لقياس

ارتفاع النجوم والشمس ، والدروع وسيوف القادة المشهورين مثل صلاح الدين الأيوبي .
ذلك بالإضافة إلى ما حققوه من تقدم فى مجالات المعمار والهندسة ومهارات البناء والتشييد
والتي تقف شاهداً على الاسهامات الرفيعة التي قدموها للبشرية .

على خلفية تلك الصورة الزاهية ، يرتسم الواقع الحالى للبلدان الإسلامية من تخلف
وتشرذم وضعف جعل من المسلمين مجرد دميّ يستخدمها الأوروبيون والغربيون لخدمة
مآربهم السياسية . لقد بلغ المسلمون من ضعف ما جعلهم عاجزين تماماً عن مساعدة
إخوانهم فى العقيدة الذين يُذبحون بيد الأعداء ، إضافة إلى وقوفهم موقف المتفرج من
المؤامرة الجارية فى فلسطين ومقدساتها والتي يتم تمزيقها وتقديمها لأعداء الإسلام من
اليهود . وقد برهنت الأيام على أن اعتقاد المسلمين بأنهم قادرون على إيقاع الهزيمة
بإسرائيل ، ما هو إلا وهم لا أساس له ؛ إذ ألحقت هذه الدويلة بالمسلمين الهزيمة تلو
الأخرى ، مستفيدة من الدعم اللامحدود من الأمم الغربية .

لم يكن ذلك نهاية لإمبراطورية عظيمة فحسب ، بل إنه وضع حداً أيضاً لكل ما يرمز
إلى كرامة وشموخ المسلمين الذين أصبحوا مجرد شخصيات كارىكاتورية مضطربة لأمل
لها فى استعادة ماضيها التليد إلا فى عالم الخيال والوهم . ولقد أصبح التأمل فى الواقع
الإسلامى مدعاة لجلب الحزن والإحباط ، بل إنه قد يدفع المرء المسلم إلى حالة من السعار
والجنون تتسبب بدورها فى أفعال من شأنها جلب مزيد من الكراهية للمسلمين . فى هذا
المقام لابد من التأكيد على أن الإرهاب ليس صنعة ولا ابتكاراً إسلامياً ، نظراً لأن أول من
اختطف طائرة كان أمريكى الجنسية . غير أن المسلمين سرعان ما تعلموا أساليب القرصنة
الجوية مما سهّل على المُغرضين إلصاق تهمة الإرهاب التي صنعها الأعداء بالمسلمين ، بل
جعلوها مرادفاً للإسلام والمسلمين . وإلى جانب تسيبهم فى جلب سمعة سيئة لأنفسهم
ودينهم ، مضى المتطرفون فى أوساط المسلمين قُدماء بارتكاب جرائم بشعة مثل قتل أطفال
أعدائهم ظناً منهم أن ذلك كفىل بقذف الرعب فى قلوب أعداء الإسلام . غير أن الأمر لم

يُسفر عن شيء أكثر من الاسهام في توسيع الكراهية للمسلمين الذين يتحركون أيضا للانتقام من تلك الأفعال البشعة بذات الوحشية والقسوة ، ليتحول الأمر إلى دائرة مفرغة من العنف والعنف المضاد .

هناك ضرورة تستدعى توقف المسلمين عن ارتكاب مثل هذه الممارسات اللاعقلانية ؛ لأنها تلحق ضررا بالغاً بالإسلام ومعتقيه . لكن يبدو أن بعض المسلمين غير معنيين كثيراً بكسب المعركة التي يخوضونها ضد أعدائهم ، وتحقيق الأهداف المرجوة منها ، قدر اهتمامهم بالقتال في حد ذاته . هذا المفهوم يعيد إلى الأذهان الحروب القبلية التي كانت سائدة بين العرب أيام الجاهلية قبل مجيء الإسلام ، والتي لم تكن تحدث لسبب منطقي أكثر من مجرد عداة بين أشخاص أو عشائر . فقد كانت القبائل العربية تقاتل بعضها بعضاً على مدى أجيال عديدة دون البحث عن وسائل لوقف الحرب وإقرار تسوية سلمية بينها ، إلى أن يحرز أحد أطراف القتال نصراً حاسماً على الطرف الآخر . ويبدو أن المسلمين الذين يملكهم هاجس كراهية الأعداء ، سيستمرون في قتال أعدائهم طالما ظل ذلك الهاجس قائماً ، ولا يفكرون أبداً بالتوصل إلى حل سلمي ؛ لأن ذلك لا يدخل في نطاق أهدافهم في الأصل .

ومن الواضح أن هدف هذه الفئة من الناس هو إلحاق الدمار الشامل بالأعداء بغض النظر عن النتائج ، لكن هل هذا المفهوم ينسجم مع التعاليم الإسلامية الصحيحة؟ صحيح أن الآية - ١٩٠ من سورة البقرة تأمر المسلمين بقتال الأعداء : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (١٩٠) ﴿ صدق الله العظيم . بينما تقول الآية التي تلتها : ﴿ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجَكُمُ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلَكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ (١٩١) ﴿ صدق الله العظيم . لكننا نجد الآية - ١٩٢ من السورة نفسها تقول : ﴿ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٩٢) ﴿ صدق الله العظيم . كما أمرت الآية - ١٩٣ : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (١٩٣) ﴿ صدق الله العظيم .

ونحن نعلم اليوم من هم أولئك الذين يمارسون الظلم والطغيان ، ومع ذلك فإن الآية-١٩٤ من سورة البقرة تبين لنا التالي : ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامَ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٩٤) ﴿ صدق الله العظيم .

ومن الطبيعي جداً ، أن يتوق المسلمون لأمجادهم الماضية من إمبراطورية مترامية الأطراف وهيمنة على جزء كبير من العالم غير أن من الضروري بمكان أن يعلموا أن الإمبريالية واحتلال أراضي الآخرين وإخضاعهم لحكم استعماري مباشر ، كلها قد أصبحت من مخلفات الماضي ، ويستحيل تماماً بعث الدولة الإسلامية أو الإمبراطورية البريطانية وغيرهما من الإمبراطوريات بشكلها القديم ، من جديد . إن كل ما يمكننا التطلع إليه هو العمل على تنمية بلدان إسلامية مستقلة لتلحق بركب الدول المتطورة وهو أمر ليس بالعسير أو المستحيل .

لقد خلق المولى عز وجل المسلمين لايكونوا في درجة وضیعة أو مستضعفين في الأرض ، بل على العكس من ذلك تماماً إذا جاز لنا العودة إلى الأمجاد الإسلامية الماضية . وليس ثمة ما يحول دون امتلاك المسلمين للمهارات العالية وتطويع التكنولوجيا المتطورة التي يحتكرها حالياً غير المسلمين . متى ما أخلص المسلمون العزيمة فيامكانهم أن يحكموا بلدانهم بكفاءة عالية جداً ، لكن ينبغي أن يقتنعوا أولاً بضرورة ذلك وأن يمضوا قدماً نحو تطبيق نظام حكم فاعل يستجيب لتحديات العصر ، انطلاقاً من إيمان راسخ بأن المولى سبحانه وتعالى ، قد خلق هذا الكون لهم وأن من أولى واجباتهم أن يثبتوا بالدليل العملي المنع أن الإسلام دين عظيم لم يفرط في شيء ، وأنه يجلب كل ما هو عظيم ورفيع لمعتنقيه وللبرشرية جمعاء . يقول المولى عز وجل في الآية-١١ من سورة الرعد : ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ (١١) ﴿ صدق الله العظيم . ومرة أخرى علينا أن نتذكر قول الله تعالى في الآية-٧٩ من سورة النساء : ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (٧٩) ﴿ صدق الله

العظيم .

لا شك أن بإمكان المسلمين أن يقوموا بتنمية وتطوير بلدانهم بالمستوى المطلوب دون السعى لتكوين إمبراطورية جديدة من خلال دمج جميع البلدان الإسلامية في وحدة سياسية واحدة . لكن بطبيعة الحال ينبغي عليهم أن يتعاونوا فيما بينهم بوصفهم أعضاء في الأمة الإسلامية ، بعيداً عن خلق القلاقل وإشعال الحروب بين البلدان الإسلامية . وبإمكان المسلمين أيضاً أن يسهموا في تعزيز وتقوية وضعية منظمة المؤتمر الإسلامي ومساعدة أعضائها من الدول الفقيرة المتخلفة على صعيد التنمية الاقتصادية والاجتماعية شريطة ألا يتعدى ذلك صيغ التعاون بين الأعضاء .

ولابد من أن تحافظ الدول الإسلامية على استقلالها ، ولا بد من أن تكون متطورة بما يؤهلها لاحتلال مواقعها ضمن خارطة الأمم في المجتمع الدولي . كما أنه لا بد من أن يتمسك المسلمون بعقيدتهم وأن يكونوا مسلمين أصوليين بحق ويتمسكون بمعنى الالتزام بفعل الصواب ورفض ونبد الخطأ . يقول الله تعالى في الآية-٤-١٠ من سورة آل عمران : ﴿ وَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) ﴾ صدق الله العظيم . لقد كان الإسلام وما زال يحضُّ على الصواب والعدل ويؤيد ويدعم كل ما من شأنه أن يشيعهما بين الناس ، ولم يحث المسلمين على أن يدعموا بعضهم البعض لفعل الخطأ . إن من واجب المسلم أن يدين ويرفض أى ممارسة خاطئة يأتى بها أخوه المسلم حتى فى الحالات التى يكون فيها ضحايا تلك الأفعال من غير المسلمين ، ولنا فى الآية-٢-٤٢ من سورة المائدة أسوة : ﴿ سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّخْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) ﴾ صدق الله العظيم .

إن المهمة الحقيقية للمسلمين فى وقتنا المعاصر تتمثل فى العمل على بعث القيم الروحية ونشرها على أوسع نطاق فى هذا العالم الذى يسرع الخطى باتجاهه المادية البحتة والشرك بالواحد الأحد ، عالم يدعى فيه بعض الناس امتلاك ناصية الحقيقة والإجابة على أى

تساؤل ، عالم يتطور فيه الإنسان أدوات الدمار الشامل ويضعها تحت تصرف شخصيات غير مسئولة وربما مصابة بمس من الجنون ، عالم يقف على شفير «نبوءات» قائمة على رؤية شخصية . أولئك أناس يعتقدون أنهم بلغوا من العلم والمعرفة ما يضعهم فى مرتبة الإله ، ويمكانهم خلق أشياء هى من صميم القدرة الربانية . إنهم يسعون لخلق عالم حسب رغباتهم وخيالهم المريض . لقد أخذتهم العزة بالأثم ، فصاروا لا يرون كبيراً فوقهم . وقد تناسى أولئك أنه برغم المعيتهم فإنهم عاجزون تماماً عن الإجابة عن التساؤلات التالية : لماذا توجد حياة فى هذا العالم؟ ولماذا وجد الكون نفسه؟ ولماذا تتفاعل المادة على النحو الذى نراه؟ ولماذا ينتج عن اتحاد الأوكسجين والهيدروجين ماء وعدد هائل من التفاعلات الكيماوية والفيزيائية؟

صحيح أن العلماء يعرفون الكيفية التى تتم بها تلك التفاعلات ، لكنهم يجهلون تماماً «لماذا» ! إنهم ليسوا بتلك العبقرية التى يظنون . وبما أن الجنس البشرى ماض فى وقتنا الحالى نحو مزيد من العجرفة والصلف ، فإن القيم الدينية والروحية تزداد أهمية أكثر من أى وقت قد مضى . وبما لاشك فيه أن الدين الإسلامى يوفر للمؤمنين وغير المؤمنين تلك القيم شريطة أن يكون إسلاماً قائماً على التعاليم الصحيحة التى تدعو إلى السلم والخير والعطف على الآخرين بعيداً عن ارتكاب الجرائم واستغلال الدين لتبريرها .

إن القرن الحادى والعشرين لن يكون قرناً إسلامياً لكنه يشكل فترة مهمة جداً من فترات التاريخ ؛ لأنه يحمل تحولات جذرية ، وعلى المسلمين أن يعلموا أنهم جزء من تلك التحولات شاءوا أم أبوا .

وعليه ، فمن الأفضل للمسلمين أن يتعاملوا مع هذا القرن بعيون وعقول مفتوحة تعرف تماماً ماذا تريد . . وما الدور الذى تأمل فى الاضطلاع به؟ وإذا ما اختار المسلمون أن يلعبوا دوراً بناءً مع الاحتفاظ بعقيدتهم الصحيحة وقيمهم الروحية والأخوة الإسلامية الحقيقية ، فسوف يكون بوسعهم أن يسهموا فى تطوير الجنس البشرى على نحو إيجابى من خلال وضع الناس على متن قارب النجاة من جديد ، ومنعهم من ممارسة الأنشطة المدمرة

لذات التي استشرت في زمننا المعاصر .

نحن نثق تماماً بأن المسلمين يمكن أن يكونوا قوة دافعة في اتجاه الخير للبشرية في القرن الحادى والعشرين ، وهو أمر قد يبدو صعباً لدى كثير من الناس ، إلا أنه ليس مستحيلاً على الإطلاق . ويبقى أمام المسلمين أن يقرروا مصيرهم فى ضوء النص القرآنى الواضح بأن المولى عز وجل ، لا يُغَيِّرُ ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم !!

الفصل السادس عشر الإسلام والأمة الإسلامية *

دعوني أُعبر في مستهل كلمتي عن خالص تقديري وامتناني لحكومة المملكة العربية السعودية وللجنة جائزة الملك فيصل الدولية بصفة خاصة ، على ما أسبغته عليّ من شرف وتكريم بمنحى جائزة العام ١٩٩٧ لقاء ما قدمه شخصي الضعيف من مساهمة في خدمة قضايا الإسلام والمسلمين .

إنني سعيد بهذا التكريم ، ويطيب لي بكل الفخر والاعتزاز أن أتقبل هذه الجائزة المرموقة التي تُعد أيضاً تكريماً للمليزيا وشعبها من مسلمين وغير مسلمين ، والذين لولا احترام بعضهم بعضاً وما يتحلون به من تسامح ، لما بلغت بلادنا التي تتخذ الإسلام ديناً رسمياً لها ، ما هي عليه في الوقت الحالي من استقرار سياسي ورفاه اقتصادي .

إن ما تحقق لبلادنا من إنجازات باهرة ، ليس وليد اليوم ، بل هو متجذر في الواقع المالىزي على مدى القرون التسعة الماضية ، منذ أن اعتنق أجدادنا الإسلام .

وكما هي الحال بالنسبة لأعراب شبه الجزيرة العربية الذين اعتنقوا الإسلام قبل نحو ١٤٠٠ سنة بعدما كانوا يعبدون الأصنام في الجاهلية ، فإن أسلافنا الأوائل كانوا أيضاً من غير المسلمين ، وقد أنعم الله عز وجل ، على عدد كبير من غير المسلمين باعتراف الدين الإسلامي مع توسع الدولة الإسلامية . غير أن غالبية من ارتضوا هذا الدين دخلوا طواعية واقتداء بما وجدوه عند المسلمين الذين حملوه إليهم ، من سلوك قويم وتسامح وتطور وصدق في التعامل . وتجدر الإشارة إلى أن المسلمين الذين أخذتهم الفتوحات الإسلامية إلى البلدان

* كلمة رئيسية في حفل توزيع جائزة الملك فيصل الدولية ، الرياض - السعودية ، في ٢٢ مارس ١٩٩٧ م .

الأخرى ، لم يحملوا الناس على اعتناق دينهم بالقوة بقدر ما كانوا نموذجاً في الاستقامة والسلوك الحضارى والالتزام بالتعاليم الإسلامية الصحيحة ، مما شجع الرعايا الجدد وحفزهم على الدخول إلى الإسلام كما حدث في إسبانيا وأوروبا بصفة عامة في عهد الحكم الإسلامى فى الأندلس .

والشئ نفسه ينسحب على الملاويين ، سكان ماليزيا الأصليين ، الذين لم يخضعوا فى يوم من الأيام لسلطان الدولة الإسلامية ، لكنهم آمنوا بالرسالة المحمدية ؛ نظراً لأن التجار المسلمين من حضرموت ، الذين كانوا أول الوافدين من العرب إلى دويلات (سلطنات) شبه جزيرة ملايا ، جسّدوا فى نظر السكان المحليين ، قمة النجاح بمقاييس ذلك الزمن . لقد اكتشف سكان سلطنات شبه جزيرة ملايا أن أولئك التجار بارعون فى بناء السفن يجيدون فن الإبحار والملاحة البحرية بمراقبة مواقع النجوم ، كما كانوا تجاراً أذكىاء ومُلمنين إماماً واسعاً بالعلوم الطبية والجغرافيا والرياضيات .

وقد ترك أولئك المسلمون انطباعاً حسناً فى أذهان الملاويين ؛ إذ جسّد المهاجرون التقوى والورع وكانوا نموذجاً حياً للالتزام بالعبادات والأحكام التى فرضها ديننا الخنيف ، والتمسك بالأخلاق الإسلامية الفاضلة فى كل المعاملات . كما كانوا مثلاً يحتذى فى طيب المعشر والتسابق لفعل البر والخير دون تكبر أو غطرسة ، ولم تفسدهم السلطة والقوة ولا حب الهيمنة والتسلط على السكان المحليين . كان التجار المهاجرون من حضرموت إلى دويلات شبه جزيرة ملايا ، خير «رُسل» للدعوة للدين الإسلامى ؛ لأنهم نجحوا على نحو تلقائى فى تجسيد التعاليم الإسلامية الصحيحة والأخلاق السمحة ، وهو أمر أثار فضول السكان اللادينيين ، وكان له تأثير بالغ لدى سلاطينهم (مهراجاتهم) الذين وجدوا فى الإسلام ضالّتهم فاعتنقوه ، مما شجع بدوره رعاياهم على الاهتداء إلى الصراط المستقيم .

هبّ أن المسلمين الأوائل الذين نزلوا بالبر المالىزى الحالى ، كانوا متخلفين يغطون فى جهل عميق ومُعوزين يعيشون على الإعانات وما يتصدق به الخيّرون ، وتعصف العصبيات

والخلافاً للطائفية والمذهبية بتماسكهم ووحدتهم ، فإن أجداد المسلمين الماليزيين الحاليين ما كانوا ليعتقوا الإسلام لمجرد أداء المهاجرين للصلاة والتزامهم بصوم شهر رمضان وغيره . إننى أشك كثيراً فى إمكانية انتشار الإسلام بين الملاويين ، لو أن حال المسلمين الأوائل الذين وفدوا إلى شبه جزيرة ملايا كان شبيهاً بحال المسلمين اليوم من ضعف وهوان وفرقة وتعصب وتفرق . والحمد لله أن من الله على أهل ملايا بمن يهديهم إلى الصراط المستقيم منذ مئات السنين .

كان المسلمون الأوائل الذين وفدوا إلى بلادنا قبل نحو ٩٠٠ عام ، مماثلين تماماً لمن نُسِمهم بالشعوب المتقدمة المتحضرة فى وقتنا الحالى من ناحية إمامهم بالعلوم الحديثة آنذاك ، وإتقانهم لعدد من المهارات ، وتطويرهم لأحدث وأفضل التقنيات ، ليس ذلك فحسب ، بل كان أولئك المهاجرون يمارسون التعاليم الإسلامية الصحيحة ، وكل ما يؤكد على أن الدين الإسلامى نظام حياة متكامل لا يقتصر على الشعائر الدينية فقط . لكل ذلك تحمس أسلافنا اللادينيون للإسلام واعتنقوه عن إيمان عميق ، فحطموا أصنامهم ومعابدهم الوطنية إلى غير رجعة . وينص دستورنا الحالى على أن المواطن الماليزى ليس ملاويًا ما لم يكن مسلمًا .

ويعود التقدم المهم الذى أحرزه الملاويون منذ اعتناق أجدادنا للإسلام قبل مئات السنين وإلى وقتنا الحالى ، إلى التزامهم بهذا الدين كمنهج شامل للحياة . ومع إقرارنا ببعض الاستثناءات ، فإن الحضارة الملاوية نفسها وما أنتجت من : فنون ، وآداب ، وعلوم ، ونُظم حكم ، وإدارة ، ومفاهيم متصلة بالعدالة ، وسيادة حكم القانون ، ما هى فى الواقع إلا انعكاس «لمحاولات» التمسك بالإسلام والالتزام بتعاليمه وأحكامه فى الحياة . أقول هنا «محاولات» ؛ نظراً لأن هناك صراعات وتناقضات فى تفسير التعاليم الإسلامية . فرغم أن كل الملاويين سنيون ويتبعون المذهب الشافعى ، إلا أن تفسير الإسلام وتعاليمه عندهم يختلف فى حالات كثيرة نظراً لعدم وجود معيار قياسى أو نسق واحد للقياس ، الأمر الذى يتسبب فى إحداث كثير من التضارب والتناقض للماليزيين فى اختيارهم للطريق القويم فى

العقيدة الإسلامية . ومع ذلك فإن الشعب الماليزي ظلّ محافظاً على التزامه وتمسكه بالإسلام بوصفه منهجاً يبره له الطريق للحيلولة دون الانحراف عن العقيدة السليمة ، أو إقصاء دورها عن الحياة العامة أثناء السعى لتحقيق التقدم والرفاه المادى .

ونحن فى الواقع نؤمن بأن ما تحقق فى بلادنا من رفاه وتقدم مادى يتفق تماماً مع التعاليم الإسلامية الصحيحة ويصب فى مجرى غاياتها ، خاصة ما يتصل منها بمبدأ الأخوة الإسلامية وحاجة المسلمين لامتلاك القوة وأسبابها للدفاع عن أنفسهم وعقيدتهم ضد مطامع الأعداء الذين يسعون إلى إيقاع الفتنة والتجزئة بينهم والإجهاز على دينهم . كما نرى أن الاستقرار السياسى وبسط نظام الحكم العادل والصالح فى البلاد ، وامتلاك ناصية العلوم والتكنولوجيا والثورة المادية وكل أسباب التطور الحديثة ، ما هى إلا جزء من عملية تقوية الأمة الإسلامية وتعزيز قدراتها بما يمكنها من الدفاع عن عقيدتها ويسمح للمرء المسلم باستيفاء واجبه الدينى فى العمل بالمعروف والنهى عن المنكر .

إننا ننظر لكل محاولة لإضعاف وضرب الأخوة الإسلامية وكل خصومة فاجرة وعنيفة فى صفوفنا ، وتقتيل بعض إخواننا باسم الإسلام لأغراض سياسية ومصالح شخصية ، على أنها لا تمتّ لديننا بصلّة ، بل تقع على النقيض منه تماماً . كما أننا نعتقد أن التزامنا جانب العدل والقسط فى تعاملنا مع غير المسلمين الذين لا يبادلوننا العداء ولا يُشكّلون خطراً علينا ، نابع من التعاليم الإسلامية الصحيحة ، وعلينا أن نتذكر دائماً أنه بقدر ما أننا لانطبق ولا نقبل اضطهاد وقمع الأقليات الإسلامية فى البلدان التى يهيمن عليها غير المسلمين ، ينبغى ألا نرتكب الخطأ نفسه بحق الأقليات غير الإسلامية التى تعيش بيننا .

إن مجرد استرشادنا بهذه المبادئ الإسلامية (أو المقبولة إسلامياً على الأقل) فى ممارسة حياتنا اليومية ، سيجعلنا نفعل ما يرضاه المولى عز وجل فى هذه الدنيا ، ويجلب لنا الثواب فى الحياة الآخرة .

هذا لا يعنى أن كل المسلمين يتفقون مع مفهومنا لقضايا الدين الإسلامى وتعاليمه

ودوره في الحياة ، بل على العكس إذ يختلف كثيرون مع طرحنا ويصفوننا بدعاة «العلمانية» . نحن لانهتم كثيراً بمجادلة أولئك النفر من المسلمين ؛ لأننا نعلم مسبقاً أنهم لن يقتنعوا بحججتنا وأن موقفهم هذا لن يهز قناعتنا بأن سلوكنا وممارستنا يتفقان مع التعاليم الإسلامية ويصبان في المجرى العام للقضايا الإسلامية . وبقيني أن ليس ثمة ما يحملنا على الاقتناع بأن الإسلام يطالبنا باستصدار أحكام ضد إخواننا من المسلمين الآخرين واستخدام العنف ضدهم بما يؤدي إلى إضعاف الأخوة الإسلامية ، ويتسبب في تمزيق وحدة الأمة الإسلامية ، ويضطر إخواننا في العقيدة للاعتماد على غير المسلمين والاحتماء بهم بدلاً من اللجوء إلى إخوانهم المسلمين .

هذا هو إيماننا وعقيدتنا في ماليزيا ، ونحن لانطالب أحداً - أياً كان - أن يُثمن جهدنا أو أن يشيد به ، كما أننا لانهتم كثيراً بمن يسعى لإدانتنا ، فالمولى عز وجل هو الذي يحكم فينا في الدنيا والآخرة ، ولا أحد يعلم ما تسطره له مشيئة الخالق .

الفصل السابع عشر

الإسلام لا يعوق التطور *

كما هو معلوم لدينا جميعاً ، فإن ماليزيا وإندونيسيا وبيروناى دار السلام ، هي الدول الإسلامية الثلاث الوحيدة على نطاق منطقة جنوب شرق آسيا وإقليم محيط الباسيفيك ، بينما توجد أقليات إسلامية فى بقية بلدان المنطقة تخضع لحكم السواد الأعظم من غير المسلمين . وقد نجح المسلمون فى الغالبية العظمى من هذه البلدان فى تحقيق قدر عال من التكامل والاندماج فى مجتمعاتهم المحلية ، دون أن يفرطوا أبداً فى عقيدتهم وهويتهم الإسلامية . كما نجحوا فى إنشاء جمعيات خاصة بهم لالتعميق الصلات وتعزيز التواصل بين بعضهم بعضاً فحسب ، بل ولبناء المساجد والمدارس ومعاهد ومؤسسات الرعاية الاجتماعية ، بما يحقق مصلحة الأمة الإسلامية . وقد أبدت الحكومات فى بعض تلك الدول اهتماماً كبيراً بمساعدة المسلمين من خلال تخصيص قطع الأراضى لكى يقيموا عليها مساجدهم ، ووفرت لهم كثيراً من التسهيلات الأخرى الخاصة بتعليم الأطفال الدين والعلوم الإسلامية . ولكن يبدو أن المشكلة الوحيدة التى تواجهها تلك الأقليات الإسلامية فى البلدان غير الإسلامية بالمنطقة تكمن فى المسلمين أنفسهم ، ذلك أن الخلافات الإثنية التى تُمزق كياناتهم لم تترك لهم فرصة للتعلّم كيف يتعايشون مع بعضهم بعضاً ، وأقعدتهم عن إيجاد صيغة تكفل لهم مدّ جسور التعاون بين بعضهم البعض بما يتفق وينسجم مع التعاليم الإسلامية السمحاء . ليس ذلك فحسب ، بل إن معظم قضايا أولئك المسلمين تعتمد

* خطاب فى أعمال الجمعية العامة التاسعة لمؤسسة (Riseap) بمناسبة الذكرى الخامسة عشرة لتأسيس المؤسسة ، كوالالمبور - ماليزيا ٦ سبتمبر ١٩٩٦ م .

على قدرات قياداتهم . وإذا ما وجدت تلك القيادات مجموعات من العناصر المخلصة والمتزمنة بالمضى قدماً في سبيل الله - سبحانه وتعالى - والمتحررة من الاعتبارات الأخرى ، فمن المؤكد أنه ستكون هناك وحدة قوية وتعاون لصيق بين مختلف الأقليات الإسلامية ، مما يجعل من وحدة الأمة الإسلامية واقعاً ملموساً في الحياة .

أما في البلدان التي كانت حكوماتها تفرض من قبل قيوداً على حرية الاعتقاد ، فقد لاحظنا بسعادة غامرة ، أن هناك مؤشرات واضحة في السنوات الأخيرة على تغيير في تلك السياسة من جانبها ، ونأمل أن يتطور ذلك التغيير إلى سياسة ليبرالية إزاء القضايا بحرية الأديان . دعونا نتفاءل ونضرع للمولى - عز وجل - بألا يطول انتظارنا ، وفي هذه الأثناء نتمنى أن يسعى مسلمو تلك الدول بجهد ومثابرة لإعداد أنفسهم لإعادة تجديد عقيدتهم وإعادة بناء مؤسساتهم التي تدعم جهودهم ، بما يؤدي إلى التمكين للإسلام لكي يتبوأ مكانته الحقيقية في المجتمع .

لقد تنامت قوة (Riseap) ومن اللافت للنظر أن عدداً مهماً من الطلبات الجديدة المقدمة لنيل عضوية (Riseap) وردت من خارج منطقة جنوب شرق آسيا وإقليم الباسيفيك وتحديداً من أوروبا وأمريكا وإفريقيا . وبينما تبدو هذه الطلبات جزءاً لا يتجزأ عن منظومة (Riseap) إلا أن دستور هذه المنظمة لا يسمح بقبول عضوية تلك المنظمات . ومع ذلك فإن بإمكان (Riseap) أن يرتبط بتلك المنظمات بعلاقات الصداقة والتعاون القائمة على روح الإخوة بين أعضاء الأمة الإسلامية دون منحها عضويته الرسمية . وباعتقادي أن من الخطأ الكبير أن يرفض (Riseap) إقامة أي نوع من العلاقات مع منظمات كهذه بحجة أنها من خارج المنطقة . نحن نعلم أن الإسلام يتجاوز الحواجز الإثنية والجغرافية ويقضى بأن المسلمين أخوة في كل بقاع المعمورة . وانطلاقاً من ذلك فإن المسلمين مطالبون بمدّ جسور التعاون بين بعضهم بعضاً في السراء والضراء . وهذا التعاون يعزز قوة وإمكانات المسلمين ويضعهم في وضع

يمكنهم من مجابهة الأزمات متى وأينما وقعت .

في هذا السياق فإن (Riseap) لم يتردد أبداً في مدّ يد العون والمساعدة للاجئين البوسنة والهرسك الذين طلبوا اللجوء إلى ماليزيا ، رغم أنهم لا ينتمون إلى منطقة المحيط الهادى أو جنوب شرق آسيا . وقد يمكن (Riseap) بالتعاون مع المنظمات غير الحكومية الأخرى من تقديم المساعدة للبوسنيين ، ليس على مستوى المأوى والدعم اليومي فقط ، لكنه وقر فرص التعليم لأبنائهم والوظائف للشباب الناضجين منهم بهدف تمكينهم من الاعتماد على أنفسهم بدلاً من الاتكال على المعونات والهبات .

وفى وقت لاحق ، وجد (Riseap) نفسه أمام تحدٍّ بتوفير فرص تدريس أساسيات الدين الإسلامى لحديثى الإسلام من إفريقيا والبلدان الأوروبية الأخرى . وقد وفد أولئك المسلمون الجدد إلى ماليزيا نظراً لما سمعوه عنها من استقرار وأمن وتجانس بين مختلف الديانات . وعندما تعرض المسلمون فى الشيشان لأبشع المجازر على يد القوات الروسية الضارية ، اتخذ (Riseap) والمنظمات الإسلامية غير الحكومية فى ماليزيا موقفاً متشدداً من ذلك العدوان ، وطالبوا المجتمع الدولي بوقف المذابح وتقديم المساعدات الإنسانية لضحايا العدوان الروسى .

واليوم ، يحتفل (Riseap) والمنظمات والجمعيات المنضوية تحت لوائه ، بالذكرى الخامسة عشرة لتأسيسه ، فى وقت تم فيه تدشين مدخل وتوجه جديدين لحركة الدعوة الإسلامية . إنه توجه أصبح يُعرف «بالدعوة بالحال» ويركز على العمل والأعمال الطيبة التى لن يتردد أى إنسان سوى عن القيام بها لمساعدة جيرانه المباشرين وإخوانه فى العقيدة وفى الوطن وزملائه ، فى أوقات المحن والكرب ، هذا التوجه الدعوى الجديد لا يهدف لإقناع غير المسلمين على الاهتداء بالرسالة الخاتمة فحسب ، بل الأهم من ذلك هو إبراز التعاليم الإسلامية الصحيحة وكيفية ممارستها عملياً . هذا المنهج سيساعد فى

تصحيح الصورة المشوّهة التي تحملها الغالبية العظمى من غير المسلمين بالذات عن الإسلام . ونلاحظ أن المسلمين أنفسهم واقعون تحت تأثير مفهوم خاطئ ويعيد كل البعد عن الإسلام . ذلك أنهم يعتقدون أن ما يقدمونه من مساعدة ومظاهر وتعاطف وتراحم ، ينبغي أن يقتصر على المسلمين فقط دون الآخرين . وبالمقابل فإننا نجد بين المسلمين من يعتقد بأنه لا حرج في تلقي المسلمين للمساعدات التي يوجد بها الكفار . وثمة حالات كثيرة يقدم فيها الكفار مساعدات ضخمة للمسلمين ، في حين يتجاهل المسلمون مساعدة إخوانهم في العقيدة . هذا السلوك لا يساعد في تكوين صورة جيدة عن الإسلام والمسلمين ، وينبغي علينا أن ندرك أن من أولى واجباتنا مساعدة وإغاثة إخواننا المسلمين في كل مكان ، بل ينبغي علينا ألا نقف مكتوفي الأيدي إزاء المحن والكوارث التي تحمل بغير المسلمين . صحيح أن (الدعوة بالحال) قد لا يكون القصد منها إقناع الناس باعتماد الإسلام ، إلا أنها ينبغي على الأقل ، أن تساعد في توسيع دائرة الفهم والاحترام للإسلام وتوضيح ماذا يعني أن يكون المرء مسلماً .

إننا لا يمكن أن نلقى باللائمة كاملة على الكفار لكونهم يسيئون فهم الإسلام وما يضمرونه من عداوة سافر له في بعض الأحيان . فالحقيقة تقتضي أن نعترف بأن القصور غالباً ما يكون من طرفنا نحن المسلمين ، لقد كانت الحضارة الإسلامية في يوم من الأيام محل احترام وتقدير كل الشعوب ، وكان المسلمون يحتلون مركز الريادة في كافة مجالات العلوم : من طب ورياضيات وملاحة وفلك وهندسة ومعمار وتشبيد . كما كانت الأمصار الإسلامية موحدة تحت لواء خلافة واحدة ، لها من القوة ما يهابه الأعداء . ورغم ما حققوه من نجاحات وفتوحات وثروات وقوة ، إلا أنهم لم يهملوا أمور دينهم . ومعنى آخر ، فإن المسلمين كانوا آنذاك يأتمرون بما أمر به القرآن من ضرورة العمل للأخرة والحياة الدنيا على قدم المساواة .

بيد أن الأمر اختلف تماماً بمعنى فئة من المسلمين تطالب بالانقطاع تماماً للحياة

الأخرى ، وقد ذهب الغلاة إلى حدّ أدانوا فيه كل ما يتصل بالحياة الدنيا التي خلقها أيضاً المولى سبحانه وتعالى ، زاعمين أنها جنة الكفار على الأرض ؛ نظراً لأنهم سيردون الهلاك فى الحياة الأخرى . بانتشار هذه النزعة المنحرفة بدأ اهتمام المسلمين بالعلوم الدنيوية يضعف شيئاً فشيئاً ، ومرار الوقت فقد المسلمون مهاراتهم ومعارفهم ليفقدوا فى وقت لاحق قوتهم التى مكنتهم من بسط نفوذهم على بقاع واسعة من المعمورة ، ولجمت عنهم جموح الأعداء . هكذا تدهورت الأمة الإسلامية للدرجة أصبحنا لا نرى اليوم معها إلا مظاهر الضعف أينما التفتنا وكل ما يجسد الإثكالية والاعتماد على الأعداء . لقد اندثر العصر الذهبى للأمة الإسلامية واختفى معه التقدير والاحترام للإسلام والمسلمين الذين ضل بعضهم عن السبيل وفقدوا الثقة فى دينهم الخفيف .

وإذا ما أراد المسلمون أن يعيدوا للدين الإسلامى وللأمة مجدها ، لابد لهم من أن يسعوا سعياً جاداً لاستعادة قوة الأمة الإسلامية وريادتها فى جميع المجالات من معارف حديثة ومهارات إدارية خاصة على صعيد إدارة علاقات البلدان الإسلامية بين بعضها البعض ومع الآخرين ، إضافة إلى تعزيز مكانتهم الدولية فى مجالى الصناعة والتجارة . ويكلمات أخرى ، فإن استعادة أمجاد الأمة الإسلامية تتطلب أن يعمل المسلمون بنجاح كبير فى الدنيا بمثل ما يعملون لآخرتهم ، شريطة أن يكون ذلك متفقاً تماماً مع التعاليم الإسلامية . ولا شك فى أن غير المسلمين لن يقتنعوا بما ترويه لهم عما يتظرنا من نعيم فى الحياة الأخرى ، مادامنا على حالنا الحالية من ضعف وتشرذم وخضوع للقوى المهيمنة وعداء بين بعضنا البعض لأتفه الأسباب وفى حروب غير مجدية تقضى على الأخضر واليابس ، إضافة إلى ما نعكسه لهم من تناقض بين ما نبشّر به وما نأتى به من ممارسة عملية .

إن أفضل مدخل للدعوة الإسلامية هو أن نعكس بالدليل العملى لغير المسلمين

روح الإسلام الحقيقي وجوهه ، بما تعنيانه من حُسن معشر وسماحة ورأفة وعفو وتراحم يتعدى حدود العلاقة بين المسلم وأخيه المسلم ليشمل الكفار الذين يعيشون في حال من الفقر والعوز ، كما ينبغى أن نبين لهم بالدليل العملى ما نعيشه في بلداننا الإسلامية من سلم واستقرار وتآلف ورفاه في ظل إدارة مخلصه وعلى قدر عال من الكفاءة . صحيح أننا يمكن أن نتجادل مع غيرنا من المؤمنين بما ينتظر المسلمين من ثواب ونعيم في الحياة الأخرى ، لكن ينبغى ألا نتوقع من الذين لا يؤمنون أصلاً بالأخرة ، أن يقتنعوا بالثواب والعقاب ويسارعوا باعتناق الإسلام .

هذا بالضبط ما تعنيه استراتيجية (الدعوة بالحال) التي ذكرناها آنفاً . بمعنى أنها لا تقتصر على إسداء الأعمال الخيرية للآخرين من قبيل مساعدة الفقراء وتشيد المدارس والمستشفيات فقط ، بل تشمل على إقناع غير المسلمين بالممارسة العملية بأن الإسلام لا يشكل عبءة تحول دون التقدم والتطور والنمو وأنه لا يعوق اكتساب المهارات الإدارية العالية وتطبيقها في حيز الواقع ، ولا يحرم مراكمة الثروة عن طريق القدرات التجارية والصناعية ، ولا يمنع إعداد القوة الكفيلة برده المعتدى الذى يحاول القول على الضعفاء . إن نجاح المسلمين والأمة الإسلامية في مختلف مناحى الحياة كفيل بإقناع غير المسلمين بالوجه الحقيقي للدين الإسلامى أكثر من المواعظ والخطب خاصة عندما يكون هناك تناقض بين الأقوال والأفعال .

هذا الحديث عن (الدعوة بالحال) يجىء في وقته المناسب ، وإذا كان المسلمون يؤمنون أن بإمكانهم أن يلحقوا بركب البشرية فعليهم أن يشرعوا مباشرة في السعى لتحقيق ذلك ، وعندها سينفتح الباب أمامهم لاستعادة أمجاد الإسلام الضائعة . هذه هي (الدعوة بالحال) التي تقوم على الممارسة وليس على التنظير الأجوف . وإذا كان المسلمون مخلصين في سعيهم لتوضيح روح وجوهه وفلسفة الإسلام ، فإن (الدعوة بالحال) هي أسهل الطرق للوصول لذلك الهدف ؛ لأنها تقوم على الفعل والإنجازات

الملموسة .

وأنا على يقين من أن كل المسلمين يمكن أن يكونوا أفضل دعاة للإسلام ، ليس بالمواعظ والحض على فعل الخير وترك الشر فحسب ، بل الالتزام الشخصي بفعل الخير والابتعاد عن الشر ، وعلى صعيد ممارستنا العملية اليومية ، وهذا هو الأوقع والأهم .

الفصل الثامن عشر العدالة الإسلامية *

العدالة الإسلامية واحدة من أكثر القضايا التي تنطوي على أهمية بالغة لنا كمسلمين ولا يمكننا أن نتحدث عن تنمية واستقرار مجتمع ما دونها ، كما أنه لا يمكننا أن نتصور أن بلاداً ما يمكن أن تبلغ مرحلة الرفاه الاقتصادي أو حتى مجرد أن تحافظ على وحدتها ووجودها على وجه المعمورة ، دون أن يتوفر لها نظام يكفل العدالة بين جميع الأطراف فيها . وما لا شك فيه أن هناك علاقة طردية بين العدالة والتنمية ، فكلما تطورت مفاهيم إدارة العدالة أسهم ذلك في تعزيز إمكانية إحداث التنمية . لذلك فإن مصلحة البلدان الإسلامية والمسلمين عامة تقتضى إيلاء قضية العدالة وأجهزتها اهتماماً بالغاً .

عندما جاء الإسلام بمفاهيم العدالة للمجتمع الجاهلي واستحدث آليات تطبيقها ، توحد العرب لأول مرة في أمة واحدة وبلغوا مرحلة الرفاه . وبالمقابل فإن الحضارة الإسلامية التي أنتجوها لم تتراجع إلا بعد أن تم تشويه القوانين الإسلامية وانحراف الناس عن العدالة الإسلامية .

بداية ، دعوني أقتبس عدداً من الآيات القرآنية التي سوف نسترشد بها في هذه المداخلة ، وأنبه إلى إنها من سور ومواقع مختلفة في القرآن الكريم ، لكنها تعبر عن العدالة الإسلامية وجوهرها باستمرار . وقد وقع اختياري عليها لأنها متطابقة وتعكس المثل التي تنفذ إلى مفهوم العدالة في الإسلام ، وتطبيقه في الواقع العملي . ولتقتضيات ضرورية ، سأقدم

* كلمة رئيسية في أعمال السمنار الدولي لإدارة القوانين الإسلامية ، الذي نظمه المعهد الماليزي للفهم الإسلامي بالعاصمة كوالالمبور . في ٢٣ يوليو ١٩٩٦ .

الترجمة الإنجليزية التي أعدها يوسف على مع التذكير بأن النسخة العربية والترجمات الملاوية متوفرة لكل من يرغب بالتحقق . ونبدأ بالآية (١٢) من سورة الملك ، إذ يقول المولى عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (١٢) ﴿ صدق الله العظيم . والآية (٥٨) من سورة النساء ؛ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (٥٨) ﴿ صدق الله العظيم . والآية (٩٢) من سورة النساء ، إذ يقول المولى عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ لِمَنْ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (٩٢) ﴿ صدق الله العظيم . ويقول الله سبحانه وتعالى في الآية (٤٢) من سورة المائدة : ﴿ سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلسَّخْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٤٢) ﴿ صدق الله العظيم . كما جاء في محكم تنزيله في الآية (٣٣) من سورة الإسراء : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ (٣٣) ﴿ صدق الله العظيم . ويقول المولى عز وجل في الآية (٢٧٢) من سورة البقرة : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (٢٧٢) ﴿ صدق الله العظيم . وأود أن أضيف هنا آية بعينها تبين لنا جوانب مهمة في تفسير الآيات القرآنية وهي الآية (٧) من سورة آل عمران : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (٧) ﴿ صدق الله العظيم . هذه الآية توضح لنا بجلاء أنه لا حظر على الأمة الإسلامية من تطبيق الآيات المتشابهات الواردة في القرآن على مختلف المواقف والأحداث والتطورات ، شريطة أن يعتمد

الفقهاء على إعمال نعمة التفكير والتدبر والتبصر التي وهبها المولى عز وجل للإنسان وحده وليس لغيره من سائر المخلوقات . وعندما يتصل الموقف بأمر من أمور العدالة وما يُشكّل مضمونها وجوهرها ، فإنه يتطلب تفكيراً عميقاً .

وأنا أعتقد أننا كلنا متفقون بأن مصدر العقيدة الإسلامية ، وبالتالي القوانين والتشريعات الإسلامية ، هو القرآن والسنة . هذا التأكيد مهم جداً ؛ لأن هناك من يقولون بأن بعض الآيات القرآنية وبصفة خاصة الآيات المكية ، قد تم نسخها بواسطة الحديث . لكننا نؤمن إيماناً قاطعاً بأن القرآن الكريم لم يتغير ، وعندما حقق الإمام البخارى ستمائة ألف حديث وفحصها ، رفض قبول الغالبية الساحقة منها ولم يثبت إلا صحة نحو سبعة آلاف حديث ، كما أن الإمام مسلم والإمام الترمذى وغيرهما قد رفضا صحة الغالبية الساحقة أيضاً من الأحاديث التي تحققوا من صحتها . ويلاحظ أنهما رفضا صحة بعض الأحاديث التي أثبت الإمام البخارى (أستاذ الإمام مسلم) صحتها . وبمعنى آخر فإن عدد الأحاديث التي أثبت صحتها كل واحد من هذين الفقيهين ، كان يقل عن العدد الذي انتهى الإمام البخارى إلى تأكيد صحته . ويمكننا أن نستنتج من ذلك أنه حتى أولئك الأئمة قد اختلفوا فى تحقيق صحة عدد كبير من الأحاديث منذ ذلك الوقت الباكر . كما يمكننا أن نستنتج أيضاً أن هناك عدداً كبيراً من الأحاديث غير الصحيحة وهذا الاستنتاج سليم جداً ، وإلا فلم رفض أولئك العلماء المتفقون فى شئون الدين ، عدداً كبيراً من الأحاديث؟

ونحن نميل إلى قبول نتيجة التحقيق التى انتهى إليها هؤلاء الفقهاء ، إلا أنه لا بد من التذكير دائماً مهما بلغ الإمام البخارى والإمام مسلم والإمام الترمذى من تبحر فى شئون الدين ، فإنهم ليسوا أنبياء . إنهم بشر عاديون وفيهم نقاط ضعف مثل سائر البشر . وبعبارة أخرى قد يكون فى ما ذهبوا إليه قدر كبير من الصحة ، لكن المؤكد أن نتائج بحثهم وتدقيقهم ليست معصومة من الخطأ . وربما يكونون قد أثبتوا صحة بعض الأحاديث الموضوعية ورفضوا عدداً من الأحاديث الصحيحة . . . كل ذلك وارد وغير

مُستبعد .

وهناك مقولة تنص على أن العلماء هم ورثة الأنبياء . . وإذا افترضنا صحة هذه المقولة فهل لنا أن نقبل بصحة ادعاء أى عالم بأنه أحد الورثة المشار إليهم ، علماً بأن البشر ليسوا معصومين من الخطأ ! وهل لنا أن نوافق على صحة مزاعم الفقهاء السياسيين الذين يتبنون أجندة دنيوية واضحة وضوح الشمس فى كبد السماء؟

يحدثنا التاريخ فى هذا المقام عن عدد كبير من العلماء أو الفقهاء السياسيين الذين لم يتورعوا عن تبرير كل ما يأتى به سادتهم من الحكام بصرف النظر عن مدى صوابه أو خطئه . وهناك صعوبة حقيقية فى الموافقة على رأى القائل بأن الأحاديث من القوة التى يُعتدّ بها عندما تتناقض مع الآيات القرآنية أو أن نأخذ بالأحاديث أكثر مما ورد فى القرآن . لكن ماذا عن القوانين الإسلامية؟ لقد تناول القرآن الكريم بعض الجرائم والقوانين والعقوبات على نحو محدد جداً ، غير أن القوانين الإسلامية فى حالات كثيرة ، ما هى إلا نتاج تفسير الفقهاء للقرآن والسنة ، خاصة ما يتصل بالعقوبات الواجب توقيعها فى حالات من الجرائم والخطايا المحددة وغير المحددة .

وإذا كان الأئمة ؛ البخارى ومسلم والترمذى ما هم إلا بشر مثلنا غير معصومين من الخطأ ، فإن فرص وقوع الفقهاء المسلمين الآخرين فى الخطأ تكون أكبر بالطبع ، مع ملاحظة أن معظم أولئك الفقهاء قاموا بتفسير القرآن والسنة فى ظل الظروف والواقع الذى كانوا يعيشون فيه ، والذى كان يختلف كثيراً عن فترة العصر الذهبى للأمة الإسلامية ، ومروراً بأيام اضمحلال الحضارة الإسلامية . كما إنهم عملوا فى ظل حكومات مختلفة وأزمان مختلفة وبلدان وأنظمة متباينة فى كثير من الجوانب . إضافة إلى ذلك فإن بعضهم ربما يكون قد أصدر بعض التفسيرات والأحكام بضغط من الحكام لتبرير بعض الأعمال المقيتة التى كان يرتكبها أعضاء الأسر الحاكمة . وإلا فكيف

نفسر فتوى علماء أجازت للسلطان العثماني الاقتران بنحو ثلاثمائة امرأة كمحظيات وسريات في البلاط الملكي ، وتلك التي أجازت قتل أشقاء السلطان بمجرد اعتلاء الأخير للعرش ، أو وضعهم وراء القضبان لكي لا يُشكّلوا أى تحدّ للحاكم الذي تم تويجه !

وعليه ، إذا كنا لانستطيع أن نقبل كل الأحاديث النبوية دون التحقق من صحتها ، فمن باب أولى ألا نقبل بصحة كل القوانين التي صدرت بموجب تفسيرات وفتاوا أصدرها ذلك العدد الكبير من الفقهاء ، على أنها أمر مُسلّم به كما هو الحال بالنسبة للمولى عز وجل (القرآن) . هذه التفسيرات والأحكام ما هي إلا نتاج عمل يقوم به آدميون بما ينظرون عليه من ضعف بفعل الثقافات والممارسات وأنماط السلوك السائدة في مجتمعاتهم والأزمان التي عاشوا فيها .

ويعلمنا الدين الإسلامي أن نرجع إلى القرآن كلما اختلطت علينا أمور دينية ، ولا شك في أن أي امرئ مسلم حقاً لا يمكن أن يفعل بخلاف ذلك . وإذا لم نرد أمورنا الدينية للقرآن ، فسوف نكون عرضة للخطأ ومجانبة الصواب بسبب ذلك العدد الهائل من التفسيرات والفتاوى التي أصدرها عدد كبير من الفقهاء ، الذين لا نشك في أن بعضهم كان فقيهاً متبحراً في قضايا الدين ، إلا أن البعض الآخر لم يكن أكثر من مجموعة من الدجالين والمشعوذين . إننا نرى في وقتنا الراهن ممارسات عدد من السياسيين بشأن إصدار بعض التفسيرات والأحكام التي تُلصق تهمة الكفر ببعض المسلمين لا لسبب إلا لأنهم لا يؤيدون أحزاب أولئك السياسيين أو لمجرد عدم قولهم للتفسيرات والفتاوى الإسلامية المسيّسة التي يطلقها الحكام .

وبالعودة إلى عهد النبي عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، نجد أن هناك ديناً إسلامياً واحداً لا غير ، ولم يكن هناك وجود لما أصبح يُعرف «بأهل السنة والجماعة» أو

«الشَّيْعة» . كذلك لم تكن هناك طوائف أو مذاهب تتبع الأئمة الأربعة : الشافعي والحنفي والحنبلي والمالكي ، بثلما هو الحال بين المسلمين من سنة وشيعة في وقتنا الحالي . كانت هناك أمة إسلامية واحدة تؤمن بعقيدة إسلامية واحدة . وقد وحّد الإسلام القبائل العربية في أمة إسلامية واحدة تمكنت من نشر الإسلام في ربوع شبه الجزيرة العربية بما فيها مكة ، التي اضطرّ الرسول الكريم للهجرة منها في بداية عهد الرسالة ليعود إليها فاتحاً مظفراً .

وقد ظل المسلمون موحدّين في أمة واحدة على مدى عهد الخليفة الأول سيدنا أبي بكر ومن بعده عهد سيدنا عمر بن الخطاب ، ومروراً بعهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، وبعجى سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، اختلف الناس حول أحقيته في الخلافة ، فانقسم المسلمون إلى طائفتين أصبح لكل واحدة منهما تفسيرها المختلف للمعتقدات والعبادات ، وهو أمر استمر إلى يومنا هذا . فإذا ما أخذنا في الاعتبار أن الدين الإسلامي كان واحداً طوال عهد النبي عليه أفضل الصلاة والسلام ، وعلى مدى عهود ثلاثة من الخلفاء الراشدين ، فيمكننا الاستنتاج بأن كلا الطائفتين لا يمكن أن تكونا ملتزمتين بالطريق الإسلامي القويم . بمعنى أنه يمكن أن تكون واحدة من هاتين الطائفتين ملتزمة بالتعاليم الإسلامية الصحيحة ، بينما انتهت الأخرى وربما الاثنتان إلى طريق غير قويم . لكن أغلب الظن أن الطائفتين على حق في معظم الأحيان ، إلا أنهما جانباً جادة الصواب في بعض جوانب المعتقدات والعبادات .

هذه الملابس تشكل في مجملها سبباً كافياً يقضى بضرورة العودة إلى القرآن للاسترشاد به والسير على هديه في كل ما يستجد على المسلمين من أمور . وبما لاشك فيه أن على المسلمين أن يعودوا إلى آيات الله البينات في كل التشريعات الإسلامية وتطبيقاتها ليتحققوا على الأقل ما إذا كانت كل تلك القوانين التي شرعها وطبقها الفقهاء المسلمون ، مطابقة تماماً للتعاليم الإسلامية الحقّة والأحاديث النبوية الصحيحة .

إننى على يقين تام من أن عدداً من الحاضرين بهذه القاعة الآن وفي أماكن أخرى سيرمونى بالهرطقة ، لكن هل من الهرطقة فى شىء أن نضع علامات استفهام على تفسيرات وفتاوى الفقهاء المسلمين؟ هل أولئك الفقهاء أنبياء معصومون من الخطأ؟ وهل هم على حق أكثر من القرآن والأحاديث الصحيحة؟ علينا ألا نستعجل الحكم بإدانة كل من يتساءل عن مدى حجة تفسيرات الفقهاء للأمور الدينية ، ونلصق تهمة الزندقة والهرطقة بكل من يشكك فى تلك التفسيرات والأحكام .

وباللقاء نظرة عجلى على بعض القوانين الإسلامية فى شكلها الذى نراه فى وقتنا الحالى ، يتضح لنا أنها لا تعبر تماماً عن روح الإسلام وجوهره ، وإذا ما عدنا قليلاً إلى الآيات القرآنية التى اقتبسناها فى بداية حديثى ، واستعرضنا آيات عديدة فى عدد كبير من السور ، نلاحظ أن أهم سمة فى العدالة الإسلامية هى العدل والمساواة والعفو ، وبعبارة بسيطة جداً فإن العدالة الإسلامية تقضى بأن يكون العقاب من جنس الجريمة ، وأن يكون عادلاً بين جميع الأفراد بمختلف مواقعهم ومناصبهم ، مع ضرورة مراعاة الاختلاف فى العقوبة بحسب الظروف التى تحيط بوقوع الجريمة . ومع ذلك فإن القرآن يدعو ويحث على العفو والرفقة ويحض عليهما ويقول بعدم قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق .

هذه الجوانب فى العدالة الإسلامية وردت فى الآية (٥٨) من سورة النساء ، حيث يقول المولى عز وجل فى محكم تنزيله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ صدق الله العظيم . وفى الآية (٤٢) من سورة المائدة ؛ إذ يقول المولى عز وجل : ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلسُّخْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ صدق الله العظيم .

ومن الواضح أن القسط هو العدل والمساواة ، وعندما نتحدث عن الناس أوزجل

ورجل ، فإننا نعتى الأدميين بصفة عامة دون استثناء ضرورة التزام العدل والقسط بينهم .

وعندما نحكم بين رجل وامرأة ، أو بين امرأة وأخرى من بنات جنسها ، علينا أن نتذكر دائماً أن الناس سواسية وأنهم كلهم أعضاء فى المجتمع البشرى . يقول المولى عز وجل فى محكم تنزيله فى الآية (١٣٥) من سورة النساء : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (١٣٥) ﴿ صدق الله العظيم .

فى هذه الآية يأمرنا الإسلام بعدم التمييز بين العباد عندما نفصل فى قضاياهم . ومرة ثانية يأمرنا عز وجل فى الآية (٨) من سورة المائدة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٨) ﴿ صدق الله العظيم .

الأمر الإلهى فى هذه الآية يقضى بأن نطبق العدل حتى فى الحالات التى يكون أحد أطرافها من أعدائنا . ولا شك أن ديننا الإسلامى ينهى عن التمييز فى الأحكام بسبب الجنس ، بين امرأة أو رجل وهكذا . وقد ظلت القاعدة القرآنية «العين بالعين» شعاراً يجسد العدالة الإسلامية ، وهى تدل على المساواة فى العقاب . لكن هل يجوز لنا أن نأخذها حرفياً أم مجازاً؟ المساواة ضرورية ، لكن هل تعنى بالضبط المطابقة تماماً بين الجريمة وبين ما يتم توقيعه من عقاب على الجانى؟

دعونا نعود للآية (٩٢) من سورة النساء : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقتَلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَدَّقُوا فَإِن كَانَ مِنَ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِنَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (٩٢) ﴿ صدق الله العظيم .

هذه الآية الكريمة تكشف عن جوانب عديدة من المفهوم الإسلامى للعدالة . نعم إن قاعدة العين بالعين تعنى الجزاء من جنس الجرم نفسه ، غير أن قتل النفس المؤمنة قد لا يتطلب عقوبة بقتل المجرم فى ظروف بعينها مثل : القتل خطأ ، أو فى الحرب ، أو عندما يحدث القتل بين جماعتين بينهما (ميثاق) . تلك الحالات من قتل النفس يكفى فيها تحرير رقبة مؤمنة ، أو تعويض أسرة القتيل . وإذا تعذر ذلك ينبغى على القاتل صيام شهرين متتابعين .

هذا يعنى أن الظروف التى تحدث فيها جريمة القتل لا بد أن تؤخذ فى الاعتبار عند تحديد جنس العقوبة ، بمعنى أن وقوع جريمة القتل خطأ سواء حدثت بين أعداء أو حلفاء ، كلها تؤثر فى نوعية العقوبة بحق الجانى . وقد ذهب الإسلام إلى أبعد من ذلك ؛ إذ قضت الآية القرآنية أعلاه بأن رقبة عدو مؤمن لا تقل قدسية وتحريمًا عن رقبة أى مؤمن آخر ، وبالتالي فإن عقوبتها لا تختلف ، وهى تحرير رقبة مسلمة . إن النفس مقدسة عند المولى عز وجل كما تنص على ذلك الآية (٣٣) من سورة الإسراء ؛ إذ جاء فى محكم تنزيله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ (٣٣) ﴿ صدق الله العظيم . هذه الآية تنص بوضوح على أن قتل المسلم لأخيه المسلم مُحرم وقد نهى عنه الإسلام نهياً قاطعاً ، غير أننا نجد المسلمين اليوم يحاربون بعضهم بعضاً ويغتالون أعداءهم من المسلمين أكثر مما يقع بينهم وبين الكفار . لكننا لا نرى الآن مسلماً قاتلاً يقوم بدفع الدية لأهل القتيل أو يصوم شهرين متتابعين على سبيل التوبة لله سبحانه وتعالى بعد أن تخلصت البشرية من مؤسسة الرق التى كانت توفر مصدراً للتكفير عن جريمة قتل النفس .

ومع ذلك فإن الإسلام يحث على الصفح والعتفو ؛ إذ لم يرد نص أو أمر قرآنى بتحريمه . وفى الواقع نجد أن العفو أو الصفح عن الجناة وارد وبالتركيز فى كثير من الآيات القرآنية . ونجد فى الآية (١٢) من سورة المُلْك أن توقيع العقوبة قد لا يكون مطلوباً إذا اختارت أسرة الضحية الصفح عن الجانى . يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ

مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴿ صدق الله العظيم .

إن عنصرى العفو والرافة يجدان اهتماماً كبيراً وقويّاً فى الإسلام ، ومع ذلك نجد أن صياغة وتطبيق القوانين الإسلامية يميلان نحو التشدد بأقصى درجة دون أن تأخذ فى الاعتبار الملابس والظروف التى تحدث فيها الجريمة ، بحيث تكون الغلبة دائماً لقاعدة «العين بالعين» . لذلك عندما ترتكب المرأة جريمة قتل دفاعاً عن شرفها ، فإن العقوبة التى توقع عليها هى الإعدام دون اعتبار لكونها شخصاً مؤمناً ، ودون النظر لإمكانية موافقة أسرة القتيل على العفو والصفح . ويلاحظ المرء أن الطريقة التى تنفذ بها القوانين الإسلامية فى الوقت الحالى ، لا تعكس جانبى العفو والرافة . ونجد أن كثيراً من الفقهاء لا يميلون للرافة والعفو والرحمة حتى فى الحالات التى يصفح فيها المولى عز وجل عن عباده .

ولاشك أن القوانين الإسلامية لم يتم تطبيقها على النحو الصحيح والسليم . بمعنى أن تطبيق القوانين الإسلامية فى بلدان إسلامية عديدة يتم على نحو عرضى لا يخلو من الارتجال وعدم الدقة . ومعروف أن آيات القرآن الكريم والسنة النبوية لم تعالج كافة أنواع الجرائم والخطايا . وفى الحقيقة نجد أن طبيعة الجرائم التى كانت تحدث فى عهد الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، تختلف اختلافاً كبيراً عن الجرائم التى أصابت المجتمعات الإسلامية على مدى العصور اللاحقة . وتشير فى هذا المقام إلى أن طبيعة الجرائم التى تقع فى وقتنا الراهن ، لم يرد ذكرها أبداً فى القرآن ولا فى الأحاديث النبوية الصحيحة ، مثل : الجرائم التجارية وتلك المرتبطة بالمخدرات وترويجها واستهلاكها ، وابتزاز وسائل الإعلام الإلكترونية لنشر الصور والأفلام الإباحية وغيرها من أنواع الجريمة المتطورة التى أصبحت تشكل وباءاً حقيقياً على المجتمعات الحديثة .

وعليه ، فإن الأمر يتطلب صياغة قوانين جديدة للتعامل مع طبيعة الجرائم الجديدة ، شريطة أن تتطابق مع روح القيم التى تنفذ إلى لبّ العدالة الإسلامية

وجوهرها كما نجد في عدد كبير من الآيات القرآنية .

إن كيفية تشريع القوانين وصياغتها وإنفاذها في حيز الواقع ليست مهمة بقدر مطابقتها لروح الإسلام والأوامر التي ورد ذكرها بوضوح تام في العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والتي تعكس التعاليم الإسلامية الصحيحة . لذلك فإن القانون لا يمكن اعتباره إسلامياً لمجرد أننا صغناه على أنه قانون شرعى ، بل على العكس من ذلك يمكننا أن نضيف قوانين أخرى تبدو في ظاهرها غير شرعية ، لكننا نصنفها على أنها شرعية متى كانت لا تخالف أو تناقض روح ومبادئ القوانين والحدود التي ورد ذكرها صراحة في القرآن الكريم .

إننا ندرك كلنا أن القرآن الكريم كما هو الحال للكتب السماوية الأخرى ، يعظ الناس من خلال ضرب الأمثال والحكم والعبير والقصص والنوادر ، بينما يترك للمسلمين القيام بتوفيق هيكلية مجتمعاتهم وقوانينهم ونظمهم الاجتماعية وغيرها ، بما يعكس روح ومغزى تلك القصص والأمثال والحكم .

نعم ، إن الأحوال والظروف متغيرة وغير ثابتة ، غير أن تلك الأمثال والحكم والعظات يمكن سحبها على كل زمان ومكان . وكما هو معلوم من خلال الإشارات الواردة عبر الحقب التاريخية كافة ، فإن فقهاء الدين الإسلامى ظلوا على الدوام يفسرون القرآن والسنة وكانوا دائماً يقترحون السبل التي تتم بها بلورة وصياغة القوانين الإسلامية وكيفية تطبيقها . وبطبيعة الحال فإن أولئك الفقهاء كانوا يتأثرون بمراحل وظروف تطور المجتمع الإسلامى نفسه . فقد كانت هناك فترات بلغ فيها المسلمون أوج مجدهم عندما حكموا مساحات شاسعة بالقارات الثلاث ، وشكلوا غالبية السكان عن طريق الفتوحات ، فى حين كفلت لهم براعتهم وريادتهم فى مجال العلوم والمعرفة والمهارات العالية ، الهيمنة على المجتمعات التي كانوا لا يمثلون فيها إلا أقلية محدودة .

ولاشك أن واقعاً كهذا كان يسمح للمسلمين بفرض كل ما ينظرون إليه على أنه متفق ومتطابق مع مبادئ وروح الإسلام من قوانين ، فى حين لم يكن لغير المسلمين غير القبول بما يفرض عليهم من قوانين وأحكام . فعلى سبيل المثال كان غير المسلمين لا يمانعون فى إخراج الجزية ، وهى ضريبة إسلامية تُجنى على الرأس متى وأينما فرضت عليهم ، طالما كان المسلمون من جانبهم يدفعون الزكاة . وبنفس القدر كان غير المسلمين غير مطالبين بالالتحاق بالخدمة العسكرية فى الدولة الإسلامية . وفى المقابل تم تجنيد أبناء غير المسلمين فى مراحل مبكرة من أعمارهم وفى فترات زمنية عديدة للعمل فى الخدمة العسكرية الإسلامية وقد انخرطوا فى هذا المجال دون تردد .

بيد أن ذلك العصر الذهبى قد انتهى ولم يعد بمقدور البلدان التى يشكل فيها المسلمون أغلبية السكان ، أو حتى البلدان الإسلامية مئة فى المئة ، تجاهل رأى العام العالمى والضغط التى تأتى من الخارج ، ولا بد من أخذ كل هذه المعطيات فى الاعتبار لتبنى أى موقف سواء على المستوى المحلى أو الخارجى .

ثمة ممارسات عديدة أصبحت تجلب على الحكومات ضغوطاً وإدانات قوية ، لكنها كانت فى الماضى سائدة ومقبولة أديباً وأخلاقياً . ذلك أن استرقاق الإنسان لأخيه الإنسان على سبيل المثال ، كان ممارسة شائعة فى كل المجتمعات ، غير أنه تمّ حظره تماماً ولم يعد بإمكان أى إنسان امتلاك رقيق حتى فى البلدان الإسلامية . هذا الواقع طرح تساؤلات عن الكيفية التى تتيح للمرء المسلم التكفير عن ذنبه فى حال قتل مسلم آخر فى ظل عدم وجود رقيق لتحرير رقبة مسلم من بينهم . لكننا لا بد من أن نتذكر دائماً أن المولى سبحانه وتعالى يضع للمؤمن بدائل عديدة ؛ إذ ترك له فى هذه الحالة خيار صيام شهرين متتابعين للتكفير عن قتل رقبة مسلمة .

على الجانب الآخر هناك بلدان لم يعد المسلمون يشكلون فيها أغلبية تُمكنهم من

الهيمنة على الحكم أو أقطار أخرى هاجروا إليها وأصبحوا يشكلون فيها أقليات . وبطبيعة الحال فإن هذه الأقليات الإسلامية لن تستطيع فرض القوانين الإسلامية على مجتمعاتها الجديدة بذات الطريقة التي كانت تحدث أيام عظمة الدولة الإسلامية وتفوق المسلمين . وبدلاً من ذلك فإن الأقليات المسلمة تكون مضطرة في هذه الحالة إلى الخضوع للقوانين المطبقة في البلاد المعنية والتي لن تكون مستمدة من أصول إسلامية ، إن لم تناقض التعاليم الإسلامية جملة وتفصيلاً .

لكن إذا ما كان أساس القوانين التي يحتكم إليها المسلمون وجهاز إدارتها مستنداً إلى القرآن الكريم ، فإن المسلمين لن يجدوا صعوبة تُذكر في تلك المجتمعات ؛ نظراً لأن القرآن الكريم يوفر للإنسان بدائل عديدة ، ويترك له الخيار في الأخذ بما يشاء . ولذلك إذا لم يجد المسلم رقبة مسلمة ليعتقها ، فيأمكنه أن يصوم شهرين متتابعين أو يكتفى بدفع الدية بأكثر من شكل وأسلوب . وبصفة عامة نلاحظ أن القانون يوقع العقوبات على الناس بوسائل عديدة مثل : الغرامة المحددة أو الحبس لفترة بعينها ، ولا بد من أن نؤكد في هذا المقام أن القرآن والسنة لم يتركا أمراً ما من الشئون الدنيوية أو الدينية دون أن يترحا له بدائل عديدة وواضحة . وعندما يكون المسلم مقيماً ضمن أقلية في بلاد أجنبية ، فإنه لن يستطيع فرض القوانين والحدود الواردة في كتاب الله جل شأنه أو حتى تلك القوانين التي صاغها الفقهاء المسلمون في أي بلاد أو في الماضي . لكن على كل ، فإن القرآن مرن لأبعد الحدود ؛ إذ يجوز للمسلم أخذ كافة الظروف والملابسات الأخرى من حوله بعين الاعتبار . وفي ضوء ذلك فإن بإمكان المسلم الذي لا يستطيع أداء الصلاة مثلاً بشكلها الذي نؤديها في بلداننا الإسلامية لأسباب موضوعية ، أداء صلواته بأكثر من طريقة . وإذا لم يستطع صيام شهر رمضان لأعدار مقبولة فإن الإسلام لا يحتمل المسلم ما لا طاقة له به . ويحثنا القرآن على اعتماد الحجة والإقناع والموعظة في مجادلة الآخرين إذا كنا لا نستطيع استخدام ما لدينا من

قوة .

إن مسألة المرونة موجودة في كل سورة من سور القرآن الكريم وفي معظم الأحاديث النبوية الشريفة كذلك وما لا شك فيه أن العقيدة الإسلامية نفسها ليست مفروضة فرضاً على أتباع الدين الإسلامى الحنيف ، وليس الغرض منها أن تكون عبثاً يُثقل كاهل المسلمين بغرض إجبارهم على أداء عبادة أو طقس أو ممارسة ما ليس باستطاعتهم أدائه . وبالرغم من ذلك فإن المسلمين يرتكبون جرائم بإمكانهم أن يتحاشوا الوقوع فيها مثل قتل المسلم لأخيه المسلم ، في وقت يفشلون فيه في عمل أشياء باستطاعتهم أن يقوموا بها مثل : العفو والصفح عن المجرم أو المخطئ .

وبرغم المرونة المتوفرة في الإسلام ، إلا أن فقهاء المسلمين في الماضي كانوا يميلون إلى تقديم تفسيرات متزمتة للقرآن كما قاموا بصياغة قوانين في منتهى القسوة لا تأخذ بالاعتبار الظروف والملابسات المحيطة بوقوع الجريمة ولا ظرف وحالة المجرم نفسه ولا النظر في مدى إمكانية تطبيقها في الواقع ويبدو أن بعض تلك القوانين قد تأسس على قاعدة غير سليمة من ناحية مراعات مبادئ العدالة الإسلامية . فلنفترض على سبيل المثال ، أن أسرة إسلامية ما تعيش في مجتمع أجنبي وقامت بقتل إحدى بناتها لأنها ارتكبت جريمة زنا مع شخص غير مسلم ، اعتقاداً من الأسرة أن واجبها الدينى يحتم عليها توقيع عقوبة القتل على البنت . في هذه الحالة فإن السلطات المحلية تتعامل مع هذه الجريمة على أنها جريمة قتل بصرف النظر عن الاعتبارات الأخرى .

من ناحية أخرى ، نجد أن قتل البنت لارتكابها ذنباً من هذا القبيل دون حكم تُصدره هيئة قانونية مؤهلة للبت في مثل تلك القضايا ، أمر يثير كثيراً من الجدل في أوساط فقهاءنا وعلمائنا المسلمين ، لكونه لا يتطابق مع القوانين الإسلامية ومبادئ العدالة الإسلامية . وربما يتفق هذا الموقف مع ثقافة عرب الجاهلية الذين كانوا يبدون

بناتهم ويقتلون نساءهم فى قضايا الشرف ، أكثر منه مع الأحكام والقوانين الإسلامية . غير أن تلك الأسرة انطلقت من اعتقاد بأنها تطبق التعاليم الإسلامية دون أن تأخذ فى الاعتبار مرونة الإسلام وحضه على الرأفة والرحمة والعفو ، وبمعزل عن الواقع الذى حدثت فيه جريمة الزنا ، ودون اعتبار للثقافة السائدة فى ذلك المجتمع الأجنبى ، التى تختلف تمامًا عن الثقافة الإسلامية . هذه الأسرة ومن ينحو نحوها تنطلق من كون التزمت والتشدد يدلان على الخضوع والامتثال لأوامر الإسلام ، وما عدا ذلك فهو مخالف للتعاليم الإسلامية . إنها تنطلق من ذهنية تنسجم تمامًا مع العقلية الجاهلية التى سبقت مجيء الإسلام .

هناك أناس يميلون إلى الإصرار على أن مفهوم العدالة فى الإسلام يختلف عن مفهومها لدى المجتمعات غير الإسلامية وبصفة خاصة تلك التى يهيمن عليها الأوروبيون . صحيح أن مفهوم العدالة الغربى يختلف كثيرًا فى وقتنا الحاضر عن مفهومها العالمى والإسلامى بصفة خاصة ، لكننا إذا نظرنا إلى الماضى لوجدنا أن ارتكاب الزنا فى الغرب كان يُعد جريمة تستحق العقاب أيضًا ، بعكس ما يجرى فى الوقت الحاضر ، إذ يُمارَس الزنا فى تلك البلدان على نطاق واسع جدًا ، ولا تملك أية جهة رسمية حق توقيع عقوبة على من يفعل ذلك ، وأقصى ما يمكن أن يترتب على هذه الفعل هو الطلاق بين الأزواج . غير أن الإسلام كان وما زال يعتبر الزنا خطيئة وجريمة يعاقب عليها المجتمع وليس الزوجان أو أسرتهما . إضافة إلى ذلك كان المفهوم العالمى لعقوبة القتل هو القتل ، لكن الغرب أصبح ينظر إلى هذه العقوبة فى وقتنا الحالى ، على أنها لا إنسانية وتتنافى مع حق الإنسان فى الحياة . وبالمقابل فإن المجتمع الإسلامى ما زال يعاقب على جريمة القتل بالقتل ، عملاً بالمبدأ العقابى «العين بالعين» .

لكن باستثناء تلك الفروق البينة فى المبادئ حول مضمون العدالة ، فإن فكرة

الخطأ والصواب في الإسلام ومبدأ معاقبة المجرم لا تختلف كثيراً عنها في المجتمعات الأخرى وعن مفهومها العام في بقية المعتقدات الكريمة . بمعنى أن كل ما هو غير منصف وغير مطابق للعدالة في نظر المسلمين هو كذلك عند غير المسلمين . إن محاولة إثبات اختلاف مفهوم العدالة الإسلامية عن غيرها من خلال السعي لإثبات ما قد يبدو غير منصف وغير عادل في نظر غير المسلمين على أنه ليس كذلك ، ما هي إلا استهواء وتزييف للعدالة . ولا بد أن نعي تماماً أن الإسلام يتفوق في العدالة عما سواه من الأديان ، وأن القرآن يشدد على العدالة بشكل مكثف وفي كل موقع ، ولا يمكن أن يسمح بالإثيان بما هو مناقض لمبادئ العدالة والإنصاف في كل زمان ومكان .

لنأخذ ماليزيا التي يتألف سكانها من مسلمين وغير مسلمين ، حيث نجد أن فكرة تطبيق الحدود التي تثير جدلاً بين المسلمين أنفسهم ، يمكن أن تكون مُنقّرة وغير مجدية ، نظراً لأن غير المسلمين قد يرون أنها تُلحق بهم ظُلماً . ويمكن لغير المسلمين أن يعتبروا فلسفة القوانين الحديثة نفسها قائمة على خطأ لأن تطبيقها قد يتسبب في إلحاق ظلم بشخص أو فئة ما . إن الإصرار على أن القوانين التي صاغها فقهاء مسلمون ، تسمو على كفالة العدالة التي أمر بها القرآن ، يبدو مخالفاً تماماً لكل مبادئ العقيدة الإسلامية ، كما أن التطرف والسعي لإضفاء مزيد من القدسية على آراء أفراد أو جماعات دون غيرهم أمر لا علاقة له بالعقيدة ، بل لا يعدو أن يكون محاولة لإسقاط حالة نفسية على قضايا في غاية الأهمية بالنسبة للإسلام والمسلمين .

ولنفترض على سبيل المثال ، أننا قمنا بتطبيق قوانين الحدود الإسلامية في ماليزيا كما تطالب بذلك بعض الأحزاب السياسية ، ولنفترض أن عصابة مكونة من مسلمين وغير مسلمين ارتكبت جريمة سرقة . في هذه الحالة فإن اللصوص المسلمين سيعاقبون بقطع اليد ، بينما يتم إيداع زملائهم من غير المسلمين في السجن لبضعة أشهر أو قل سنوات على الأكثر ! فأين ذلك من المبدأ الإسلامي القائل بالمساواة في العقوبة طالما كان

الجُرم واحداً؟ مهما اتسع خيالنا فإن ذلك لا يمكن أن يدخل في باب العدل والمساواة ، بل إنه يسفر عن ظلم فادح وبالتالي فإنه مُناف لروح العصر وجوهر الإسلام .

لنستعرض أمثلة أخرى ، ولنفترض أن سيدة ما تعرضت لجرمة اغتصاب وتعرفت تماماً على المجرم لكنها لم تتمكن من إحضار أربعة شهود عدول نظراً لصعوبة ذلك . في هذه الحالة فإن الجاني سيفلت من العقاب ، لكن ما هو مصير تلك المرأة إذا ما حملت وأنجبت طفلاً نتيجة عملية الاغتصاب هذه؟ ! في هذه الحالة فإن المرأة تُعتبر زانية ويمكن توقيع عقوبة الرجم بالحجارة عليها حتى الموت . فكيف لنا أن نعتبر هذا عدلاً؟! !

هذان المثالان وغيرهما من الأمثلة الأخرى ، يُعدان في نظر كثير من فقهاء المسلمين قمة العدالة ، وأن على المسلمين أن يتقبلوا ذلك دون تساؤل ، ويصبروا ولتلك الفقهاء على أن المفهوم الإسلامى للعدالة مختلف عن نظيره لدى المجتمعات غير الإسلامية ، وأنهم يزدادون إصراراً على إسباغ صفة العدل والإنصاف على ما هو مناقض تماماً للعدالة في نظر كل الناس ، ويطالبون المسلمين بعدم التشكيك بأحكامهم ، متغافلين عن أن الإسلام قد نهى عن التشكيك في القرآن والأحاديث الصحيحة فقط ، لكنه لم يخطر أبداً التساؤل والتشكيك في ما دون ذلك بما في ذلك الفتاوى والأحكام التي يقررها الفقهاء باعتبارها صادرة عن بشر ، والبشر غير معصومين من الخطأ .

إن ما يتم تسويقه لنا على أنه العدالة الإسلامية ما هو إفتاوى وتفسيرات استتجها فقهاء مسلمون في الماضي وأخذها الناس على أنها العدالة التي حرص القرآن على وضعها في مكانة سامية . ولا شك أن القرآن لم يورد هذه التفاصيل ولم يحدد لكل جريمة عقاباً في ذلك المجتمع الإسلامى ، ناهيك عن مجتمعات عديدة تقوم على

التعددية الدينية والإثنية . وإذا كُننا نستشهد بالعقوبات القاسية التي طبقت على اليهود بمجتمع المدينة (مثل : عقوبة الرجم بالحجارة فى جرائم الزنا) فإنها حدثت ؛ لأن الديانة اليهودية هى التى حددت تلك العقوبة ولم يقر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، بمعاقبة اليهود إلا وفق شريعتهم هم وليس وفق الشريعة الإسلامية .

لقد انصب تركيز الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة على العدل ، وقد أضفى الإسلام أهمية قصوى على الإنصاف بذات القدر الذى يمقت به الظلم والخياف . وقد أمرنا ديننا الخفيف بأن نلتزم بالعدل فى كل زمان ومكان . وإذا ما اتضح بجلاء أن عقوبة بعينها مُجانبة للعدالة ، فمن الخطأ القول إنها صحيحة وسليمة فى نظر الإسلام ، رغم أنها غير مُنصفة فى رأى الناس . ومن الخطأ أيضا إصرار بعض الناس على منع المسلمين من التساؤل حول بعض العقوبات ، موهمين الناس بأن أى تشكيك فيها يدل على ضعف إيمان المرء بالإسلام لدرجة الهرطقة والخروج عن الملة .

ثمة ضرورة ماسة لأن يعبر المسلمون عن إدانتهم ورفضهم لمواقف تلك الفئة منهم ، التى تطالب بقبول مفاهيم عدلية نتجت عن تفسيرات وفتاوى أطلقها فقهاء مسلمون دون أن نخضعها للتساؤل ، وكأن أولئك العلماء معصومون من الخطأ ، مثلهم مثل الأنبياء . هذه الفئة من المسلمين تساهم فى ترسيخ مفهوم الطاعة العمياء لأولئك الفقهاء حتى فى حال ارتكابهم خطأ أو مخالفة صريحة للقرآن والسنة . والنتيجة بالطبع كارثة على المسلمين والإسلام من صورة مشوهة وتزمت وعدم تسامح وانتهاك للعدالة . ولا شك أن سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، لو كان قد بشر بالإسلام من هذا القبيل ، لما تقاطر الجاهليون على الرسالة المحمدية أفرادا وزرافات ، ولما تمكن الإسلام من توحيد القبائل العربية المتحاربة فى أمة واحدة يسودها السلم والعدل ، ولما انتشر فى القارات الثلاث ، مكوناً أعظم إمبراطوريتين عرفهما التاريخ حتى مطلع القرن العشرين .

وإذا نظرنا لأوضاع الإسلام والمسلمين في وقتنا الراهن ، فسوف نجد صعوبة حقيقية في إقناع غير المسلمين باعتماد الإسلام في ضوء مفهوم العدالة الإسلامية الذي يقدمه المتطرفون والذين يطالبون بتطبيق الحدود الإسلامية دون مراعاة لأي اعتبار آخر ، وخاصة مبدأ العدل والمساواة . إن تشدد أولئك المتطرفين وإصرارهم على تطبيق الحدود في المجتمعات الإسلامية يمكن أن يكون مقبولاً تماماً شريطة أن يكون العدل والمساواة هما غايته النهائية . وينبغي على أولئك المتشددين أن يقبلوا بإعادة النظر في القوانين الإسلامية التي ينادون بتطبيقها متى ما تسبب ذلك بإلحاق الظلم بأى فرد أو جماعة . كما ينبغي على الذين توكل إليهم مهمة إعادة النظر في تلك القوانين أن يلتزموا المرونة التي تميز الدين الإسلامي وأن يوظفوها توظيفاً مسلماً واعياً بما يحقق العدالة المطلقة التي هي أساس الإسلام وتعاليمه .

وإذا قبلنا اتفقنا على أن الإسلام قد أولى مسألة العدالة أهمية قصوى ، فإن الخطوة التالية التي ينبغي على المسلمين أن يتدبروها هي المسائل الإجرائية في تحقيقها ، علماً بأن المسائل الإجرائية المتصلة بالقانون في الإسلام ليست معقدة ، بل إنها مرنة لأبعد الحدود . هناك مؤشرات على طريقة وأسلوب إدارة العدالة في الإسلام نجدها في الآيات المتشابهات والأحاديث الصحيحة . لقد كان الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام هو الحكم والقاضي في زمانه . وعلى كل فإنه لا يوجد في القرآن والسنة ما يمنع من القيام ببلورة وصياغة إجراءات معيارية لضمان تطوير الجوانب الإجرائية في إنفاذ العدالة .

ويلاحظ في بعض البلدان الإسلامية أن الجوانب الإدارية والإجرائية المتصلة بالعدالة وتطبيق القانون ، عرضية وغير ثابتة . وقد حدث في أحد البلدان أن أدان أحد القضاة أجنبياً تعرضت سيارته لحادث تصادم من خلف من قبل سيارة أخرى كان يقودها مواطن من تلك البلاد . وقد ذهب القاضي إلى تأسيس إدانته على أن الحادث ما

كان ليقع لولا أن ذلك الأجنبي حلّ زائراً أو مقيماً بالبلاد . هذه الواقعة مجرد نموذج لحوادث كثيرة تحدث في بلدان إسلامية عديدة ويقع الأجانب في قبضة الشرطة بسببها ، بصرف النظر عن المتسبب في الحادث . وإذا لم يكن الشخص الأجنبي على صلة بأحد الشخصيات النافذة في البلاد ، فإن الأمر قد ينتهي به إلى قضاء أيام تعيسة في الحبس بمخافر الشرطة .

والأمر الذي يهمننا في ذلك هو أن إجراءات التحقيق والاستجواب في عدد كبير من الدول الإسلامية غير واضحة . ففي بعض الحالات نجد أن القاضى الذى يترأس المحكمة يستمع إلى ضابط الشرطة الذى يُجرى التحرىّ حول ملابس و ظروف وقوع الجريمة ، ومن ثم يلتفت إلى المتهم طالباً منه الإجابة عن التساؤلات التى أثارها المتحرى ، وبناء على إفادات المتحرى والمتهم ، وقد يشير فى بعض الأحيان إلى كتب دينية غير محددة ، يصدر القاضى أحكامه ، أما الإجراءات فى محاكم أخرى فمختلفة تماماً حيث لا يستند القضاة إلى قوانين بعينها رغم أنهم قد يشيرون إشارات غير واضحة إلى القرآن والسنة .

فى ماليزيا بذلت جهات الاختصاص جهداً مشكوراً لصياغة لائحة إجرائية معيارية أو قياسية لإجراءات التقاضى فى المحاكم الشرعية ، وصادفت اللائحة نجاحاً لا بأس به . وقد تم تجميع العناصر المكونة لتقاليد وممارسات وإجراءات المحاكم الأخرى ودمجها فى اللائحة الإجرائية للمحكمة الشرعية ، وبموجب تلك اللائحة أصبح للمحامى الحق فى المرافعة والمداخلة لصالح موكله . وبصفة عامة يمكننا القول إن الأحكام التى تصدر عن المحاكم الشرعية المختلفة فى ماليزيا فى قضية بعينها ، غالباً ما تتطابق ، اللهم إلا فى الولايات الماليزية التى تتبنى وجهة نظر مختلفة تماماً عن المفهوم العام لما يشكل العدالة الإسلامية فى البلاد . وقد تم إعداد وتقنين ودمج جزء مهم من القوانين الشرعية فى ماليزيا ضمن لائحة القوانين العامة فى البلاد .

وإذا ما هممنا بتطبيق القوانين الإسلامية في أى بلد من البلدان الإسلامية ، لابد من إيلاء عناية فائقة لتفسير وتعريف العدالة والعقاب وفحص عملية صياغة الإجراءات على نحو شامل ودقيق للغاية . ولابد من التنويه إلى ضرورة وأهمية الرجوع إلى الكتاب والسنة للاسترشاد بهما واستلهام جوهر وروح العدالة منهما . ومن الأهمية بمكان ملاحظة أن الإسلام يعترف بنفوذ وتأثير الظروف والملابسات في تطبيق القوانين وفي إحقاق العدالة بنفس القدر . كما أن التغييرات والتحويلات التي استجدت في عصرنا الحديث والتي أسفرت عن تصورات جديدة لمضمون ومحتوى ومكونات العدالة في الجرائم الحديثة المتطورة والمشاكل والأمراض الاجتماعية الجديدة ، لا يمكن إغفالها ولابد من أخذها في الاعتبار .

ومن الواضح أن إدارة العدالة في عهد الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام ، كانت مطابقة للأعراف والتقاليد السائدة في ذلك الزمن ، بيد أن إدارة القانون في عصر المعلومات وتكنولوجيا الكمبيوتر وعلوم الإثبات ، لا يمكن أن تكون كما كانت عليه في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم . ومن المؤكد أننا وقضاتنا لسنا أنبياء ، ولكن بإمكاننا أن نرجع في كل وقت للقرآن والأحاديث الصحيحة ونستخدم ملكاتنا وقدراتنا الذهنية والإدراكية . إننا لا نختلف على أن القرآن قد حدد بعض القضايا بدقة متناهية ، غير أن كثيراً من الآيات لا يبيّن المعانى على نحو محدد . وقد ذكر ذلك صراحة في صورة آل عمران كما أسلفنا . وإذا لم ينه القرآن عن قضية بعينها نهياً صريحاً . فإن ذلك يعنى أنها يمكن أن تكون حلالاً أو غير ممنوعة ما دامت مطابقة لمعنى كلام الله جل شأنه ولروحه ومضمونه .

وبالتالى ، فإن على المسلمين المحدثين أن يُعدوا أنفسهم للقيام بتفسير القرآن والسنة من جديد أسوة بفقهاءنا في العصور السابقة الذين قاموا بتفسير آيات الله وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأصدروا الفتاوى والأحكام وبما لا شك فيه

أن تفسير أولئك الفقهاء الأوائل لا يمكن أن يؤخذ على أنه مُنزّه عن الخطأ أو نهائى ولا تفسير بعده .

ينبغي أن يتم تفسير ديننا الإسلامى بما يواكب التطورات والمستجدات الماثلة والتي تختلف تماما عما كان عليه الحال قبل ١٤٠٠ سنة وبما يجعل منه ديناً صالحاً لكل زمان ومكان . وإذا كان لابد لنا من العودة إلى الظروف والمعطيات التي كانت سائدة قبل أربعة عشر قرناً لكي نكون مسلمين حقيقيين ، فإن ذلك لا يجعل من الإسلام ديناً صالحاً لكل زمان ومكان . وما دمننا مؤمنين بأن ديننا الحنيف مواكب لكل الأزمان بما تطرحه من تحديات ومستجدات ، فإن الإسلام لابد من أن يكون منسجماً ومُلبياً لاحتياجات الإنسان في وقتنا الحاضر .

إن إدارة القوانين الإسلامية قضية في غاية الخطورة ، وعلى الأفراد الذين توكل إليهم مسئولية تفسير وتعريف القوانين الإسلامية ، ألا يتصرفوا من وحي أفكارهم الخاصة فقط ، بل عليهم أن يستشروا غيرهم من العلماء في مختلف المجالات ، فعلى سبيل المثال قد نجد شخصاً ما عالماً ومجيداً للغة العربية سمحت له ظروفه بدراسة القرآن على نحو مكثف ودقيق ونال حظه من السنه النبوية والكتب الأخرى ، وألمَّ إلماماً دقيقاً بمحتوى ومضمون تلك الكتب ، غير أنه قد لا يكون مُلمماً بالعلوم الاجتماعية والعلمية والتقنية . وعليه فإن الضرورة تقتضى ألا يترك تفسير القرآن والقوانين الإسلامية لفقهاء الدين وعلماء اللغة لوحدهم ، بل لابد من الاستئناس برأى العلماء والخبراء فى مجال العلوم الدنيوية فى كل ما له صلة بالقرآن والحديث والقوانين ، وبطبيعة الحال لابد من استشارة المختصين فى مجال العلوم القانونية عندما يأتى الأمر لقوانين الإجراءات بمختلف أنواعها .

وخلاصة القول ، أننا لن ننجح فى إدارة القوانين الإسلامية نجاحاً يؤدي إلى

ضمان العدل والإنصاف إلا عندما نأتى بكل أولئك العلماء والخبراء المختصين ، وأن نستشير كل منهم فى مجال تخصصه .

لكن علينا أن نتذكر دائماً أن أولئك العلماء والخبراء ما هم إلا بشر مثلنا وغير معصومين من الخطأ أيضاً . كما هى الحال للفقهاء الأوائل الذين فسروا الدين الإسلامى بكل أمانة وتجرد طبقاً لظروف ومعطيات زمانهم ، فإن الفقهاء المسلمين فى المستقبل سيجدون فى تفسير فقهاء وعلماء اليوم من الأخطاء ما يحتم عليهم القيام بتفسير الإسلام والقرآن من جديد !! .

الفصل التاسع عشر

الإسلام؛ الدين الذي أسبى فهمه *

ربما يكون الإسلام هو أكثر الأديان التي أسبى فهمها في عالم اليوم . . بل يمكن القول إنه ربما كان أكثر الأديان تعرضاً لسوء الفهم عبر التاريخ أيضاً . وسوء الفهم هذا لا يقتصر على غير المسلمين وإنما يمتد للمسلمين أنفسهم ، والدليل على ذلك وجود هذا العدد الكبير من الطوائف والملل الإسلامية التي تتبع كل واحدة منها تعاليم إسلامية مختلفة ، بل ومتناقضة مع بعضها البعض . هذا الاختلاف وما يلزمه من تناقض يؤكد أن هناك خطأ ما ، وأن ذلك الخطأ يكمن تحديداً في عدم فهم الإسلام أو إساءة فهمه .

إن الأحوال المتردية التي يعيش فيها المسلمون في الوقت الراهن ترجع جزئياً إلى الجهل ، كما ترجع إلى التحامل المستمر ضد الإسلام والمسلمين . ولكن ذلك لا يعنى أننا يمكن أن نعفى المسلمين تماماً من مسئولية ما آل إليه حالهم . فالهجنة التي يعيشها المسلمون هي في جانب كبير منها من صنع أيديهم ، ونتيجة حتمية لعدم قدرتهم على التطور مع الزمن . وهكذا فإنه يمكن القول إن خلاص المسلمين في أيديهم هم وليس في أيدي الغير .

من أهم التكاليف التي كلف بها الرسول - صلى الله عليه وسلم ، تلك الخاصة بتحقيق السلام والوحدة بين القبائل العربية المتناحرة التي كانت تعيش في الجاهلية . ولقد نجح الرسول - صلى الله عليه وسلم ، في تحقيق ما كلف به كما يتبين من آيات عديدة وردت في القرآن الكريم .

لقد أرسل الله سبحانه وتعالى ، رسالته إلى العالمين عن طريق رسول واحد وهو

* كلمة رئيسية في مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية في : أكسفورد - المملكة المتحدة ، بتاريخ ١٦ أبريل ١٩٩٦ م .

محمد عليه أفضل الصلاة والسلام وكتاب واحد هو القرآن الكريم . فليس هناك قرآن آخر ، وليس هناك نسخ أخرى أو إصدارات أخرى من القرآن تحمل فى طياتها نصا مغايرا وكلاما مختلفا . فالقرآن لم يكن فى صورة أناجيل ألفها رجال الدين أو علماء مسلمين ، وإنما جاء فى صورة كتاب احتوى على تسجيل لرسالة الله سبحانه وتعالى إلى العالمين ، مكتوبة باللغة العربية التى كانت سائدة فى ذلك الزمان . والترجمات المختلفة للقرآن الكريم قد تختلف اختلافا بسيطا عن القرآن ذاته ، ولذلك فإنه لا يمكن اعتبارها بديلا عن القرآن ، فالقرآن الوحيد المعترف به هو القرآن المكتوب باللغة العربية .

وهكذا فإنه لا يمكن أن تكون هناك نصوص مختلفة أو نسخ أو كتب مختلفة يترتب عليها اختلاف فى الرسالة أو فى التعاليم الخاصة بالإسلام . وعلى الرغم من ذلك فإننا نروى هناك اختلافات ، بل واختلافات خطيرة ترتب عليها تقسيم المسلمين إلى شيع وأحزاب متناحرة . والسؤال الذى يتبادر إلى الأذهان فى هذا السياق هو : ما سبب ذلك ؟

فى الواقع أن الأشخاص الذين يعرفون اللغة العربية كلغة مجردة ، لا يستطيعون أن يفهموا لغة القرآن الكريم . أو فلنقل إنهم لا يستطيعون أن يفهموها تماما وعلى نحو عميق . ولكى يفهم مثل أولئك الأشخاص القرآن ، عليهم أن يسمعوا أو أن يقرأوا شروحا للقرآن من جانب العلماء الذين يفهمون لغة القرآن ، والعالمين بالظروف التى نزلت فيها الآيات على النبى - صلى الله عليه وسلم ، وبالآيات التى أنزلت عليه . وقد ارتبط نزول معظم الآيات بأحداث وقعت قبل أو أثناء حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم . وقد تطلب الأمر قيام علماء الإسلام بوضع تفاسير بجوار الآيات حتى يسهل على الناس فهمها وقاموا بوضع تلك الشروح والتفاسير داخل أقواس وخصوصا فى الترجمات المختلفة للقرآن . وبالتالي فإنه لا يمكن اعتبارها جزءا من الآيات الأصلية وإنما هى مجرد وسيلة لتوضيح ما غمض من آيات .

وعلى الرغم من أن هناك قرآن واحد ، فإننا نجد هناك نوعين من الآيات فى القرآن الكريم ، وهما الآيات المحددة أو (الحكمات) ، والآيات العامة أو (المتشابهات) . ففى الآيات

المحددة (المحكمات) ليس هناك مجال للخطأ في فهم معانيها حتى وإن كانت تفاسيرها قد اختلفت باختلاف العلماء والمفسرين . أما الآيات العامة (المتشابهات) فهي آيات تحتل تفاسير مختلفة . ففي سورة آل عمران ، الآية - ٧ يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧) ﴾ صدق الله العظيم .

إن الآيات العامة أو (المتشابهات) يجب أن تكون بالضرورة على ما هي عليه ؛ لأن القصد منها هو إرشاد الناس وهدايتهم في مواقف مختلفة ، ومساعدة المسلمين على حل ما يعرض لهم من مشاكل ، ليس فقط أثناء حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم ، ولكن أيضا بعد وفاته ، بل وفي جميع الأوقات إلى يوم الدين . وعلماء المسلمين ممن أوتوا علم الكتاب هم الذين يرجعون إلى هذه الآيات للاهتمام بها عند قيامهم بمعالجة أية مشكلة من المشاكل أو تفسير أى أمر من الأمور التي تعرض للمسلمين فى شئون دنياهم .

أما الأساليب التي يتبعها علماء المسلمين فى الرجوع إلى القرآن الكريم وتفسير آياته ، فقد تم تحديدها بواسطة فقهاء المسلمين الأوائل للحيلولة دون وقوع أى خطأ أو لبس فى التفسير . ولكن نظرا لأن هذه الأساليب من وضع بشر عاديين فى النهاية - بصرف النظر عن درجة علمهم - فإن سوء التفسير والاستخدام الخاطئ للآيات قد يصبح أمرا واردا بما يؤدي فى النهاية إلى استنباط أحكام وتعاليم خاطئة .

وتتضمن هذه الأساليب أولا : الرجوع إلى السنة ، وثانيا : اجماع العلماء أو ما يتفقون عليه . وعندما يكون معنى ما فى القرآن والحديث غير واضح فى الأذهان ، فإن العلماء يمكنهم فى هذه الحالة أن يدلوا بأرائهم أو فتاويهم أو اجتهادهم فى الأمر عن طريق «القياس» أو «الاستحسان» ويقصد به استخدام القدرة على التفكير وتطبيق القرآن على حقائق الموقف المعنى .

والقرآن كتاب شامل ، يوفر الهداية والإرشاد للمسلمين فى كل زمان ومكان ، ولكننا إذا نظرنا إلى الآيات بمعزل عن بعضها البعض أو باجتزائنا لأجزاء معينة منها ، فإن التعاليم يمكن أن تتعرض فى هذه الحالة إلى التشويه ، بل إنها قد تصبح متناقضة مع تعاليم الإسلام ككل . وهناك تركيز فى القرآن الكريم على إقامة العدل والبعد عن الظلم . ولكن البعض منا يأخذ آية واحدة فقط من تلك الآيات ويقوم بتفسيرها حسب هواه ، وبالتالي فإن العدالة الإسلامية من منظور البعض قد تكون متناقضة تماما مع الدعوى القائلة بأن القرآن الكريم يدعو إلى العدالة .

بعد القرآن الكريم تأتى سنة الرسول الكريم وأحاديثه باعتبارهما ثانى أهم مصدر للتعاليم الإسلامية . والمقصود بالسنة أقوال الرسول - صلى الله عليه وسلم وأفعاله كما رواها أولئك الذين سمعوه ورأوه فى حياته . وكان يشترط فى ذلك الوقت أن يكون أولئك الرواة ممن عرف عنهم حسن الخلق والصدق فى القول ، كما كان مطلوباً أن يتوفر هذا الشرط نفسه أيضاً فيمن جاء بعدهم من الرواة الذين قاموا بنقل الأحاديث والسنن بعد ذلك مشافهة وعن طريق سلسلة إسناد موثوق بها من المسلمين الصالحين من زمن إلى زمن وبمرور السنين أصبحت مسألة التعرف على سلسلة رواة الحديث أكثر صعوبة .

وعندما بدأ الإمام البخارى دراسة وتنقيح ما يزيد عن ستمائة ألف حديث ، كان قد مضى على وقت رواية تلك الأحاديث فترة تزيد عن ٢٠٠ عام . وقام الإمام البخارى بانتقاء نحو سبعة آلاف حديث من ذلك العدد ، واعتبرها أحاديث صحيحة بناء على ما توفر له من أدلة وبراهين على صحة إسنادها . وبعد وفاة الإمام البخارى قام تلميذه الإمام مسلم بالتحقق من صحة عدد أقل من الأحاديث واعتبرها صحيحة . ثم جاء بعدهما عدد من الأئمة والفقهاء الذين قاموا بتحقيق الكثير من الأحاديث . والآن أصبحت هذه الأحاديث والسنن التى تم تحقيقها بواسطة أولئك العلماء الأجلاء مقبولة ، باعتبارها أحاديث وسنن صحيحة من قبل اتباع المذهب السنى . أما الشيعة فلهم طرقهم الخاصة فى التحقق من صحة الأحاديث والسنن .

ونظرا لأن الأئمة والعلماء لم يكونوا من الأنبياء وإنما كانوا بشرا عاديين ، فإن تعرضهم للخطأ كان احتمالا واردا فالأحاديث التي قد يرون أنها خطأ ، قد تكون صحيحة ، وما يرونها صحيحا منها قد يكون خطأ .

وكان طبيعيا والوضع هكذا أن يستمر بعض المسلمين فى الاستشهاد بأحاديث غير صحيحة .

وفى بعض الأحيان ، تكون الأحكام والفتاوى التي يصدرها العلماء فى زمن معين وظرف محدد ، مجرد آراء أو اجتهادات وليس معنى ذلك أنه يوجد لدينا أدنى شك فى مدى معرفة أولئك العلماء الكاملة بتعاليم الدين الإسلامى الخفيف ، وفهمهم التام للمشكلة التي يعرضون لها ، والموقف الذى يرتبط به .

ولكن هذه الآراء والفتاوى تبقى مع ذلك مجرد اجتهادات بشرية معرضة للصواب والخطأ . وفى عالم اليوم الذى يشهد نهضة شاملة فى مجال العلم والتكنولوجيا ، كثر ما تبرز مسائل جديدة لم تكن موجودة من قبل . وفى مجال الطب على وجه الخصوص تبرز أنواع عديدة من التقنيات العلاجية والأدوية التي يتم اختراعها واكتشافها طوال الوقت . وبعض أنواع هذه الإجراءات والعلاجات الطبية تحير حتى الأطباء المعالجين ، الأمر الذى يجعلهم يلجأون إلى الأئمة والفقهاء للإدلاء بآرائهم الفقهية بشأنها .

ولكى يقوم العلماء بإصدار رأى أو فتوى حول تلك الأشياء ، فإن الأمر يستدعى الإلمام التام ليس فقط بتعاليم الإسلام وأوامره ونواهيه ، وإنما يستلزم إلى جانب ذلك إلماما تاما بطبيعة الموضوع الذى يتطلب إصدار حكم أو فتوى . وحتى أكثر العلماء علما لا يمكنهم الإلمام بكل صغيرة وكبيرة حول تلك الموضوعات والعلوم المختلفة ، وبالتالي فإنه لا سبيل أمامهم سوى الاعتماد على خبرة وتجارب الآخرين . وحتى مع الاعتماد على مثل تلك الخبرة والتجربة ، يبقى وارداً أنهم لا يزالون غير ملمين إلماما كاملا بطبيعة وجوانب المضامين الدينية لهذه المسائل . فأولئك قد يرفضون شيئا ما ؛ لأنهم لا يعرفون كل الجوانب المتعلقة بالمسألة أو لأنهم

متصلّبون في آرائهم دون وجود بينة أو دليل جازم على صحتها . وفي مثل هذه الحالات فإنه ليس هناك ما يدعو للعجب في أن يتوصل عالم بعينه أو حتى مجموعة من العلماء إلى آراء مختلفة أو متناقضة مع الآراء التي قد يتوصل إليها عالم أو مجموعة أخرى من العلماء بالنسبة للمشكلة أو المسألة التي تعرض عليهم لإبداء الرأي فيها . وبالطبع لا يعقل في مثل هذه الحالة أن يكون هذان الفريقان على صواب وإن كان يمكن بالطبع أن يكون الإثنان على خطأ . وقد يتطلب الأمر إجراء مزيد من المشاورات قبل الوصول إلى تفسير مقنع ومقبول يتفق مع حقائق الأوضاع السائدة .

ولكى يفهم المسلمون الإسلام فهما صحيحا فإنه لاغنى لهم عن العلماء والمثقفين في أمور الدين . حتى الأشخاص العاديين الذين يجيدون اللغة العربية ويستطيعون قراءة وفهم القرآن بلغته الأصلية ، لا يزالون في حاجة إلى وجود أولئك العلماء . ومن ناحية ثانية ، فإنه كى يستطيع أولئك العلماء شرح مبادئ وتعاليم الدين الإسلامى الخفيف للمسلمين من غير العرب ، فإن الأمر يستلزم أن يكونوا على إلمام ومعرفة بلغات أخرى كى يقوموا بشرح القرآن ، سواء شفويا أو كتابة . لذلك نرى فى الترجمات العادية للقرآن الكريم وللنسخة النبوية والأحاديث الشريفة كلمات وعبارات كثيرة واردة بين قوسين ، والقصد من هذه الكلمات والعبارات هو شرح ما غمض من معانى آيات القرآن ونصوص الأحاديث ، ولكنها لا تشكل جزءا من هذه الآيات والأحاديث ، وينبغى النظر إليها على هذا الأساس . واختيار هذه الكلمات والعبارات يعكس فهم العالم أو الفقيه أو رجل الدين لمعنى الآية أو الحديث ، كما أنه قد يعكس رأيه أو وجهة نظره ، وبالتالي فإننا نتوصل مرة ثانية إلى النتيجة نفسها وهى أن العلماء ليسوا أنبياء وإنما هم بشر عاديون وبالتالي فهم معرضون للصواب والخطأ .

ومن سوء الحظ أن الكثير من المسلمين ينظرون إلى الآراء والأحكام الفقهية التى يصدرها عالم من علماء الدين حول مسألة ما ، على أنها شىء مقدس لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . والمشكلة فى هذا الصدد هى أن هناك الكثير من المسلمين يدعون أنهم

علماء دون أن يكونوا كذلك فى الحقيقة . أولئك المدعون غالباً ما يكونوا من أصحاب المصالح الخاصة ، بل أن بعضهم قد يكون من السياسيين أصحاب المصالح الدنيوية والأطماع الشخصية . وإذا ما كان كل هؤلاء الأشخاص ينظرون إلى أنفسهم على أنهم مؤهلون للفتوى ، وأن تفاسيرهم للإسلام غير قابلة للخطأ فى الأساس ، فليس هناك ما يدعو للدهشة إذن فى أن نرى ذلك الكم من الاضطراب والخلط وسوء الفهم لتعاليم الإسلام .

وهكذا رأينا فى زمن ليس بالبعيد أن هناك بعض المسلمين الذين يفتون بأن طباعة القرآن فى حد ذاتها حرام . وعلى الرغم من أن حكومة مثل حكومة الخلافة التركية على سبيل المثال كان يوجد لديها مطابع إلا أنها لم تكن تسمح بطباعة المصحف الشريف فيها ، وكان رأى العلماء فى عاصمة الخلافة الإسلامية أن القرآن يجب أن يكون مكتوباً باليد . ولم تكن طباعة القرآن فقط هى الحرام ، فقد كان أولئك العلماء يعتبرون استخدام الكهرباء فى المساجد أيضاً حرام . وهكذا كنا نرى مكة المكرمة وهى تضاء بلمبات الغاز فى الوقت الذى كانت الكهرباء تدير باقى مدن العالم . وكان الجنود الأتراك أيضاً ممنوعين من ارتداء البنطلونات الغربية وأغطية الرأس الغربية ، لأن العلماء كانوا يعتبرونها هى الأخرى حراماً . كما كان رسم الإنسان والحيوانات أيضاً حراماً ، حتى إلى ما قبل بداية عصر الطباعة .

ومع دخول الطباعة ومن بعدها التصوير الفوتوغرافى ، ومن بعدها التلفاز ، أصبح هذا المنع غير عملى أو غير ذى جدوى . وبالرغم من ذلك ، وبما لحق بالعالم من تطور ، ظل الكثيرون من المسلمين متمسكين دينياً بهذه الفتاوى والأحكام والآراء .

ولاشك فى أن هذه الآراء والأحكام الفقهية قد أسهمت فى تأخر المسلمين فى عالم يتغير بخطى حثيثة . والأخطر من الآراء والفتاوى السابقة ، تلك الفتاوى الخاصة بتنظيم العلاقة بين المسلمين داخل المجتمع وتنظيم العلاقة بينهم من جهة وبين أصحاب الأديان الأخرى من جهة أخرى .

وكما نعرف فإن مجتمع الجزيرة العربية عند نزول الرسالة على الرسول - صلى الله

عليه وسلم ، كان ممزقا بالعداوات والخلافات بين القبائل المتناحرة . هذه العداوات أسهمت في إضعاف تلك القبائل وفي زيادة تخلفها . وكان السبب في تلك الخلافات والعداوات هو التعصب للعشيرة أو القبيلة . وقد جاء الإسلام ليشجب التعصب القبلي ويدعو إلى نبذ الخلافات والعداوات ، وتحقيق الوحدة بين القبائل . يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ، سورة آل عمران الآية - ١٠٣ : ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِيَعْتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ . صدق الله العظيم .

ولكن ما حدث بعد ذلك هو أن العرب عادوا إلى عداواتهم وحرورهم وتعصبهم بعد وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم . وظهر أيضا شيء جديد كان أكثر خطورة وهو الخلافات حول أى القبائل أو أى العشائر أحق من غيرها بالخلافة وقيادة الأمة الإسلامية بعد وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم ، وهى الخلافات التى مزقت المسلمين ، بل ولا زالت تمزقهم حتى يومنا هذا . فقد انشق أتباع سيدنا على بن أبى طالب ابن عم الرسول - صلى الله عليه وسلم ، ورابع الخلفاء الراشدين ، وكونوا ما عرف بالشيعه ، فى حين قام أنصار معاوية بن أبى سفيان الذين ادعوا تمسكهم بالتقاليد المرعية بتكوين المذهب السنى . وبعد ذلك شهد كل مذهب من المذاهب المزيد من الانقسامات الداخلية بسبب اختلاف العلماء والأئمة فى تفسير تعاليم الإسلام وفقا لفهمهم للدين ، أو وفقا لولاءاتهم السياسية فى بعض الأحيان . وما لاشك فيه أن التناحر القائم بين الطوائف والأمم الإسلامية يتعارض مع ما ينادى به الدين الإسلامى الخنيف . ويذكرنا التعصب والعنف الذى تواجه به الطوائف والأمم الإسلامية بعضها بعضا ، بما كان سائدا فى الجاهلية بين القبائل العربية . . وهو وضع لا يتماشى مع التعاليم الإسلامية السمحاء .

العالم الإسلامى اليوم تسوده فوضى عارمة ، وتمزقه المعارك والقتال والاضطرابات بسبب عناد الجماعات المتناحرة ويسبب طمعها فى السلطة ، فهذه الجماعات ترفض اتباع

تعاليم الإسلام الحقيقية ، وتميل إلى تفسير الدين وفقا لمصالحها الذاتية ، وبما يخدم تلك المصالح فقط . وهو ما يطلق عليه «العصبية» ؛ أى منح الولاء لطائفة أو جماعة بعينها على حساب الولاء للمسلمين وللأمة الإسلامية جمعاء . وبسبب الأعمال التى تقوم بها هذه الجماعات نجد أن دولا إسلامية عديدة غير قادرة على تكوين حكومات قوية لتسير الأمور فيها ، مما يجعلها عرضة للفوضى ، وفريسة للضعف والأطماع من قبل القوى الأخرى فى هذا العالم . وأشياء كهذه هى التى تجعل من الإسلام موزعا للسخرية من قبل الآخرين .

إن ما يحدث للعالم الإسلامى ليس قدرا مكتوبا . ولكنه نتيجة طبيعية لطمع المسلمين ورفضهم اتباع تعاليم الإسلام الصحيحة وخصوصا تلك المتصلة بمبدأ الأخوة الإسلامية . وعندما يقوم قادة المسلمين بإصدار الأحكام التى تضىء الشرعية على مثل هذه الأعمال ، فإنهم يكونون قد عملوا ضد مصلحة دينهم ، وسوف يكونون كذلك عندما يقومون بإلصاق تهمة الكفر بالمسلمين الذين يعارضونهم . أما كون العصبية مسألة تتعارض مع المبادئ الإسلامية ، وكونها تضعف الأمة وتمزقها ، فأمر لا يهمهم فى كثير أو قليل ، على الرغم من خطورته البالغة على الأمة الإسلامية .

المسلمون وغير المسلمون

أما بالنسبة لسوء الفهم السائد بين المسلمين فيما يختص بتعاليم دينهم التى تعالج العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين ، فالأمر واضح وضوح الشمس . فالقرآن الكريم قرر بوضوح أن النصرارى أصدقاء المسلمين . وهكذا فإن المسلمين الأوائل الذين تعرضوا للتعذيب والاضطهاد على أيدي سادة قريش من عبدة الأصنام قد نصحوا من قبل الرسول الكريم بالهجرة إلى الحبشة لطلب الحماية والأمان عند النجاشى حاكمها النصرانى الذى لم يدخر جهدا فى توفيرها لهم ، ورفض جميع المحاولات التى قامت بها قريش لكى تجعله يسلم المهاجرين لها .

وإذا كان المسلمون السنة يؤمنون حقا بالتقاليد الإسلامية فإن من الواجب عليهم أن

يكونوا على علاقة طيبة بالمسيحيين . وينبغي أن يكون ذلك من بين الأمور التي يؤمنون بها .
ولكننا للأسف نجد بعض «العلماء» الذين يقولون أن مسيحي اليوم ليسوا هم النصارى الذين
أشار إليهم القرآن الكريم ، وبالتالي فإن هناك ما يبرر للمسلمين اعتبار كل المسيحيين بمثابة
أعداء .

واليهود أيضا يعتبرون أعداء في نظر المسلمين ؛ لأن يهود المدينة كانوا غير موالين
للحكومة التي أقامها الرسول - صلى الله عليه وسلم هناك . بيد أن القرآن الكريم يقرر
بوضوح أن أولئك الذين يحملون السلاح ضد المسلمين هم الذين يجب اعتبارهم أعداء
للإسلام والمسلمين . ففي الآية - ١٩٠ من سورة البقرة ، يقول الله سبحانه وتعالى في محكم
تنزيله : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (١٦٠) ﴿
صدق الله العظيم . وفي الآية - ٦١ من سورة الأنفال ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنْ
جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٦١) ﴿ صدق الله العظيم .

إن هذا يعنى بما لا يدع مجالاً للشك أن الصهانية ومن يناصروهم من دعاة العنف ضد
المسلمين يجب أن ينظر إليهم من قبل كل مسلم على أنهم أعداء . ولكن عندما يجنح أولئك
للسلم فإنه يجب على المسلمين أن يجنحوا أيضا للسلم .

ولكننا نرى بالرغم من ذلك ، أن بعض المسلمين ينظرون إلى اليهود على أنهم أعداء
أزليون وأن المسلمين يجب أن يظلوا في حرب معهم إلى يوم القيامة . وهذا الموقف الخطأ
يعتبر نوعاً من التطرف والعداوة وبالتالي فإنه لا يعتبر بأن من ضمن تعاليم الإسلام ، إن لم
يكن مناقضاً لها . أما من يقول بأن اليهود ليسوا أعداءً أزليين للمسلمين ، فله الويل والثبور .

سوء فهم غير المسلمين للإسلام

وإذا كان المسلمون كثر ما ينسون تعاليم إسلامية معينة ، فإن سوء الفهم السائد بين غير
المسلمين وخصوصاً المسيحيين واليهود تجاه الإسلام والمسلمين ، لهو أكثر سوءاً .

لقد حدث الصدام بين المسلمين والمسيحيين في فترة باكورة من عمر الإسلام عندما كانت الإمبراطورية البيزنطية لا تزال إمبراطورية عظيمة تقف في طريق انتشار الدين الجديد . ولكن أوروبا المسيحية لم تشحن نفسها بالمشاعر السلبية العدائية نحو الإسلام إلا في أيام الحملات الصليبية التي حولت المشاعر المناوئة للإسلام والمسلمين إلى نوع من الهوس الديني والتعصب المقيت . واستمرار تلك المشاعر المعادية للمسلمين وما يترتب عليها من اعتداءات وعنف ضد المسلمين ، يمكن وصفه بأنه نوع من العدا . وهكذا استمر بعض المتعصبين من الجانب المسيحي في تأجيج مشاعر العدا والكرهية ضد المسلمين قرونا عدة . ومهما فعل المسلمون من خير في علاقتهم مع غير المسلمين فإن ذلك لا يقابل بالعرفان من جانب أولئك المسيحيين المتعصبين ، فالحرية الدينية التي كفلها المسلمون للمسيحيين واليهود في الأندلس قلما يذكر عنها شيء في الكتب والمراجع التاريخية الأوروبية .

أما الحقيقة الخاصة باستعادة المسيحيين للأندلس وطردهم للعرب واليهود منها وإجبار من تبقى هناك على الردة ، فلم تلق إدانة أبدا في كتب التاريخ الأوروبية ، كما لم تذكر تلك الكتب والمراجع أى شيء عن تفضيل اليهود للهجرة إلى المناطق الإسلامية في شمال إفريقيا بعد سقوط الأندلس ، على البقاء في إسبانيا المسيحية باعتبار أن ذلك الأمر يمثل موضوعا نافها في نظر مؤرخيهم .

وفي البلقان فضل السلاف الذين يغلب عليهم المسيحيون ، الحكم التركي الإسلامي على حكم بيزنطة المسيحية . ليس هذا فحسب ، بل إنهم قاموا بمساعدة المسلمين على هزيمة البيزنطيين . وكان بقاء الغالبية العظمى منهم بعد ذلك على ديانتهم المسيحية وعدم تحولهم إلى الإسلام ، أكبر دليل على سماحة الأتراك تجاه غير المسلمين .

واليوم نرى أن فهم الغرب الخاطئ للإسلام قد بلغ مدهاه . فالغرب يتناسى أن المسيحية أيضا قد شهدت بعض مظاهر الضلال والانحراف التام عن التعاليم المسيحية ، مثل محاكم التفتيش الإسبانية وإحراق السحرة في أوروبا وأمريكا ، بينما ينظر إلى بعض مظاهر الانحراف

عن جادة الصواب في ممارسة الإسلام بكامله أو على أنها تمثل الصورة الحقيقية للإسلام .
ولا يستطيع أحد سواء أكان مسلماً أم غير مسلم أن ينكر أن الكثير من الأعمال
الإرهابية قد تم ارتكابها على أيدي مسلمين . بيد أنه يجب على أولئك كذلك أن يقرروا بأن
أعمالاً إرهابية كثيرة قد تم ارتكابها أيضاً بواسطة غير المسلمين .

الفارق الوحيد هو أن مثل تلك الأعمال عندما يتم ارتكابها بواسطة مسلمين ، فإن
ذلك يعزى إلى الإسلام وليس لمرتكب هذه الأعمال . وعندما يرتكب غير المسلم تلك
الأعمال الإرهابية البشعة نفسها ، فإنها تنسب إلى الشخص وليس إلى ديانته .

وهكذا رأينا أن أول رد فعل تجاه حادث تفجير مبنى في أوكلاهوما هو النظر إليه على
أنه عمل إرهابي جديد تم على أيدي المسلمين . وعندما اكتشفت السلطات الأمريكية أن
مرتكب الحادث ليس مسلماً ، بل مسيحياً ، جرى تجاهل الحقيقة تماماً ، ولم يتم وصف
الحادث بأنه نتيجة أعمال إرهابية مسيحية .

وهناك مثال آخر في هذا الصدد وهو الاقتتال الشرس الذي يدور في أيرلندا الشمالية
بين طائفتين دينيتين متنازعتين ، إلا أنه لم يتم ، في أى وقت ، وصف حوادث تفجير القنابل
والقتل والتشويه التي يقوم بها الجيش الجمهوري الأيرلندي أو التي ينفذها البروتستانت
الناوئين له ، على أنها تمثل إرهاباً مسيحياً كاثوليكياً أو بروتستانتياً . إن الإرهاب الذي يمارسه
المسيحيون ضد بعضهم البعض في أيرلندا الشمالية لا يعد شيئاً ذا بال إذا ما قورن بالأعمال
الوحشية والفظائع الدموية التي ارتكبتها القوات الصربية في البوسنة والهرسك . ففي تلك
البلاد تم تجويع المسلمين وتعذيبهم واغتصاب نساءهم وقتل وذبح أطفالهم وشيوخهم على
أيدي الصرب . . كما تم العثور على العشرات من المقابر الجماعية في أجزاء مختلفة من
البلاد ، كما أعلن الصرب صراحة ، وعلى رؤوس الأشهاد ، أنهم كانوا يمارسون عملية
تطهير عرقي ضد المسلمين لمنعهم من إنشاء دولة مسلمة في وسط أوروبا . ولكن الأوروبيين ،
على الرغم من ذلك ، ونتيجة لبعض المحاذير السياسية ، يحجمون عن وصف عمليات

التطهير العرقي بأنها كانت بمثابة مذابح جماعية ضد المسلمين حتى وإن كانت كذلك بالفعل .

ومع ذلك لم يرقم الغرب فى أى وقت من الأوقات بوصف المذابح والإرهاب الذى مارسه المسيحيون الصرب ضد المسلمين بأنه إرهاب مسيحي . . ليس هذا فحسب ، بل إن قوات حفظ السلام الأوروبية قامت طواعية بتسليم الملاذات الآمنة للمسلمين إلى القوات الصربية التى قامت بعد ذلك بذبح آلاف من الشبان المسلمين دون شفقة أو رحمة . ولو افترضنا مجرد افتراض أن السلاف المسلمين هم الذين كان بحوزتهم الأسلحة والقوة والتفوق العدى ، وأن الدول الإسلامية كانت تساندتهم ، وأنهم هم الذين ارتكبوا تلك الفظائع . . لو أن ذلك حدث لكان الغرب قد وقف ليصرخ بأعلى صوته بأن ذلك إرهاب إسلامى ، ولكان «الناتو» قام بتحريك قواته وتدخل من الفور وأنهى استقلال البوسنة والهرسك فى وقت وجيز .

ولكن ماذا نفعل وتلك هى الصورة التى كونها الغرب عن المسلمين ، لدرجة أنه ينسى فى كثير من الأحيان أن عدد ضحايا التطرف الإسلامى لا يكاد يذكر مقارنة بالمسلمين بل وغير المسلمين الذين تم ذبحهم على أيدي المتطرفين المسيحيين ؟ لقد بلغ سوء الفهم للإسلام فى الغرب إلى درجة أنهم يفترضون أن الإرهاب جزء أصيل من التعاليم الإسلامية ، وأنه يقتصر على المسلمين فقط . وعند تقديم أدلة على أن العكس هو الصحيح ، يتم تجاهل تلك الأدلة بكل بساطة .

ولا ينفى هذه أن هناك عددا قليلا من الكتاب المسيحيين ممن حاولوا أن يكونوا منصفين وموضوعيين . . إلا أن آراء أولئك الكتاب يتم تجاهلها فى الغرب ويغض الطرف عنها ، بل ويتم فى بعض الأحيان إدانتها وتوجيه اللوم لأصحابها . أما المحاولات التى يبذلها المسلمون لتوضيح أن الأعمال الإرهابية يتم ارتكابها بواسطة جماعات خارجة عن الإسلام ، وهى جماعات فى ذلك مثل أى إنسان آخر ، ف يتم أيضا غض الطرف عنها .

الأصولية

تعتبر كلمة الأصولية من أكثر المفردات تعرضا لسوء الاستخدام . ففي الوقت الحالي ينظر الكثيرون إلى الأصولية وإلى التطرف على إنهما كلمتان مترادفتان ، وبالتالي تعنيان شيئا واحدا . ولو أن تعاليم الإسلام السمحاء قد درست دراسة متأنية وكاملة ، لفهم الكثيرون أن المسلمين الجديرين بهذا الوصف حقا ، هم المسلمون الأصوليون ؛ أى المتمسكون بأصول الدين . فأصول الإسلام تقوم على السلام ، بل أن كلمة «الإسلام» فى حد ذاتها تعنى السلام . أما الأشخاص الذين يشار إليهم فى الأدبيات المعاصرة بأنهم مسلمون أصوليون فهم فى الحقيقة أبعد الناس عن اتباع تعاليم الإسلام . ليس هذا فحسب ، بل أن العكس تماما هو الصحيح . لأن أولئك الأشخاص يرفضون التعاليم الإسلامية وينحرفون عنها ، بل أن الغالبية العظمى منهم قد ارتدّت - على ما يبدو - إلى أيام الجاهلية الأولى وإلى الولاء للقبيلة على حساب الولاء للأمة والتعصب للقبيلة على حساب التعصب للدين .

وعندما يقوم الغرب بإطلاق صفة «الأصولية» على أولئك الأشخاص فإنه يكون قد أظهر افتقاره للفهم السليم للإسلام . والشئ المؤكد هو أن الغرب كثيرا ما يخفق فى تقدير المشاكل التى يواجهها العديد من المسلمين . فعندما تكون العقائد متجذرة وواسعة الانتشار يصبح من الصعب على أى إنسان أن يختلف عليها بصرف النظر عما إذا كانت تلك العقائد صائبة أم مخطئة ؛ لأن أى شخص يخاطر بإبداء وجهة نظر معارضة لها أو مختلفة معها ، سوف يكون عرضة للإتهام بالهرطقة والخروج عن الدين ، مما قد يعرضه لعواقب وخيمة . وهكذا فإننا نجد أن الأشخاص الذين يعارضون تلك الجماعات المنحرفة عن الطريق الإسلامى القويم ، يعرضون أنفسهم إلى مخاطر النبذ والإقصاء ، بل وحتى العنف . ونتيجة لذلك يلتزم الكثيرون الصمت حيال ما تقوم به تلك الجماعات من ممارسات خطأ ولا يجاهرون بمعاداتها علنا . ولكن عندما يقوم الكفار باتهام جميع المسلمين دون استثناء بأنهم إرهابيون وأنهم قوم سوء ، فإنهم فى هذه الحالة لا يقدمون العون للمسلمين الملتزمين ، وإنما يدفعونهم دفعا إلى

الارتقاء فى أحضان تلك الجماعات المنحرفة .

إن الإسلام هو دين الشعوب التى سادت العالم فى يوم من الأيام ، وليس المقصود بتلك السيادة المساحة التى سيطروا عليها من الأراضى أو القوة السياسية التى توفرت لهم ، وإنما المقصود بها أنهم تفرقوا على العالم فى العلوم والفنون والتقنيات والمهارات والاستكشافات والملاحة والتجارة والصناعة . وقد حكم العرب ولمدة ثمانمائة عام أكبر إمبراطورية معروفة فى العالم حتى القرن الخامس عشر . وبعد ذلك تسيد الأتراك والمغول إمبراطورية أكبر حجما من الأولى .

الإمبراطوريات كما تعرفون تمر بفترات ازدهار واضمحلال ، والإمبراطورية الإسلامية ليست استثناء من هذا المصير . ولكن الشئ المعروف بالنسبة لهذه الإمبراطورية هو أن الأوروبيين كانوا ألد أعدائها طيلة عصرها . فبعد أن اعتنق الأوروبيون الديانة المسيحية وهى من الديانات الآسيوية أيضا ، أصبحت أوروبا فى غاية التعصب والعداء للإسلام . ومنذ البدايات الأولى كانت هناك حملات متعمدة لتشويه الإسلام وتشويه التعاليم الإسلامية ، ومنع الأوروبيين من فهم الإسلام بالصورة الصحيحة خوفا من تحولهم إليه .

وليس هناك ما يدعو للدهشة إذا ما عرفنا أن سقوط الإمبراطورية التركية يرجع إلى حد كبير إلى المؤامرات والدسائس التى دبرتها القوى الأوروبية ضدها . فهذه القوى لعبت على المشاعر الوطنية العربية وقامت بتقديم الوعود بالاستقلال للعرب وحصلت منهم على التعاون المطلوب للقضاء على الحكم التركى وعلى الإمبراطورية التركية ، ولكن العرب سرعان ما أدركوا أنهم قد استبدلوا الاحتلال الأوروبى بالاحتلال التركى المسلم ، الذى وضع يده على جميع الأراضى العربية من أجل استنزاف مواردها لمصلحة شعوبه .

وعلى الرغم من أن الأوروبيين قد اختلطوا بالمسلمين عن قرب فى البلاد التى احتلوها سواء فى منطقة الشرق الأوسط أو منطقة الشمال الإفريقى ، إلا أنهم لم يبذلوا أى جهد لفهم الدين الإسلامى وتأثيره على حياة وتفكير المسلمين . كان هناك نوع من العداء الكامن الذى

لم يحمله الأوروبيون لأى من أصحاب الديانات الأخرى ، وإنما اقتصر فقط على المسلمين . وعلى الرغم من أن بعض الأجناس التى قدر لها التعامل عن قرب مع المسلمين قد قبلت الإسلام إلى حد ما ، إلا أن الأوروبيين رفضوه رفضا يكاد يكون جماعيا . وعلى الرغم من أن سكان أوروبا المعاصرين قد لا يكونون مسيحيين متعصبين إلا أن موقف أوروبا وعداءها للإسلام والمسلمين قد بقى كما هو دون تغيير . ولم تتردد أوروبا فى التعبير عن عدائها للمسلمين بأساليب بالغة القسوة ، حيث تم عزل أمم بأكملها وفرض الحصار عليها ومعاقبتها مجرد أخطاء ارتكابها البعض . ليس هذا فحسب ، بل إن قوات حلف الأطنطى التى كان يفترض إنها ذهبت إلى يوغوسلافيا لحماية الأقليات المسلمة هناك ، تركت الصرب يقومون بذبح المسلمين دون شفقة وبلا رحمة ، ودون أن تحرك ساكنا .

أليس من حق المسلمين بعد كل ما لحق بهم من ظلم وعسف أن يشعروا بالمرارة وأن يحاولوا رفع الضيم الذى حاق بهم؟ هل هناك ما يدعو للعجب بعد كل ذلك إذا لجأوا إلى العنف؟ وبالرغم من ذلك كله فإن عدد المسلمين الذين اختاروا العنف كان محدودا .

يجب أن يكون الأوروبيون قادرين على فهم هذا ؛ لأن ما حدث من مذابح ضد المسلمين فى البوسنة والهرسك ليس إلا ردة فعل من قبل الأوروبيين فى البلقان ، للقهر المتخيل الذى مارسه ضدهم قوم من ملتهم ومن شعبهم ، أو حتى من غيرهم . بيد أن أوروبا لم تقم بأى محاولة لتفهم أو تقدير الإحباط الذى يشعر به المسلمون . صحيح أن زوال أمجاد المسلمين والتدهور الذى شهدته ممارساتهم وتفسيرهم الخاطى للإسلام يعود إليهم بالدرجة الأولى ، إلا أننا يجب ألا ننفل أن الدعاية الأوروبية المضادة للمسلمين ، وسوء الفهم المتعمد من جانبها للدين الإسلامى ، قد أسهمت فى مضاعفة إحباطات المسلمين .

وماليزيا على سبيل المثال ، دولة ذات أغلبية مسلمة وحكومتها يغلب عليها المسلمون . وعلى الرغم من أن المسلمين يتمتعون بأغلبية كافية تخولهم حكم البلاد بمفردهم ، إلا أنهم اختاروا ألا يفعلوا ذلك ، قاموا طواعية باقتسام السلطة مع الأقليات غير

المسلمة .

وفى عام ١٩٦٩ وتحديدا فى الثالث عشر من مايو اندلعت اضطرابات عرقية فى ماليزيا أسفرت عن مصرح حوالى ٢٠٠ شخص معظمهم من غير المسلمين . ومن الفور تم إعلان حالة الطوارئ وتولى الملايون المسلمون الحكم . وعقب ذلك أعلنت الصحافة الأوروبية أن الديمقراطية فى ماليزيا قد ماتت ، واعتبرت ماليزيا دولة نامية تضاف إلى باقى الدول النامية التى سيتهى بها الحال فى النهاية إلى مزلة التاريخ .

وعلى الرغم من ذلك ، فإن ماليزيا التى لا يزال المسلمون يحكمونها ، تعتبر الآن دولة مستقرة ، يسود ربوعها السلام ، وتمتع باقتصاد مزدهر ينمو بنسبة ٨ فى المئة سنويا منذ عقد كامل من الزمان تقريبا . ومسلمو ماليزيا كما هو واضح ليسوا من الإرهابين وإنما هم شعب أثبت قدرته على العيش والعمل مع غير المسلمين لبناء دولة متحدة ومتقدمة .

وماليزيا دولة تخلو من مظاهر العدا والبغضاء سواء بين المسلمين بعضهم بعضا ، أو بين المسلمين وغير المسلمين ، وعلى الرغم من أن دين ماليزيا الرسمى هو الإسلام ، إلا أننا نرى المعابد البوذية والهندسية والطاوية وكذلك الكنائس المسيحية فى كل مكان . كما أن الأعياد الدينية لمختلف الأعراق والأديان يتم الاحتفال بها من قبل الجميع . وأتباع الأديان الأخرى فى ماليزيا لا ينظرون إلى المسلمين على أنهم إرهابيون ، ولا ينظرون إلى الإسلام على أنه دين عتف .

كان الظن بأن ينظر المسلمون وغير المسلمين إلى ماليزيا على أنها نموذج لممارسة الإسلام الصحيح ، ولكن ما حدث هو أن الغرب ووسائل إعلامه يرفضون الاعتراف بأن مسلمى ماليزيا يعتبرون تجسيدا للتعاليم الإسلامية الحقة . وبدلا من ذلك فإنهم أبوا إلا أن يحاولوا إظهار مسلمى ماليزيا على أنهم يجسدون الزيغ والضلال . ولذلك نراهم دائمى السؤال عن الأصولية فى ماليزيا ، وعندما يتم إخبارهم أنه لا يوجد هناك مسلمون أصوليون بالمعنى الموجود فى أذهانهم ، لا يصدقون ما يقال لهم . وهكذا نرى أن التحيز ضد الإسلام

و ضد المسلمين مازال قائما حتى مع دولة مثل ماليزيا .

والحقيقة أن الإسلام دين يسيء الآخرون تفسيره وفهمه دائما ، هذا الفهم الخطأ للإسلام ، والتحيز الواضح ضده ، هو ما يدفع غير المسلمين ، بل وبعض المسلمين أحيانا إلى النظر إلى الإسلام باعتباره عقبة تحول دون قيام علاقة سلمية طيبة بين المسلمين وغير المسلمين ، بل وبين المسلمين بعضهم بعضاً كذلك . والطرفان ينظران إلى هذا الدين الذي حقق العظمة والشموخ للعرب ، وبنى إمبراطورية متقدمة ، باعتباره مسئولا عن المشاكل والصراعات التي قامت بين المسلمين وغير المسلمين .

ويميل بعض المسلمين الذين لا يعرفون تعاليم الإسلام ، والذين يشعرون بالإحباط بسبب الإخفاقات التي منى بها المسلمون والمشاكل التي تعاني منها بلادهم ، يميلون إلى السخرية من الدين الإسلامي ، بل وإدائته . كما أن آخرين أيضا ونتيجة لما يحسون به من إحباط وخيبة أما في المجتمعات الإسلامية التي يعيشون فيها ، ونتيجة لجهلهم بتعاليم الإسلام وتاريخه ، يقومون بالتلميح إلى أن في القرآن الكريم ذاته أخطاء وأنه في حاجة إلى مراجعة وإعادة النظر .

وعندما يقوم مثل أولئك المسلمين بالتعبير عن إحباطاتهم علنا ، فإن وسائل الإعلام الغربية التي تعتبر الموجه الرئيسي للفكر الثقافي الغربي ، سرعان ما تختلق أبطالاً من مثل أولئك الأشخاص الجهلة ديناً والأميين تعليماً . ليس هذا فحسب ، بل إننا نرى أن الدول الغربية تنعم على مثل أولئك الأشخاص بالجوائز وتحولهم إلى أبطال وتوحي بأنهم يتصدون للظلم وعدم العدالة التي يحاولون ربطها بالإسلام وبكل ما هو إسلامي .

إن الغرب يتمنى أن يسمعي وأنا أقوم بإدانة الإسلام بتحميله مسؤولية ما لحق بالمسلمين والدول الإسلامية من إخفاقات ، ولكنني لن أقوم بذلك لأنني أعلم تمام العلم أن اهتمام الغرب بالإسلام لا يزيد عن كونه اهتماماً أكاديمياً محصوراً في أروقة الجامعات . إنني أشك في أن كل ما يريدونه هو أن يروا الإسلام وقد اندثر عن الوجود تماماً كما حدث مع

الشيوعية . ولكن هذا الهدف لن يخدم قضية الحوار بين الأديان أو العلاقة الدنيوية بين المسلمين وغيرهم . إن الإجابة تكمن في تصحيح التفسيرات المتحيزة وغير الصحيحة التي يقدمها بعض العلماء والتخلي عنها . . لماذا؟ لأن أولئك بصرف النظر عما إذا كانوا متفهمين في تعاليم الدين ، وبصرف النظر عن عدد أتباعهم أو مدى رسوخ تعاليمهم ، فإنهم ليسوا أنبياء في نهاية المطاف . فليس هناك سوى نبي واحد للمسلمين جميعا وهو سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم ، خاتم الأنبياء الذي جاء برسالة الإسلام ونشرها بين العالمين . ومحمد - صلى الله عليه وسلم ، والقرآن الكريم ، لا يمكن أن يكونا على خطأ ، ولكن مفسري الإسلام يمكن أن يكونوا كذلك .

وإذا كان الإسلام يبدو دينا جامدا ومتصلبا ، فما ذلك إلا لأن الفقهاء والعلماء قد جعلوه كذلك . حيث مالوا لأن يكونوا دائما جامدين وغير متسامحين عندما قاموا بتفسير تعاليم الإسلام أيام مجد الإمبراطورية ، أولئك المفسرون وأتباعهم كانوا في تلك الأيام لا يطبقون أن يختلف معهم أحد ، ولا أن يبدى أحد اعتراضا على ما ينطقون به من أحكام وتفاسير . ولذلك فإنه حتى بعد أن فقد المسلمون سطوتهم وأمجادهم بعد سقوط الإمبراطورية الإسلامية ، وبعد أن تغيرت الظروف بوقت طويل ، نرى أنه لا يزال هناك من يحض المسلمين على التمسك بالتفاسير التي لم تعد ملائمة أو مناسبة أو قابلة للتطبيق في زماننا الحاضر .

إن ما يجب على المسلمين فعله هو أن يعودوا إلى كتاب الله وأحاديث رسوله الكريم ، وأن يقوموا بتفسيرها في ضوء معطيات العصر الحديث . لقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يتغير العالم ، وليس على الناس أن يرفضوا شيئا أراده الله . والمسلم الحق هو من يلتمس الإرشاد والهداية من آيات القرآن ونصوص الحديث ، ويفهمها في ضوء متغيرات العصر . إن الإسلام لم يكن موجها للعرب فقط في القرن السابع الميلادي ، وإنما هو دين لكل العصور ولكل الشعوب . وإذا ما فهمنا نحن المسلمين هذه النقطة ، فإن ذلك سوف يساعد على تضييق

مساحة سوء الفهم السائدة بيننا للإسلام . وإذا ما استطاع غير المسلمين فهم الصعوبة التي يعانيها المسلمون في محاولتهم للتكيف مع تطورات العصر ، فإنهم لن يسيئوا عندئذ فهم الإسلام والمسلمين كما يفعلون الآن ، عندها سوف يتحول العالم إلى مكان أفضل تسوده المحبة والوثام بين جميع البشر على اختلاف ألوانهم ومعتقداتهم ومواقعهم .

الفصل العشرون

الإسلام وحركة الدعوة العالمية *

يتضح لنا من دراسة تاريخ الإسلام أن الغرض من الدعوة الإسلامية هو نشر تعاليم الإسلام بين غير المؤمنين ، لإقناع أكبر عدد من الناس بالهداية والالتحاق بصفوف المسلمين . بيد أننا عندما نتحدث عن الدعوة اليوم ، يبدو أننا نقصرها على نشر تعاليم الدين بين إخواننا المسلمين ؛ أي بين أناس مؤمنين في الأصل . ويبدو أيضا أن الغرض الأساسي من الدعوة اليوم قد أصبح هو تعليم المسلمين شئون دينهم دون أدنى اهتمام بنشر الدين بين غير المسلمين . والحقيقة أننا قد نبذو أحيانا غير مباليين إذا حدث عن غير قصد أثناء عملية تعليم المسلمين أن أعطينا صورة منفردة عن الإسلام لغير المسلمين . إننا نقوم بذلك بالفعل عندما نتصرف بعدائية لا مبرر لها نحو الآخرين أو عندما نتبنى موقفا متعاليا تجاههم .

وقد يقول قائل ، إننا يجب ألا نهتم برأي غير المسلمين فيما ما دما نؤمن بأننا نقوم بتكوين مسلمين صالحين من بين جموع المسلمين . وهذا القول مردود عليه ، لأننا إذا لم نهتم بذلك الأمر ، فسوف نكون بذلك رافضين ما أمرنا به ديننا الحنيف من تبليغ للرسالة ، أي التبشير بالدين والعمل على نشره بين غير المسلمين .

ولنسأل أنفسنا ، كم يبلغ عدد المسلمين الآن ، وكم كان عددهم أيام الرسول - صلى الله عليه وسلم . وهل كان ذلك العداء ليتحقق لو لم يكن الرسول الكريم مهتما بنشر الدعوة بين أولئك الذين لم يكونوا قد آمنوا بعد؟

إننا نعرف أن الملايين قد دخلوا الإسلام منذ حوالي ٨٠٠ عام ، وأن السبب في

* كلمة رئيسية في الدورة العاشرة للجنة التنسيق التابعة للعمل الإسلامي المشترك في مجال الدعوة في كوالالمبور - ماليزيا ، بتاريخ ١٢ يناير ١٩٩٦ م .

دخولهم إلى الإسلام يرجع إلى أن التجار العرب والهنود الذين جاءوا إلى سواحلنا ، فهم لم يدخروا وسعا في شرح الإسلام لأجدادنا . وتكلفت الجهود التي بذلوها في هذا الصدد باعتناق أجدادنا للإسلام دون أى نوع من الضغط أو الإكراه . ولو أن التجار العرب والهنود اكتفوا فقط «بفرض العين» أى بأداء ما هو مطلوب منهم ، من فرائض وعبادات دون أن يهتموا بصورتهم في نظر المواطنين الملاويين ، لما كان الملاويون قد أصبحوا مسلمين كما هم الآن . . إننا نشعر اليوم بالامتنان نحو هؤلاء ، حتى لو لم يكن الآخرون مهتمين بكوننا مسلمين أم لا .

والحقيقة ، أننا لو رجعنا إلى الوراء أكثر من ذلك لكان من الواجب أن نعترف بأن الرسول الكريم لم يقم في يوم من الأيام باتخاذ موقف غير مبال نحو أفراد أسرته ممن كان يتتابههم الشك في دعوته إلى الدين الجديد ، أو نحو عبدة الأصنام في الجزيرة العربية . بل الواقع هو أنه كان مهتما غاية الاهتمام بشرح الإسلام لهم لإقناعهم باعتناق الدين . ولأنه فعل ذلك ، فإن الإسلام انتشر بين أسرته ورفاقه وصحابته وبين أهل المدينة ، وبين أهل الجزيرة العربية وما وراءها . وإذا كنا نجتمع اليوم في هذا المكان ، فلأن المسلمين في الأزمان الماضية كانوا يهتمون بغير المسلمين حتى وهم يسعون إلى ترسيخ إيمانهم وفهمهم للدين الذي قبلوه أو الذي انتقل إليهم أبا عن جد . . آخذين ذلك بالاعتبار ، سيكون من الخطأ ألا نهتم بما نتركة من أثر للإسلام والمسلمين على غير المسلمين ، عندما نقوم بالدعوة بيننا ، وقد لانوفق في إقناعهم باعتناق الإسلام ، ولكن من المهم أن نقوم بشرح ديننا لأولئك الناس لكي يفهموه بصورة صحيحة بدلا من أن تتابهم الشكوك والهواجس نحو الإسلام بسبب افتقارهم لمعرفة الحقائق المتعلقة به .

كان بلال العبد الحبشى من أوائل الذين اعتنقوا الإسلام ، ولا شك أنه ما كان لعبد حبشى أن يقتنع باعتناق دين جديد لو أنه لم يلق من الرسول وصحبه كل رفق وود في المعاملة ، كان ذلك في تلك الأيام الباكراة من عمر الإسلام ، حيث لم تكن الدعوة ولا تعاليم

الإسلام قد انتشرت بشكل واسع . هكذا كان إيمان بلال على الرغم من عدم معرفته الكاملة بتعاليم الإسلام . ذلك الإيمان الذى جعله يتحمل العذاب من كفار قريش بسبب اعتناقه لهذا الدين . هكذا كان دوره فى تلك الأيام الباكرة من عمر الإسلام ، وهو الدور الذى يجعلنا نبجل سيدنا بلال بإطلاق اسمه على أحد كبار مسئولى المساجد فى ماليزيا .

إن اكتمال المعرفة بالإسلام أمر فى غاية الأهمية بالنسبة للأمة الإسلامية ولكن سلوك الأمة لا يقل أهمية عن ذلك بالنسبة للدعوة . لقد تأثر قبول بلال للإسلام بالطريقة التى عامله بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، بالقدر نفسه الذى تأثر به بإيمان الرسول . ويتضح من ذلك أننا لا يمكن أن نتجح فى الدعوة ما لم يكن سلوكنا متناسبا مع ما نادى به من إيمان ومتفقاً مع تعاليم ديننا الحنيف .

إننا نقول إن ديننا يأمرنا بأن نفعل الخير وأن نتبعد عن الشر ، وهذا يعنى بوضوح أن المعرفة بالإسلام ليست هى الشئ الوحيد المطلوب منا ، وإنما نحن مطالبون أيضاً بأن نفعل الخير وأن نمتنع عن الشر . وبالتأكيد أن ما نفعله فى مثل هذه الحالات ليس من أجلنا وحدنا أو من أجل أن ندخل الجنة . ولو كان الأمر كذلك فمعناه أننا أنانيون ، والأناية خلق ينهى عنه الإسلام . فهناك التزام يتعين علينا أن نقوم به تجاه الأمة على الأكل إن لم يكن نحو من هم غير مسلمين . ما دمنا نقوم بفعل الخير ونبتعد عن الشر فإن غير المؤمنين سوف يحترموا إيماننا ويحترموا ذواتنا . والسؤال الآن هو : هل هناك أى خطأ فى أن نجعل من الإسلام والمسلمين شيئاً محترماً حتى ينظر غير المسلمين؟

إننا نجد الكثيرين منا عندما يقومون بأداء الواجبات المنوطة بهم فيما يتعلق بشئ الدعوة الإسلامية فيما بيننا ، لا يعيرون اهتماماً كبيراً لموضوع ما إذا كان الإسلام والمسلمون يحظون بالاحترام من قبل غير المسلمين . إن كثيرين منا يهتمون فقط بشئ ما يعرف باسم التعاليم الصحيحة للإسلام . الأكثر من ذلك أننا ننظر إلى إخواننا فى الدين كما لو كان إيمانهم بالإسلام مقوصاً أو غير كامل ، أو على أنهم ليسوا مسلمين بما فيه الكفاية . يضاف إلى ذلك

أنا قلما نتسم باللطف واللين في كلامنا أو في نصائحنا التي نسديها للغير . إننا نبدو كما لو كنا نطلب من المسلمين ألا يفعلوا شيئا في حياتهم سوى أداء الفروض والنوافل والشعائر الأخرى التي تقوم نحن باختراعها ، معتقدين أنها في صالح المسلمين وأنها من علامات التقوى . وفي حال عدم قيام المسلمين الآخرين بممارسة تلك الشعائر ، فإننا نقوم بانتقادهم واتهامهم بأنهم ليسوا مسلمين . وعندما نقول لهم ذلك فإن معناه أننا نقول لهم ضمنا إن إيمانهم منقوص ، أو أنهم يفتقرون إلى التقوى والصلاح . وفي حالات قصوى يصل بنا الأمر إلى أن نرفض مثل أولئك المسلمين رفضا كليا لأنهم لا يتمون مثلا إلى حزب سياسى معين .

إننا ننسى ونحن نقوم بذلك أن القرآن الكريم قد نص على أننا يجب ألا نتهم الآخرين بضعف الإيمان ، لأن الحقيقة قد تكون هي أن إيماننا نحن هو المنقوص وليس إيمانهم . إننا ننسى أن الله سبحانه وتعالى قد قال في محكم تنزيله (الآية ١٢٥ من سورة النحل) : ﴿ اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (١٢٥) ﴿ صدق الله العظيم .

يجب أن نعمل على كسب قلوب المسلمين وغير المسلمين على حد سواء عن طريق القدوة الحسنة قبل الوعظ . واليوم نجد الأمة الإسلامية في حال يستحيل معها أن ينظر الآخرون إليها باعتبارها نموذجاً يحتذى أو قدوة يقتدى بها ، ناهيك عن أن يتبعوا الدين الذى نؤمن به . إننا لانستطيع أن نعلن أمام الآخرين أننا القدوة الحسنة ، وكما جاء فى سورة آل عمران الآية - ١١٠ : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١١٠) ﴿ صدق الله العظيم . ولكن هل نستطيع أن نقول حقا وصدقا أننا بما نقدمه من قدوة للآخرين ، خير أمة أخرجت للناس فعلا؟

واليوم نجد أن العالم الاسلامى فى حالة من الاضطراب والفوضى ، فنحن نقاتل بعضنا بعضا ولا نستطيع أن نتفق على التعاون فيما بيننا كى نساعد أنفسنا ، ونحن كذلك

ضعفاء وغير قادرين على الدفاع عن أنفسنا . والأسوأ من ذلك أننا نضطر في العديد من الحالات إلى أن نقف إلى جانب أولئك الذين نشك في حسن نواياهم تجاهنا ، نضطر إلى ممالأتهم لأننا ضعفاء وفي حاجة إلى مساعدتهم .

المسلمون اليوم فقراء ويحتاجون إلى المعرفة الأساسية التي تمكنهم من إتقان المهارات اللازمة للعيش في العالم المعاصر ، ونحن نقوم أحيانا بتعزية أنفسنا بالقول بأن هذا العالم أو هذه الدنيا الفانية ليست لنا ، وأن مملكتنا ودينانا في الدار الآخرة . إننا نوهم أنفسنا بذلك على الرغم من أننا نعلم علم اليقين أن ما نقوله لا يتماشى على الإطلاق مع زعمنا بأننا خير أمة أخرجت للناس .

نحن نعرف أن الفقر كفيل بإضعاف الإيمان ، ولكننا لا نعمل شيئا من أجل القضاء على هذا الفقر ، وإنما نفضل أن نقرن بينه وبين التقوى على الرغم من أن تعاليم الإسلام تقول لنا إنه ليس هناك بين الفقر والكفر إلا خطوة واحدة .

ربما أننا حين نقوم بنشر كلام الله أى الدعوة إلى رسالته ، فإن كل ما نريده هو أن نقوم بشرح القرآن والحديث الصحيح فقط . قد يكون الأمر كذلك بالفعل ، ولكن الأمر مشير للشك إذا لم يكن لدى المؤمن شيء طيب يمكن أن يقدمه كدليل على فضل الله على المسلمين الأتقياء . وإذا كان العلماء بيننا فقراء للغاية فإننا لن نكون قادرين على إقناع أحد بأننا خير أمة أخرجت للناس ، وإذا كانت الدول الإسلامية في غاية الضعف لدرجة أنها تعتمد اعتمادا كاملا على الإحسان والمساعدات المقدمة من الدول والقوى غير الإسلامية ، وإذا كنا نريد أن نبيع الأخوة الإسلامية من أجل أن نظل على قيد الحياة ، وإذا كانت الأخوة الإسلامية سوف تتحول إلى ملهاة بسبب قيامنا بمحاربة بعضنا البعض فهل نستطيع بعد كل ذلك أن نقنع أنفسنا بأننا نتبع تعاليم الإسلام الصحيحة؟ وهل نستطيع بعد كل ذلك أن نقنع الآخرين أن الإسلام هو الطريق القويم للبشر أجمعين؟

إن الكلمات يمكن أن تكون مقنعة ، ولكن هل نستطيع في ظل الظروف غير المواتية

والإخفاقات الواضحة التي نعانى منها أن نتوقع أن نقتنع الآخرين وأن نكون نحن أنفسنا مقتنعين؟ إن المسلمين يتعرضون اليوم إلى الذبح على أيدي أولئك الذين يحتلون أرضهم ، يعانون مصاعب ومشاق جمة وإذلالاً لا يمكن وصفه ، فنساؤهم تغتصب ، ورجالهم يعذبون ويقتلون ، وهم يأتون إلينا هنا كي نساعدهم . فهل من الإسلام فى شىء أن نمتنع عن تقديم العون والمساعدة لهم؟ هل الخطأ هنا فى الإسلام أو فى تفسيرنا نحن لمعناه؟ هل يجب علينا أن نكتفى بأن نجعل المسلمين الأمنين بالفعل أكثر تقوى وورعاً . . أم أن من واجبنا أيضاً أن ندافع عن إخواننا فى الدين وأن نحميهم؟ ألا نعرف أنه فى الوقت الذى نكون فيه مشغولين بأن نجعل من أنفسنا مسلمين حقاً ، أن يوجد هناك مسلمون من بلاد تعرضت للغزو من غير المسلمين ، أو من الذين أجبروا على طلب المأوى فى بلاد غير إسلامية ، قد فقدوا إيمانهم وتخلوا عن دينهم ، بل وتحولوا إلى أديان أخرى؟ أم إننا نعرف ولكننا لا نبالي مادام بإمكاننا أن نضمن لأنفسنا الجنة فى الدار الآخرة؟ هل نحن متأكدون حقاً بأنه سوف يكون لنا مكان فى الجنة ونحن الذين نهمل إخواننا فى الدين بمن ابتلاههم القدر بسوء الحظ والتعاسة؟ هل الإسلام يدعو إلى الأنانية التى تجعلنا نتجاهل احتياجات إخواننا لأننا مشغولون بمحاولة الحصول على مزايا لأنفسنا؟

إننا هنا اليوم كى نتناقش فى الإسلام ، وكى نناقش حركة الدعوة . ولذلك فإننى أدعوكم أيها الأخوة إلى أن تكونوا مخلصين فى إيمانكم ، صادقين مع أنفسكم . وإذا ما كنا نعتقد للحظة واحدة أننا لم نخطئ فإنه يمكننا فى هذه الحالة أن ننسى الحقائق ونركز على أنفسنا . ولكننى أشعر بأن البعض منا ، على الأقل ، غير مهتم بالظهور بمظهر الأشخاص الذين يدعون أنهم أكثر إيماناً من الآخرين ، وإنما يعتبرون الدعوة واجبا نحو إخواننا ونحو البشرية جمعاء .

الفصل الحادى والعشرون

مِخْنَةُ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ *

فى هذه المناسبة المباركة أرى أن من الواجب علينا أن نشيد بفضل الآباء المؤسسين لهذه المنظمة ، الذين كان لرؤيتهم وبصيرتهم الفضل فى منح الأمم الإسلامية هذا المنتدى الذى لاغنى عنه ، من أجل السعى نحو تحقيق أهدافهم وتطلعاتهم المشتركة . إن ماليزيا لتفخر فى هذا الخصوص بأنها كانت من ضمن الدول التى ساهمت فى تعزيز هذه المنظمة خلال سنوات تكوينها .

عندما نعود إلى الماضى وتحديدًا خمسة وعشرين عاما خلت ، فإننا نستطيع أن نفخر بما فيه الكفاية بحقيقة أن منظمة المؤتمر الإسلامى قد استطاعت التعبير عن الاهتمامات والمصالح المشتركة للدول الأعضاء وللأمة الإسلامية . كما استطاعت أيضا أن تجعل هذه الموضوعات فى صدارة الأجندة الدولية . قد نجحت المنظمة فى الحصول على اعتراف فيما يتعلق بمتابعتها لقضية تحرير فلسطين والقدس . ولقد حاولت محاولات مستمرة لإيجاد تسويات سليمة للصراعات والنزاعات التى أثرت على العديد من الدول الأعضاء ، يضاف إلى كونها قد تطورت تنظيميا من مجرد منظمة مهتمة فى المقام الأول بالتعامل مع التحديات التى أعقبت مأساة المسجد الأقصى ، إلى منظمة قادرة على تعزيز التعاون الاقتصادى والتجارى والثقافى بين الدول الأعضاء . إن توسيع نطاق العضوية من ٢٢ دولة فى بداية عام ١٩٦٩ إلى ٥٢ دولة اليوم ، والتى تتضمن على وجه الخصوص الدول المستقلة حديثا فى آسيا الوسطى ، قد ساعد على تعزيز المنظمة وإثرائها أكثر من ذى قبل .

* كلمة ألقىت فى مؤتمر القمة الإسلامى السابع الذى عقد فى الدار البيضاء - المغرب ، بتاريخ ١٣ ديسمبر ١٩٩٤م .

وعندما نتحدث عن الخطوات التي قطعناها ، علينا في الوقت نفسه ألا ننسى الجوانب التي أخفقنا فيها ، فقد كان بإمكاننا أن نحقق أكثر مما حققناه لو أننا كنا أكثر اتحادا ، كما كان يمكن لصوتنا أن يكون أكثر قوة في الشؤون العالمية لو أننا كنا أكثر تلاحما وتماسكا . وكان بإمكاننا أن نكون أكثر صدقية لو أننا كنا أكثر كفاءة ، وأكثر التزاما بقضيتنا . وكان يمكن للمسلمين أن يكونوا في مرتبة عالية من الاحترام والتقدير فيما لو أن اقتصاديات بلدانهم كانت أكثر قوة وحكوماتهم أكثر كفاءة واستقرارا .

لذلك فإن من الملائم في هذه المناسبة الميمونة أن نقوم بالنظر في نواحي ضعفنا وكذلك في نواحي قوتنا ، وأن نعيد تأكيد تصميمنا الصادق على البحث عن طرق وأساليب تمكنتنا من تقوية منظماتنا ودعمها بحيث تتمكن من القيام بالدور المنوط بها باعتبارها صوتا للتضامن والتعاون الإسلامي .

وبهذه المناسبة أيضا قد يكون من الملائم بالنسبة لنا أن نتنبه إلى التحولات السريعة التي تجرى في العالم منذ انتهاء الحرب الباردة . فالنظام أو بالأصح «عدم النظام» العالمي الجديد سوف يكون له حتما تأثير علينا وعلى مصالحنا . إن هذه المنظمة وهذه الأمة في حاجة إلى التزود بالوسائل الملائمة لمجابهة التحديات والإفادة من الفرص التي سيتيحها القرن الحادي والعشرون . ونحن بحاجة لأن نكون أكثر جدية وأكثر التزاما نحو تعزيز فعالية المنظمة ، متى ما طلب منا أن نفعل ذلك . كما أننا بحاجة في الوقت نفسه لأن نطرح الممارسات والقيم التي لا علاقة لها بالإسلام أو بالمنظمة أو بالزمن ، وأن نعمل في الوقت نفسه على تحقيق أكبر قدر من النظام فيما يتعلق بطريقة التزامنا بالفضائل الإسلامية التي ساعدت في القرن الأول الهجري على نشر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها .

لقد اعترف اجتماعنا هنا بهذه الحقائق الجديدة ، وبناء عليه وافق وزراؤنا على تكليف مجموعة من الشخصيات البارزة لكي تظطلع بحصر الإنجازات التي حققناها ومعالجة نواحي الضعف التي نعاني منها ، وتقديم المشورة التي تساعد على دفع المنظمة على طريق

المستقبل الصحيح . وسوف نقوم نحن رؤساء حكومات الدول المشاركة فى المؤتمر بالمصادفة على إجراءات وقرارات هذه اللجنة ، وإننى لوافق بفضل ما تتمتعون به جلالتم من حكمة ، بأننا سوف ننجح فى تطوير استراتيجية لإعادة إنشاء الوحدة الإسلامية واستعادة مصداقيتنا كقوة من أجل تعزيز العدل والمساواة فى هذا العالم .

وفى هذه العجالة ، أود أن أركز بشكل مباشر على الأمور التى تهتم الأمة والدول الإسلامية . إذ يجب علينا بادئ ذى بدء أن نعترف بأن الأمة والدول الإسلامية مازالت تحت التهديد ومازالت تعاني من الضعف الشديد . لقد ألحقنا بأنفسنا ضررا ما بعده ضرر بافتقارنا إلى التعاون بسبب صراعاتنا العنيفة المتكررة من أجل السلطة والنفوذ فى بلداننا . ونتج عن ذلك أننا أصبحنا فى وضع العاجز عن تقديم أى مساعدة لإخواننا عندما يكونون فى حاجة ماسة إليها . ولا يقتصر الأمر على ذلك وإنما يضاف إليه أن الأمة والدول الإسلامية لم يعد بمقدورها التأثير على الوكالات والمنظمات العالمية التى تؤثر القرارات التى تتخذها والإجراءات التى تقوم بها ، على مصير اخواننا فى الاسلام .

إننا ندرك أيضا أن هناك فى مجتمعنا ، كما هو الأمر فى باقى المجتمعات الأخرى ، جماعات خارج بنية السلطة تشعر بالمرارة والإحباط تجاه ما يحدث داخل المجتمع . وعلى الرغم من ذلك يجب أن يقال فى هذا السياق أن التطرف والعنف ليساهما الحل ، لأن التطرف يولد تطرفا مضادا ، والعنف يولد العنف . ولذلك فإن مثل أولئك الناس عندما ينجحون فى الوصول إلى سدة الحكم ، سوف يتعرضون إلى التطرف نفسه والعنف ذاته ، اللذين اتبعوهما من قبل مع منافسيهم .

وخلاصة القول إن الإسلام والأمة الإسلامية سوف يظلان على ضعفهما ، وسوف يستمران فى القيام بدور أشبه بمخلب القط فى اللعبة السياسية للأمم الكبرى المهيمنة على الشعوب الأخرى .

إننا لانستطيع أن نحقق كل الأشياء التى نرغب فى تحقيقها بين عشية وضحاها ، لكننا

يمكن أن نسرع خطواتنا على الطريق المؤدية إلى القوة والمجد ، ومع ذلك فإن الأمر يحتاج إلى بعض الوقت ، وإلا فيجب علينا أن نقنع بالكاسب الصغيرة ما دنا غير قادرين على تحقيق قفزات نوعية .

إن معظمنا ، على ما أعتقد ، ليسوا سعداء بمسيرة عملية السلام في الشرق الأوسط ، نظرا لأن الإسرائيليين ظلوا متباطئين وغير صادقين ، ولكن ذلك يجب ألا يدفع الأطراف المتنازعة إلى تقويض عملية السلام ، حيث لن يوصلنا ذلك إلى شيء . ولو نجحت عملية تخرجت مسيرة السلام ، فلن يكون أماننا في هذه الحالة سوى أن نبدأ من جديد . والسؤال هو : كيف نعتقد أن الاستراتيجية التي لم تصل بنا إلى النتيجة المأمولة بعد سنوات من الكفاح الباهظ الثمن ، يمكن أن تحقق النجاح إذا ما بدأنا من جديد؟ إنني أناشد الأخوة من المناضلين الفلسطينيين المتتمين إلى مختلف ألوان الطيف السياسى ومختلف الاتجاهات ، أن يوحدوا صفوفهم ويشحذوا عزائمهم بما يمكنهم من تعزيز المكاسب القليلة التي حققوها حتى الآن ومرار الوقت سوف يكونون قادرين على تحقيق هدفهم النهائي . إنه من غير المعقول أن نتصور أننا بقتال بعضنا بعضا سنكون قادرين على دفع قضيتنا قدما . إن ذلك لن يترتب عليه - حتى ولو دون قصد - سوى تحقيق الفائدة لإسرائيل وغيرها من أعداء الإسلام .

أما فيما يجرى بالبوسنة والهرسك ، فيجب أن نعترف بأننا لم نكن فاعلين بالقدر المطلوب ، إن لم نكن غير فاعلين على الإطلاق . لقد أعلنها الأوروبيون صريحة بأنهم سوف يتركون إخواننا في البوسنة والهرسك تحت رحمة السفاحين الصرب .

وإذا ما فعلوا ذلك فإن ذنبنا لن يكون أقل من ذنبهم وخطأنا لن يقل عن خطئهم ، لأننا تركنا إخواننا المسلمين هناك تحت رحمة المعتدين الصرب منذ زمن طويل .

هناك الكثير مما نستطيع عمله ، ولست في حاجة لأن أسهب في هذا الموضوع الآن ، لكنى أكتفى بالقول إن كل ما نريده هو توفر الإرادة السياسية . إن ما يدعونا الإسلام للاضطلاع به واضح وضوح الشمس ، وقيامنا أو عدم قيامنا بما يتعين علينا أن نقوم به هو

مقياس إيماننا من عدمه .

إننى على يقين من أننا جميعا هنا اليوم لأننا عاقدون العزم على الاضطلاع بمسئولياتنا الجماعية . وماليزيا مستعدة للمساهمة حتى وإن كان ما ستقدمه قليل من أجل حل المشاكل والصعاب التى تعترض طريقنا .

نسأل الله أن يهدينا وأن يمنحنا من لدنه الشجاعة والعزم والقدرة على اتخاذ القرارات الصحيحة وتحقيق النجاح فى مساعينا .

الفصل الثاني والعشرون

بَعَثَ أَمْجَادِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ *

إن مهرجان من هذا النوع يجب أن يساعد على تنوير المسلمين وغير المسلمين على حد سواء ، بإنجازات المسلمين في الماضي ، ومع ذلك فإن هذا ليس هو الهدف الأساسي من إقامة هذا المهرجان ، لأن الهدف الأكثر أهمية هو أن نبين للمسلمين في عالم اليوم أنهم إذا كانوا راغبين حقا في اكتساب المعارف اللازمة وتسخيرها لمصلحة الأمة ، فإنه ليس ثمة ما يحول دون القيام بإحياء أمجاد وعظمة الحضارة الإسلامية .

بعد أن انتقل الرسول - صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه ، انتشر الإسلام انتشارا واسعا خارج العالم الإسلامي حتى غطى ثلاثة أرباع العالم المأهول في ذلك الوقت . وعلى الرغم من أن القوة العسكرية والتطور قد لعبا دورا مهما في ذلك المجال ، إلا أن إسهام المسلمين في مسيرة الحضارة الإنسانية بصفة عامة ، قد تمثل في مجال العلوم والرياضيات والطب والفلك وغيرها من مجالات المعرفة الإنسانية ، التي ما زالت آثارها ماثلة حتى الآن ولقد كان ذلك ممكنا نظرا لأن السعى إلى المعرفة في الفترة البكرة من ظهور الاسلام لم يكن يعوقه شيء من جنس تلك التفسيرات الضيقة للدين التي نسمعها في أيامنا هذه . وبكلمات أخرى يمكن القول إن المسلمين الأوائل قد اقتدوا بسيرة الرسول الكريم في القيادة وفي الحصول على العلم والثروة دون إغفال القيام بالعبادات المفروضة عليهم . إن مسيرة الحضارة الإسلامية لم تتوقف إلا عندما تم إهمال المعارف والمهارات اللازمة لإنتاج الحضارات . ومنذ ذلك الحين بذلت محاولات

* خطاب في الحفل الافتتاحي لمهرجان الحضارة الإسلامية الدولي الذي عقد في عام ١٩٩٤ في كوالالمبور - ماليزيا ، بتاريخ ١٧ يونيو ١٩٩٤ .

جمعة لإحياء مجد الحضارة الإسلامية بعد أفول شمسها . ولكن للأسف الشديد أخفقت جميع تلك المحاولات نظرا لأن نفرا من العلماء المسلمين كانوا يخشون أن يؤدي ذلك التقدم الحضارى إلى إهمال شأن الدين ، مما جعلهم يصرون على تقسيم المعارف إلى نوعين : دينية وعلمانية ، مع النظر إلى المعارف العلمانية . على أنها تشكل تهديدا للإسلام . وفي الوقت الذى كان يحدث فيه ذلك فى العالم الإسلامى ، كان قد تم فى أوروبا فصل الدولة عن الكنيسة ، الأمر الذى أفقد الكنيسة سيطرتها التى مارستها طوال قرون عديدة على الدولة .

إن السبب الذى دفع العلماء إلى محاربة المعارف العلمانية يرجع إلى أنهم كانوا يخشون أن تؤدي مثل تلك المعارف إلى تقليص نفوذهم فى المجتمع وفى الدولة . إن بيننا من ينكر هذا الكلام ، ولكننا نستطيع من خلال وقائع عديدة أن نتبين صحته ؛ إذ رأينا فى أكثر من مناسبة أناسا مؤهلين للعمل فى مهنة مفيدة ، يتم إقناعهم بترك مهنتهم والتفرغ للقيام بوظائف أو مهن دينية .

وما لاشك فيه أننا إذا ما أردنا استعادة أمجاد الإسلام ، فإن علينا أن نتعلم من دروس التاريخ كيف تم تأسيس الإسلام وانتشاره ، لأن التاريخ خير معلم . ولكننا للأسف الشديد ، ونتيجة لتدهور العلوم غير الدنيوية ، رأينا المؤرخين المسلمين يقومون بتركيز اهتمامهم على إسهام الأمور الروحية فقط فى النجاحات التى حققها المسلمون . ولو انتقلنا إلى المؤرخين الغربيين فإننا سنجدهم متحيزين ضد الإسلام . وهكذا لم يعد أمامنا سوى الآثار المتبقية من أيام مجد وازدهار الحضارة الإسلامية ، كى نتعلم منها وكى نقيم الأسباب التى ساعدت المسلمين على تحقيق نجاحاتهم الأولى فى الفترة الباكورة من عمر الإسلام .

لكن رغم ذلك ، هناك الكثير مما نستطيع القيام باستخلاصه من الفنون والآثار

الإسلامية المتبقية منذ عصر ازدهار الدولة الإسلامية الكبرى . ما يمكننا استخلاصه سوف يساعدنا على استلهام الماضي لكي نتبين كيف تحققت عظمة الحضارة الإسلامية ، وكيف يمكن أن نقوم بإحيائها من جديد .

إلأنه يلزمنا بادئ ذي بدء ، أن نطرح جانبا بعض المعتقدات التي أدت إلى أفول شمس الحضارة الإسلامية ، ومن أول هذه المعتقدات أو تلك التعاليم التي قدمها بعض علماء الدين : أن هذا العالم ليس للمؤمنين ، وأن عالمهم الحقيقي هو الدار الآخرة . أما هذه الدنيا الفانية فهي للكفار وغير المؤمنين . إضافة لما يروجه من أن هذا العالم أو هذه الدنيا الفانية بها من الأشياء والمغريات الكثير مما يستطيع غير المؤمنين أن يتمتعوا به ، إلا أن المسلمين يجب ألا يسعوا وراء مثل تلك الأشياء والمغريات وهذا بالطبع كلام غير صحيح ، لأننا يجب أن نعمم بالنعم التي وهبنا الله سبحانه وتعالى ، إياها في هذه الدنيا . إن هذا العالم ليس هبة من الله سبحانه وتعالى لغير المؤمنين فحسب وإنما هو نعمة أنعم بها على المؤمنين . وعدم القيام بتقدير تلك النعمة والاستفادة منها سيكون من قبيل إنكار الجميل الذي خصنا الله سبحانه وتعالى به . والله سبحانه وتعالى ، لا يحب من عباده أولئك الذين ينكرون ما أفاء به عليهم من نعم وخيرات ، بل أن الله سبحانه وتعالى ، لا يحب من عباده من ينكرون أى شئ طيباً حتى لو كان ذلك من بشر مثلهم .

هل هناك دين آخر غير الإسلام يتم فيه كل هذا التركيز على التأمل فى ما خلق الله من حقول خضراء وجبال وبحار ، وما فيها من خيرات للإنسان ومن أنعام ونباتات ومطر وشمس؟ وكيف يحيى المولى عز وجل ما كان يظن به الموات؟

هل التأمل فى بديع خلق الله سبحانه وتعالى ، يعنى أن نقوم بإلقاء نظرة عابرة على ما حولنا ، ثم نشكره على نعمته بطريقة آلية؟ أليس صحيحاً أننا كلمة أكثرنا

التأمل فى عجائب خلق الله سبحانه وتعالى ، تعمقنا فى دراسة مخلوقاته . وكلما تعمقنا فى دراستها أصبحنا أكثر إيمانا بقدرته وعظمته . نعم هذا صحيح لأننا عندما ندرس التفاصيل الدقيقة لتكوين مادة معينة من ذرات وخلافه ، فإن ذلك الفهم يمكن أن يسهم فى إلمانا بالطريقة التى تكونت بها جميع المواد الأخرى ، إلا أننا لا يمكن أبدا أن ندرك لماذا تعمل بالطريقة التى تعمل بها ، ولماذا يحدث تفاعيل بين بعضها البعض ولماذا تتكون منها مواد أكثر تعقيدا إننا لا نستطيع أن نشرح كيف يحدث كل ذلك ولماذا يحدث ولماذا يسهم فى الحياة على وجه الأرض .

لن نستطيع أبدا أن نفهم لماذا يؤدى اتحاد ذرة من الأوكسجين بذرتين من الهيدروجين (غازان غير مرئيان) إلى تكوين الماء الذى نعرفه جميعا والذى لا غنى عنه للحياة على هذا الكوكب؟ ولن نستطيع أن نفهم لماذا لا تكون الذرتان من غازين آخرين؟ ولماذا يؤدى ذلك إلى تكوين الماء تحديدا؟ ولماذا كان الماء عنصرا جوهريا للحياة والوجود؟ إننا نستطيع عن طريق الملاحظة الدقيقة والدراسة المتأنية أن نفهم وأن نكتشف الكيفية التى تتكون بها جميع هذه المواد والمكونات والتى تحدث بها هذه الأفعال وردود الأفعال . ولكننا لا نستطيع أبدا أن نجيب عن السؤال الخاص بلماذا على هذا النحو أو لماذا تفعل أو تقوم بمثل ذلك السلوك !! والاستنتاج الوحيد الذى نستطيع التوصيل إليه فى هذا السياق هو أنه لا بد من أن هناك قدرة تتجاوز قدرة الإنسان على الفهم ألا وهى قدرة الله سبحانه وتعالى .

ومن المؤكد أن هذه الدراسات سوف تجعلنا أكثر إيمانا بالله سبحانه وتعالى . ومن المؤكد كذلك أنه كلما كانت المعارف التى نتحصل عليها أكثر عمقا وشمولا ، كانت درجة إيماننا بما نكتشفه من خلال هذه الدراسات من معجزات ، أعظم مما كنا نعتقد للوهلة الأولى ، معجزات لا يقدر على صنعها سوى الله سبحانه وتعالى .

وبالرغم من ذلك فإننا نرى أن المسلمين يحجمون عن دراسة كل الأسرار التي تحيط بهم في هذا الكون ، وعن اكتشاف عجائب خلق الله سبحانه وتعالى ، وعن استغلال الأنعام والنباتات للحصول على الطعام ، واستغلال جميع المخلوقات التي سخرها الله سبحانه وتعالى للإنسان لإدامة حياته في هذا الكون وتحسين نوعيتها . ونظرا لأننا لانسعى إلى التعمق في المعارف ، فإن المسلمين في عالم اليوم ليس أمامهم من طريق سوى الاعتماد على نتائج واكتشافات أصحاب الأديان الأخرى . فالיום نجد أن كثيرا من دولنا تعتمد اعتمادا كاملاً على نتائج التطبيقات التي يقوم بها غير المسلمين فيما يتعلق بطعامنا ومواصلتنا وقوتنا العسكرية وملبسنا ومسكننا ، ليس هذا فحسب ، بل إن الحقيقة هي أننا نعلم على غير المسلمين فيما يتعلق بتصرف شؤون عبادتنا .

إذا ، إن لم تكن هذه الحياة ، أو هذه النعمة التي أنعم الله سبحانه وتعالى ، بها على البشر قد خلقت لنا ، فلماذا إذا نشارك غير المسلمين نتائج الاكتشافات والمخترعات التي يتوصلون إليها ، بالتفكير في عجائب خلق الله وقدراتها واستخدام المعارف التي يتوصلون إليها من خلال تعمقهم في تحسين نوعية حياتهم وحياتنا على هذا الكوكب .

وبالرغم من الأوضاع السائدة الآن ، إلا أننا نعرف من خلال دراسة التاريخ أن المسلمين إبان العصر الذهبي للحضارة الإسلامية ، كانوا يتقدمون الصفوف ، وهم الذين كانوا يكتشفون نعم الله على الخلق من خلال الدرس والتعلم ، وهم الذين كانوا يجعلون نتائج دراساتهم واكتشافاتهم متاحة لغير المسلمين في تلك القرون المبكرة . والشئ الذي جعل المسلمين يتبوأون مركز الصدارة في تلك الأيام ، هو أنهم كانوا قد قطعوا أشواطاً بعيدة على مدارج الرقي والتقدم ، وأصبحوا متطورين للغاية في كل فروع العلم والمعرفة السائدة في ذلك الوقت ، مثل : الطب والرياضيات والعلوم والأحياء والفلك وغيرها .

وما لم نتوقف عن القيام بتصنيف العلوم وتقسيمها إلى علوم دنيوية وأخرى دينية ، وما لم نبدأ بالنظر إلى جميع أنواع المعارف والعلوم على اعتبار أنها بمثابة عوامل مساعدة على ترسيخ الإيمان بقدرة الله سبحانه وتعالى ، وما لم نبدأ في النظر إلى دراسة تلك العلوم والمعارف على أنها ليست فقط أمراً مباحاً وإنما أمراً في غاية الحيوية للمسلمين ودينهم ، فإننا لن نتقدم خطوة واحدة إلى الأمام . وعندما يحدث ذلك في الوقت الذي يتقدم فيه العالم من حولنا بخطى مذهلة ، فإنه سيؤدي بنا بعد قليل إلى التخلف عن ركب الحضارة والسقوط في هاوية التخلف والظلام ، وسوف نصبح كمن يعيش في ظلام العصور الوسطى ، مقارنة بما حولنا من تطور .

وبناء على ما تقدم يمكننا القول إن الخطوة الأولى التي يجب أن نخطوها هي أن نتخلى عن الفكرة القائلة بأن هذه الدنيا لم تخلق لنا وإنما خلقت لغير المؤمنين ، وكذلك عن الفكرة القائلة بأن أية معرفة غير المعرفة الدينية والروحية هي معرفة علمانية وبالتالي يجب تحريمها . وبدلاً من ذلك يجب أن نسعى بقدر ما نستطيع إلى دراسة هذه المعارف والعلوم لأنها يمكن فعلاً لاقولاً أن تعزز إيماننا وتساعدنا على إحياء أمجاد الحضارة الإسلامية .

إننا نعرف أن العلماء العظماء في العصر الذهبي للحضارة الإسلامية لم يكونوا متخصصين في فرع واحد من العلوم وإنما كانوا محيطين بعدد كبير من المعارف السائدة في تلك الأيام ، إضافة إلى تدفقهم في أمور دينهم وهو أمر في غاية الأهمية للإسلام والمسلمين . هذا الوضع أتاح لهم القيام بتسخير معارفهم لخدمة دينهم . أما اليوم فإننا نجد من المسلمين من تخصصوا في شئون الدين فقط ، أو تخصصوا في العلوم الدنيوية . وبالتالي فإننا نجدهم غير قادرين على تسخير معارفهم وعلومهم العلمانية لخدمة دينهم . ونتج عن ذلك أن أولئك الذين تخصصوا في الشئون الدينية دون القيام بربطها بما يدور في العالم من أحداث وتطورات ، ودون محاولة لإدراك

العلاقة القائمة بين العلوم الدينية والعلوم الدنيوية ، قد تحولوا إلى أشخاص متعصبين دينيا يرفضون أى شيء لا يعرفونه لأنه دنيوي أى علماني ، وبالتالي فهو محرم . كما نجد أيضا أن هناك فئة من المسلمين قد قامت بدراسة العلوم غير الدينية ولكنها مع ذلك لا تستطيع الدفاع عما درسته من علوم عندما يتعلق الأمر بإثبات انسجام تلك العلوم مع تعاليم الدين . أو بمعنى آخر لا تستطيع إيجاد سند ديني للعلوم التي درستها ، مما يؤدي إلى سقوطها في برائن الحيرة والتخبط . فهم من ناحية يشعرون بالذنب لأنهم تعلموا علوما ليس لها سند من الدين أو لم يذكر عنها شيء في الدين . ومن ناحية أخرى نجد أن أمثال أولئك قد يلجأون أحيانا إلى حل آخر وهو رفض الدين وإنكاره بسبب عجزهم عن التوفيق بين ما درسوه وبين تعاليم الإسلام .

وطالما استمر هذا الانفصال سيكون هناك فقر في العلماء وفي العلوم غير المرتبطة بالدين لدى المسلمين ، مما يؤدي بدوره إلى تأخر المسلمين وتخلفهم والحيلولة بينهم وبين إعادة أمجاد الحضارة الإسلامية العظيمة .

لكن مع ذلك ، يجب أن يكون واضحا في أذهاننا أننا عندما نتحدث عن إحياء الحضارة الإسلامية فليس معنى ذلك أن نقوم بإعادة إنتاج نسخة طبق الأصل من تلك الحضارة ، بدءا من القرن السابع الميلادي وحتى سقوط دولة الخلافة العثمانية . وحتى عندما طلب الله سبحانه وتعالى ، منا أن نلتمس العبرة والهداية في سنة رسوله الكريم ، فإن ذلك لا يعني أن نقوم بخلق ظروف مشابهة لما كان سائدا في حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم ، لتمكين من تحقيق إنجازات مثل تلك التي حققها الرسول في تلك الظروف . والحقيقة أن العصر الذهبي للحضارة الإسلامية لم يتحقق عن طريق إعادة إنتاج الظروف والإنجازات ذاتها التي تحققت في عصر الرسول الكريم أو أثناء حياته في مكة والمدينة . بيد أن الحضارة الإسلامية وصلت إلى ما وصلت إليه من مجد لأنها التزمت بتعاليم الدين الحق التي لم يستطع أولئك الذين عاصروا الرسول أن

ينتفعوا بها بشكل كامل بسبب قصر الوقت . ومما لاشك فيه أن الحضارة الإسلامية التي ازدهرت بعد وفاة الرسول ، إذا ما تناولناها من ناحية الحجم ، ومن ناحية نطاق المعرفة ، نجد أنها كانت أكبر بكثير من العالم الإسلامي الذي كان موجودا على أيام الرسول - صلى الله عليه وسلم .

ومن نافلة القول ، أن تطبيق التعاليم الإسلامية وتطبيق العقيدة نفسها عبر القرون ، كان كفيلا بتحقيق أفضل النتائج .

على المنوال نفسه ، يجب أن يكون بناء الحضارة الإسلامية المعاصرة قائما على إنجازات البشرية في عصرنا الرواهن . فهذه الحضارة يجب أن تعكس الحياة المعاصرة والأفكار الصالحة لزماننا ، على أن تظل في الوقت نفسه ملتزمة بتعاليم الدين الإسلامي . أما إذا كنا نؤمن حقا بأن الإسلام مناسب لكل زمان ومكان ، فإننا سوف نكون تماما مثل من يناقض الدين في جوهره ، إذا ما اعتبرنا أن الحضارة الإسلامية لن تتحقق إلا في الظروف ذاتها التي كانت سائدة في المدينة في القرن السابع الميلادي .

على أنه يجب أن يكون واضحا في أذهاننا أننا حتى إذا ما تخلصنا من التقسيم المتعسف للمعرفة ، إلى دينية وعلمانية ، وحتى إذا ما نجحنا في اكتساب المعارف المتناغمة مع الحضارة الحديثة ، فسوف يكون لدينا بعد ذلك شروط معينة يجب استيفاؤها ، إذا ما أردنا إقامة حضارة عظيمة حقيقية . ومن أهم هذه الشروط ضرورة تأسيس نظام عملي للإدارة والحكم قابل للتطبيق بما ينسجم من ناحية مع تعاليم الإسلام وفي من ناحية ثانية بمتطلبات العصر الحديث .

بيد أننا يجب أن نتذكر أن أشكال الحكم التي سادت في مختلف مراحل الحضارة الإسلامية لم تكن بالضرورة مطابقة لنظام الحكم الذي كان قائما في المدينة أو مكة ، في حياة لارسول - صلى الله عليه وسلم . فأشكال الحكم التي تم تطبيقها اتخذت صورا

عديدة دون أن تفقد صفتها الإسلامية ، إن شكل الحكومة أو صورتها ليس هو المهم في هذا الشأن ، وإنما المهم هو هل تنسجم مثل تلك الحكومات مع الدين الإسلامي أم لا؟ وما يؤسف له أن نجد أن العالم الإسلامي اليوم يعج بالفوضى أو بالحكومات الضعيفة . فدول العالم الاسلامى تفتقر تماما إلى الاستقرار ، وتسودها صراعات طاحنة من أجل السلطة والنفوذ ينتج عنها مصرع أو هجرة الملايين من البشر ، كما ينتج عنها تدمير للمنشآت والممتلكات ، بالإضافة إلى فتح الباب على مصراعيه للفوضى والاضطرابات التى تؤدى بدورها إلى تفاقم الأوضاع والوصول بتلك البلاد إلى حافة المجاعة والإنتهيار . هذا الوضع يكاد يكون سمة سائدة فى معظم البلدان الإسلامية ، دون أن تلوح أى بادرة أمل فى تغييره ، وبالرغم من كل هذا الخراب والدمار الذى حاق بالبلاد الإسلامية ، فإن القتال لا يتوقف ، والصراعات لا تنتهى ؛ لأن هناك أفرادا وربما جماعات تريد الاستئثار بالسلطة دون الآخرين .

والشئ الذى يندى له الجبين هو أن المؤمنين يقدمون الطلبات والالتماسات والنداءات للكفار كى يأتوا إلى بلادهم من أجل إحلال السلام أو إطعام الجوعى . والسؤال الذى يطرح نفسه هو : هل نحن حقا عاجزون عن إدارة شئوننا وهل نحن عاجزون عن استخدام وتطبيق المفاهيم الحديثة فى الحكم ، وفى تطبيق العدالة ، وفى التعامل مع المجتمع دائم التطور ، تحكمه حتميات إجتماعية واقتصادية معقدة؟ إذا ما نظرنا إلى البلاد الإسلامية من حولنا ، فإن الوضع يبدو هكذا بالفعل . فالدول الإسلامية غير مستقرة وغير آمنة ، وعاجزة عن التطور . وفى هذا السياق هناك نقطة يجب أن نلفت النظر إليها وهى أن أشكال الحكم المعاصرة أكثر اتساقا مع تعاليم الدين من أشكال الحكم الإستبدادية التى كانت سائدة إبان الحضارة الإسلامية .

ليس معنى ذلك أنه يجب أن نقبل كل ما يجىء به الغرب دون قيد أو شرط ، ففى

كل أمر من الأمور هناك نقاط إيجابية وأخرى سلبية . والنقاط السلبية بالطبع يمكن أن ينتج عنها عواقب وخيمة . فنحن نرى ، على سبيل المثال ، أن الفوضى والتحلل الأخلاقي يضربان النظام الديمقراطي الغربي . ولذلك فإننا يجب أن نأخذ من الغرب ما يناسبنا وأن نترك ما يتناقض مع قيمنا وأعرافنا الإجتماعية أو تعاليم ديننا الإسلامى الخفيف .

ولكن ذلك لا يعنى بحال من الأحوال أن نقوم بإعادة تكوين نفس المجتمع الذى كان قائما أيام الرسول - صلى الله عليه وسلم ، أو حتى ذلك الذى كان سائدا أيام العصر الذهبى للحضارة الإسلامية ، باعتبار ذلك شرطا جوهريا لحياء ذلك العصر الذهبى أو بعث الحضارة الإسلامية من جديد .

ويجب أن يكون واضحا فى أذهاننا أننا لا نقصد بالحضارة التى سنبنها مواجهة المجتمعات والحضارات الأخرى أو الوقوف ضدها . فهذه الحضارة يجب أن تصب فى المجرى العام للحضارة الإنسانية وأن تكون رافدا حيويا يثرى تلك الحضارة . ويجب أن تعكس هذه الحضارة توازنا سويا بين ما هو روحى وما هو مادى . . بين التقدم والقيم الأخلاقية وبين شئون الدين ومشاكل الدنيا . ويجب أن تكون هذه الحضارة قادرة على تقديم البديل المناسب لهذا العالم الذى بات من الواضح أنه قد فقد اتجاهه الصحيح . ويجب أن يكون هذا البديل مقبولا وقادرا على الحياة وعلى التطور ، ويجب أن يكون قائما على الإقناع والمنطق وليس على الإيمان الأعمى ببعض التفاسير المغرضة للإسلام .

وينبغى أن نعرف أن الإسلام قادر - رغم كل ذلك - على أن يثير الطريق ومن الممكن أن تنشأ حضارة إسلامية لا تكون مجرد محاولة لاعادة إنتاج ما كان قائما فى الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى . . ولا مجرد تقليد أعمى لنظام غربى متحلل

أخلاقيا . إنما يمكن أن تكون هناك حضارة إسلامية قادرة على توفير الاحتياجات الروحية المادية للإنسان المعاصر في كل مكان . وإذا ما قال قائل : إن هذا ليس إلا أضغاث أحلام ، أو أنه شأن دنيوى لا علاقة له بجوهر الدين ، وأن الطريق الوحيد لإنشاء حضارة إسلامية معاصرة هو إعادة بعث الحياة التي كانت قائمة في القرن السابع الميلادى ، فمعنى ذلك أننا سوف نحكم على أنفسنا بالتخلف والفقير إلى الأبد .

وإذا ما فعلنا ذلك ، سنكون قد انفصلنا عن ديننا ، ويجب فى هذه الحالة ، عندما نرى أن عدد المؤمنين يتناقص ، بل ويتم استئصالهم فى بعض الأماكن ، ألا نلوم أحدا إلا أنفسنا . لأننا نكون قد أخطأنا بتصميمنا على فعل ما نعرف مسبقاً أنه خطأ ، أو لأننا لا نمتلك الجرأة الكافية لمناقشة صحة أو صواب التفسير الشائع والمعاصر للدين الإسلامى .

وربما يكون من قبيل المبالغة أن نتوقع من مهرجان الحضارة الإسلامية الذى نحضره حالياً أن يوقظنا جميعاً من الغيبوبة التى نحن فيها . ولكننا سوف نكون فى الوقت نفسه مقصرين فى حق ديننا إذا ما تركنا فرصة التعلم من دروس تاريخ الحضارة الإسلامية تفلت من أيدينا ، وليس الغرض من هذا المهرجان أن نحتفى بعظمة الماضى ، لأن أولئك الذين يتغنون بأمجاد الماضى ، يعترفون فى الحقيقة بتخلفهم الحالى ويقبلون به .

كما أن هذا المهرجان ليس المقصود به الاحتفاء بالأمجاد الماضية ، وإنما هو تذكرة ودرس للكيفية التى يمكن بها للدين عظيم أن يقود أمة إلى ذرى المجد ، وإلى تأسيس حضارة من أعظم الحضارات إن لم تكن هى الأعظم بالفعل ، على سطح الأرض . إن ما قام به الإنسان فى الماضى يستطيع بالتأكيد أن يقوم به اليوم ، وما عليه سوى أن يقرر السير فى هذا الطريق . وإن شاء الله سبحانه وتعالى ، سوف نستيقظ من سباتنا العميق ، وسوف نقوم باتخاذ هذا القرار .

الفصل الثالث والعشرون

العَوْدَةُ إِلَى الْقُرْآنِ *

الإسلام ؛ دين يقوم أساساً على التعليم التي جاء بها القرآن الكريم لهداية المسلمين في جميع مناحي حياتهم . ولذلك فإن كتاب الله ليس مجرد كتاب مقدس نتبرك جميعاً بقراءته وإنما هو كتاب يعكس كيف أن الإسلام في جوهره يمثل منهج حياة متكامل . ولكي ما يكون كذلك يجب أن نفهم كل ما ورد فيه من سور وآيات مباركة فهما صحيحا وعندما نقول إن الإسلام يشكل منهج حياة يجب ألا يفهم من ذلك أن المقصود هو أن يعيش المسلمون حياة بائسة يتعرضون فيها للقهر على أيدي الآخرين ، أو أن يعتمدوا كل الاعتماد على غير المسلمين في توفير احتياجاتهم .

وبالرغم من أنه يجب علينا ، كمسلمين ، أن نقدر القرآن الكريم ونبجله ، فإن علينا ، لكي نفهمه فهما صحيحا أيضا أن ندرس الحديث الشريف والسنة النبوية ، وأن نقوم في سياق اجتهادنا بتحليل وتفسير محتوياتها .

ومع أن القرآن الكريم كتاب لا يأتيه الباطل من إمامه ولا من خلفه ، إلا أن أولئك الذين يقرأونه ويقومون بتحليله وتفسير آياته ، يمكن جداً أن يتعرضوا للخطأ . وهذا هو السبب الذي أدى إلى ظهور الملل والطوائف والمذاهب المختلفة في الإسلام ، والتي يوجد لكل منها تفسيره وفهمه لما ورد في القرآن الكريم أو الحديث الشريف أو السنة النبوية . وعندما لا تقبل طائفة بتفسير طائفة أخرى للقرآن ، فإن ذلك لا يعنى على

* كلمة ألقيت في افتتاح الحلقة الدراسية الدولية الرابعة عن القرآن التي عقدت في كوالالمبور - ماليزيا ، في ٣ فبراير ١٩٩٤ م .

الإطلاق أنها ترفض القرآن ذاته ، وإنما هي ترفض فقط تفسير تلك الطائفة أو الملة التي يمكن أن تكون مخطئة بالفعل في ذلك التفسير . وهكذا فإننا نرى أن تعاليم وتفاسير المذهب السني تختلف بشكل عام مع تعاليم وتفاسير المذهب الشيعي والعكس صحيح .

وهذا الاختلاف في التفسير ممكن لسبب بسيط هو أن القرآن الكريم يقدم في الكثير من الحالات إرشادات عامة تعالج أى موقف من المواقف الحياتية . وعملية التفسير لآيات القرآن وتعاليمه منوطة بأهل العلم فى الإسلام ؛ لأن تعاليم القرآن لم تكن موجهة فقط لمن عاشوا فى زمن الرسول عليه الصلاة والسلام ، كما أنها لم تكن مقتصره على العرب فقط ، وإنما هى موجهة للمسلمين فى كل زمان ومكان ، إليها يرجعون وبها يستشهدون . ولسوء الحظ نرى اتجاهها لبعض الطوائف وبعض العلماء نحو التشدد فى تفسير آيات القرآن ونحو الإيمان فقط بوجهة نظرهم دون الاستماع إلى الآخرين ، أو محاولة فهم ما جاءوا به من تفاسير لآيات الكتاب الكريم . ومثل هذا التشدد وهذا التصلب فى الرأى بين جماعات أو علماء معينين ، هو الذى يؤدى فى نهاية المطاف إلى ما نراه من سوء فهم للإسلام بين المسلمين ، كما يؤدى ليس فقط إلى نشوء طوائف وفرق وأحزاب ، وإنما يؤدى كذلك إلى وقوع حروب وصراعات بين تلك الجماعات المختلفة فى الرأى .

وهذه الاختلافات والانقسامات التى نراها فى صفوف المسلمين ليس مصدرها القرآن الكريم ، وإنما هى محصلة طبيعية للتصلب فى الرأى لدى بعض الطوائف وبعض العلماء .

كثيرا ما نرى أن القرآن يتم تفسيره بواسطة أصحاب المصالح الخاصة ، ولذلك فإنهم يقومون بتفسير آياته بما يتفق مع مصالحهم أو بما يؤدى إلى تحقيق تلك المصالح .

وعبر التاريخ الإسلامى كان هناك دائما من يفسرون القرآن تفسيراً خاطئاً ويحرفون الآيات بما يتفق مع مصالحهم وأهوائهم . فعقب انتقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، إلى جوار ربه ، رأينا من يدعى النبوة ويقوم بتفسير آيات القرآن وتعاليمه تفسيراً خاطئاً ومقصوداً . ولولا قيام سيدنا أبى بكر الصديق بشن حرب على ذلك المدعى الكذاب ، لكان من الممكن جداً أن تنتشر تفاسيره وتعاليمه وسط المسلمين لكى تضلهم عن دينهم .

ونحن اليوم لانستطيع أن نقول إن المسلمين الحاليين يعيشون حياة رغدة أو حتى إنهم قد صنعوا حضارة عظيمة معاصرة ؛ بمعنى أننا أينما نظرنا نرى المسلمين متخلفين ومقهورين على الدفاع عن أنفسهم أو عن دينهم ، لدرجة أن بعض المسلمين قد ضلوا طريقهم إلى الصواب ، فتحلوا عن الإسلام أو اكتفوا بأن يكونوا مسلمين بالاسم فقط . والحالة المتردية هذه التى انحدر إليها المسلمون لا يمكن أبداً أن تكون ناجمة عن اتباع تعاليم الإسلام . ويجب ألا يلقى المسلمون بالمسئولية عن عجزهم عن تحقيق التقدم والمجد فى حياتهم ، على الإسلام أو القرآن الكريم ، وإنما يجب أن يعلموا علم اليقين أن ذلك قد حدث لسبب واحد وهو أنهم فسروا آيات القرآن وتعاليمه تفسيراً خاطئاً . وإنه ليس هناك سبب آخر لما لحق بهم من تخلف وضعف فى عالم اليوم .

إننا نعرف أن عرب الجاهلية قد تحولوا إلى إمة عظيمة بعد أن انتشر الإسلام بينهم ، ونقلهم من ظلمات الجهالة إلى نور الإيمان . كما أننا نعرف أيضاً أنهم ، وبفضل الإسلام ، أصبحوا قادرين على استيعاب إتقان شتى المعارف والمهارات التى مكنتهم من الانطلاق إلى الأمام ومن نشر حضارتهم فى مختلف أنحاء العالم المأهول فى ذلك الوقت . لقد برزت فى ذلك الوقت أمة عظيمة وقوية قامت بدورها فى تعزيز نفوذ الإسلام وقوته بين مختلف الأمم والشعوب .

ولقد عاش المسلمون فى تلك الأيام الزاهرة حياة كريمة كان الآخرون ينظرون إليها بكل احترام وتقدير ، ويعملون على نقل ما فى الحضارة الإسلامية من علوم وفنون شتى . لم يتحقق ذلك إلا لأن المسلمين فى ذلك الوقت كانوا قد استوعبوا الدين وفهموا تعاليمه واتبعوا أوامره وابتعدوا عن نواهيهِ . بذلك استطاع العرب الذين كانوا مجرد مجموعة من القبائل المتناحرة تمزقها الخلافات وتعصف بها النزاعات والحروب ، أن يتحولوا إلى أمة مسالمة تجيد فنون العصر وعلومه وتصنع حضارة عظيمة غطت أرجاء شاسعة تحظى باحترام جميع الأمم والشعوب فى تلك الأزمان . إن العرب والمسلمين لم يحققوا ما حققوه من مجد فى ذلك الزمان ، إلا لأنهم اتبعوا تعاليم الإسلام وساروا على نهج القرآن الكريم ، وما دام الأمر كذلك ، فما السبب فى تخلف المسلمين فى عصرنا الحديث؟ ما سبب ضعفهم وتفاهتهم؟ لماذا لا يستطيعون الذود عن حماهم والدفاع عن دينهم وعقيدتهم؟ هل هناك من يصدق أن القرآن الكريم الذى نقل العرب من الظلمات إلى النور وصهرهم فى بوتقة الحضارة وحولهم إلى أمة من أعظم الأمم فى ذلك الوقت ، هو المسئول حالياً عما حاق بالمسلمين من ضعف وتخلف وهوان؟

الإجابة قطعاً بالنفى ؛ لأن القرآن هو القرآن ، لم يتغير ولم يتبدل فيه شئ كما حدث لبعض الكتب السماوية الأخرى التى تعرضت إلى التحريف فقرآن اليوم هو نفس القرآن الذى نزل على الرسول - صلى الله عليه وسلم ، وهو نفس القرآن الذى تم جمعه وكتابته بواسطة الصحابة والتابعين .

وعلى الرغم من أن القرآن لم يتبدل ، فإننا نرى اختلافاً بين المسلمين اليوم والمسلمين الذين صنعوا أمجاد حضارتهم العظيمة قبل نزول الدعوة وما بعدها لقرون عديدة . ولا يمكن لنا أن نرجح سبب هذا الاختلاف إلا لشيء واحد فقط وهو تعدد تفاسير القرآن وتعدد آراء الأئمة والعلماء واختلافهم وتناحرهم واستقطاب كل منهم

لطائفة أو فرقة من الناس ، مما أدى إلى تمزيق الأمة الإسلامية وتعريضها إلى ما تعاني منه اليوم من ضعف وتخلف فى مختلف المجالات .

إن القرآن الكريم كتاب لكل العصور والأزمنة ، وهو لا يرتبط بعصر أو بزمن أو بشعب أو بمكان بعينه ، فما معنى ذلك؟ معناه أن آيات القرآن عندما تحض المسلمين على أن يتزودوا بالسيوف ويعدوا الخيول للقتال ، فإنها لم تقل لهم كيف يصنعون هذه السيوف أو كيف يربون هذه الخيول . ومعنى ذلك أن المسلمين كان لابد لهم من أن يجدوا إجابات عن تلك الأسئلة فى مكان آخر ، وليس فى آيات القرآن وسوره ؛ لأن الآيات تعطى إرشادات عامة وخطوطا عريضة ، وعلى المسلمين أن يفهموا ذلك .

ولزيد من الشرح نقول إن الإسلام قد أمر المسلمين بالتزود بالسيوف وإعداد الخيول للحرب والقتال ، ولكنه لم يذكر شيئا مثلا عن الأقواس والأسهم والجمال وجنود المشاة والدروع المصنوعة من الحديد أو من الجلد . ولكن عدم ذكر هذه الأشياء لا يعنى بأى حال من الأحوال أن جيوش الإسلام يجب أن تتغاضى عن التزود بتلك الوسائل الحربية ؛ لأن القرآن الكريم نص فقط على السيوف والخيول ، وهذا ما حدث فى الفترة الباكرة من تاريخ الإسلام ، حيث فهم المسلمون الدين فهما صحيحا ، وفهموا أن المقصود بالسيوف والخيول تحديدا الإشارة إلى وسائل الدفاع والقوة ، فتزودوا بالوسائل الأخرى دون القيد بالتفسير الضيق للنص ، وهذا هو المقصود بالفهم السديد للآيات القرآنية .

من المنظور نفسه ، يجب أن نفسر الآيات التى دعت المسلمين فى بداية ظهور الإسلام إلى إعداد ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل لمقاتلة أعدائهم ، ونطبقها على واقعنا الحالى . لو تمسكنا حرفيا بالآية الكريمة كما يصر بعضنا ، فإن معنى ذلك أننا سوف نذهب إلى ساحة الوغى على ظهور الخيال وليس معنا من سلاح سوى

السيوف ، وذلك من أجل أن نقاتل عدواً مدججاً بأحدث أسلحة العصر من طائرات ودبابات ومدافع وإلكترونيات وغيرها من الأسلحة الحديثة .

ولكن يجب أن يكون واضحاً لنا أن ذلك لا يعنى بأى حال من الأحوال أن القرآن الكريم قد أصبح كتاباً عفى عليه الزمن أو غير صالح للعصر ، لأن القرآن كما قلنا كتاب لكل زمان وكل مكان ، بشرط أن نفهم خطوطه العريضة وإرشاداته العامة الواردة فى الآيات التى نزلت على العرب منذ ما يزيد عن ١٤٠٠ عام كى يفهموها حسب ما كان سائداً من ظروف وأحوال فى وقتها ولكن المسلمين المعاصرين يجب أن يفهموا مغزى هذه الآيات وما المقصود منها حسب ظروف وأحوال العصر وكل عصر .

وعندما يأتى نفر ليقولوا إننا يجب أن نتمسك بحرفية النص القرآنى كما نزل ، فإن مثل هؤلاء هم الذين يقفون حجر عثرة فى سبيل تطور الإسلام وتقدمه ، وفى سبيل قيام أتباع باستيعاب العلوم والمهارات الحديثة ، التى تكفل لهم خوض غمار الحرب المعقدة التى نراها سائدة فى عصرنا هذا .

أما ما نراه اليوم من تخلف المسلمين فى هذه المجالات ، فيرجع إلى الجمود الفكرى للعلماء المسلمين الذين اهتموا بالتفاهات وسفاسف الأمور على حساب القضايا الجوهرية التى تهتم المسلمين فى دنياهم وآخرتهم . ولذلك فإننا نرى أولئك العلماء وهم يختلفون فى تفسير الآيات ، بل ويأتون بتفاسير عجيبة تؤدى إلى مزيد من الفرقة والانقسام فى صفوف الأمة الإسلامية ، كما تؤدى إلى زيادة تخلفها ، حتى لتكاد تصبح فى مؤخرة ركب الحضارة . أولئك العلماء هم السبب فى تخلف المسلمين ، وهم الذين يهتمون بالسفاسف على حساب الأمور المهمة ، ويدخلون المرة تلو الأخرى فى قضايا خلافية ، ويغضون الطرف عن الآيات التى تحض المسلمين على التزود بالقوة وتحقيق التقدم فى جميع المجالات .

لذلك كله ، نعود فنكرر أننا يجب أن نحذر الترجمة والتفسير الحرفية لآيات القرآن . لأننا لو فعلنا ذلك سنظل نراوح مكاننا وسوف ندخل فى منازعات وصراعات واختلافات ما أنزل الله بها من سلطان ، وسنكون قد غفلنا عن فهم حقيقة فى غاية الأهمية وهى أن تلك الآيات هى خطوط إرشادية عريضة ينبغى تفسيرها وفقا لظروف وأحوال كل عصر .

بالإضافة لذلك ، فإننا لو قمنا بتفسير القرآن تفسيراً حرفياً ، فإن ذلك سوف يجعله يبدو كما لو كان يدعو إلى شىء قد عفى عليه الدهر وهذا غير صحيح البتة ، ولكن من عفى عليه الدهر هم المفسرون الذين يفسرون القرآن تفسيراً حرفياً ، فهم الذين يضللون المسلمين ، وهم الذين يعيشون خارج حدود الزمن ويفتقرون إلى المعرفة السليمة .

لذلك لم يعد من المنطقى ولا من الممكن أن نعهد بمهمة تفسير آيات القرآن إلى علماء الدين فقط ، والسبب فى ذلك يرجع إلى أن تعقد الحياة المعاصرة وتشعب معارفها ، ويتطلب أن يعهد بالفتوى فى كل أمر من الأمور إلى المتخصصين فيها . فنحن فى عالم اليوم نرى تطورا هائلا فى ميدان الطب والجينات الوراثية والاكتشافات الفضائية والتجارة والصناعة . وكل تلك المجالات تتطلب أشخاصا متخصصين فيها كى يقوموا بإصدار الفتاوى أو تفسير الأمور المتعلقة بها ، على أن يكون لأولئك معرفتهم المختصة فى تلك الحقول ، معرفة وافية بالأمور الدينية والشرعية ، وشروط الفتوى والتفسير وما إلى ذلك . ولو لم تتم الأمور بهذا الشكل فسيكون هناك خطر كبير ، لأننا فى هذه الحالة سوف نطلب من رجال الدين أن يفسروا أمورا ، أو يدلوا بفتاويهم فى مسائل لا يفقهون شيئا .

ومن المحتم ، فى مثل هذه الحالة ، أن تكون الفتاوى التى يصدرونها منبته الصلة

بالموضوع الذى تم طلب الفتوى بخصوصه ، كما أن تلك الفتاوى سوف تصبح موضعا لسخرية غير المسلمين .

علينا إذن أن نعود إلى القرآن ، ونصرف النظر عن التفسيرات والفتاوى التى جاء بها العلماء فى الفترة التى أعقبت أفول شمس الحضارة الإسلامية العظيمة ، لأن هناك دلائل لا تقبل الجدل على أن بعض أولئك العلماء كانوا مهتمين بالمحافظة على استمرار نفوذهم على سلاطين الخلافة العثمانية ، أكثر من اهتمامهم بتقديم تفاسير وفتاوى صحيحة ، وخصوصا بعد أن رأوا كيف فقدت الكنيسة المسيحية نفوذها بعد فصل الدين التى تمثله عن الدولة ، ولذلك عمد أولئك العلماء إلى إيداع عملية تعلم العلوم غير الدينية خوفا من أن يأتى من تعلموا تلك العلوم وأتقنوها ، كى يزيحوا عن مناصبهم . ولذات السبب أيضا قام أولئك العلماء بتصنيف تلك العلوم بأنها علوم دنيوية وبالتالي فإنها محرمة . وكانت نتيجة ذلك أن المسلمين الذين كانوا روادا فى العلوم والفنون ، تخلفوا عن غيرهم لدرجة أنهم أصبحوا الآن فى ذيل ركب الحضارة . وكان محتما ، والأمر هكذا ، أن تسقط الدول الإسلامية واحدة وراء الأخرى تحت نير الاستعمار الغربى . تلك التفاسير للدين كما تبين صادرة من أجل المصلحة الذاتية لأصحابها . وما يؤسف له أن نرى بيننا حتى الآن من لا يزالون متمسكين بتلك التفاسير ويصرون على إرغام الآخرين على قبولها .

إن الطريق الوحيد المفتوح أمامنا هو أن نعود إلى القرآن الكريم ونعمل على تفسيره صحيحا . ويجب أن يكون هذا التفسير فى صالح الإسلام والمسلمين ، وليس من أجل مصلحة أصحابها فقط كما كان الأمر فى الماضى . كما يجب على العلماء المسلمين المعاصرين عندما يقومون بذلك الآن أن يراعوا التغييرات التى حدثت فى العالم وأن يراعوا الظرف التاريخى الحالى والمناخ السائد .

إن هذه الحلقة البحثية عن القرآن يجب أن يكون دافعها وهدفها ، هو العمل على أن يكون القرآن الكريم هو الضوء الهادئ للمسلمين في دروب العصر الحديث . كما أن القرآن الكريم قد أثار الطريق للمسلمين الأوائل في بداية الدعوة الإسلامية ، فإنه لا بد من أن يقوم بالدور نفسه الآن من أجل إعادة أمجاد وعزة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها . ولكن يجب علينا ، ونحن نقوم بذلك ، أن نحرض على تفسير تعاليم القرآن الكريم تفسيراً صحيحاً في عالم يتغير تغيراً حثيثاً وجذرياً .

يمكننا القول إن إقامة هذه الندوة في مثل هذه الظروف يعتبر أمراً ذا فوائد جمة ، وخصوصاً من حيث الدور المهم الذي يمكن أن تسهم به ، فيما يتعلق بعودة المسلمين إلى المنابع الأصلية للقرآن الكريم والاسترشاد به في أسلوب التفكير أو في أسلوب تناول المشاكل التي تعترض طريق المسلمين اليوم ، أو في المستقبل . إننى لأمل ألا تضع من أيديكم هذه الفرصة التي يجب الاستفادة منها في ترسيخ وتعزيز الإيمان بتعاليم الدين الإسلامى الحنيف .

الفصل الرابع والعشرون

دور الأديان وتأثيرها في المجتمع *

إذا ما أردنا أن ندرك أهمية الأديان للمجتمعات ينبغي لنا أن نقوم بإجراء عملية فحص وتحليل نقدي للقضايا الرئيسية والأساسية في حياة الإنسان مثل: الفلسفة والدولة والقانون والتعليم والأسرة، وذلك من خلال منظور الديانتين: الإسلام والمسيحية .

والإنسان بطبيعته مصاب بالشيزوفرنيا (ازدواج الشخصية) كونه يمتلك في وقت واحد كينونة جسدية ونفساً أو روحاً . وقد وصف القرآن الكريم بأسلوبه الإعجازي عملية خلق الإنسان في مرحلتين متميزتين عن بعضهما وهما: مرحلة خلق الجسم أو الوجود المادى من الصلصال، والمرحلة الثانية وهى نفخ الروح فى الجسد التى يكتمل بها خلق الإنسان .

يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الحجر (الآيات ٢٦-٢٩) : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ﴾ صدق الله العظيم .

ويقول الله سبحانه وتعالى فى سورة المؤمنون (الآيات ١٢-١٥) : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ

* أقيمت فى الحفل الافتتاحى للحلقة البحثية التى أقيمت حول الذهنية الإسلامية والمسيحية التى نظمها معهد الفهم الإسلامى بماليزيا ، بالتعاون مع معهد جوته فى كوالالمبور - ماليزيا ، بتاريخ ١٤ سبتمبر ١٩٩٣ م .

الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيْتُونَ (١٥) ﴿ صدق الله العظيم .

وتدل عملية خلق الإنسان على ثلاث نقاط وثيقة الصلة بالموضوع . **النقطة الأولى :**
نفخ روح الله في جسد الإنسان . وهذه العملية تدل على أن الله سبحانه وتعالى قد أنعم على الإنسان وكرمه ومنحه من لدنه علماً وإرادة ، إذا ما أحسن استخدامهما فسوف يكفلان للإنسان التفوق على المخلوقات كافة . وبالإضافة لذلك ، تعنى هذه العملية أيضاً أن الإنسان قد خلق طهوراً وصادقاً وحرماً ميالاً لفعل الخير وإلى الفضيلة ، وأن الله سبحانه وتعالى قد أنعم على الإنسان بالإدراك السليم لموضعه في الكون ومكانته فيه ولربوبية الله وخيره وحكمته وقوته .

النقطة الثانية : وهي بما أن الإنسان قد خلق من طين ، فإن هناك دائماً احتمال لسقوطه في شرك العادات والأوهام والخرافات والرغبات الغريزية والتعاليم الزائفة . وهذا الوضع هو ما يجعل الإنسان ميالاً إلى العدوان ، وغير طاهر ، وزائفاً وأنانياً وتواقفاً لكل ما هو محرم وممنوع كما نراه أيضاً منصرفاً عن حب أخوانه وعن الإنسانية وعن العبادة المخلصة لله الواحد الأحد .

النقطة الثالثة : وهي أن الشريمس قلوب أولئك الذين يستسلمون له ، في حين أنه لا يمتلك أى سيطرة على قلوب عباد الله المخلصين ، الذين طهرت قلوبهم بفضل الله سبحانه وتعالى . إن هذا يعنى في الوقت نفسه أن الإنسان عندما يكون مخلصاً في تسليم أمره لله سبحانه وتعالى ولإرادته ، فإن ذلك سوف يكون خيراً واق من الشيطان الذي يسعى إلى تدمير الإنسان . ولهذا السبب تمديداً يتأرجح السلوك الإنساني بين الخير والشر عندما يصيبه العنت والمشقة ويتعد عنه وينسى نعمه وفضله عليه ، عندما يكون في رغد من العيش . ولكن المؤمن الحق هو من يشكر الله على نعمته عندما يكون في حال ميسورة أو رغد من العيش . وهو الذي يتمسك بدينه ويصبر عندما تدلهم الخطوب وتحيط به الشدائد . ولكي نتأكد من أن

هذا الإنسان سوف يتجه إلى عمل الخير ، وأنه سوف يسعى إلى الفضيلة دائماً ، ينبغي علينا أن نجعل هذا الإنسان يفهم نفسه فهماً صحيحاً أولاً ، ثم ينطلق بعد ذلك إلى فهم ما يحيط به من مظاهر الطبيعة لكي ينتهي إلى فهم الله سبحانه وتعالى ، خالق كل هذا في نهاية المطاف . وهذا الفهم والإدراك لن يتأتى إلا باتباع التعاليم الدينية بشكل دائم ومستمر . فالدين هو الذى يمنح الإنسان القدرة على الفهم السليم ، وهو الذى يشجعه على فعل الخير واجتناب الشر . والدين هو البوصلة التى تساعد الإنسان على الحفاظ على اتجاهاته السليمة فى هذه الحياة ، وتحول بينه وبين الهيام على وجهه دون هدف ، مما قد يعرضه إلى السقوط فى برائن الشر .

وفى حياتنا الواقعية هناك مجتمعات ترفض جميع الآلهة والأديان . ولقد رأينا مثل هذه المجتمعات فى روسيا وفى دول أوروبا الشرقية التى ظلت سبعين عاماً كاملة تعيش بعيداً عن أى دين ، ثم انتهت بها الحال إلى التفكك والسقوط ، وأن ما أدى إلى ذلك السقوط السريع والمدورى لتلك المجتمعات هو عدم وجود دليل روحى يوجهها فى دروب الحياة ومسالكها المتشعبة . ومما لاشك فيه أن عدم قدرة هذه الشعوب وعجزها عن تحقيق أهدافها المادية يرجع إلى خوائها الروحى . لقد كان سقوط ملك الدول وعلى رأسها الاتحاد السوفيتى السابق ، مروعاً لدرجة أننا نجد قوة عظمى مثل روسيا تتسول حالياً وتستجدى أعداءها السابقين .

أما دولة ألبانيا التى قام رئيسها الأسبق أنور خوجا بتمزيق القرآن والإنجيل والتوراة ، وحرّم جميع الأديان ومنع نشر أى كتابات لها علاقة بالدين من قريب أو بعيد ، فقد تحولت الآن إلى أطلال دولة .

لقد تحولت أمم عظيمة ذات حضارات عريقة إلى أضعف وأفقر دول فى أوروبا ، غير أن الأديان لا يمكن القضاء عليها أو إقصاؤها عن حياة الناس بواسطة التشريعات والقوانين . فها نحن اليوم نرى الألبان وقد عادوا إلى رحاب الدين الإسلامى الحنيف بعد سنوات طويلة من

قهر ومحاربة الدين باستخدام وسائل القمع والبطش . ومع عودة الدين إلى هذه البلاد عاد السلام ليرفرف عليها من جديد ويمتحنها ثقة متحددة في المستقبل .

إن الإنسان لا يعيش بالحبز وحده ، وإنما عليه أيضاً أن يروى ظمأه الروحي . فحتى إذا امتلأت معدة الإنسان ، فإنه سيظل يعيش خواءً أو فراغاً يجعل حياته عديمة المعنى والجدوى . وإذا ما عاش الإنسان لكى يأكل فقط ، فإن معنى ذلك أنه لا يوجد فارق بينه وبين الحيوان ، فى حين أنه قد خلق من أجل هدف أسمى بكثير من ذلك . إن العالم قد أصبح على ما هو عليه اليوم بفضل الإنسان ، وهكذا فإن العقيدة التى تتجاهل حقيقة أن هناك فرقاً بين الإنسان والحيوان ، وكذلك العقيدة التى تقوم على إشباع الغرائز والحاجيات المادية للإنسان ولاشئ غير ذلك ، هى عقائد معادية للحضارة وتتجاهل عظمة العقل الإنسان وسمو المشاعر التى اختص بها الله سبحانه وتعالى الإنسان . أما محاولة جعل البشر يعيشون بغير هدف فمعناها إنكار العقل والمنطق اللذين تميزت بهما عملية خلق الإنسان .

وإلى جانب المجتمعات التى تنكر وجود الإله والأديان التى تحدثنا عنها آنفاً ، هناك أيضاً المجتمعات ذات الأغلبية المسيحية فى الغرب ، هذه المجتمعات قامت بالفصل بين ما هو دينى وما هو دنيوى ، ووقفت من الدين موقفاً سلبياً ، فلم تحاربه ولكنها لم تدعمه . . فماذا كانت النتيجة؟ لقد انتشر الانحلال والفساد الأخلاقى وتهافت الناس على إشباع رغباتهم الغريزية ، ونسوا الدين وتعاليمه نسياناً تاماً الأمر الذى أدى فى النهاية إلى حدوث شرخ فى بنية تلك المجتمعات .

والعلاقات التى تربط بين الأفراد فى المجتمعات الغربية تقوم الآن وإلى حد كبير ، على المكاسب المادية والإشباع الحسى . كما أن السعى لتحقيق هذه الأهداف فى تلك المجتمعات يتسم بالأثنية بعد أن أطلق المجتمع العنان لرغبات الفرد . وكان محتملاً والحال هكذا ، وأن تنهار المؤسسات والتقاليد الراسخة فى تلك المجتمعات . كما أن مؤسسة الزواج والأسرة

والقيم الخاصة باحترام الصغير للكبير واحترام التقاليد والعادات والمعاهدات ، قد اختفت أو كادت من تلك المجتمعات .

وترتب على اختفاء تلك القيم والتقاليد وانهيار تلك المؤسسات الراسخة ظهور قيم جديدة تقوم إلى حد كبير على رفض كل ما له صلة بالأديان . كما ظهر في تلك المجتمعات على سبيل المثال ما يعرف بالأسر ذات العائل الواحد ، حيث تقوم الأم فقط أو الأب فقط بتربية الأطفال الذين ولدوا من خلال علاقات غير شرعية ، لتدفع بهم بعد ذلك إلى المجتمع . وقد انتشرت في تلك المجتمعات كل الموبقات والمفاسد والشرور مثل : اللواط ، وإقامة الرجل والمرأة معاً في سكن مشترك دون زواج ، كما سادت فيها المادية المطلقة ، وساد الجشع والخروج على الأدب ، وعدم الاحترام لأي شيء أو لأي شخص ، بالإضافة إلى رفض جميع الأديان وجميع القيم الدينية . وهكذا تحلل المجتمع الغربي ، ولم يعد هناك شيء يستطيع ذلك المجتمع أو أفراداه أن يتشبثوا به لحمايتهم من الغرق أو لكي يهديهم إلى سواء السبيل ، بعد أن ضلوا الطريق وفقدوا الاتجاه السليم . كما أننا نراهم بعد أن نهلوا من الملذات حتى الثمالة وانغمسوا في الشهوات بلا حدود ، قد بدأوا يشعرون بالملل ، وبالضجر من كل شيء ، ولا يجدون شيئاً يملأون به خواءهم التام سوى المخدرات والخمر وكل أنواع الموبقات والرذائل .

إن الغرب لم يصل حتى الآن إلى ما وصلت إليه الشيوعية من حال ، ولكن السوس بدأ ينخر في البناء نحن لانستطيع أن نتنبأ بالمستقبل ، ولكننا نقول للغرب إن الفرصة لم تضع بعد ، وعليهم أن يعودوا مرة أخرى إلى رحاب الإيمان والدين ، وإلا فإن ما حاق بالشيوعيين سوف يحيق بهم أيضاً .

أما المجتمع الإسلامي فهو يعاني من أمراض مختلفة . إنه ضعيف ومقهور ، ويعاني من جميع العلل النفسية والكثيرون من أفرادهم ينشدون السلوى والهروب من الواقع عن طريق الانخراط في جماعات دينية سرية ، وهم عندما يفعلون ذلك فإنهم عادة ما يقومون بتفسير

الإسلام باتباع وسائل غير إسلامية . ويسبب تلك الجماعات اكتسب الإسلام والمسلمون سمعة سيئة في العالم ، دون أن يكون هناك داع أصلاً لذلك . ويسبب تلك الجماعات فقدت الآخرون ينظرون إلى الإسلام اليوم على أنه قيد معلق في رقاب المؤمنين ، وأنه يحول دون تقدمهم . كما أصبح الدين بالإضافة لذلك مرتبطاً في أذهان البعض ببعض الممارسات الشائنة التي تناقض مبادئ الإسلام مثل : الإرهاب وقيام بعض المسلمين بإيقاع الأذى بإخوانهم في الدين ، وباتباع الأديان الأخرى . لقد أدت مثل تلك الممارسات إلى تقسيم المسلمين إلى شيع وأحزاب متناحرة وهو أمر نتجت عنه مصائب لا يمكن وصفها ، مثل : المذابح التي تعتبر وصمة عار في جبين كل مسلم . ليس هذا فحسب ، بل إنها جلبت سمعة سيئة للدين الإسلامي الذي - أصبح - وهو الدين الداعي أصلاً للرحمة الإنسانية - ينظر إليه من قبل الآخرين في مختلف أنحاء العالم على أنه دين العنف وسفك الدماء والإرهاب . لقد فقد المسلمون اليوم سيطرتهم على زمام أمورهم ، وتحولوا إلى أدوات في أيدي الآخرين ، وإلى وكلاء يقومون بالصراعات فيما بينهم بالنيابة عن الغير . وهم يقومون بذلك - على ما فيه من معاناة - طواعية ملقين بالذنب على الآخرين أو حتى على القدر !

والمطرفون المسلمون يفتخرون فيما بينهم وأمام الآخرين بتمسكهم بالدين ، ولكن الحقيقة هي أنهم سبب بلاء الإسلام ، فهم الذين عكسوا صورة سيئة عن الإسلام وهم الذين حالوا بين الآخرين وبين الفهم الصحيح لتعاليمه وهم الذين حالوا بين دخول البعض إلى رحابه بسبب ما رأوه من ممارساتهم ، كما أنهم هم الذين قاموا في الحقيقة بحمل بعض المسلمين على الابتعاد عن عقيدتهم ودفعهم إلى التخلي عن الإسلام ، وإلى الاستجابة لإغراءات النظرية المادية وغيرها من العقائد الملحدة .

ولكن الحسنة الوحيدة التي تميز المسلمين عن غيرهم من أتباع الأديان الأخرى هي أنهم مازالوا موحدين بالله سبحانه وتعالى ، بصرف النظر عما إذا كانوا مسلمين ملتزمين بأداء فروض دينهم ، أو كانوا غير ذلك .

ومن بين نماذج المجتمعات المختلفة الموجودة في مشارق الأرض ومغاربها ، لانكاد نجد مجتمعاً واحداً خليقاً بأن نتخذ منه قدوة ونموذجاً . فلدينا من ناحية ، المجتمعات الشيوعية التي ترفض الأديان رفضاً باتاً ، والتي دمرت نفسها في النهاية . وفي الناحية الأخرى هناك بعض الجماعات الدينية المتطرفة التي تكرر وجودها بأسره لتحقيق ما تؤمن به من مبادئ وعقائد على حساب جميع الفرق والجماعات الأخرى . وهكذا فإنه في الوقت الذي تعتقد فيه تلك الجماعات أنها تهرب بعقائدها وممارساتها من هذا العالم المليء بالشور ، إلا أن الحقيقة هي أنها تتحول هي الأخرى لتصبح من أكبر المشاكل التي تواجه العالم حالياً .

وبين هذين النقيضين ، يوجد لدينا ثلاث فئات من المجتمعات من حيث علاقتها بالدين . أولاً : المجتمعات الغربية ، ذات الأغلبية المسيحية تقصر الدين على أمور حياتها الشخصية أو الخاصة . بمعنى تحويل الدين إلى مجرد علاقة بين الإنسان وربه ، دون أن يكون لدى الدين في تلك المجتمعات أى تأثير على مجالات الحياة الأخرى مثل : الاقتصاد والمجتمع والسياسة . وهذه المجتمعات تعلن أنها مجتمعات علمانية وأن «الله» لم يعد له وجود (تعالى الله سبحانه وتعالى عما يزعمون) .

وعلى الرغم من أن تلك المجتمعات قد حققت تقدماً هائلاً في المجالات الاقتصادية ، إلا أنها فشلت في الوقت نفسه فشلاً ذريعاً في إعلاء قيم العدالة والحق وغيرها من القيم الفاضلة . هذه المجتمعات تعاني حالياً من الانحلال الأخلاقي ، وتمتلى حياة أفرادها بكافة أنواع الشور النفسية والبدنية . كما أنها تعيش في خوف وتوتر بسبب الأمراض القاتلة الجديدة التي أدت إليها أساليب حياتهم الماجنة والتي تهدد بالانتشار على نطاق واسع بسبب امتناع هذه الشعوب عن التخلي عن نمط حياتهم القائم على الانفلات الأخلاقي والغرق في الملذات .

ثانياً : توجد لدينا نماذج مجتمعات دول شرق آسيا ، التي حققت هي الأخرى تقدماً

هائلاً في المجالات الاقتصادية ، في نفس الوقت الذي حافظت فيه على قيمها الأخلاقية وعاداتها وتقاليدها الاجتماعية وعلى أديانها وعقائدها .

وعلى الرغم من أن هذه المجتمعات لا تلتزم التزاماً حرفياً بتعاليم دياناتها ، إلا أنه لم تصل بعد إلى مرحلة علمنة هذه الأديان أو رفضها رفضاً تاماً ، حيث تتبنى موقفاً يتميز بالمرونة الشديدة تجاهها .

ثالثاً : وأخيراً ، لدينا تلك المجتمعات التي تؤمن بالإسلام إيماناً راسخاً ، ولكنها أصبحت اليوم ضحية للاضطراب والحيرة بسبب ظهور العديد من الفرق والجماعات التي انحرف بعضها انحرافاً واضحاً عن التعاليم الأصلية للإسلام ، والتي لا يوفر ضعفها وإخفاقاتها الدنيوية ، نموذجاً جيداً للإنسانية يمكن لها أن تحتذيه أو تنسج على منواله .

لقد علمنا التاريخ دائماً أن صعود وسقوط الحضارات ، يعود بصفة رئيسية إلى الشعوب ؛ فالشعوب هي التي تصنع الحضارات ، ونوعية أفراد تلك الشعوب هي أهم المكونات المطلوبة لإحداث تغييرات دراماتيكية في المجتمعات والأمم .

لقد ربي الإسلام ، على سبيل المثال مجتمعه الأول على مبادئ العدل والحق ، لدرجة أنه استطاع خلال فترة زمنية قصيرة نشر نفوذه في شبه الجزيرة العربية وفي أواسط آسيا وشمال إفريقيا ، بل وحتى جنوب أوروبا . كما أن الحضارة الإسلامية هي التي أسهمت إسهامات باهرة في تقدم العلوم والمعارف في مختلف أنحاء العالم المأهول في تلك العصور . ولقد تحقق كل ذلك بسبب الجهود الموحدة والمشاركة والمتسقة التي قام بها المسلمون الأوائل من أجل دمج الجوانب المادية للحياة بجوانبها الروحية في جميع المجالات . أما ما حدث في أوروبا من فصل للكنيسة عن الدولة ، وما تلاه من عملية علمنة للمجتمع ، لم يشكل مشكلة للمسلمين على الإطلاق . ولكن الذي حدث بعد ذلك هو أن بعض علماء المسلمين ، وبعد أن رأوا كيف أن الكنيسة فقدت نفوذها الذي كانت تمارسه على الحكام بسبب عملية فصل

الدين عن الدولة ، تملكهم الخوف من أن يفقدوا أيضا نفوذهم على حكام المسلمين ، مما جعلهم يقومون بإصدار فتاوى وتقديم تفاسير تخدم مصلحتهم الشخصية ، ترتب عليها قصر التعليم على العلوم الدينية فقط والاهتمام بالشعائر والعبادات ، وإهمال العلوم الأخرى باعتبارها علوماً دنيوية لا يصح للمسلمين أن يتعلموها .

وهكذا ، ومن هذه النقطة ، بدأ انحدار شمس الحضارة الإسلامية وأقولها ، ومن ثم تمزق وانهار العالم الإسلامي على النحو الذى نراه الآن .

وحتى من خلال هذه المراجعة المقتضبة للوقائع التى حدثت فى المجتمعات المختلفة ، فإنه يمكننا أن نتبين أن للدين دوراً مهماً ينبغى أن يقوم به فى المجتمعات ، مما يعنى أنه يتعين علينا ألا ننظر إلى الدين أبداً باعتباره مجرد عبادات وشعائر لانهم إلا الفرد الذى يقوم بها . فالدين الذى يسعى إلى الحقيقة من أجل تأسيس العدل فى المجتمع يجب أن ينظر إليه باعتباره ديناً نافعاً للمجتمع محققاً لمصلحته . إن الدين هو البوصلة أو هو المبدأ الرئيسى الذى يحكم ، ليس فقط الرفاهية المادية والجسدية للإنسان ، وإنما أيضاً النمو الروحى الذى يساعد على الارتقاء بهذا الإنسان فى شتى مناحى حياته ، وهو الذى يوجه البشر نحو حياة أكثر توازناً وهو أيضاً الذى يقدم الهداية الحقة والدافع القوى للعمل من أجل تحقيق حياة مثمرة مفعمة بالمعاني السامية .

إن الموضوع الذى نتناوله اليوم هو ضرورة إيجاد الطرق والوسائل التى يمكن لأمة من الأمم أن تقدم بها شعباً أو مجتمعاً يمتلك فى جوهره إحساساً عميقاً بالمعتقدات الروحية ، ملتزماً بأسمى القيم الأخلاقية والمعنوية ، ومتصفاً بالإضافة لذلك بالتقدم والنشاط والاجتهاد والدأب والالتزام بكل ما من شأنه تحقيق التقدم والتطور . وهذه الأمور التى ذكرناها تعتبر فى غاية الأهمية ، كما أنها أيضاً ذات صلة بالموضوع لأنها متى ما توفرت يصبح بإمكاننا أن نحقق التقدم المادى عن طريق التخطيط الدقيق والتنمية المدروسة . ولكن هناك حقيقة أساسية يجب ألا نغيب عنا أبداً وهى أن نضيق بكاملها إذا لم يكن لدينا المنظومة الأخلاقية المناسبة التى تحكم

حياة الشعب الذى يمتلك هذه الثروة .

ولقد رأينا أموراً مثل تلك التى تحدث على المستوى الفردى والعائلى ، كما أننا قرأنا فى التاريخ عن سقوط إمبراطوريات للسبب ذاته تقريباً ، بينما نشهد أمام أعيننا اليوم نماذج لحضارات أيضاً تنهار للسبب نفسه .

ثانياً : يجب أن نكون واعين بالحاجة إلى تحقيق نمو متوازن ومتكامل . بمعنى أن عملية التخطيط والتنمية يجب أن تأخذ فى الاعتبار الحاجة إلى النمو الروحى منذ البداية ، وأن تتجنب تأجيلها حتى النهاية . لقد قمنا حتى الآن بتجاهل هذا المكون المهم من مكونات التطور وخصوصاً خلال مرحلة التخطيط المبدئى . وحتى إذا ما قمنا بإدماجه فإننا نقوم بذلك بأثر رجعى أو كفكرة تطرأ على الذهن بعد الانتهاء من العمل . . أى أننا نتذكر أننا قد نسينا إدماج الحاجة للنمو الروحى فى الخطة المرسومة ، فنقوم بإدماجها متأخرين استكمالاً للشكل فقط .

ثالثاً : من الضرورى أن ندرك أننا قد ركزنا فى الماضى تركيزاً كلياً تقريباً على التنمية المادية . وفى الآونة الأخيرة ، بدأنا ندمج بعض جوانب التنمية البشرية فى صورة تنمية غير روحية - أساساً - للموارد البشرية . ولمن ما يجب ولكن ما يجب أن نتبه إليه فى هذا السياق هو أن هناك فرقاً كبيراً بين التنمية البشرية وتنمية الموارد البشرية . فتنمية الموارد البشرية تتضمن إجراء مقارنة بين الطلب على المستويات المختلفة للفتات والمهارات الخاصة بالقوى البشرية وبين الإمداد بها بحيث لا تواجه نقصاً حاداً ، سواء فى عدد الأفراد أو فى الفتات والمهارات المختلفة . أما التنمية البشرية فتشمل نوعيات التعليم والتدريب والبيئة وما شابه ذلك من الأمور التى تعتبر ضرورية لتطوير جميع امكانيات الفرد سواء من الناحية المادية أو الروحية . وهذا الجانب من جوانب التنمية لم يحظ باهتمام كاف حتى الآن وليس هناك ما يدعو للدهشة فى أن نواجه بالعديد من المشاكل البشرية . وكما جاء فى القرآن الكريم ، سورة الروم الآية رقم (٤١) : ﴿ ظَهَرَ أَفْسَادٌ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ

يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴿٤١﴾ صدق الله والعظيم .

يجب علينا أن ندرك من خلال فهمنا للآية المباركة السابقة أننا مسئولون عن جميع أنواع الشرور التي ظهرت على كوكب الأرض ، وبالتالي فإننا مسئولون بالطبع عن الشرور التي بالبيئة بأكملها . وهذه الشرور تعتبر نتاجا لتكالبنا على الشر . وذلك لأن نتيجة الشر لا يمكن ، في نهاية المطاف ، سوى أن تكون شراً كذلك . ولكن الله سبحانه وتعالى جلت قدرته سوف يحقق التوازن في النهاية عن طريق تطهير أولئك الذين يحميدون عن صراطه المستقيم أو يخرجون على ناموسه . وها نحن اليوم نشاهد بأعيننا شيئا مثل ذلك .

إن هذا الملتقى الذي يضم نخبة من أبرز العقول المسلمة والمسيحية ، يجب أن يعمل على تصحيح الصورة المشوهة التي يحملها كل طرف للطرف الآخر كما يجب عليه بالإضافة لذلك ، أن يعيد الدين إلى إطاره الصحيح في جميع المجالات .

الفصل الخامس والعشرون

دور الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا *

اكتسبت الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا شهرة محموددة على نطاق واسع بوصفها مؤسسة للتعليم والدراسات العليا ، تحظى بمكانة مرموقة سواء في البلاد أو خارجها على مستوى بلدان العالم الإسلامي .

وقد اثبتت هذه الجامعة كيف يمكن لأي جامعة إسلامية ناشئة مثلها أن تبلغ درجة رفيعة على المستوى الأكاديمي العلمي ، تؤهلها للوقوف على قدم المساواة مع الجامعات الأكثر عراقة بالمنطقة وعلى نطاق العالم ، متى ما تم الإعداد لذلك على نحو جيد ومدروس ، وطالما كان الهدف من إنشائها واضحا في أذهان القائمين على أمرها . وبما لاشك فيه أن هذا الإنجاز يرجع بالدرجة الأولى ، إلى ما تتمتع به الهيئة التعليمية والإدارة في الجامعة من حكمة وتعقل وبعد نظر .

لقد راودت فكرة إنشاء جامعة إسلامية في ماليزيا العديد من الجهات الإسلامية منذ الاستقلال عام ١٩٥٧ ويشرفني كمسلم ماليزي أن أقول إنني كنت من بين من راودتهم تلك الفكرة ، كما يسرني أنني كنت أيضا من بين من أسهموا بما استطاعوا من جهد وطاقة في تأسيس هذا الصرح العلمي ، وإنني لأدين بالفضل في هذا للبروفيسور «إسماعيل الفاروقى» الذى وقف من ورائي داعما ومشجعا .

لقد ساد دائما اعتقاد في البلدان الإسلامية بأن أى جامعة إسلامية يجب أن تركز

* خطاب في الاحتفال بالذكرى العاشرة لإنشاء الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا ، بتاريخ ٢٤ أغسطس ١٩٩٣ م .

جهودها لدراسة الدين الإسلامي فقط لا لشيءٍ آخر . والمرء يمكن أن يتفهم هذه النظرة الضيقة إذا ما كان الأمر يتعلق بأديان أخرى لا تنظر إلى الدين باعتباره منهج حياة . أما الإسلام فهو ليس عقيدة أو إيمانا فقط ، وإنما هو إلى جانب ذلك ، منهج حياة . وعندما يكون الإسلام منهج حياة يغطي كل ما يقول به الإنسان في حياته ، فإن المنهج لا بد من أن يتضمن إتقان جميع المعارف التي يمكن أن تسهم في تلك الحياة . هكذا هي أهمية المعرفة الشاملة للإنسان لدرجة أن الله سبحانه وتعالى ، يأمرنا في سورة الغاشية أن ننظر إلى الإبل كيف خلقت وإلى الجبال كيف نصبت . والشيء الواضح أن هذه ما هي إلا أمثلة على قدرة الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء كما أنه من الواضح أيضاً أن لها علاقة بالحياة ذاتها .

إن الله سبحانه وتعالى ، عندما يأمرنا بالنظر إلى هذه الأشياء ، فإن معنى ذلك هو أن نقوم بدراستها دون أن تكون هناك أى قيود أو حدود لهذه الدراسة . والإسلام دين يحضنا على دراسة كل ما هو محيط بنا ، وكل ما يمثل جزءاً من الحياة التي نعيشها . وهذه الدراسات التي يحضنا الإسلام عليها هي العلوم نفسها التي يتوصل إليها الإنسان عن طريق الملاحظة والبحث .

بالرغم من ذلك كله ، فإننا نجد من علماء المسلمين من يدعوننا إلى قصر العلم والمعرفة على دراسة التعاليم والتفاسير الخاصة بالدين والقوانين والشرائع الإسلامية . وتأسيساً على ذلك ينبغي ألا تقصر الجامعة الإسلامية جهودها على دراسة أمور الدين فقط أو دراسة الأمور المتعلقة بالإسلام كعقيدة فحسب ، وإنما يجب أن تشتمل كذلك على دراسة شتى العلوم الأخرى التي يتم تدريسها في الجامعات المختلفة بدرجة الشمول والعمق نفسها .

إن الطالب الذي يتخرج في الجامعة الإسلامية يجب أن يكون محيطاً بكل العلوم ، ملماً بمختلف المعارف ، قادراً على العيش وعلى الإسهام في أسلوب الحياة الذي يتجهجه المسلمون في كافة المجالات . ويجب أن يكون أولئك الطلبة قادرين على إدارة شئون حياتهم

وشئون الأمة الإسلامية ، وأن يكونوا قادرين على الدفاع عن تلك الأمة بالقدر الذى يجب أن يقوموا فيه بأداء الشعائر الإسلامية .

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال هو : مادامت الجامعة الإسلامية تقوم بتدريس العلوم نفسها التى يتم تدريسها فى الجامعات العادية ، فما الذى يجعلها إذا جامعة إسلامية؟ هذا فى الحقيقة سؤال مهم ، وللإجابة عنه نقول إن أسلوب الحياة لا يعتمد فقط على المعرفة وإنما يعتمد فى نفس الوقت على مجموعة من القيم ، كما يعتمد على الثقافة . بكلمات أخرى ، يجب أن يكون جزءاً من حضارة إسلامية متميزة . وإذا ما أريد للإسلام أن يكون منهجاً للحياة ، فإن ذلك الأسلوب يجب أن يكون قائماً على أساس من القيم الإسلامية . ولكى نعرف ماهية هذه القيم فإنه من الضروري أن يكون لدينا على الأقل معرفة عملية بالدين الإسلامى وبالذات تلك المعرفة المتعلقة بتفكيرنا وتقييمنا للمشاكل التى تحيط بنا فى هذه الحياة ، وردود أفعالنا تجاهها .

وليس من المحتم على كل شخص فى كل المجتمعات الإسلامية أن يكون لديه معرفة شاملة بالإسلام ، بل يكفى أن يكون هناك واحد فقط أو حتى مجموعة قليلة الأشخاص الملمين إلاما تاما بكل جوانب الدين الإسلامى . أما الباقون فيلزم أن يكون لديهم المعرفة التى يصح بها الدين حتى لا يضلوا أو يخرجوا عن جوهر العقيدة الإسلامية . لذلك فإن الطلاب فى الجامعة الإسلامية يجب أن يتلقوا قدراً كافياً من التعليم الدينى يمكنهم من أن يصبحوا مسلمين صالحين ملتزمين بفرائض الدين ، يرشدهم فى الوقت نفسه عند قيامهم باستخدام العلوم الأخرى ، حتى لا ينحرفوا بها عن جوهر الدين وتعاليمه وأسلوبه فى الحياة . وبهذه الطريقة فإن طالب الجامعة الإسلامية لن يكون ضليعاً فى العلوم والمعارف الأخرى فقط ، وإنما سوف يكون مزوداً بالقيم والمبادئ الإسلامية التى سوف تحول بينه وبين إساءة استخدام تلك العلوم أو استخدامها بطريقة يحرمها الدين ، وحيث إن الإسلام لا يمنع المسلم - وإنما يحضه - على فعل الأشياء الإيجابية والنافعة فى هذه الحياة ، فإن الطالب لا بد من أن يعرف

الطريقة السلمية التي تمكنه أن يقوم بها على ذلك النحو وأن يعرف أيضاً كيف يستخدم معرفته لصالح الإسلام وصالح قضاياها .

وهناك سؤال آخر قد يتبادر إلى الذهن أيضاً في هذا السياق وهو : ما هو مقدار المعرفة الإسلامية التي يمكن اعتبارها ضرورية؟ هذا السؤال أو هذه النقطة تحديداً ، هي النقطة التي اختلف فيها العلماء المسلمون . فبعض العلماء يريد لهذه المعرفة أن تكون عميقة وشاملة دون حاجة لبقية العلوم وأنواع المعارف الأخرى . وهناك آخرون يريدون أن تكون هذه المعرفة ضحلة ومحددة بطريقة قد تعرض الدين لخطر التجاهل والإهمال التام .

إن الأشخاص الذين خططوا من أجل إنشاء الجامعة يستطيعون الادعاء بأنها سوف تقوم بتخريج خريجين ضالعين في تعاليم الإسلام ، وحائزين على المعرفة التي سوف تسهم في تحسين وترقية حياتهم وبالتالي حياة الأمة الإسلامية . أما عملية تحديد مستويات المعرفة الدينية والمعرفة غير الدينية التي يجب على الطلاب دراستها ، فأعتقد أنه يجب أن يترك للأكاديميين المتخصصين . إن الشيء الذي نرغب في أن نراه هو أن يكون خريج الجامعة الإسلامية ليس فقط في الموضوع الذي يدرسه ، وإنما يكون إلى جانب ذلك مسلماً ملماً تمام الإمام بثئون دينه ، ملتزماً بتعاليمه ، متمسكاً بشعائره وعباداته ، مسلماً ليس بالاسم فقط أو بالوراثة فقط وإنما مسلماً قادراً على المضي قدماً في دروب الحياة مزوداً بكل ما من شأنه أن يمكنه من أن يصنع وأن يعيش أسلوب حياة إسلامي مئة في المئة .

إننا لانستطيع أن نزعم اليوم أن جميع المسلمين يمارسون أسلوب الحياة الإسلامي و كيف يمكن لنا أن نزعم ذلك ونحن نرى المسلمين ممزقين ، بل ومتناحرين بين بعضهم بعضاً ، ضعفاء متخلفين ، معتمدين اعتماداً كاملاً على إحسان الآخرين ونزواتهم في بعض الأحيان من أجل إنقاذهم؟ وعلى الرغم من دعوة القرآن الكريم لنا بأن نعد للأعداء ما استطعنا من القوة ومن رباط الخيل كي ندافع عن أنفسنا ، فإنه يبدو واضحاً أننا عاجزون عن

القيام بذلك . ففي كل مكان ، وأينما تلفتنا ، سواء شرقاً أو غرباً نرى المسلمين مهوورين دون أن يكون لدى أية أمة شعب مسلم ، القدرة على لعب أى دور حقيقى لكى يرفع عن إخوانه المسلمين الحيف والظلم ، ويحقق لهم الإنصاف والعدالة ، وينشر فى ربوعهم رايات السلام . والقوى العظمى الموجودة فى عالم اليوم ليس بينها قوة واحدة مسلمة ليس هذا فحسب ، بل إننا لا نجد دولة مسلمة واحدة بين الدول المتقدمة فى المجالات العلمية أو التكنولوجية أو التنظيمية ، أو الإدارية . يحدث كل هذا فى الوقت الذى نعلم فيه علم القين أن الإسلام دين يدعو إلى طلب العلم ويؤكد الحاجة إلى المهارات اللازمة للمجالات التى يمكنها أن تحمى الأمة وتوفر لها الدعم والعون .

ويدلا من أن نقوم بذلك ، ترانا نقوم بتبديد مواردنا وإهدارها بالاقتيال فيما بيننا على أمور تافهة تؤدى إلى تمزق صفوفنا وتشتيت جهودنا . وبدلاً من أن نقوم بحل مشاكلنا عن طريق تطبيق المبادئ والتعاليم الإسلامية ، فإننا نلجأ إلى غير المسلمين للحصول على المساعدات على الرغم من أنهم لا يتعاطفون مع الإسلام أو مع المسلمين . والحق أننا لا نستطيع أن نزعم أبداً أننا نمارس الأسلوب الصحيح .

وعلى الرغم من أن القيام بأداء العبادات المحددة أمر مهم فى سياق الممارسة الإسلامية ، وفى سياق الالتزام بديننا وإيماننا إلا أن ممارسة أسلوب الإسلام فى الحياة يعتبر هو الآخر وبالدرجة نفسها التزاماً بإيماننا وديننا الخفيف إننا نؤمن بالحياة بعد الموت كما نؤمن أيضاً بالثواب والعقاب فى يوم القيامة . ولكن الإسلام ، وربما أكثر من أى دين آخر يهتم بالحياة قبل اهتمامه بالموت . وهذا هو السبب الذى يجعل من الإسلام أسلوب حياة ، بل إن هذه هى الطريقة الوحيدة التى يمكن بها للإسلام أن يكون منهجاً للحياة .

أما إذا ما نظرنا إلى الإسلام على أنه دين مكرس للموت ، أو أنه دين يهتم بما بعد الموت وبالحياة الأخرى ، فإن الإسلام فى هذه الحالة لن يمكنه أن يكون منهجاً للحياة كما ينظر إليه

الجميع .

نحن سعداء لكوننا مسلمين ، ونحن مسلمون لأن أجدادنا الأوائل الذين دخلوا إلى دين الله أفواجاً أيام الرسول - صلى الله عليه وسلم ، قد مارسوا المنهج الإسلامى فى الحياة . وعندما مارسوه ، فإن العرب البدو المتخلفين أصبحوا أمة قوية ذات معرفة بأسلوب الحياة سواء بوصفهم أفراداً أو أمة الأمر الذى مكنتهم من نشر الإسلام فى مناطق بعيدة كل البعد عن موطنهم الأصلي فى شبه الجزيرة العربية القاحلة الجذباء

إن تعاليم الإسلام كما تتلقاها اليوم تركز على الشعائر والعبادات وعلى ما هو حلال وما هو حرام كما تركز على أمور أخرى غير ذات أهمية لحياة المسلمين ، وفى الوقت نفسه تغفل هذه التعاليم الجوانب الأخرى التى تحض على اكتساب المعارف والتزود بالعلوم والمهارات اللازمة للتقدم فى مدارج الحضارة . وحتى عندما يدعو علماء العصر الحديث إلى المعرفة فإنهم لا ينسون أن يؤكدوا أن المقصود بها هو المعرفة الإسلامية أو المعرفة بالإسلام ويشرائه المستمدة من التفاسير المختلفة للقرآن الكريم وسنة نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم .

وهناك نزوع لتقسيم المعرفة إلى دينية ودينية ، وهو ما يتماشى مع التقسيم الذى حدث فى أوروبا فى القرون الوسطى حين تم فصل الكنيسة عن الدولة ، أو الدين عن الدولة بمعنى أصبح ، والذى جاء كرد فعل على النفوذ المتغلغل للكنيسة فى شئون الدولة .

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن فى هذا السياق هو : هل هناك فى الإسلام فصل بين الحياة اليومية وبين التمسك بالدين من قبل المسلمين؟ وإذا كان الإسلام منهج حياة حقا . فهل يمكن فصل هذا الأسلوب الحياتى عن الممارسة الدينية؟ بالطبع لا ، لأن حياتنا محكومة فى كل جزئية منها بالدين الإسلامى وبتعاليمه السمحاء . وبالتالي فإن حياتنا يجب أن تشمل ما نقوم به من أجل الدفاع عن أنفسنا وعن ديننا . وما نقوم به من أجل دعم مكانة الإسلام ونشره

فى ربوع العمورة ، وزيادة الاحترام والتقدير له من قبل الجميع دون استثناء .

ولكى نقوم بذلك كله ، لابد من أن نكون مزودين بالعلم والمعرفة والمهارات اللازمة . فالرسول عليه الصلاة والسلام كان معروفا بمهاراته التجارية وحكمته الدنيوية . وقد أدى ذلك إلى احترام الجماعات التى كانت تعيش فى مكة والمدينة له بسبب تلك المهارات والحكمة ، وهو الأمر الذى كان له دور مهم فى النهاية فى نجاحه فى توصيل الرسالة وتبليغ الأمانة التى كلفه الله بها . كان الرسول - عليه الصلاة والسلام ، ضليعا فى شئون الحياة اليومية بالقدر ذاته الذى كان فى شئون الدين .

كيف يمكن لنا بعد ذلك كله أن نتبنى الدعوة المسيحية للفصل بين الدين وبين الدنيا؟ إن هذا الفصل غير جائز فى الدين الإسلامى ، ما دام الأمر كذلك فإنه يجب ألا يكون هناك فصل بين المعارف الدينية والمعارف الدنيوية أو العلمانية .

ومن هنا فإن الموضوعات والتخصصات المختلفة التى يجب على أى جامعة إسلامية أن تركز عليها وأن تدرسها وأن تفتح باب البحث فيها وتقوم بنشرها ، هى فى الحقيقة أجزاء من تعاليم الدين ، وليست موضوعات علمانية أو دنيوية . فالمعرفة بالعلوم والفروع غير المتخصصة فى جوهرها بالشعائر والشرائع الإسلامية ، يجب أن تكون هى الأخرى محكومة باحتياجات الإسلام كدين وكأسلوب حياة ، وكذلك بالقيم والأهداف المتصلة به . وهذه المعرفة لا تكون فى تلك الحالة معرفة دنيوية أو علمانية ، وإنما هى فى الحقيقة جزء من الدين ومن ثم فإنها يجب أن تعمل على الموازنة بين المعرفة بالشعائر والمعرفة بالشرائع الإسلامية . إن عدم القدرة على معرفة هذه الموضوعات والتخصصات العلمية وإتقانها ، حتى وإن كانت فى جوهرها أمورا غير دنيوية ، سوف يعرض المسلمين إلى خطر ضياع دينهم . وهذا الأمر يحدث بشكل خاص عندما يخضع المسلمون ، بسبب فقرهم المادى وخوائهم الثقافى ، ويسبب ضعف قوتهم ، أمام الضغوط الخارجية التى قد تنتهى إلى مرحلة الغزو . ولكن حتى

إذا كان المسلمون فقراء فقط ، ويفتقرون إلى المهارات والمعارف المختلفة ، فإن ذلك ينبغي ألا يشكل عائقاً يمنعهم من القيام بواجبات دينهم . إن اكتساب المسلمين للمعرفة والمهارة والثروة المادية هو في الحقيقة جزء لا يتجزأ من الوسائل التي يجب عليهم أن يستعينوا بها في المحافظة على دينهم ، بل أنها في الحقيقة جزء من ممارستهم للدين ولأسلوبهم في الحياة .

لقد كان القرآن الكريم واضحاً بشأن موضوع الفقر حيث قال إن بين الفقر وبين الكفر خطوة واحدة ، ويجب علينا في هذا السياق أن نتذكر أن الفقر ليس مقصوداً به الفقر المادي فقط وإنما يقصد به أيضاً الفقر الذهني والمعرفي والفقر في المهارات أيضاً .

وهكذا ، فإن المسلمين يجب أن يسعوا إلى تحصيل شتى أنواع المعارف من أجل حماية دينهم فالمسلمون بسبب إهمالهم للمعارف من أجل حماية دينهم . فالمسلمون بسبب إهمالهم للمعارف التي لا ترتبط ارتباطاً واضحاً ومباشراً بالشعائر والقوانين المنظمة لممارسة الإسلام ، قد أصبحوا ضعفاء ومقهورين ، بل وخارجين عن تعاليم دينهم ، ومبتعدين عن الصراط المستقيم في الكثير من الحالات . لذلك فإن من المهم والضروري أن يقوم المؤمنون بتصحيح وجهة نظرهم الضيقة فيما يتعلق بالمحافظة على الدين الإسلامي وعلى منهج الحياة الإسلامي . ومن أجل تحقيق هذه الغاية يجب على جميع المسلمين ، دون استثناء وسواء أكانوا ذكورا أم إناثا ، يسهموا بجهودهم ؛ لأن المرأة كما تعرفون هي نصف المجتمع وأن استبعادها عن المشاركة في الحياة العامة معنا أننا نتقص نصف من قوتنا .

ليس معنى ذلك أننا ندعو إلى حرية المرأة على النحو السائد في المجتمع الغربي والذي أدى إلى ما نراه في هذا المجتمع من الفساد وانحلال . ولكننا يجب أن نتذكر أن الإسلام هو الدين الذي أعطى المرأة حقوقاً واسعة ، بل وأعطاها حقوقاً أكثر مما أعطها أي دين آخر . ولكن ، للأسف الشديد ، وفي نطاق محاولتنا لتجنب فتنة المرأة ، تسببنا في حرمانها من المشاركة في المجالات الثقافية ومن الإسهام في الحياة العامة .

إن انهيار الدين في الغرب يجب أن يكون إشارة تحذير لنا ، ويجب أن يكون معلوما لنا أيضا أنه إذا ما تساهلنا في تفسير الإسلام ، فإن ذلك يمكن أيضا أن يؤدي إلى انهيار الدين . على أن خوفنا من ذلك يجب أن لا يدفعنا أيضا إلى المبالغة في التشدد ، وإلى تحريم ما يحلله الدين ، بل يجب علينا أن نكون دائما على وعى بالحدود الحقيقية التي يرفضها الإسلام ، وأن نحترم هذه الحدود ونلتزم بها أشد الالتزام .

أيضا أن نكون مرنين ، خصوصا وأن الإسلام يأمرنا بالمرونة ، على أن يكون مرشدنا في ذلك على الدوام هو حرصنا على حماية مصالح الأمة ورفاهيتها والتزامنا بجوهر الدين الإسلامي الخفيف .

لقد أنشأنا الجامعة الإسلامية العالمية من أجل حماية المعرفة الإسلامية الحققة في سياق عالم يتغير بخطى حثيثة منذ مجئ الإسلام . كما أن هدفنا في المقام الأول من إنشاء هذه الجامعة هو إعداد المسلمين لمواجهة مشاكل العالم المعاصر مع الحفاظ على دينهم سليما وراسخا ، وضمان أنهم في مشارق الأرض ومغاربها يقيمون موازنة بين الاهتمام بالدنيا والاهتمام بالآخرة ، بحيث يبقى الإسلام دائما ديننا صالحا لكل زمان ومكان .

ولاشك في أن المهمة التي تنتظر هذه الجامعة وكل من له صلة بها أو مشارك في نشاطها ، مهمة جسيمة . ولعلنا لا نبالغ عندما نقول إن هذه المهمة في جوهرها تعنى بعث الإسلام وبعث المسلمين من جديد . وليس هناك من حاجة للقول إن الجامعة لن تكون وحدها في هذه المهمة الجليلة ، ولكنها ستسهم ولو بالقليل الذي يعتبر أيضا ذا مغزى كبير في التمكين للدين والأمة الإسلامية جمعاء .

إننى أعلم علم اليقين أن الكثيرين قد لا يشاركوننى آرائى هذه ، ولكننى مع ذلك ، أشعر أن من واجبى كمسلم أن أعبر عنها ، حتى إن كنت أعرف أنها سوف تتعرض إلى انتقادات شديدة وخصوصا من تيار الإسلام التقليدى المحافظ . يجب علينا أن نعترف أن

الإسلام والمسلمين قد تراجعاً وتلك هي الخطوة الأولى نحو إصلاح الأمور . لكن هناك أناس لا يعترفون بهذه الحقيقة المرة ، وهناك من يزعمون أن الإسلام يشهد صحوة كبيرة هذه الأيام . ولكن الحقيقة هي أن الإسلام لم يتعرض خلال أى فترة من فترات تاريخه إلى مثل هذا القدر من المهانة ، كما هو الحال فى الوقت الراهن . كما لم يمر المسلمون أيضاً فى تاريخهم بفترة مثل التى يمرون بها حالياً من حيث ما يقدمونه من تنازلات فى مختلف الجوانب المتعلقة بالدين .

ويهمنى هنا أن أؤكد أن هناك مسئولية ثقيلة تنتظر هيئة التدريس بالجامعة ، كما تنتظر الطلاب الذين يدرسون بها أنتم أيها الأخوة تمثلون محورا مهماً من محاور النضال من أجل استعادة عزة الإسلام وأمجاده ، ومن أجل تعزيز الإيمان به ليعود قوياً كما كان ، مع العمل على استعادة الاحترام والعزة للمسلمين ، وتدعيم الدور الذى تضطلع به الأمة الإسلامية فى الشؤون العالمية . وينبغى أيها الإخوة أن تقوموا بذلك دون أن تنسوا الآخرة ، حيث يجب عليكم أن تعملوا دائماً لإيجاد التوازن الصحيح بين الاهتمام بالدنيا وبين الاهتمام بالآخرة ؛ لأن هذه الجامعة فى النهاية ليست مثل أى جامعة أخرى . فهذه أيها الأخوة جامعة إسلامية ، عليها واجب يجب أن تضطلع به نحو الإسلام ونحو الأمة الإسلامية . وأنتم أيضاً عليكم واجب يجب أن تضطلعوا به نحو الإسلام ونحو الأمة الإسلامية . وفقكم الله لما فيه خير الإسلام والأمة .

الفصل السادس والعشرون الإسلام والعدالة *

بعد مرور عدة قرون على أفول شمس الإمبراطورية الإسلامية ، أصبح العالم الآن واقعا تحت سيطرة دول الغرب غير المسلمة ، ولم تنجح هذه الدول فقط في السيطرة على العالم بأسره تقريبا ، ولكنها نجحت كذلك في التأثير على تفكير معظم الشعوب التي تسيطر عليها ، وفي فرض قيمها وفلسفتها عليها ، بالإضافة لذلك قامت تلك الدول بنشر مفاهيمها ومبادئها الخاصة بالعدالة على نطاق واسع بين هذه الشعوب لدرجة أن العالم بأسره أصبح خاضعا لتلك المفاهيم والمبادئ العدلية ومؤمنا بها دون أن يفكر للحظة واحدة ما إذا كانت صحيحة أو لا .

وفي الوقت نفسه ، أصبح الغرب من القوة بمكان على المستويين الاقتصادي والعسكري وفرض سيطرته على مفاتيح المعرفة بضرورها بالمتخلفة ، بما في ذلك تقنية المعلومات التي أتاحت له إخماد أي صوت يجهر بمعارضة هيمنته أو يسعى لتأليب الآخرين على قيمه ومبادئه التي يعلى من شأنها ويقوم بيثها على نطاق العالم .

هذا هو مفهوم الغرب للعدالة ، فهم يتشدقون بكلمات بليغة مثل : سيادة القانون وحقوق الإنسان والديمقراطية وصوت الأغلبية دون أن يأخذوا في حساباتهم أن هناك قوانين بعينها من صنع البشر ، وأن تلك القوانين غير عادلة ، أو أن هناك مبالغة في حقوق الإنسان ، ونوعا من عدم الفهم العقلاني في مسألة حكم الأغلبية . ومن هنا يمكننا القول بأن القوانين

* كلمة ألقيت في مؤتمر «الإسلام والعدالة» الذي نظمه معهد الفهم الإسلامي بالعاصمة الماليزية - كوالالمبور - في ٣ يونيو ١٩٩٣ .

فى الغرب تضع حقوق الفرد فى مقدمة أولوياتها ، وتسمح له بأن يفعل أى شىء يروق له ، حتى ولو كان مثل تلك الأفعال يشكل تهديدا للسلم والأمن الاجتماعيين .

وفى الوقت نفسه ، نجد أن القوانين الدولية قد تمت صياغتها بطريقة توفر للقوى المهيمنة الحق فى إلحاق الظلم بالضعيف . وينطبق الشىء نفسه على مبادئ حقوق الإنسان التى تحظى بهالة من التقدير لدرجة أنه يتم بموجبها توفير الحماية لبعض الجماعات بذريعة الديمقراطية ، حتى لو كانت أنشطتها تشكل تهديدا خطيرا للمجتمع والسلم والتقدم . أما الديمقراطية ، أو صوت الأغلبية (حسب التعريف الغربى لها) وبالطريقة التى تطبق بها على أيدى الصرب فى البوسنة والهرسك ، فإتم احترامها هى الأخرى حتى ولو كان هدفها هو قمع المسلمين البوسنيين . وعلى الرغم من أن الديمقراطية تقود فى كثير من الأحيان إلى الشقاق والنزاع وانتهيار حكم القانون ، وإلى القمع والقسوة وإلى الفقر الذى نراه منتشرًا فى كل مكان كما نراه فى جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق ودول أوروبا الشرقية ، إلا أنها ما زالت تحظى بالاحترام والتقدير حتى الآن .

بالمقابل نرى أن الغرب لا يتردد لحظة واحدة فى أن يتخلى عن مبادئ العدالة نفسها التى يجاهر بالإيمان بها ، إذا كان ذلك سيسفر عن تحقيق مصلحة له . ففى منطقة غرب آسيا على سبيل المثال ، كانت الصورة الظاهرة للعيان هى أن الغرب يقوم بحماية الكويتيين من بطش العراقيين . وقد بدأ الغرب فى ذلك الوقت يروج لفكرة مؤداها أن ما يقوم به فى هذا الصدد يستند إلى أسباب إنسانية تتمثل فى شعور الغرب بضرورة تحقيق العدالة وإنصاف المظلوم مهما تكلف الأمر . وعندما حدث الشىء نفسه فى البوسنة والهرسك وكان واضحا أن الصرب يقومون بقتل المسلمين ، وجد الغرب لنفسه ألف عذر وعذر كى لا يتخذ أى إجراءات ضد الصرب أو يقوم ضدهم بأى عمل كما حدث ضد العراق لدى غزوه الكويت . لقد تصرف الغرب فى موضوع الكويت على النحو الذى يحمى به النفط . أما عندما لم يكن لديه أى مصالح فى البوسنة والهرسك فإنه سمح للصرب بأن يقوموا بقمع المسلمين

وترويعهم وقتلهم . إن المبدأ الحقيقي الذى يتفق عليه الغرب ويتفق عليه الغالبية العظمى من دول العالم اليوم ، هو أن القوة فوق الحق . وعلى هذا الأساس فإن أى شىء يفعله الغرب يكون عادلا . لماذا؟ لأن الغرب قوى ، وهو بقوته تلك قادر على أن يقنع الآخرين بعدالة كل ما يقوله أو يفعله . وبالمقياس نفسه ، فإنه طالما أن الصرب كانوا هم الطرف الأقوى ، كان من المحتم أن يتم إغفال قيامهم بضم أراض بوسنية لدولتهم ، والتغاضى عنه . أما عندما يتعلق الأمر بالدول الإسلامية والمسلمين الضعفاء أصلا ، فإن الغرب ينظر إلى ما يقولونه أو يفعلونه على أنه خطأ غير عادل .

ولم يقتصر الأمر على ذلك فقط ، بل إننا رأينا كيف أن الجهود التى بذلها المسلمون لإعادة التأكيد على مفهوم العدالة كما جاء فى الإسلام ، قد تعرضت هى الأخرى إلى انتقادات من قبل الغرب باعتبارها محاولات تهدف إلى إحياء تفكير سلفى عفا عليه الزمن . إن الخطر يكمن فى أن يقوم المسلمون ، كرد فعل للإحباط الذى يشعرون به بسبب ضعفهم وإخفاقهم ، بالتصرف بعكس ما تمليه عليه تعاليمهم الإسلامية . فبسبب تلك الإحباطات قد يقوم المسلمون بتصرفات طائشة ، وقد يرتكبون الجرائم نفسها التى سبق لأعدائهم أن ارتكبوها ضدهم . وعندما يقوم المسلمون بذلك فإنهم سوف يقدمون الدليل الذى يمكن للغرب أن يستخدمه فى ادعائه بأن المسلمين إرهابيون .

وتحفل صفحات التاريخ بنماذج وأمثلة على عدل الإسلام والمسلمين ، فعندما غزا الرومان فلسطين قاموا بطرد اليهود منها وشردهم فى مختلف أنحاء العالم ، فيما أصبح يعرف تاريخيا باسم «الشتات اليهودى» . ولكن عندما دخل الخليفة عمر بن الخطاب إلى القدس ، سمح للمسيحيين واليهود بأن يبقوا فى ديارهم . وحدث الشىء نفسه عندما قام القائد العربى صلاح الدين الأيوبي بغزو فلسطين حيث كان حريصا كل الحرص على توفير الحماية لغير المسلمين . وإذا ما قارنا ذلك بما يحدث اليوم ، فسوف نرى أن اليهود الذين استولوا على أرض فلسطين بمساعدة الغرب ، يقومون بممارسة القهر والتشريد والقتل ضد

سكان فلسطين بمن فيهم الأطفال كل يوم .

والشيء ذاته حدث في إسبانيا التي حكمها المسلمون لمدة ٨٠٠ سنة ، فخلال تلك السنوات الطويلة بقى المسيحيون واليهود في إسبانيا ، ومارسوا حياتهم الطبيعية جنبا إلى جنب مع المسلمين . ولكن عندما استرد «فرديناند وإيزابيلا» الأندلس من حكم المسلمين ، قاما بطرد العرب واليهود إلى شمال إفريقيا . أما من لم يستطع الهرب فإنه إما تعرض للقتل على أيدي الإسبان دون رحمة ، أو تمت مساومته للإبقاء على حياته مقابل التخلي عن دينه ودخول المسيحية تحت حملات تعذيب وحشية لم يسبق لها مثيل ، وكانت سماحة المسلمين هي السبب في أن مسيحيين ويهود قد بقوا في الأندلس طوال فترة الحكم الإسلامي التي استمرت لمدة ٨٠٠ سنة ، في حين أن المسيحيين عندما استردوا الأندلس قاموا بطرد جميع المسلمين واليهود منها ولم يبقوا فيها على أحد .

وعندما كان الشيوعيون يتولون زمام السلطة في الاتحاد السوفيتي السابق ، قاموا بقهر المسلمين ومحاربة الإسلام ، لدرجة أنه لم يكن هناك مسلم واحد في ذلك العهد الرهيب يجرؤ على المجاهرة بدينه . وقد حدث الشيء نفسه في «البانيا» أثناء الحكم الشيوعي .

واليوم نستطيع أن نرى بأعيننا المظالم والعدالة المدعومة السائدة في البوسنة والهرسك ، وليس الأمر مقصورا على ذلك ، فالإسلام والمسلمون يواجهون القهر والعنت في كل مكان في العالم ، وذلك على الرغم من أن العالم يزعم أنه يدعو إلى مبادئ العدالة وسيادة حكم القانون .

مقابل ذلك ، فإننا نرى في الإسلام الذي هو أيضا منهج حياة متكامل ، عدالة كاملة ومحددة بوضوح . ففي الإسلام يتم التأكيد بشكل لابس فيه على أن الهدف من خلق الكون هو إقامة العدل ونشر الحقيقة . وفي الآية رقم (٨٥) من سورة الحجر ، يقول الله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ

فَأَصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ صدق الله العظيم . وهو المعنى ذاته الذى تضمنته الآيات (٣٨ - ٣٩) من سورة الدخان ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ صدق الله العظيم .

إن هذه الآيات المحكمات تبين بجلاء لا لبس فيه أن الغرض الحقيقى من خلق السموات والأرض ، بل والكون بأكمله هو إقامة العدل ومحاربة القسوة والشر . ففى سورة الدخان ، الآيات (٣٧ - ٣٩) بين الله سبحانه وتعالى ، أن الكون لم يخلق عبثا وإنما بالحق . وتدحض الآية بوضوح أى مفهوم حول عبثية خلق الكون ، وتؤكد أنه لم يخلق إلا لإقامة العدل وإعلاء شأن الحقيقة فى الحياة الدنيا .

وإذا ما قبلنا حقيقة أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الكون من أجل إقامة العدل وإعلاء شأن الحق ، فإننا ، باعتبارنا من مخلوقات الله ، علينا أيضا أن نقيم العدل ؛ لأن إقامته فى حقيقة الأمر تعتبر من أهم المسئوليات الملقاة على عاتق البشر .

والعدالة فى الإسلام تعنى وضع الشيء فى مكانه الصحيح . وفى هذا السياق فإننا نجد أن العدالة لها ثلاثة جوانب فى غاية الأهمية هى :

أولا : وضع الشخص فى المنصب ، أو الوظيفة التى تتلاءم مع إمكانياته وقدراته .

ثانيا : إصدار الأحكام ، أو اتخاذ القرارات بما يتماشى مع الموقف أو مع الشخص الذى يتم إصدار الحكم عليه ، أو اتخاذ القرار بشأنه .

ثالثا : توزيع الثروة وحق الملكية لهؤلاء الذين يستحقونها عن جدارة .

فإذا أردنا اختيار شخص ما لشغل وظيفة أو منصب على قدر عال من الحساسية والأهمية مثل القضاء على سبيل المثال ، فإن الإسلام يطالبنا بإسناد هذه المسئولية لأكثر الناس تأهيلا وكفاءة . إننا عندما نوظف شخصا ما فى موقع هو غير متخصص فيه ولا خبرة له به ،

نكون قد ارتكبنا خطأين مجافيين للعدالة ، أولهما : أن ذلك الشخص لن يستطيع إدارة دولا بمهامه لافتقاره للخبرة والكفاءة الضروريتين لذلك ، وهو أمر يث في نفس الموظف أو المسئول الإحساس بالإحباط والضجر وعدم الثقة بالنفس ، وعدم الاهتمام بأداء مهام الوظيفة . والوجه الآخر المنافي للعدالة في إجراء من ذلك القبيل : يكمن في كون الموظف أو المسئول الضعيف غير الكفاء ، لن يتمكن من أداء الدور المنوط به وهو أمر يتسبب في إلحاق الضرر بمصالح المجتمع .

وفي هذا السياق ، نستشهد بما قاله الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق باختيار شخص معين لوظيفة مهمة ، حيث قال الرسول صلى الله عليه وسلم ما معناه إننا عندما نقوم باختيار رجل لعمل ما في حين أن هناك من هو أكثر قدرة منه على القيام بهذا العمل ، فإننا نكون حيث نذكر مثل من خان ثقة الله سبحانه وتعالى ، وثقة الرسول عليه الصلاة والسلام ، بل وثقة جميع المؤمنين . إن هذا يعنى أننا عندما نقوم باختيار شخص ما لتولى منصب معين ، يجب أن نتوخى الدقة البالغة والحرص في انتقاء أكثر الأشخاص ملائمة وكفاءة لتلك الوظيفة من بين الأشخاص الموجودين أو المرشحين لشغل المنصب ، وذلك حتى لا نظلم أنفسنا في المقام الأول ، أو نظلم الشخص الذي قمنا باختياره ، ونظلم في النهاية الجماعة أو المجتمع الذي يفترض أن مثل ذلك الشخص سوف يقوم بخدمته .

وعندما نصدر حكما بحق شخص ما فإننا يجب أن نتقيد بالإرشادات التي جاءت في القرآن الكريم وفي سنة نبيه الكريم ، بحيث يأتي الحكم عادلا . فالإسلام يرشدنا في مثل هذه الحالة إلى القيام باختيار القاضى من بين الأشخاص الذين يتمتعون بأعلى درجات المعرفة والحكمة والمقدرة والطهارة والنزاهة الشخصية ، وأن نكون حريصين أيضا عند إصدار الحكم على استيفاء كل الحقائق ذات العلاقة ، وأن نقوم بتمحيص هذه الحقائق والنظر فيها بتأن ، منعاً لأى لبس أو شكوك .

كما أن هناك نقطة مهمة وهي أن الشهود الذين يشهدون في القضية المنظورة ، يجب أن يكونوا عدولاً حريصين على قول الحق ولا شيء غير الحق ، حتى ولو أدى ذلك إلى حدوث ضرر أو خسارة سواء بالنسبة لهم أو لعائلاتهم أو لأصدقائهم .

إذن نخلص من ذلك إلى القول بأن العدالة يجب أن تسود عند قيامنا باتخاذ أى قرار سواء أكان ذلك القرار اجتماعياً أم سياسياً أم اقتصادياً أم إدارياً . وعندما تسفر القرارات الصادرة عن أوضاع أو مواقف عكس ما هو مطلوب ، فإن معنى ذلك أن تلك القرارات تفتقر إلى الإنصاف والعدالة .

والعدالة المطلوبة أيضاً عند توزيع الثروات سواء أكانت في شكل مادي أم في شكل توزيع فرص لتكوين هذه الثروات وتجميعها . في هذا السياق فإن عملية توزيع الفرص يجب أن تتم بأقصى قدر من العدالة مثلها في ذلك مثل توزيع الثروات ، خصوصاً تلك المتعلقة بمجال التعليم والتجارة وغير ذلك من المجالات .

والإسلام يتطلب العدل ليس فقط من القادة ، وإنما أيضاً من المجتمع طالما كان أى جانب من الجوانب الثلاثة التي ذكرناها آنفاً متوفراً . فإذا ماتم مثلاً إعطاء الجماهير الحق في اختيار قادتها ، فإن هذه الجماهير يجب أن تختار المرشحين الأحق بالمنصب والأكثر تأهيلاً ، علماً بأن جميع صور الفساد مثل : السعى لتحقيق المنافع الشخصية ، أو الحصول على مقابل نظير خدمات سابقة ، كما يحدث في بعض الجهات ، تتعارض تعارضاً تاماً مع قواعد العدالة الإسلامية .

إن الفوضى الضارية بأطنابها في العالم الآن ، ما هي إلا نتيجة ومحصلة حتمية لعدم اهتمام المجتمع الدولي بمبادئ العدالة ، أو إعطاء هذه المبادئ ما تستحق من احترام وتقدير . غير أن المجتمع الدولي لا يأبه بتلك المبادئ ، كما أنه لا يرحم الضعفاء . وهنا نستشهد مرة أخرى بالتجربة المريرة في البوسنة ، حيث تتم الحيلولة بين المسلمين الضعفاء وبين الحصول

على الأسلحة ؛ حتى اللازم منها للدفاع عن النفس . يحدث ذلك في الوقت الذي يتم فيه السماح للصرب - الأقوياء أصلا - بالتزود بالمزيد من الأسلحة والمعدات . وها نحن اليوم نرى الدول الكبرى وقد قامت بإعطاء الصرب الأراضي التي انتزعتها من سكانها الأصليين وهم المسلمون من أهالي البوسنة ، دون أدنى مراعاة لحقوق أولئك السكان .

إن الغرب ينظر إلى الصرب الأقوياء على أنهم على صواب ، كما ينظر إلى المسلمين الضعفاء على أنهم على باطل ، وبالتالي فليس لهم أى حق في تلك الأراضي . ورغم كل ذلك نجد أن القوى الكبرى في الغرب ما زالت تصر على أنها عادلة ، وأن ما تقوم به من ممارسات مخجلة ، هو الحق والعدالة بعينهما ! .

والسؤال الذي يطرح نفسه إلحاح هو : هل نستطيع القبول بالمفهوم الغربى للعدالة وكقاعدة للعدل الذي يجب أن يتوفر لمجتمعاتنا؟ أليس من الواجب أن نرفض هذا المفهوم ، وهذا المبدأ الخاص بالعدالة الغربية في جميع الحالات باستثناء حالة واحدة فقط وهي الحالة التي لا يتعارض فيها هذا المفهوم وهذا المبدأ مع مفهوم الإسلام ومبادئه فيما يتعلق بالعدالة؟

يبين لنا التاريخ القانونى الإسلامى أن المسلمين كانوا أول من قام بتحويل القوانين إلى تشريعات نظامية . وقد كانت هذه العملية سببا في أن أصبحت القوانين الإسلامية أكثر دقة واتساقا عما سواها من قوانين . بيد أنه يجب أن نلاحظ أن عملية تحويل القوانين الإسلامية إلى تشريعات منظمة قد تمت على أيدي بشر ، وأن أولئك البشر ليسوا معصومين من الخطأ ، وأن الأمر يستدعى إدخال تعديلات وعمل تنقيحات مستمرة على تلك التشريعات النظامية من وقت لآخر وحسب ما تتطلبه ظروف الزمان والمكان . وبهذه الطريقة فإن القوانين المستندة إلى القرآن الكريم وعلى أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ، ستكون قابلة للتطبيق في جميع الأزمنة . فالجرائم على سبيل المثال تتغير بتغير الزمن ؛ إذ نرى في أيامنا هذا أنواعا من الجرائم التجارية المعقدة والبالغة الإلتقان لدرجة تجعل من الصعب اكتشافها أو رصدها . وإذا

لم تبذل الجهود اللازمة للتعرف على تلك الجرائم وتقرير العقوبات والجزاءات بشأنها بما يتماشى مع تعاليم الدين الحنيف ، فإنها سوف تنتشر في المجتمع وتغلغل في مفاصله . والشئ نفسه ينطبق على مئات الجرائم الأخرى التي نشهدها في أيامنا هذه . ولذلك يجب علينا بذل الجهود الكفيلة بجعل النظام القانوني في دولنا متماشيا مع مفهوم ومبادئ العدالة الموجودة في الإسلام .

وهناك جوانب عديدة للمرونة في الإسلام تأخذ في حساباتها البيئة والظروف السائدة . فالإسلام يراعى المرونة فيما يتعلق بالممارسات الإسلامية بحيث لا يتحول الأسلوب الإسلامي للحياة إلى عبء يعيق المسلمين عن مواجهة ما يعترض حياتهم من مصاعب ومشاق ، ويبيدهم عن مجرى تيار التطور الذي لن يتوقف أبدا .

ونحن نرى اليوم ، أن المسلمين موجودون في مختلف دول العالم وليس في الدول الإسلامية فقط . ولكن المشكلة تكمن في أن المسلمين يمثلون أقلية في معظم تلك الدول غير الإسلامية ، وبالتالي فإنهم عاجزون عن فرض تطبيق القوانين والشرائع الإسلامية المطبقة في الدول ذات الأغلبية الإسلامية .

ومن المهم في هذا السياق أن يتم قبول الإسلام باعتباره ديناً عادلاً ومنصفاً حتى من قبل غير المسلمين . وهذا ليس بالشئ الجديد بالنسبة للإسلام ؛ لأن الحكم الإسلامي في المدينة أيام الرسول ، ثم في مكة بعد ذلك ، كان عادلاً بالنسبة لغير المسلمين . فتحت راية الرسول - صلى الله عليه وسلم ، وأثناء حكم الخلفاء الراشدين ، لم يحدث أن تم إجبار غير المسلمين على القبول بالقوانين الإسلامية أو بالإسلام كدين ، كما لم تجر أيضاً مصادرة وأملاكهم وثوراتهم أو فرض القمع والكبت عليهم . ليس هذا فحسب ، بل كانت هناك أوقات في التاريخ الإسلامي كان يتم فيها إصدار الأحكام على غير المسلمين من واقع القوانين والشرائع الخاصة بأديانهم . ونتيجة للعدل الذي مارسه المسلمون في بداية عهد الإسلام مع غير

المسلمين ، اعتنق العديد منهم الإسلام ديناً وخضعوا طواعية لشريعته وقوانينه السمحاء .

والنسبة لنا في ماليزيا بوصفنا بلدًا متعدد فيه الأديان ، يتعين على الحكومة - التي يقودها مسلمون - أن تثبت بالدليل لجميع الجهات سواء أكانت إسلامية أم غير إسلامية ، أن إدراتها التي تقوم على مفهوم ومبادئ العدالة الإسلامية هي إدارة عادلة فعلا ولا قولاً فحسب . وإذا كان هناك تصور سائد في الوقت الحالي مؤداه أن الإسلام دين يتسم بالتطرف والقسوة ، فإن السبب في ذلك ليس لأن الإسلام فعلاً كذلك ، ولكن السبب هو أن هناك بعض المسلمين الذين ما أن يتولوا السلطة في بلد ما ، حتى يتحولوا إلى أشخاص متغطرسين لا يلتزمون بتعاليم الإسلام ولا بأحاديث المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام ، ولا يقتدوا بالرسول - صلى الله عليه وسلم ، كقدوة في الحكم ، أو بالنماذج التي قدمها الخلفاء الراشدون وغيرهم من الخلفاء العادلين الذين تعجب بهم صفحات التاريخ الإسلامي .

والمسلمون الذين في السلطة ، والقضاة ورجال الإدارة في ماليزيا ، يجب ألا يتحولوا إلى أشخاص متغطرسين بفعل السلطة ، كما يجب عليهم ألا ينسوا مبادئ العدالة الإسلامية . ومن الأمور التي يجب مراعاتها أن تقوم الإدارة في ماليزيا ، وهي الإدارة التي يقودها مسلمون ، بإثبات أن حكمها عادل للجميع دون استثناء ، وأنه حكم غير منحاز وغير قمعي . ومن واجب المسلمين جميعاً أن يعملوا على تصحيح الصورة المشوهة للإسلام التي نتجت عن الأعمال والتصرفات التي قامت بها الجماعات الإرهابية والفئات المنحرفة التي أساءت للإسلام والمسلمين وشوهت صورتهم في نظر الكثيرين .

ينبغي ألا ننسى دائماً أن العالم اليوم ينظر إلى القوة على أنها هي الحق ، وهو أمر يحتم على البلدان الإسلامية بما فيها ماليزيا أن تسعى حثيثاً لتقوية نفسها ، وهذا لن يتأتى إلا بواسطة استحداث جهاز إداري عادل وكفاء يقف على قدم المساواة مع الأجهزة الإدارية الموجودة في الدول المتطورة . إننا لن نستطيع إعداد أنفسنا للدفاع عن بلداننا ومقدراتنا من خلال امتلاك

التجهيزات الدفاعية المتطورة إلا بعد أن نتطور بالقدر الذى أحرزته الدول المتقدمة فى جميع المجالات . هذا الأمر ينطوى على أهمية بالغة بدليل أنه ورد فى القرآن الكريم ، حيث جاء فى الآية - ٦٠ من سورة الأنفال : ﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوفَىٰ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ صدق الله العظيم

وإذا كان هناك سبب يجعل بعض البلدان والإثنيات مثل : الصرب واليهود يتجرأون اليوم على قمع المسلمين وترويعهم ، فإنه يعود إلى ضعف الدول الإسلامية وعجزها بسبب إهمالها للأمر القرآنى بإعداد القوة لقذف الرعب فى قلوب الأعداء . إننا نجد الإدارة فى البلدان الإسلامية فى أغلب الأحيان معيبة غير عادلة وعاجزة عن بسط الأمن ونشر السلم ، ومتقاعسة عن الدفع باتجاه تطور المعرفة والكفاءة ومراعاة الثروة ، التى تشكل فى مجملها عماد القوة وتجلب الاحترام والتقدير والمهابة .

ينبغى على المسلمين قبل إلقاء اللوم على الآخرين أن يتساءلوا عن سلوكهم الإسلامى وممارساتهم خاصة فيما يتصل بتوفير الإدارة العادلة والخالية من العيوب . وإذا كانت إدارتنا لا تراعى العدالة الإسلامية فى أداؤها وممارساتها ، ولا تقبل بذلك فىنبغى علينا أن نقر بتحملنا المسئولية واللائمة ولو جزئياً . لكل ذلك لا بد من أن نولى أهمية خاصة ليس بدراسة العدالة الإسلامية وتبادل الأفكار حولها فحسب ، بل للتأكيد على أن مفهوم ومبادئ العدالة تكفل العدالة والاستقامة وتسهم فى تعزيز الانسجام والتماسك بين أطراف المجتمع .

إننا مطالبون بإلقاء الضوء الكاشف على مفهوم ومبادئ العدالة فى الإسلام بما يؤدى إلى تصحيح المفاهيم والتصورات الخاطئة التى انطبعت عنها ، لنقنع العالم أن بإمكانه التعلم والإفادة من الحكمة الكامنة فى العدالة الإسلامية وما تستبطنه من إمكانيات كفيلة بإزالة شتى أوجه الظلم الناتجة عن الغطرسة التى تمارسها القوى المهيمنة على عالم اليوم .

الفصل السابع والعشرون

الفكر الإسلامي والحضارة *

بسم الله الرحمن الرحيم . بهذه البسمة نبدأ نحن المسلمين كل شيء ؛ لأننا لانقوم بأى عمل دون ذكر اسم الله سبحانه وتعالى ، الرحمن الرحيم ؛ هاتان الصفتان هما الأكثر جريا على لسان المسلم من بين ٩٩ اسما وصفة من أسماء وصفات الله العلى القدير . وبما أنهما الأكثر ذكرا ، فإنهما بالتأكيد الأكثر أهمية وشأنا من باقى الصفات المتعددة للمولى الواحد الأحد ، الذى نعبده سبحانه وتعالى . ومع ذلك فإن هاتين الصفتين هما الأقل توفراً بين بنى البشر بمن فيهم المسلمون فنحن لسنا رحماء ولا نشفق أو نعطف على الآخرين خاصة أولئك الذين نعتبرهم خطائين .

وإننى لهذا السبب أعتبر تأسيس معهد الفكر الإسلامى والحضارة ، خطوة شجاعة ؛ لأن الفكر والإيمان لا يتلازمان دائما على الطريق نفسه . وحقيقة أقول إن الإيمان يتطلب الخضوع التام وإن التفكير يتطلب الأسباب والمنطق التى تؤدى إلى نتیجتها المنطقية وهو ما لا يمكن فعله مع الإيمان . وبالتأكيد فإن أى مجتمع لا يفكر ولا ينتج فكرا ، لا يمكن أن يصنع حضارة . والحضارة الإسلامية لم تنشأ فقط من خلال الالتزام بالشعائر الدينية التى فرضها الله سبحانه وتعالى ، على عباده ، بل نشأت أيضا وتطورت من خلال أعمال العقل والتفكير مع أداء العبادات والالتزامات الربانية فى الوقت نفسه . ولهذا لا يمكن اعتبارها ؛ أى الحضارة الإسلامية ، مجرد حضارة قائمة على الإيمان والخضوع المطلق فقط ، ولكنها ارتفعت على أكتاف التأمل والتدبر والتعقل وفقا للتعاليم الإسلامية .

* فى افتتاح المعهد الدولى للفكر الإسلامى والحضارة (اي . اس . تي . سي) فى كوالالمبور - بتاريخ ٣ يونيو ١٩٩٣ .

إذا أراد هذا المعهد أن يكون بحجم وقيمة هذا الاسم الذى يحمله ، فإن أهم واجباته هى الدراسة العقلانية الواعية لاستيعاب واستنباط المنطق الكامن وراء هذا التعدد والتنوع الذى نجده اليوم فى الإسلام فى أداء الشعائر الدينية وفى تفسير القرآن الكريم وفى الأحاديث النبوية الشريفة وفى فقه السنة ، والذى لا يجعل من الإسلام مجرد إيمان روحى فقط ، وإنما منهج حياتى يومى للفرد المسلم .

إذا كان هذا المعهد والذين سيساهمون فى مسيرته البحثية العلمية سيقنعون فى النهاية بالسعى لإيجاد التفسيرات والتوضيحات للعبادات والطقوس الدينية القائمة ، والتي أصبحت تمارس فى وقتنا الحاضر على نحو تتفق أو تنسجم مع بعضها ، بل وقد تنطوى على جوانب خاطئة أو حتى غير إسلامية .

وإذا اكتفى المعهد والمشاركون فيه بالبحث عن مخرج للمسلمين فى عصر يختلف كل الاختلاف عن العصر الذى عاش فيه سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم ، أو لو أنه اهتم فقط بإيجاد الأعدار للأوضاع المتردية للمسلمين اليوم وإخفاقاتهم الواضحة ، وإذا ما أراد المعهد والباحثون فيه أن يفسروا كل شىء فقط بالحديث عن النعيم الذى ينتظر الأمة الإسلامية فى الدار الآخرة ، فإنه فى هذه الحالة لن يكون معهداً لإعمال الفكر ، ولكنه سيكون مجرد وسيلة لإيجاد الأعدار والمبررات ، والإسلام ليس فى حاجة إلى من يبحث له عن المبررات .

وعندما نتحدث عن الحضارة الإسلامية ، هل نقصد العصر الذهبى للإسلام فى الماضى؟ أم إننا نتحدث عن الإسلام فى عصرنا الراهن؟ بعض الناس قد يعرفون الحضارة الإسلامية بالتزام أتباعها بأداء الشعائر الدينية المفروضة عليهم ، وليس بإنجازاتهم على المستوى العالمى . والبعض الآخر لا يفكر إلا بتلك الإنجازات فقط . وإذا نحن لم نحدد بدقة كافية ما الذى نغنيه بالحضارة الإسلامية ، فإننا سننتهى إلى جدل غير مجد ، ولن يؤدى بنا إلى الوجهة الصحيحة التى نريد وبمعنى آخر فى حالة عدم تحديد مفهوم الحضارة الإسلامية على نحو دقيق وواضح جداً فإننا لن نسهم بمشقال ذرة فى التعريف بالإسلام ونصرة قضايا

المسلمين .

ولكى يستحق معهدنا هذا الاسم الذى أطلق عليه ، ينبغي عليه دراسة وتحليل : ليس القواعد الأساسية التى يبنى عليها الإسلام مثل شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فقط ، وإنما تلك التطبيقات الدينية والمعلومات والشعائر والقيم التى تجعل من الإسلام طريقاً ومنهجاً فى الحياة . نحن واثقون من أن محاولات من هذا القبيل ستجعل المعهد هدفاً لانتقادات أولئك الذين يتحدثون عن أن الإسلام هو حزمة روحانيات فقط ، لا علاقة له بتفاصيل الحياة اليومية ، وكذلك لن نسلم من المتشددین ونقدمهم ومن يفسرون الإسلام بذهنية القرن السابع الميلادى .

إن الذين يقللون من شأن معهدنا هذا وأهمية إسهاماته فى قضايا الإسلام ، لن يعرفوا التعقل فى الخصومة الفكرية ؛ لأنهم لا يعرفون معنى الرحمة والشفقة ، بل سيكونون أكثر شراسة عندما تتضارب مفاهيم المعهد وإسهاماته ، مع المعايير التى ينظرون بها إلى الدين الإسلامى .

ومما لا شك فيه أن السلام لم يأت لهذا العالم من فراغ ، ولكنه جاء من أزمنة الجاهلية عندما كان الجهل منتشرًا على نطاق واسع ، لينير الطريق أمام سكان مكة وسكان الكوكب الأرضى بوجه عام . وكان التنوير الذى أطلق الإسلام إشعاعه ضرورياً لذلك المجتمع الجاهلى الذى كان العرب يثدنون فيه البنات ، فى حين كانت النساء يعاملن معاملة القطيع . كانت الحروب والثارات القبلىة لانهاية لها ، واتخذ الناس الأصنام آلهة ، وساد الجشع والربا والولع بالتفاخر القبلى والشخصى ، وكلها ممارسات وسمات أبعدت أهل المجتمع الجاهلى عن صفاتهم الأدمية . وفى الوقت نفسه تم تحريف تعاليم الديانات السماوية السابقة للإسلام ، واتجه الكثيرون صوب عبادة الأوثان مرة أخرى ، واتخذ الكهنة والقساوسة دور الوسيط بين العبد المؤمن وربّه ، وليس دور المبرر بالدين .

هكذا كانت الصورة القائمة عندما نزل الوحي على المصطفى عليه الصلاة والسلام ،

وكانت نبوءة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم ، تعنى إعادة غرس الإيمان بالله فى النفوس الضالة ، وتعنى خلق مجتمع أفضل ، وتعنى حضارة أكثر إنسانية . وقد جاء الإسلام لكى تبصر الإنسانية طريقها الجديد الصحيح فى ذلك الوقت وفى الحاضر وفى المستقبل البعيد . وبخلاف الديانات الأخرى ، فإن الإسلام ليس مجرد طقوس لعبادة الله سبحانه وتعالى ، بل هو مجموعة من القيم التى يسترشد بها المؤمن والمجتمع وكل الخلق فى الشئون الاقتصادية والاجتماعية والإدارية فى مجال الحياة . ومنذ بدء الرسالة المحمدية ومن خلال تعاليمها ، كان الإسلام يشدد على ضرورة اكتساب المعرفة والعلم والتحصيل لإدراك كنه المخلوقات والعجائب التى خلقها المولى عز وجل فى الكون . ولهذا فإن الإسلام هو طقس إيمانى بقدر ما هو مشروع حياة يومية يعطى النصح والإرشاد ، ويمهد الطريق للسعادة والنجاح فى الدار الدنيا والدار الآخرة معا .

إن حركة التغيير هى إحدى السمات الإيجابية فى المجتمع البشرى الذى لا ينتهى إلى سكون فى يوم من الأيام ، بل يتبدل ويتغير باستمرار ، وعلى المسلمين مواكبة تيار التجديد لضمان النجاح فى الحياة . إن القرآن الكريم كامل شامل لجميع مناحى الحياة ، ويستطيع المؤمن من خلال دراسته والتأمل فيه أن يجد الطريق الصحيح وأن يقترب من فهم وتقديم الحلول للمشاكل العالمية التى تقع ، ويستطيع مجابهة التحديات . إلا أنه يجب الانتباه إلى أن القرآن الكريم لا يقدم الإجابات التفصيلية لأى سؤال يعترض أى فرد فى المعمورة ، ولن يكون المصدر الوحيد لكل أنواع المعارف بقدر كونه المصدر الذى يستحث المؤمن على أن ينهل من ينابيع المعرفة المختلفة . إن معرفة محتويات الكتاب الكريم فقط لن تجعل المؤمن شخصا قادرا على حماية العقيدة والدفاع عنها ؛ لأن حماية العقيدة تتطلب إتقان فنون الحرب وامتلاك الأسلحة والمهارات والتقنيات التكنولوجية اللازمة . لقد طلب القرآن الكريم من المسلمين إعداد الخيل والسيوف وهى الأدوات اللازمة للدفاع عن النفس والعقيدة والوطن ، والتى استخدمت فى ذلك الوقت . ومن البديهي أن يتزود المسلم بما هو متاح حاليا من المعدات الدفاعية لهذا الغرض .

وعندما يجد المؤمنون أنفسهم في حالة ضعف وضياع وغير قادرين على مجابهة المعضلات التي تقف عائقاً في طريقهم ، فإن عليهم العودة إلى النبع القرآني الكريم ليتزودوا بالنصح ، وبالجرعات الروحانية . وبكل تأكيد فإن الكتاب الكريم لن يقدم الحلول التفصيلية لكل مشكلة ، بقدر ما يقدم التوجيه العام . إنه يضيء الطريق الصحيح . وعلى المؤمن إعمال عقله وفكره لحل أى معضلة بناء على المسيات والمعرفة والمنطق .

المرء المسلم يصلى بطبيعة الحال طلباً للهداية والاسترشاد ، ولكنه مطالب بإعمال عقله وفكره لتخطى العقبات . أما أن يصلى فقط ويقف مكتوف الأيدي تاركاً بقية الأمور للقدر ، فإن ذلك لن يؤدي إلا إلى الفشل الذريع . فهل ينحو المؤمن باللامعة على المولى عز وجل ، إن ذلك لا يمكن بالطبع أن يأتي من مسلم مؤمن بحق .

بعد قرون عديدة من وفاة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، لجأ المسلمون للاهتمام بصحابه المقربين ورواة الحديث . ولكن بمرور الوقت ، وفي ظل غياب مصدر محدد للسنة والحديث ، ظهرت قضايا دينية متشعبة ، كان لابد من الإجابة عنها فلجأ الناس للفتوى ليقوم علماء الدين بإعمال فكرهم مسترشدين بالقرآن والأحاديث النبوية وفقه السنة ، ومن ثم يصدرون الفتاوى التي تشكل حلاً للإشكال الناشب . هؤلاء العلماء يتمتعون بثقة رعاياهم ويصدرون فتاوى تكفل حل القضايا الخلافية سواء أكانت دينية أم دنيوية بين الناس . لكن الأمور قد لا تسير بتلك السلاسة ، وقد تتدخل مجموعة أخرى من العلماء وتصدر فتوى أخرى في الموضوع نفسه تخالف الفتوى الأولى . وبطبيعة الحال فإن الاختلاف واد ، وقد لا يتفق شخصان أو مجموعتان بشكل تام في موضوع ما . وعادة ما يقود الاجتهاد إلى الاختلاف والصراع بين المدارس الفكرية والمذهبية ، وبالتالي تضارب الآراء والفتاوى .

وعما زاد الطين بلة أن بعض الفقهاء والعلماء قد انساقوا وراء مصالحهم ووراء نزوات الحكم ، فأصبحوا يصدرون فتاوى لا تخلو من غرض . ونتيجة لذلك فإن الدين الإسلامي الواحد الذي أتى به سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم ، تفرق إلى طوائف وفرق من شيعة

وسنة وخوارج ودروز. إلخ، وقد ازدادت الانقسامات حدة بتعدد الأئمة واختلاف تفسيراتهم واجتهاداتهم وآرائهم، فأصبح مجرد أداء الشعائر الدينية محل اختلاف وخصام.

لقد تسببت التفسيرات المختلفة والتعاليم المتباينة والفتاوى المتضاربة، في تقسيم المسلمين، بل والإسلام نفسه الذي أصبح أكثر من عقيدة وأكثر من مذهب. وقد كان هناك اعتقاد بأن وقف الانقسامات في صفوف المسلمين يستدعى وقف الاجتهاد تماما دون إتاحة الفرصة للناس للتأمل في الإسلام أو التساؤل حول بعض جوانبه ومناقشتها، على أن يقبل المسلمون بتفسيرات السلف دون تساؤل. لكن رأيا كهذا لن يؤدي إلى حل مشكلة تشرذم المسلمين مهما خلصت النوايا، ولن يعالج التعاليم الدينية الخاطئة والتفسيرات المتعددة التي تشكل الأسباب الحقيقية لتشرذم الإسلام والمسلمين.

لقد اتضح أن الكثير من التعاليم والتفسيرات في الإسلام والتي وضعت لتكون مقدسة لأبعد الحدود، اتضح أنها ضارة بالإسلام والمسلمين. وأن الحال التي تعيشها الأمة الإسلامية حاليا إنما هي نتيجة لمحاولة فرض تلك المفاهيم المغلوطة. ولقد تواضع المسلمون وغيرهم خلال السنوات الباكرة للدعوة المحمدية على أن الإسلام دين نقل العرب من الانحطاط وظلمات الجاهلية، إلى المساهمة والإنجاز، ليس فقط في نشر التعاليم الإسلامية وإنما في كل حقول المعرفة: في الفنون والعلوم والطب والفلك. إلخ. وبعبارة أخرى جعل الإسلام من أولئك الأعراب المتخلفين، مؤسسين لحضارة عالمية كبيرة.

وإذا كان المسلمون اليوم يعتمدون بشكل كامل على غيرهم حتى في مجال التسليح، وإذا كانوا اليوم مجبرين على الانحناء أمام أعدائهم عاجزين حتى عن مجابهة خطر الصهيونية الماحق، فليس ذلك بسبب الإسلام، بل بسبب الفهم والتفسير والتطبيق الخاطيء للإسلام. إن رجال الدين هم الذين فرضوا مفاهيمهم الخاطئة على المسلمين، وجعلوا الدين الإسلامي مجرد عبادات. هم الذين أوصلونا لهذه الدرجة من الضعف والانحطاط؛ إذ كان المسلمون من قبل أمة من أعظم الأمم، حتى جاءت سيطرة علماء الدين الذين انتزعوا الحق

لأنفسهم بأن فرضوا على المسلمين واجب اتباع تفسيراتهم الخاطئة وشطحاتهم ، بل أنهم عمّدوا أنفسهم خلفاء مباشرين للرسول - صلى الله عليه وسلم ، وجعلوا من أنفسهم المصدر الوحيد لتفسير التعاليم الإسلامية وتقديم النصح ، وأن أى حديث لا يخرج من أفواههم هو رجس من عمل الشيطان حتى لو كان حديث أب وأم لأطفالهما .

يجب ألا تكون هناك كهانة فى الإسلام والأ يكون هناك وسيط بين المؤمن وربه ، حيث إن علماء الدين هم فى نهاية المطاف بشر من الممكن أن يصيبوا وأن يخطئوا ، وكثير منهم أتوا بهرطقات لم تجلب إلا الضرر للإسلام والمسلمين .

إن الصورة تبدو هكذا أيها المفكرون ، والمطلوب منكم العمل الفكرى الصبور من أجل رفعة الأمة الإسلامية . نعم ، من الممكن أن تقفوا فى الجانب السليم وترى حوا أنفسكم من عناء الجدل والنقد ، ولكنكم فى هذه الحال لن تقدموا أفكارا ولن تكونوا مفكرين ، ولكن عليكم فضح الزيف وإزاحة القشور . عليكم تشخيص حالة التردى العامة للإسلام وتقديم العلاج وسوف تتهمون بالسارية تارة وبالهرطقة تارة أخرى ، ولكن عليكم مواصلة المسيرة ، وأن تجعلوا هذا المعهد يقوم بدوره الذى يجب عليه أن يقوم به . أقول لكم هذا وأحذر من أنكم عندما تكونون صادقين ستعرضون لسهام أولئك المستفيدين من هذا التردى ، ولكنها مجازفة يجب السير فيها فالرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم ، تعرض لمثل ذلك ولاكثر منه ، عندما بدأ بنشر دعوته . أنتم بالطبع بشر عاديون ليس لديكم الحماية الربانية التى أضفاها سبحانه وتعالى على رسوله الكريم ، ولكن المازق الحالى الذى تردى إليه الإسلام والمسلمون جدٌ خطير ، والخروج منه يتطلب جهود مفكرين شجعان لا يخشون فى الحق لومة لائم ، ولا يابهون للمصالح الشخصية الضيقة .

الفصل الثامن والعشرون الإسلام والتصنيع *

قد يبدو موضوع الإسلام والتصنيع غريبا بعض الشيء بالنسبة لبعض المسلمين ، ويجعلنا نتساءل : هل هناك حقيقة وجود لما يمكن أن نطلق عليه «صناعة إسلامية» أو على الأقل صناعة تستند في إطارها العام إلى قواعد ومفاهيم إسلامية؟ وهل نستطيع أن نخضع الصناعات المتعددة المعروفة لدينا في عصرنا الحالي ، إلى عملية أسلمة؟

في الواقع نحن لم ندرس حتى الآن المساهمة المهمة التي قدمتها الصناعة للإسلام والمسلمين وللشعائر وللطقوس الإسلامية ، بالجدية التي تستحق . ويبدو أننا مقتنعون بأننا يمكن أن نكون مسلمين ملتزمين ومثاليين دون صناعات ! صحيح أن الإسلام اتسع وازدهر في عهد الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، دون أن تكون هناك صناعات . إذا ما هي الحاجة التي تستدعي ربط الصناعة بالإسلام ، وهل الصناعة ضرورة في الأصل؟

إننا دائما ما ننظر إلى الصناعة على أنها مجال من مجالات التجارة والأعمال ، يُدر على المشتغلين فيه الربح الوفير ، وانطلاقا من ذلك المفهوم فإننا نعتبر أصحاب الصناعات مجرد أناسٍ جشعين لا همَّ لهم في الحياة غير مراكمة الربح والتمتع بحياة رغدة مترفة؟ غير عابئين بقضايا الدين . كما أننا نميل دائما إلى الاعتقاد بأن أي نشاط استثماري تجاري لمراكمة الثروة لا يسلم من أساليب غير نزيهة من غش واستغلال وغيره .

لكل ذلك ، فإننا نعتبر الأنشطة الصناعية متعارضة مع الإسلام أم منحرفة عنه ، وتشكل عائقا أمام أداء العبادات والالتزام بالواجبات الدينية المختلفة التي فرضها الإسلام .

* كلمة ألقيت في افتتاح مؤتمر (الإسلام والتصنيع) الذي انعقد بالعاصمة الماليزية كوالالمبور - بتاريخ ٢١ يناير ١٩٩٣ .

لكننا إذا نظرنا لهذا الأمر من وجهة نظر إسلامية صحيحة ، فإننا سوف ندرك بكل بساطة أن الصناعة ما هي إلا قطاع خدمي مثلها مثل كل المرافق الأخرى التي يمكن أن تجلب الشروما يخالف الدين إذا ما أسئ استخدامها بالقدر نفسه الذي يمكن أن تكون مفيدة ، وعلى قدر عال من الأهمية لديتنا والعبادات الواجبة على المسلم ، فعلى سبيل المثال كان القرآن ينسخ باليد قبل ابتكار الطباعة وحتى في هذه الحالة فقد كانت صناعة الورق ضرورية جداً للاستغناء عن استخدام أوراق النباتات . وعندما كان القرآن ينسخ باليد ، فإن عدد النسخ المتوفر كان محدوداً للغاية ، وكان بالإمكان أن تختفي تماماً من على وجه المعمورة بسبب الحروب والكوارث الأخرى من حرائق وغيرها . وإزاء ذلك الخطر كان لابد من أن يقوم بعض أفراد المجتمع على الأقل بحفظ القرآن الكريم على نحو يبعد عنه خطر الاندثار .

وعندما ظهرت الطباعة في بداية عهدها ، اتخذ عدد كبير من رجال الدين موقفاً سلبياً منها وأصدروا الفتاوى التي تحرم طباعة القرآن الكريم . وقد وجدت الفتاوى تهليلاً وتعصيماً من قبل الخطاطين الذين كانوا يقومون بعملية نسخ القرآن ؛ نظراً لأن الطباعة الآلية شكلت تهديداً مباشراً للمصدر رزقهم . وتسببت تلك الفتاوى في حرمان الدعاة والعاملين في الخدمة العامة ومعلمي العلوم الدينية ، من امتلاك المصحف ، بل إن مجرد فرصة الحصول على نسخة لقراءة القرآن ظلت نادرة للغاية على مدى قرون عديدة .

وبالمقابل عندما تم إلغاء تلك الفتاوى في وقت لاحق ، تمكن المسلمون من امتلاك المصحف وقراءته بتمعن ، مما أدى إلى تعميق معرفتهم وإدراكهم للعلوم والمعارف الإسلام . وبما لاشك فيه أننا لا يمكن أن نتخيل اليوم أن هناك شخصاً ما على قدر من الحماسة التي تدفعه لاستصدار فتوى تحرم طباعة القرآن . غير أن إمكانية إصدار فتاوى مماثلة تحرم الاستفادة من المنتجات الصناعية مازالت قائمة . إن المفهوم الضيق للصناعة وسط المسلمين أدى إلى إهمالهما وعدم إعطائهما الاهتمام الذي تستحق .

الآن ، ينبغي أن نعترف بما أسدته الطباعة من خدمات جليلة غير محدودة للإسلام

والمسلمين . صحيح أن تقنية الطباعة يمكن أن يساء استخدامها لطباعة الأدبيات الخليعة المخلة بالأدب والسلوك القويم ، إلا أنه ينبغي عدم إلقاء اللائمة على الطباعة بقدر ما هو مسئولية القائمين على أمر هذه الصناعة . أنا على يقين بأن هناك إمكانية لاستنباط الأساليب الكفيلة بالحيلولة دون استغلال الصناعة لأغراض سيئة ، خاصة إذا سعى المسلمون لبسط سيطرتهم على الابتكارات الجديدة وعملوا على تكريس مفهوم يقضى بأن الصناعة بمجالاتها المختلفة ، ما هي إلا قطاع خدمي يلبي حاجات المجتمع . هب أن المسلمين وحدهم هم الذين يملكون الخبرة في مجال تصميم وإنتاج أدوات وتجهيزات الطباعة ، فإنه لن يكون عسيرا عليهم فرض الشروط التي يرونها مناسبة في مناسبة صفقات البيع ومنع الجهات التي ترفض تلك الشروط من اقتناء السلعة . هكذا الحال في صفقات التسليح ؛ إذ تضع الدول المتوجة قيودا صارمة على الدول الإسلامية قبل الموافقة على تزويدها بالتقنيات الدفاعية بحيث لا يتم استخدامها إلا وفق الشروط المتضمنة في العقد .

وفي غياب الصناعة توجد صعوبة حقيقية في الامتثال لبعض التعاليم الإسلامية وأداء بعض الشعائر والعبادات . فعلى سبيل المثال لا يمكن للمسلم ستر عورته لأداء شعيرة الصلاة دون صناعة الغزل والنسيج وقد أدى التطور في الصناعات الفضائية وإنتاج الطائرات إلى تمكين أعداد متزايدة من البشر من أداء فريضة الحج بينما أدى التقدم في صناعة البناء إلى زيادة عدد المساجد التي تتسع لعدد كبير من المصلين . ويمكننا القول بشكل عام إنه لا توجد صناعة لا توفر للمسلم خدمة نافعة وتعينه على أداء واجباته الدينية .

ومما لا شك فيه أن إعداد العدة للدفاع عن النفس والعقيدة والعرض والوطن ، واحد من الواجبات التي فرضها المولى عز وجل على المجتمع الإسلامي وفي عهد الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، كانت أدوات الدفاع تتمثل في الخيول والسيوف ، وقد قامت صناعات آنذاك لإنتاج السيوف وخيول الحرب أما في عصرنا الحديث فإن الإعداد للدفاع عن النفس يتطلب صناعة تقوم على التكنولوجيا الحديثة المتطورة . إن واجب كل من يلتزم

بالتعاليم الإسلامية أن يعمل على ابتكار وإنتاج وتوفير أدوات الدفاع عن المجتمع . وبالرغم من أهميتها البالغة للمسلمين ، فإن بلداننا الإسلامية لم تعر الصناعات الدفاعية اهتماما يذكر ، الأمر الذى أدى إلى عدم توفر صناعة دفاعية متطورة فى هذه البلدان . وتجدر الملاحظة إلى أن صناعة الأسلحة لا يمكن أن تنهض دون آلاف من فروع الصناعات الأخرى . ولا شك أن المعرفة والإمكانات الأخرى تشكل عماداً لا يتكار وإنتاج الأسلحة والتجهيزات العسكرية الأخرى البرية والبحرية والجوية ، إضافة لوسائل النقل والطائرات الحربية . إذا ينبغي على المسلمين امتلاك واتقان جميع أنواع الصناعات وعدم الاكتفاء بإنتاج المعدات الدفاعية فقط .

إننا نشاهد اليوم ، وبكل أسف أعمال القتل والتنكيل التى يتعرض لها المسلمون فى البوسنة والهرسك ، بما فى ذلك اغتصاب النساء وقتل الأطفال والشيوخ ، فى وقت يقف فيه المسلمون موقف المتفرج ؛ لأنهم لا يملكون قوة عسكرية كافية لوقف هذه المذابح وعمليات الإبادة الجماعية . هذا الضعف الحزى ما هو إلا نتيجة للنظرة القائمة على أن الصناعة لا علاقة لها بالإسلام علماً بأن الاختصاصيين فى مجال التصنيع فى البلدان الإسلامية لا يجدون اعترافاً بمساهماتهم فى نشر الإسلام وتعزيز قدرات البلدان الإسلامية .

وعندما كانت تركيا قوة عظمى على المستوى العالمى ، استطاعت التوسع ووسط سيطرتها على أجزاء واسعة من أوروبا الشرقية ، غير أن تحديث قواتها العسكرية لمواكبة التطورات التى استجدت فى هذا المجال آنذاك ، واجهته عقبات جمّة من قبل الذين رفضوا مجرد تغيير الزى العسكرى التركى إلى البنطلون ، ولقد احتدم الجدل بين الفقهاء الأتراك حول البنطلون لبضعة عقود ، فى وقت تصاعدت فيه الضربات على الإمبراطورية العثمانية . الآن لم يعد هذا الأمر يشغل بال الفقهاء المسلمين ، أى امرئ بإمكانه أن يرتدى بنطلون ؛ لأنه لن يخرج من ملة الإسلام لمجرد قيامة بذلك .

ولقد تسبب ما أهدره العلماء الأتراك من وقت فى الجدل حول طبيعة الزى العسكرى ، فى إعاقة مسيرة تحديث وتطوير الجيش التركى وتعطيل تطور صناعاته الدفاعية ، للحد الذى

انتهى بهزيمة الإمبراطورية التركية وتقطيع أوصالها . إن ما يحدث حاليا في البوسنة والهرسك يعود إلى ذلك الجدل العنيف حول البنطلون الذى أعاق تحديث وتطوير الجيش التركى . تلك المعارك الهامشية التى أصابت ضباط الجيش التركى وبخاصة الصغار منهم ، بإحباط شديد لدرجة جعلتهم ينحون باللائمة على الدين الإسلامى ، وعندما دانت لهم الأمور بالاستيلاء على السلطة فى تركيا ، أقاموا ما أسموه (الحكومة العلمانية) وبطبيعة الحال ، فقد انبرى عدد كبير من المسلمين لانتقاد الضباط الأتراك (حزب تركيا الفتاة) بافترض أنهم اختاروا نظاما علمانيا للحكم فى البلاد . لكن ينبغى قبل أن تبارى فى إصدار الإدانات ، علينا أن نتذكر جيدا أن الحكومة السلطانية فى تركيا قد بلغت آنذاك مبلغا من الضعف والهوان للحد الذى شجع القوى الغربية على البدء فى اتخاذ إجراءات لتقسيم تركيا إلى أجزاء وإلحاقها بالدول الغربية . وقد أدت شجاعة و صمود الضباط الأتراك فى (تركيا الفتاة) إلى إنقاذ بلادهم من خطر تقسيمها وتقطيع أوصالها بما فى ذلك الأراضى التابعة لها فى القارة الأوروبية ، الأمر الذى أبقى على تركيا بلادا متماسكة وحفظ لها هويتها الإسلامية .

إذن ، ما الصلة بين التاريخ التركى وبين الإسلام والتصنيع؟ الصلة تكمن فى أن المسلمين منشغلون بالقضايا الهامشية التافهة؟ تاركين قضاياهم الكبرى ومسئولياتهم الأساسية . ونحن دائما ما ننشغل بالقشور ونهمل قضايانا الرئيسية مثل : القدرات والإمكانات الصناعية الإسلامية . صحيح أن الصناعات التى تقوم من أجل الربح فقط دونما اعتبار للجوانب المتصلة بخدمة المجتمع ، لا تتناغم مع القيم والأخلاق الإسلامية . إلا أنه بإمكان رجال الأعمال المسلمين أن يركزوا جلّ اهتمامهم على الجوانب الخدمية فى استثماراتهم ، وأن يضعوا نصب أعينهم ما تسديه صناعاتهم لخدمة المجتمع .

صحيح ؛ أن المستثمر لابد من أن يجنى نسبة من الأرباح ، لكن لابد أيضا من أن يخصص جزءا من تلك الأرباح لخدمة البحوث والتنمية بما يودى إلى ترقية نوعية الخدمات المقدمة لقاء كلفة منخفضة . هذا لايعنى بالطبع أن نحول الصناعة إلى مؤسسة خيرية مع

ملاحظة أن الإسلام يبيع جنى الربح المناسب .

إن الاهتمام بالجوانب الخدمية سيجعل عملية التصنيع أمراً مقبولاً في المجتمعات الإسلامية . لكن بصرف النظر عن موقف المسلمين من الصناعات التي يتحكم بها أناس من غير المسلمين ، لا تهتم بالأبعاد الدينية ، ويمكن أن تتسبب في دمار المسلمين كما يحدث في البوسنة والهرسك ومنطقة غرب آسيا .

ومع ذلك ، فإن الصناعة ستظل تلعب دوراً مهماً كمصدر لتوفير الخدمات التي يطلبها المجتمع ، ولا يمكن لأي نوع من الصناعات أن يكون ناجحاً ما لم يوفر على الأقل جانباً من احتياجات المجتمع . ولا بد من التأكيد على أن الصناعات الغذائية لا تقل أهمية عن الصناعات المتطورة الأخرى من ناحية الخدمات التي تقدمها للمجتمع . وإذا ما نظرنا للصناعة من هذا المنظور باعتبارها مجالاً لتزويد الناس بالخدمات ، فمن الممكن أن تتفهم مجتمعاتنا الإسلامية ، الخدمة المهمة التي يقدمها هذا المرفق للمسلمين والإسلام ، بما يدعم قطاع التصنيع فيها . وفي تقديرى أن المسلمين الذين يقتحمون مجال الاستثمار فى التصنيع ، دائماً ما يكونوا أكثر قدرة على إدراك ارتباط الدين بالصناعة . وعندما ننظر إلى الصناعة على أنها مجال خدمى ، ينبغى ألا ينصب تركيزنا على مراكمة الربح والثروة فقط ، بل لابد من الاهتمام بنوعية وقيمة الخدمة التي يسديها ذلك القطاع للمجتمع .

ولاشك فى أن بنى المستثمرين المسلمين لهذه الفلسفة سيجعل صناعاتهم ناجحة وأكثر تطوراً من ناحية النوع والربح . إن اعتبار الصناعة مرفقاً خدمياً لتلبية احتياجات المجتمع ، أمر ينسجم مع وجهة النظر الإسلامية إزاء الاستثمار ومراكمة الثروة ويسهم مساهمة مهمة فى نجاح الصناعة نفسها .

وإذا ما اتفقتنا على أن التصنيع واحد من القطاعات الخدمية التى تسدى خدمة على قدر عال من الأهمية للأمة الإسلامية وعقيدتها ، فإننا بلا شك سنعزز الاهتمام بالصناعة بين المجتمعات الإسلامية ، وسنسهم بالترويج لمختلف أنواع الصناعات ، وسندفع مجتمعاتنا لا

كتساب المعرفة ، ونهى الأرضية الملائمة لغرس مفاهيم سامية عن الصناعة فى أقطارنا الإسلامية وبين المسلمين أينما وجدوا . وبمشيئة المولى عز وجل ، سيسهم هذا النهج فى جعل دولنا الإسلامية والمسلمين عموماً أكثر تطوراً وتقدماً ونجاحاً ، بما يجلب الاحترام والتقدير لديننا الإسلامى والشعوب الإسلامية فى مشارق الأرض ومغربها .

من هذه الزاوية ، فإن مؤتمرننا هذا قد جاء حاسماً وفى وقته المناسب ؛ إذ ينبغى على المسلمين الاهتمام بالصناعة واعتبارها وسيلة لتعزيز قوة ومنعة البلدان الإسلامية والمسلمين ، بما يفرض على الآخرين احترامهم ، ويعزز إمكاناتهم للدفاع عن النفس والعقيدة . ولا شك فى أن المسلم الجاهل لا يمكن أن يساهم فى تعزيز رفعة الإسلام واستعادة أمجاده العظيمة ، وبالمقابل فإن القدرات الصناعية وإدارة وتوظيف ضروب المعارف الضرورية لتطوير التصنيع ، ستكفل للإسلام والمسلمين مزيداً من الاحترام والتبجيل .

إن النظرة السلبية لقضايا التصنيع ليست غير مجدية فحسب ، بل إنها فى الواقع ، ضد الإسلام وتعليمه السمحة .

لقد حان الوقت لكى يعمل المسلمون على بلورة مفهوم إسلامى صحيح إزاء قضايا التصنيع ، ولا بد من انسجام رؤى المسلمين إزاء الصناعة مع جوهر ومغزى دينهم الحنيف . وإذا ما تسنى للمسلمين بلورة مفهوم إسلامى صحيح عن الصناعة ، فإن جهوداً لا حصر لها يمكن أن توظف بما يمكنهم من امتلاك وإدارة مختلف أنواع الصناعات على نحو فاعل يصب فى مصلحة الدين الإسلامى وأتباعه .

مُفْرَدَاتٌ وَمُصْطَلَحَاتٌ

الدين :

يشير للعقيدة الإسلامية كمنهاج متكامل للحياة ، ومنظمة أفكار وأفعال شاملة ، متضمنا الدلالات والمعاني المرتبطة بالعقيدة والمعتقدات والممارسات والتعليم والأوامر التي مارسها وعاشها المسلمون كأفراد ومجتمعات .

عدل :

العدالة الاجتماعية

الأخرة :

الإيمان بالحياة الأخرى وهو جانب أساسى فى العقيدة الإسلامية ، يقوم على أن الإنسان مسئول أمام الله عن سلوكه وأفعاله ، وأن الحياة الدنيا ما هى إلا فترة امتحان للمؤمن الذى سيلقى حسابه يوم القيامة بحسب امثاله أو إغفاله لأوامر الله .

عالم :

العلماء والدارسون المتبحرون فى علوم الدين .

العصية :

الولاء للطائفة أو الفصيل على حساب المسلمين والأمة الإسلامية جمعاء .

عورة :

تلك الأجزاء من جسم الإنسان التى نهى الإسلام عن كشفها ، وأمر بتغطيتها وهى بالنسبة للرجال تعنى الجزء الممتد من السرة إلى الركبتين . أما بالنسبة للمرأة فتشمل كل أجزاء الجسم ما عدا الوجه والكفين حتى المعصمين .

باريزان نايسونال :

حزب الجبهة الوطنية الحاكم فى ماليزيا وهو ائتلاف يضم بين جنباته جماعات عرقية متعددة ومجموعات إقليمية تمثل مختلف المصالح .

بوميوترا :

عقب الاضطرابات العرقية التي وقعت في البلاد بتاريخ ١٣ مايو ١٩٦٩ ، أصبح شائعا على نطاق واسع أن يشار إلى السكان الماليزيين الذين يتكونون مما يعرف «بالبوميوترا» التي تعنى (أبناء الأرض) ومن هم ليسوا ببوميوترا . ويشتمل البوميوترا على الملايو والمربطين بهم والمواطنين الأصليين أو المجموعات «الأوروبرجيشية» بينما يتألف غير البوميوترا من السكان الماليزيين من أصول صينية وهندية ومجموعات صغيرة أخرى من غير الملاويين . وقد شكلت أحداث العنف الطائفي عام ١٩٦٩ نقطة تحول في التاريخ الماليزي ، ودفعت باتجاه البحث عن أساليب جديدة تماما لإدارة المجتمع الماليزي القائم على التعددية بكافة جوانبها .

الدعوة :

النشاط الدعوى الإسلامى وقد أصبحت الدعوة الإسلامية الحديثة تتمركز بالدرجة الأولى وسط المسلمين بدلا من النفاذ إلى أصحاب العقائد والديانات الأخرى والسعى لهدايتهم للدين الإسلامى الخفيف .

دوكن :

طبيب بلدى أو الرجل الذى يداوى القرويين دون أن يتلقى نصيبا من علوم الطب الحديثة .

فرض كفاية :

التزام المسلم نحو مجتمعه ، العلم أو المعرفة الضرورية اجتماعيا .

الفتوى :

أفكار وأحكام قانونية مكتوبة (مدونة) يصدرها علماء أو دراسون .

الحديث :

جميع الأفعال والأحاديث التي رواها أو نقلها أصحاب الرسول وغيرهم من المسلمين الأوائل ، عن سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم . هذا الأثر النبوى قد تم جمعه وتوثيقه من قبل الدارسين والعلماء والمسلمين . ويشكل الحديث مصدرا من مصادر التشريع والقوانين الإسلامية (الشريعة) ويسهم فى مساعدة المسلمين فى تفسير القرآن الكريم من خلال توضيح معانى الآيات والكلمات الغامضة الواردة فى كتاب الله ، وسرد بعض الأحداث والمواقف التي وردت فيها بعض الآيات القرآنية فى عهد النبى - صلى الله عليه وسلم .

الحج :

تقاطر أفواج المسلمين على مكة المكرمة وبقية المشاعر المقدسة ، والذي يتم خلال الشهر الثاني عشر من السنة القمرية الإسلامية . وقد فرض الله الحج على المسلم البالغ المستطيع مرة واحدة على الأقل في الحياة الدنيا . ويتركز الحج على الكعبة المشرفة (بيت الله الحرام) التي يوجد بها الحجر الأسود أو (الأسعد) . وقد قام سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل ببناء الكعبة المشرفة ، فيما حمل سيدنا جبريل الحجر الأسود الذي يرمز إلى قدرة المولى عز وجل ، إلى سيدنا إبراهيم من السماء ، ويتضمن الحج سلسلة من الشعائر الدينية الثرية بالطقوس الروحية عميقة الدلالة والمدلول ، تتم ممارستها على نحو جماعي من قبل جموع الحجاج . بإعادة التوحد وبعث الأمة الإسلامية على نحو جديد في كل عام .

الفقه :

التبحر في المعرفة في مجال العلوم الإسلامية .

الحلال :

كل ما تسمح به الشريعة الإسلامية ولا تمنعه ، ويغطي كافة جوانب الحياة وبصفة خاصة أنواع الأغذية والمشروبات .

الحرام :

كل ما حرمه أو نهى عنه الإسلام .

الحسنة :

كل عمل أو فعل خيري يجزى المولى عز وجل عنه المسلم بالحسنات .

الهجرة :

هجرة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام ، وأصحابه من مكة إلى المدينة عام ٦٢٢ ميلادية . ولكي يتم الاحتفاء بذكرى الهجرة ، فقد اعتبرت تلك السنة : العام الأول من التقويم الهجرة على أنها رفض رمزي لفقدان الأمل في مواجهة القهر والتعسف من قبل الكفار ، بما يوحي بأن الهجرة أو الانسحاب من بيئة عدائية إلى بيئة أكثر ملائمة خيار مقبول في الإسلام .

الحدود :

عقوبات إلزامية في الشريعة الإسلامية تطبق بحق من يرتكبون جرائم منافية للأخلاق

الإسلامية مثل : الزنا والقذف والفسوق والسرقه والسطو المسلح وقطع الطريق والردة والسكر ، علما بأن تطبيق هذه الحدود مقيد بالأدلة والإثبات والشهود على نحو فى غاية الصرامة . فعلى سبيل المثال نجد أن الإدانة بالسرقه للمرة الأولى تثبت بشاهدين أو اعتراف الجانى تستوجب قطع الكف من المعصم ، فيما يتم قطع الكف الأخرى عند الإدانة بالسرقه للمرة الثانية . أمام بالنسبة لجرمة الزنا فإنها لا تثبت إلا بأربعة شهود عدول من الذكور أو اعتراف الجانى بنفسه . وتقضى العقوبات برجم الزانى أو الزانية ؛ المتزوج أو المتزوجة بالحجارة حتى الموت ، فيما يتم جلد غير المحصنين مئة جلدة .

العبادة :

أداء الواجبات والممارسات والطقوس الدينية .

الاجتهاد :

استنباط الأحكام وفق القياس والمضاهاة وإعمال الفكر .

إخوان مسلمين :

الأخوة الإسلامية .

الإمام :

الذى يؤم الناس فى صلاة الجماعة .

الجاهلية :

حضارة ما قبل الإسلام .

الكافر :

الوثنى الذى لا يؤمن بالإسلام .

الخليفة :

لقب يطلق على الحاكم المسلم وبصفة خاصة خلفاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

مدرسة :

مكان للصلاة والدراسات الدينية والدنيوية فى بعض الأحيان .

المفتى :

وظيفة ابتدعها حكام البلدان الإسلامية عقب وفاة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، للمساعدة في اتخاذ الأحكام والقرارات الخاصة بالشئون الدينية . وقد اقتضت الضرورة خلق هذا المنصب لكبح جماح وحماس من يصفون على أنفسهم «عالم» ويصدرون الفتاوى والتفسيرات التي تناقض بعضها بعضاً وتفشى البلبلة والاضطراب وسط صفوف المسلمين .

المرتد :

المرتد عن الدين .

الشماورة (الشورى) :

الاستشارة .

القرآن :

كتاب الله المقدس (الإسلام) .

الصلاة :

تلك الشعيرة الدينية التي يؤديها المسلمون خمس مرات في اليوم الواحد : عند الفجر قبل طلوع الفجر ، وفي الظهر عند منتصف النهار ، وقبل غروب الشمس ، وما بين غروبها ومنتصف الليل ، مصوبين وجوههم باتجاه الكعبة المشرفة في مكة .

السنة :

الأثر النبوي من قول وفعل ، وكل ما سمح لأصحابه وتابعيه بممارسته أو أدائه . وتشكل السنة إلى جانب القرآن الكريم واحداً من مصادر تأسيس وتشريع قواعد السلوك التي ينبغي على المسلم اتباعها والتزامها في نفسه .

الشرية :

الأحكام والقوانين الإسلامية

العلماء :

جمع عالم ؛ وهي تعنى الفقيه المتبحر في شئون الدين الإسلامي . تاريخياً انتزع العلماء الحق في تفسير القرآن والأحكام الإسلامية الأخرى ، غير أن هذا الحق بدأ يتراجع في عصرنا الحديث . ومع ذلك فإن معظم العلماء مازالوا يصرون على أنهم وحدهم الذين يملكون

المعرفة الدينية الضرورية التي تؤهلهم لتحديد ما سيكون عليه القانون الإسلامى .

الأمة :

تتألف من جميع المجتمعات الإسلامية ومعتقى الدين الإسلامى أينما وجدوا ، وهو مفهوم يتجاوز الحدود القطرية والكيانات السياسية ليشمل المسلمين كافة ، بصرف النظر عن ولائهم السياسية .

أصول الدين :

مجموعة من المفاهيم الفلسفية والمبادئ التي يقوم عليها الدين الإسلامى .

الزكاة :

التزام دينى (ركن من أركان الإسلام الخمسة) يقوم المسلم بموجبه باستخراج نسبة من ثروته فى شكل صدقة أو ضريبة أو فطرة (فى عيد الفطر) . وتستخدم الزكاة والصدقة لمساعدة الفقراء والأرامل والأيتام إضافة إلى توظيفها لنشر الإسلام . ويعد استخراج الزكاة واجب دينى (ركن من أركان الإسلام) لا خيار فيه وليس عملاً خيرياً ، بل هو عبادة تهدف إلى تضييق الفوارق الاجتماعية بين الأغنياء والفقراء .

فہرست

(- الأعلام)

- إيزابيلا . ص ، ١٩٠ ، ٣١٨ .
- البخارى . ص ، ١٦٢ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٤٢ .
- الترمذى . ص ، ١٦٢ ، ٢١٧ ، ٢١٨ .
- تشرشل . ص ، ٨١ .
- تنكو عبد الرحمن . ص ، ١٤٥ ، ١٤٦ .
- البيرونى . ص ، ٤٢ .
- الزهراوى . ص ، ٤٢ .
- ابن سينا . ص ، ٤١ ،
- على بن أبى طالب . ص ، ٤٢ ، ١٦١ ، ١٨٨ ، ٢٢٠ ، ٢٤٦ .
- عمر بن الخطاب . ص ، ١٦١ ، ٢٢٠ ، ٣١٧ .
- فرديناند . ص ، ١٩٠ ، ٣١٨ .
- الملك فيصل . ص ، ٢٠١ ،
- كمال أتاتورك . ص ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٧٣ ، ١٩١ .
- ماركس . ص ، ١٠٥ .
- مسلم . ص ، ١٦٢ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٤٢ .
- معاوية بن أبى سفيان . ص ، ٤٢ ، ٢٤٦ .
- النبى محمد . ص ، ٣٨ ، ٥٩ ، ١١١ ، ١٢٠ ، ١٣٦ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ .
- هتلر . ص ، ١٤٠ .
- ابن الهيثم . ص ، ٤٢ .

٢- الأَمَاكِنُ

- اسبانيا . ص ٣٩، ١٦٥ .
- اسرائيل . ص ١٣٩، ١٤٠، ١٩٤، ٢٦٨ .
- الأندلس . ص ٣٩، ١٢١، ١٢٢، ١٣٩، ١٦٠، ١٨٤، ١٩٠، ٢٠٢، ٢٤٩، ٣١٨ .
- أوروبا . ص ٢٢، ٢٥، ٣٨، ٤٥، ٩٧، ٩٨، ١٠٠، ١١١، ١١٢، ١١٦، ١١٩، ١٢١، ١٤٠ .
- أوروبا الغربية . ص ١٩٠ .
- بغداد . ص ١٠، ١٨٩ .
- دمشق . ص ١٠، ١٢٢، ١٦٤ .
- الدوحة . ص ٧ .
- سمرقند . ص ١٠ .
- سنغافورة . ص ٧٤، ٧٥ .
- شبه الجزيرة العربية . ص ٥٩، ١٤١، ١٦٠، ٢٠١، ٢٢٠، ٣٠٠، ٣١٠ .
- الشرق . ص ٨، ٩، ١٨ .
- شمال أفريقيا . ص ٩٩، ١٦٥، ١٦٦، ١٨٤، ١٩٠، ٢٤٩ .
- الشرق الأوسط . ص ٨، ٩، ٢٥٣، ٢٦٨ .
- شرق آسيا . ص ١٧، ٢٠، ٢١، ١٣٢، ١٦٠، ١٧٨، ٢٩٩ .
- المغرب . ص ٣٩٥، ١٩٠ .
- فلسطين . ص ١٠٠، ٣١٧، ٣١٨ .
- القدس . ص ٨، ١٢٢، ٢٦٥، ٣١٧ .
- كوالالمبور . ص ٧٢، ٧٣، ١٠٢، ١٣٠ .
- ماليزيا . ص ٣٣، ٣٤، ٣٥ .
- مصر . ص ١٢٢، ١٩٠ .

٣- النُظَمَاتُ وَالْهَيَاتُ وَالْمُؤْتَمَرَاتُ

- الإتحاد الأوروبي . ص ١٩ .
- الإتحاد الروسى . ص ٨٩ .
- الإمبراطورية العثمانية (الإمبراطورية التركية) ص ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١٦٥ ،
١٦٦ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ .
- الأمم المتحدة . ص ٧ ، ٨ ، ٨٦ .
- البنك الدولى للتنمية . ص ١٤ ، ٢٠ .
- بورصة كوالالمبور . ص ٧٣ .
- الجامعة الإسلامية العالمية . ص ٣٠٥ .
- حلف شمال الأطلسى . ص ١٩ .
- الحزب الإسلامى الماليزى . ص ٤٧ ، ٣٤٣ .
- شركة دانا مودال . ص ٧٥ ، ٧٦ .
- شركة دانا هارتا . ص ٧٥ .
- صندوق إدارة رأس المال بعيد الأجل . ص ٢٤ .
- مؤتمر القمة الإسلامى . ص ٧ ، ٨ ، ١٥ ، ١٤٩ ، ٢٦٥ .
- المؤتمر الدولى للحج . ص ٥٧ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٢ .
- مجموعة الثمانية للدول الإسلامية النامية . ص ١٣٣ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٨ .
- المجموعة الاقتصادية الأوروبية . ص ١٩ .
- مجموعة الخمس عشرة . ص ١٧٨ .
- مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية . ص ٢٣٩ .
- المعسكر الاشتراكى . ص ١٨ ، ١٩ .
- المعهد الدولى للفكر الإسلامى والحضارة . ص ٣٢٧ .
- المعهد الماليزى للفهم الإسلامى . ص ٢٩٣ ، ٣١٥ .

- تكنولوجيا المعلومات . ص ٦٥ ، ٩١ ، ١٦٦ ، ٢٣٥ .
- الجماعات المتطرفة . ص ٨٤ ، ١٠٩ ، ١٤٦ ، ٢٩٩ ، ٣٢٤ .
- الحضارة الإسلامية . ص ٧٩ ، ١٠٧ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ٢١٠ ، ٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢٨٦ ، ٢٩٠ ، ٣٠٠ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ .
- حقوق الإنسان . ص ٣٦ ، ٩٠ ، ١٥١ ، ٣١٥ ، ٣١٦ .
- رؤية ٢٠٢٠ . ص ٦٩ .
- العلمانية . ص ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ٢٧٢ ، ٢٧٦ ، ٣١١ .
- العولمة . ص ٧٤ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٥٥ ، ١٥٦ .
- المسيحية . ص ٣٩ ، ٩٨ ، ١١٣ .
- اليهودية . ص ٣٨ ، ٣٩ .